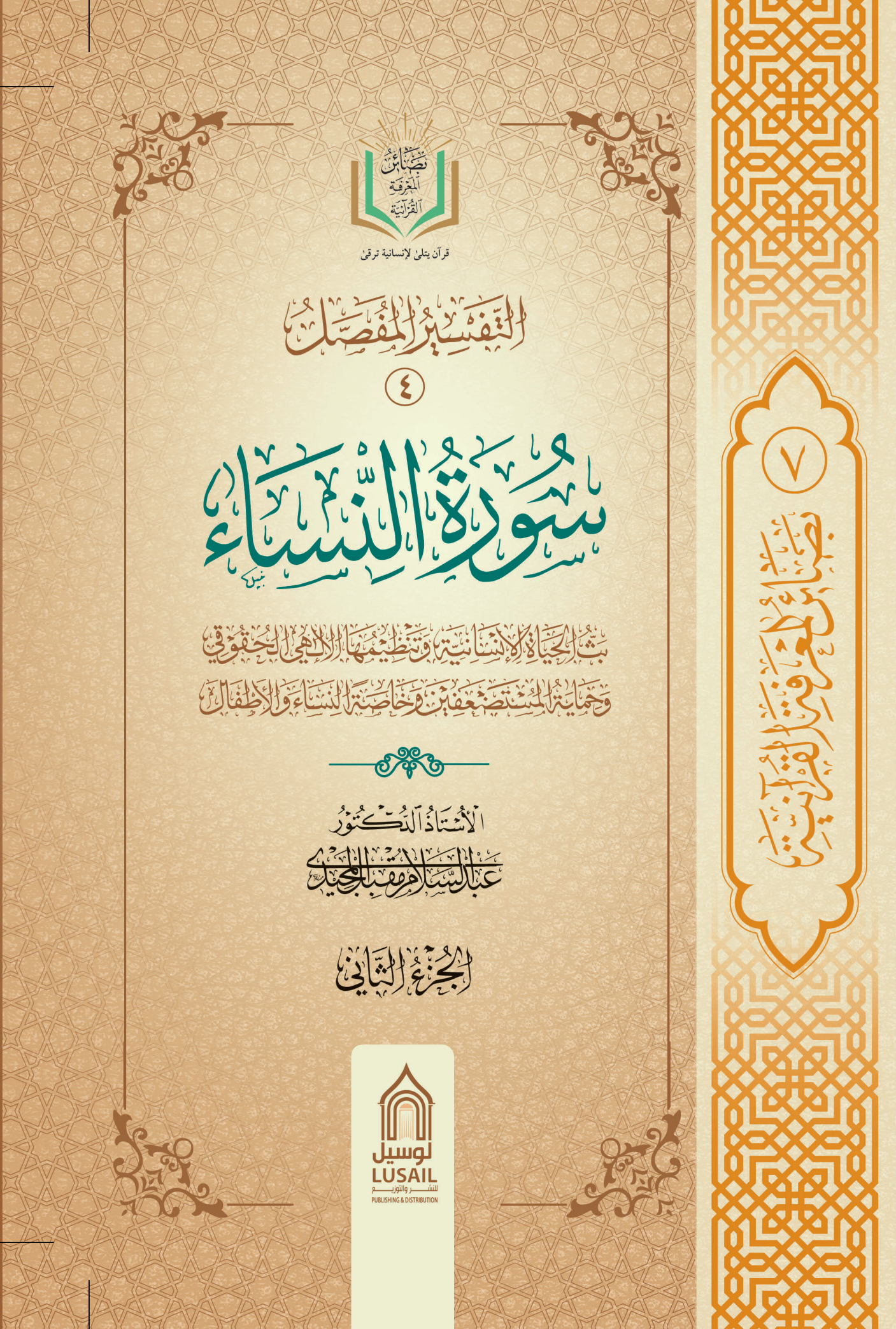
بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى
التفسير المفصل
٤
سورة النساء
بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي
وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال
الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
الجزء الثاني
لوسيل
LUSAIL
للنشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION
٧
بصائر المعرفة القرآنية



قرآن يتلى لإنسانية ترقى



سورة النساء

٢

بسم الله الرحمن الرحيم



برعاية

BRIGHTNESS
LIMITED

بصائر المعرفة القرآنية

(٧)

التفسير المفصل
في تنوير السور القرآنية

(٤)

سورة النساء

بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي
وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

الجزء الثاني

لوسيل
LUSAIL
للنشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION

الكتاب
التفسير المفصل
4 سورة النساء
بث الحياة الإنسانية
وتنظيمها الإلهي الحقوقي وحماية المستضعفين
خاصة النساء والأطفال
تاليف
أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي
أستاذ الدراسات القرآنية في كلية الشريعة ـ جامعة قطر
جميع الحقوق محفوظة
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
2021/539
الرقم الدولي (ISBN)
978 992 715 410 2
الطبعة الأولىٰ: 2021
التحرير والتدقيق
د/ سعيد بن دحباج– د/ حمود ردمان – أ/ أديب المخلافي – دار لوسيل
وقام بتحكيم الكتاب إثنان من الدكاترة المتخصصين
التنفيذ الطباعي
شركة الخليج للنشر والتوزيع
الناشر
دار لوسيل للنشر والتوزيع



+974 44 17 73 11 +974 44 17 73 22 +974 50 80 98 89 Doha,Qatar,64040
@darlusail darlusail@darlusail.com www.darlusail.com



المحور الرابع

التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة

(النساء: ٤٤-٧٠)



المناسبة والاتصال:

حدد الله في المحور السابق الحصون التي تحمي الأسرة المركزية والأسرة المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة، وبذلك يحدث بث الحياة الإنسانية في الأرض، وحصَّن الله في المحور السابق الإنسانية من صفتين خطيرتين تسببان جرائم ضد الإنسانية هما: الفخر والاختيال؛ إذ ينتمي لهما البخلاء والمراءون الذين يتلاعبون بالإنسانية وأمنها، وختم محور الحصون بذكر واحدٍ من أهم الحصون النفسية والقلبية والجسدية للإنسانية هو الاستمتاع بالصلاة باعتبارها أعظم المعينات بث الحياة الإنسانية، وينقلنا الله على بساطٍ من البحث الحواري القانوني إلى حصنٍ من أعظم الحصون التي تحمي الإنسانية: إنها الإدارة الراشدة، فهي الجهة الحاكمة القوية التي تعطي الحقوق لأصحابها أو بالتعبير القرآني الفريد: تؤدي الأمانات إلى أهلها. هذه الجهة هي الإدارة العليا التي تتكون من السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية (وهم الذين وصفهم ربنا بأنهم أولو الأمر)، فكيف يمكنها أن تقوم هذه الإدارة الراشدة بمهمتها في إقامة الحقوق الإنسانية؟ ومن هي الجهات المتوحشة التي تحول بين الإدارة الراشدة وأداء مهماتها في بث الحياة الإنسانية.. هذا ما يذكره هذا المحور.

فكرة المحور:

ذكر الله الإدارة الراشدة ودستورها وسط هذا المحور، وجعل طرفي المحور لتفصيل حال الجهتين المعاديتين لبث الحياة الإنسانية وفق قيم العدل، وهما جهتان تعملان بجهد شديد على منع قيام هذه الإدارة، وتحولان بذلك بين البشرية وحقوقها المشروعة، فذكر في الطرف الأول لهذا المحور أخطر عدوٍّ للحقوق الإنسانية من محرفي الكتب الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن)، وهو العدو الذي لا يؤدي الأمانات إلى أهلها، وفي الطرف الثاني ذكر عدو الإنسانية من المنافقين الذين يمنعون البشرية

من حقها في وجود الحكم العادل المستمد من الكتاب والسنة، وختم الله جل ذكره هذا المحور بثمرات اتباع التحصين الإلهي للحياة الإنسانية.. إنها الثمرات التي تنتج عن فعل ما يعظنا به الله جل ذكره.

إن وجود الإدارة الراشدة في الأرض يصحبه وجود أسوأ الأصناف التي تمنع الإنسانية من حقوقها..

إنهم المختالون الفخورون الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، ومنهم من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهم أشد المخلوقات محاربة للإدارة الراشدة، ولما عرفناهم بصفاتهم العامة فقد آن الأوان لكشف الحجب عنهم ومعرفتهم بأجناسهم لخطورة أفعالهم على الواقع الإنساني، فهم يمنعون الإنسانية من نيل حقوقها التي يأتي في رأس قائمتها حقها في الاستقرار النفسي الذي تجده في الصلاة، وحقها في المعرفة الصادقة لهذا الكون، وهذه الأصناف يرأسهم صنفان:

الصنف الأول: الصنف القيادي الذي أوتي نصيبًا من الكتاب لكنه أبى إلا أن يهدر كل ما أعطاه الله من أموال دنيوية، وطاقات إدارية، وثروات إنتاجية في اشتراء الضلالة، وفوق ذلك يريد نشر الضلالة في العالم، ولأنه الصنف القيادي الأول في إهدار الأمانات، والتلاعب بالحقوق البشرية، قدم الله ذكره على بيان أسس الإدارة الراشدة، وبعد ذكر أسس الإدارة الراشدة التي تقوم بنفع الإنسانية في إيصال الأمانات، ودفع الحقوق إلى أهلها فصَّل الله تعالى ذكره الكلام عن الصنف الثاني من أصناف المتلاعبين بالحقوق الإنسانية..

إنهم ينتمون إلى المسلمين لكنهم يأبون إلا أن يتحاكموا إلى الطاغوت.. يصرون على محاربة الشريعة التي أنزلها الله للمصلحة الإنسانية منذ آدم عليه الصلاة

والسلام، وانظر إلى أسلوب القرآن المدهش، فقد ذكر الصنف الأول لوضوحه ثم ذكر الأسس الدستورية لإقامة الإدارة الراشدة.

ثم ذكر الصنف الثاني الأخطر الذي يعتمد عليه الصنف الأول في المحاربة الحقيقية الدائمة لوجود الإدارة الراشدة، ومنع إقامتها في الأرض، وكأنك ترى إقامة الإدارة الراشدة في الوسط بين خطرَين حقيقيَن مجنونيَن قد امتلآ سُعارًا رغبة في إزالة الإدارة الراشدة من الأرض؛ لأنها تتنافى مع ضلالهم، وإرادتههم أن يضل العالم السبيل، فانظر لهذه الدقة المدهشة في الترتيب القرآني.

ولتحقيق ذلك جاء هذا المحور في خمسة أقسام:

أما القسم الأول: فترى فيه التعريف بجنس الصنف القيادي الذي يتلاعب بحقوق الناس، واستغرق الآيات العظيمات (النساء:٤٤-٤٦)، وهو تعريفٌ يحدد بتفصيلٍ مدهش هذا الصنف القيادي الذي آتاه الله قدرة فذة، وفضله بصفاتٍ متفوقة فأبى إلا أن يسخرها في تدمير الحقوق الإنسانية في معرفة الله، وتنظيم حياتهم وفق نوره جل ذكره.. لقد ذكر الله جل ذكره بعض صفاتهم في الآية ٣٦ وما بعدها، ورحمة بهذه الإنسانية الحائرة المليئة بالأحزان يفصل الله تعالى ذكره أجناس القياديين الذين يبذلون الجهود المدهشة لتدمير حقوق الناس، والتلاعب بها، وخاصة ما يتعلق بحقوق الناس في الهداية القلبية..

إنهم الأجناس الحريصة على الإغواء والإضلال للبشرية وحرمانها من حقوقها، وفي مقدمة ذلك حق الصلاة التي هي قرة عين لمؤديها.. إنهم الجنس الذي يمتلك العلم والذكاء ولكنه أزرى بنفسه فباع الهدى واشترى الضلال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ (النساء: ٤٤).

وفي هذا القسم رأيت تعريفًا بالأسس التي اعتمدوا عليها في تفكيرهم، وتعاملهم مع الرسالة الإلهية والحياة من حولهم.

وبعد التعرف الجيد على نمط تفكيرهم يأتي:

القسم الثاني: من أعظم جنايات أهل الضلالة والإضلال في التعدي على حقوق أنفسهم وعلى سائر العالمين (النساء:٤٧-٥٧).

ليعرفنا الله تعالى جده بأهم الجنايات التي اقترفوها في التعدي على حقوق أنفسهم وعلى سائر العالمين؛ إذ يأخذنا الإعلام ووسائل التثقيف والتوجيه بعيدًا عن أهم الأوليات التي ينبغي أن ننظر إليها في الجنايات التي يقترفونها، وقد استغرق هذا القسم الآيات (٤٧-٥٧)، ليأتي بعده القسم المركزي في المحور، وهو:

القسم الثالث: أسس الإدارة الراشدة التي تضمن أداء الحقوق الإنسانية إلى أصحابها (النساء:٥٨-٥٩).

وهنا ترى الإعجاز القرآني في تصوير أسس الإدارة الراشدة التي تقوم بدورها في تقسيم الحقوق الإنسانية عن الطريق الشعبي العام: أداء الأمانات إلى أهلها، والطريق التنظيمي الخاص: الحكم بين الناس بالعدل، وتوابع، ذلك، ثم ينصب لنا صراطًا مستقيمًا في بيان كيفية إنشاء سلطة تنظم كل ذلك، والعلاقة بينها وبين الإنسانية التي تديرها، ويضع الله لنا بصائر دستورية مدهشة تسبق كل النظم الإدارية الحديثة، وعندها تجد البشرية في ظل هذه الإدارة الراشدة خيرًا وأحسن تأويلًا في واقعها وحياتها، وهنا يأتي الكلام عن:

القسم الرابع: الصنف الثاني الطاغي الذي يمنع قيام الإدارة الراشدة، ويمنع الإنسانية أن تنال حقوقَها، وتتنعم بما هو خيرٌ وأحسن تأويلًا (النساء:٦٠-٦٥)

ويفصل الله جل مجده في هذا القسم الأسس التي تعرفنا بالصنف الخطير الثاني الذي يحول دون أن تنال الإنسانية حقوقها، وذلك بأن يمنع الأمانة أن تؤدى إلى أهلها، ويمنع أن يُحكَم بين الناس بالعدل، وأن يثقوا في التوجيهات الإلهية، وخطورة هذا الصنف أنه خفيٌّ متلون يزعم أنه آمن بما أنزل الله إلى النبي ﷺ، وآمن بما أنزل من قبله، لكن يصر على تحكيم الطاغوت، ويبذل أعظم الجهود ليصد الإنسانية عن النبي ﷺ ومعرفة سنته الصحيحة، وسيرته العطرة الصالحة، ويزعم أنه بذلك يحسن إلى المسلمين، ويريد أن يحل التوفيق في القرارات الدولية، ويُبَصِّرُنا الله كيف يتم التعامل مع هذا الصنف، ثم ينقلنا إلى:

القسم الخامس: حيث تتعرف إلى الثمار العظيمة لتطبيق الأوامر الإلهية، وأداء الحقوق الإنسانية وترك تحكيم الطاغوت (النساء:٦٦-٧٠):

وإذا كان الرجوع إلى أسس الإدارة الراشدة خيرٌ وأحسن تأويلًا لأنها تمكن الإنسانية من الحصول على حقوقها فإن الله يُجَلِّي لنا في هذا القسم بعض الثمار العظيمة عندما تطبق الإنسانية الأوامر الإلهية بأن تؤدي الأمانات إلى أهلها، وتترك تحكيم الطاغوت.

وهكذا ترى تكامل المشاهد الرائعة التي يجملها لنا هذا المحور ضمن الفكرة العامة لسورة النساء.. أما وقد طيبنا أنفسنا بالعطور الفائحة من هذا المحور فلندخل إلى رحابه طالبين تفصيل البصائر الإلهية فيه:

المناسبة بين ختم المحور السابق بحصن الصلاة، وهذا المحور:

كما ترى فإن الله ذكر حق الصلاة قبل ذكر الصنف الأول لأمرين:

الأول: لبيان أعظم الوسائل التي يثبت بها الإنسان في عقله وتفكيره، في مقابل

المكر الإعلامي، والثقافي الساحر، والعسكري الماكر الذي يمارسه محاربو الإدارة الراشدة.

الثاني: لدور الصنف المنتسب إلى الكتب الثلاثة، ولدور المنافقين في العبث بالحق البشري في الصلاة، حيث قامت الحملات المغرضة لتشويه الصلاة والمصلين في الواقع العالمي حتى لجأ الناس إلى رياضات لا يمكنها أن تؤدي الدور الذي تؤديه الصلاة في استقرار النفس البشرية، وكأن الصلاة من أعظم الحقوق البشرية التي يجب أن تقوم الإدارة الراشدة بتيسيرها للناس لتؤدي دورها الإيجابي العظيم الرائع في الحياة الإنسانية، فلا بد من تعظيمها والتهيئة لها وتعظيم أماكنها تطهيرًا وبناء.



شكل (٨) صورة أخرى توضح أقسام المحور الرابع، وفيها يظهر أن عمدة المحور هو الإدارة الراشدة بأصولها الدستورية، كما يظهر الصنفان اللذان يقومان بمحاربتها، وتلوح في الوقت ذاته ثمرات اتباع الدستور الذي يحكمها



القسم الأول

التعريف بالصنف القيادي الأول الذي يمنع الإنسانية من حقوقها، ويحارب الإدارة الراشدة، ويحرص على تدمير البشرية باللغو في الرسالة الإلهية (النساء:٤٤-٤٦)

آيات هذا القسم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء:٤٤-٤٦).

حدد الله لنا الصنف القيادي الذي يتلاعب بحقوق الناس تحديدًا دقيقًا من خلال ذكر أهدافه وجنسه وصفاته، ويمكن أن نجمع هذه المعالم التي تشكل تفصيلًا مبينًا لهذا الصنف في الأسس الآتية:

الأساس الأول:

تميز هذا الجنس ووضوحه مع محاولته التمويه والتخفي، ويُبَصِّرُنا الله بهذا الأساس من خلال هذا التعبير المتميز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (النساء:٤٤).

إنه جل جلاله يلفت نظرنا إلى ضرورة معرفتهم، فالاستفهام: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لفت نظرٍ لهم، وتعجيبٌ من حالهم، وإنكارٌ لأفعالهم مع علمهم، فهم يخادعون الناس

بنصيبٍ من العلم عندهم يسبغون به هيبة لهم عند البشرية، مع أنهم يتلاعبون ببني الإنسان.. خذ أنموذج المنظمات الدولية المتلاعبة بالأطفال والنساء في مناطق الحروب، وكأن الله يقول: هل شاهدتهم هؤلاء العابثين بحقوق الجنس البشري؟.

لماذا استخدم فعل الرؤية هنا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يستخدم فعل العلم؟ مع أنه بعد ذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾.. ما السر البياني؟

إنه جل ثناؤه يريد أن يبين أن إخباره لك عنهم، وتعليمك واقعهم قائم مقام رؤيتك المباشرة، فرؤية العين من أكبر أدلة اليقين حتى قيل: عند رؤية العين لا يوجد أين، وقالوا: ليس الخبر كالعِيان أي كالمعاينة والمشاهدة.. فكأنه يقول: إن كانت الرؤية تمثل درجة عالية من درجات اليقين فإننا ننقل لك خبر هؤلاء على اختلاف الزمان والمكان كأنك تراهم بعينك على الهواء مباشرة حتى تحيط بحقائقهم كأنك تراهم.. قال: {ألم تر} لتكون بإعلام الحق أوثق منك برؤية عينك، أو إخبار الخلق.

الأساس الثاني:

الجنس القيادي ينتمي إلىٰ الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، وهم حقيقة عرفية قرآنية في اليهود والنصارىٰ، ويلحق بهم المسلمون، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيدخل جميع من أوتي نصيبًا من الكتاب.

لأن (ال) إما أن تكون عهدية، والمعهود بهذا التعبير اليهود والنصارى، وإما أن تكون جنسية، فتشمل من أوتي أي كتاب ديني، يتم من خلاله التحكم بالعقول البشرية، وقيادة الرأي العام -كالتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان-، فالتعبير وإن لمس واقع المحرفين من اليهود والنصارى، لكنه عند التأمل يشمل المحرفين من المسلمين. إنهم ليسوا أناسًا من العامة، بل هم قوم عندهم شيء من علم الكتاب.. فما المراد بكلمة ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؟

يذكر المفسرون أن المراد هو التوراة، وبعضهم يضيف الإنجيل، ولكن التعبير القرآني واضح جدًا، فهو يذكر الكتاب هنا مطلقًا، ثم يذكر بدل بعضٍ من كل في قوله بعد ذلك: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وبذا نفهم أن كلمة ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تشمل جميع من أوتي نصيبًا من الكتاب.. أي كتاب ديني يتم من خلاله التحكم بالعقول البشرية، وقيادة الرأي العام، فيدخل فيه الذين أوتوا نصيبًا من الكتب الإلهية المعروفة كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ويدخل فيه الذين أوتوا نصيبًا من الكتب الدينية الأخرى.. فكلهم يأخذون هذا الحكم المحذر منهم، والمنوه لهم إن هم حققوا الصفة الخطيرة التي يذكرها الله في قوله:﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ (النساء: ٤٤)، وإن كان المعهود العرفي لهم يخص من أوتي نصيبًا من التوراة والإنجيل، إلا أن من أوتي نصيبًا من القرآن داخل إما بدلالة اللفظ أو بدلالة معناه قياسًا.

وينبغي التنبيه هنا إلى وصفهم بأنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب لا يعني الاقتصار على القيادات الدينية بل المراد الانتماء إلى هذا الجنس الذي أوتي نصيبًا من الكتاب، وقد يكونون من القيادات السياسية أو المجتمعية، وكثير منهم يتلاعبون بالحقوق العالمية، ويتاجرون بقضايا المستضعفين، ويعبثون بأمن الشعوب الحائرة أطفالًا ونساء ورجالًا.

وهل يلحق بهم من أوتي نصيبًا من الكتاب بمعنى الكتابة مثل الملحدين الذين أوتوا ذكاء في بعض العلوم وغباء منقطع النظير في الفهم للمعلوم أو قل عنادًا وإصرارًا على إنكار البديهيات والحقائق القطعية ؟ أما في العرف القرآني فلا يدخلون، وأما في العرف العام فيحتمل.

الأساس الثالث:

تقوم ثقافتهم وعقيدتهم (أيدلوجيتهم) علىٰ نصيبٍ من الكتاب يتلاعبون به،

ويُبَصِّرُنا بذلك أن كلمة (نصيب) تكررت في هذه السورة اثنتي عشرة مرة؛ لعلاقتها الوثيقة بالجانب الحقوقي، وهي هنا تدل علىٰ مدحٍ وذم، فالمدح أنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب، وليسوا مستغرقين في الجهل كغيرهم، والمتوقع أن تكون ردة فعلهم بناء علىٰ تقدمهم العلمي في أنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب، والذم أن هؤلاء لم يحفظوا الكتاب كله، بل تركوا نصيبًا أو أنصبة، والذي تركوه نوعان:

النوع الأول: نوعٌ معدومٌ بسبب أنه لم يصل إلى العالم؛ لتضييع القائمين عليه له، فلَمْ يَقُلْ -تَعَالَى جده-: إِنَّهُمْ أُوتُوا عِلْمَ الكِتَابِ، بَلْ قَالَ: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا شيئًا من العلم، ولم يرسخوا فيه، ونبذوا العمل بمقتضياته، فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْلَمُوا -كَعَبْدِ اللَّه بْنِ سَلَامٍ- وَعَرَفُوا الأَمْرَيْنِ، فَوَصَفَهُمُ اللَّه بِأَنَّ مَعَهُمْ عِلْمَ الكِتَابِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرَّعْدِ:٤٣)، ويستثنى من هذا النوع المعدوم هنا القرآن؛ للحفظ المعجز الذي صاحب نصه -بفضل الله ورحمته-.

النوع الثاني: نوعٌ موجودٌ، ولكنهم لم يعملوا به، أو لم يشهروه؛ بسبب أنهم اقتصروا على العمل بما اشتهوه منه، ولذا وصف الله بعضهم في سورة المائدة بنسيان حظٍ من الكتاب ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ (المائدة: ١٣)، والنسيان بمعنى الترك، فهنا وصفهم بأنهم أوتوا نصيبًا، وهناك وصفهم بأنهم نسوا حظًا، وكلا الآيتين توضحان الصورة الكاملة لهم، ويقاس عليهم من عنده علم الإنجيل، أو علم القرآن وسلك مسلكهم، ويلحق بهم -لا بمقتضى هذا النص، ولكن بمقتضى المعنى المستفاد منه- من أوتوا حظًا من الكتاب الدنيوي كالثقافة والعلوم ولكنهم يقومون بتحقيق هذين الهدفين الإفساديين ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾.

الأساس الرابع:

أهم أهدافهم التي ينشغلون لبثها في الحياة هدفان:

فأما الهدف الأول، فيجليه الله في قوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾:

ستقول: نحن قد علمنا الذي يحرصون على شرائه.. إنهم يحرصون على شراء الضلالة.. يا للمفاجأة لهذه العقول المتعالمة السخيفة.. ولكن ماذا يدفعون مقابل ذلك؟

الجواب: لم تخبرنا الآية هنا عن الثمن الذي يدفعونه لتجعل الأفكار تمضي بعيدًا في تصور الأثمان الضخمة التي يدفعونها، فقد يدفعون مقابل ذلك أموالهم الدنيوية ما حل منها وما حرم ليشتروا أنواعًا من الضلالة، وقد يدفعون الهدى الذي هم عليه مقابل شراء الضلالة كما قال الله جل جلاله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ (البقرة: ١٦).. هنا قد تعيد السؤال: فما الهدى الذي هم عليه؟

الهدى الذي باعوه ليشتروا الضلالة مقابله إما هدى الفطرة التي يُصَعِّبْ عليها إنكار ربها إلا على سبيل إغماض عينيها وسلوك سبيل العناد والغرور والكبر.. الهدى الذي باعه من أوتي نصيبًا من الكتاب هو هذا النصيب الذي معهم؛ إذ تعاموا عن مقتضياته، واكتفوا بأن يكون مجرد أماني، واشتروا في الواقع العلمي الضلالة.. ومعنى ذلك أن حياتهم الاجتماعية والسياسية والعقدية والفكرية، مليئة بالضلالات التي يصرون على شرائها، وبيع الهدى الذي أعطاهم الله إياه.

والتصوير بالفعل المضارع هنا معجزٌ عجيب، ترى فيه البائع للشيء الذي يرغب عنه ويكرهه، وهو الهدى، أو يضغط على نفسه ويتنازل عنه وهو الثمن الدنيوي ليشتري مقابل ذلك الشيء الذي يرغب فيه ويحبه ويجذبه، وهو الضلالة، مع بذله

للثمن.. مدهشةٌ هذه الصورة التي تجعلهم أسوأ من الحيوانات في إصرارهم على اشتراء الضلالة، وهم لا يكتفون بأخذ الضلالة بل يُسَخِّرون مقدراتهم ومقدرات الأمم من بعدهم، ويقدمون أملاكهم وأملاك الأمة بعدهم، ويبذلون جهودهم للدخول في صفقة خاسرة مجرمة آثمة تتمثل في شراء الضلالة أي في شراء المزيد من الهلاك والخسارة والتيه والعبث والبعد عن الهدى والقرارات الصائبة.. سبحان الله، وتقدس مجده، وتعالت صفاته!! انظر إلى هذا التعبير المدهش: يشترون الضلالة.. إنه يصف لك كيف بلغت الصفاقة والحماقة والإجرام بهذا الصنف من العالم.. يسخرون المليارات التي آتاهم الله إياها لشراء الضلالة.. يسخرون الإمكانات والثروات والمقدرات لشراء الضلالة، ومن الضلالة التي يشترونها:

قتل الأبرياء، والاعتداء على الأطفال والنساء، ونشر الخمر والمخدرات على بني الإنسان.. هل هو إنسان حقيقي ذلك الذي يبذل أمواله لنشر الخمر التي يجمع العالم: الكافر والمسلم معًا على أنها تغطي العقل.. يشترون الضلالة التي تعني نشر القنوات المفسدة المدمرة، وبث التعليم الفاسق المحطم لسعادة المجتمعات.. يشترون الضلالة التي تعني عبادة الأحجار، والخضوع للحيوانات والفئران والأبقار بدلًا من التحرر عن عبادة المخلوقات.. يشترون الضلالة بتحريف كلمات العدل والسلام والحرية وجعلها مرادفة للعدوان والآثام والعبودية.

وأما الهدف الثاني: إضلال العالم ونشر الضلال فيه، وتعميته عن الهدف الحقيقي من وجوده، فتضيع السبل الصحيحة التي توصل إلى الأهداف الحقيقية، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله-جل شأنه-: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ (النساء:٤٤):

﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ معناها الطريق الواضح، والطريق الواضح وسيلة لهدف واضح،

والسبيل الصحيح سيأخذ بنا إلى الأهداف الحقيقية التي من أجلها خلقنا.. املأ عينيك من هذا الكلام المبهج الذي يختصر لك قصة الحياة: إن السبيل وسيلة تأخذ بنا إلى الغايات الحقيقية.. هم يريدون أن نضل في البحث عن الوسائل الصحيحة، وإذا حدث ذلك عمينا عن الغايات الحقيقية، وعملهم هنا مزدوج كما تصوره الآية، فهم تارة يركزون على الوسائل، لنأخذ سبلًا متعددة لا توصلنا إلى تحقيق الغايات، و تارة يتجهون إلى الغايات، فيصورون لنا غايات كاذبة خاطئة لنخترع لها من عند أنفسنا سبلًا تأخذ بعيدًا عن اكتشاف الأهداف الصحيحة، والغايات القويمة، والله ينادي البشرية التي يريد مصاصو الدماء أن يختطفوها فيقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

ما لهؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يبذلون هذا الجهد في تدمير البشرية؟ لا يكتفون بأن يضلوا في أنفسهم بل يرغبون في أن يضلوا العالم معهم، وأول جهة يرغبون في إضلالها الجهة التي تسير على هدى من ربها، فانظر لهذا التعبير ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، وهذه الصفة ناشئة عن سؤال أثارته الصفة السابقة، وهو: هل هم متعمدون لهذا السفه المذكور بأن يقدموا أموالهم وأموال الأمة في سبيل شراء المزيد من الضلالات والجهالات؟ فيأتي الجواب في كلمة ﴿يُرِيدُونَ﴾ وكلمة ﴿يُرِيدُونَ﴾ تدل على تعمدهم للإضلال وإصرارهم عليه كما هو شأن الفعل المضارع.. سبحان الله!

فهم متعمدون مصرون، أتعلم ما يعني ذلك وفقك الله؟ إنه يعني التحذير التام للمجتمعات المؤمنة ولقياداتها الفكرية والثقافية والعلمية والسياسية من أن يستنصحوا أحدًا من هؤلاء المجرمين، أو أن يركنوا إليهم، أو أن يسمعوا شيئًا من

طعنهم في الحق -كما أشار إليه الإمام الطبري- [١].

هل تريد شيئًا يسيرًا خفيفًا يخبرك عن سعي الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب لأن نضل السبيل؟

يعبر صموئيل زويمر عن هذه الرغبة العارمة في اشتراء الضلالة والرغبة في إضلال العالم فيقول: « فقد صرفنا من الوقت شيئًا كثيرًا وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة... ومع ذلك فإننا لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقًا بنى دينه الجديد على أساس من الهوى أو نصابًا سافلًا لم يكن داخلًا في دينه من قبل حتى نعده قد خرج عنه بعد ذلك، ولا محل لديننا في قلبه حتى نقول: إنه دخل فيه. ومع ذلك فالذين تنصروا لو بيعوا بالمزاد لا يساوون ثمن أحذيتهم... فلتكن عندنا الشجاعة الكافية لإعلان أن هذه المحاولة قد فشلت وأفلست، وعندئذ يجب علينا قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام من نفوسهم»، وبعد أكثر من عشرين عامًا على هذا الخطاب هنأ في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م أصحابه على نجاح هذه الاستراتيجية فقال: « إنكم أعددتم نشئًا (في بلاد المسلمين) لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات. فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء.. إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضوع بركات الرب».

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٢٩).

حسبك مؤتمر كولورادو التنصيري في ١٥ اكتوبر ١٩٧٨م تحت اسم مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين، حضره ١٥٠ مشتركًا يمثلون أنشط العناصر التنصيرية في العالم، واستمر لمدة أسبوعين بشكل مغلق، ودعا إلى ضرورة وجود ظروف خاصة تدعو إلى التحول الجماعي نحو النصرانية إذ يقول ديفيد أ. فريزر: «ولكي يكون تحول فلا بد من وجود أزماتٍ معينة، ومشكلات وعوامل تدفع الناس أفرادًا وجماعات خارج حالة التوازن التي اعتادوها، وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية مثل التفرقة العنصرية أو الحساسية بسبب تسامح المجتمع تجاه النفاق أو الوضع الاجتماعي المتدني»[1]

وحتى الذين حاولوا الانسلاخ عن الثوب المتدين للذين أوتوا الكتاب، فهم جاءوا بضلالات مقابلة لضلالات المحرفين مع انتمائهم للكتاب في الأصل، و(الكتابة) في الواقع، فخبرني كيف ترى في ماركس اليهودي الأشكنازي الذي نشر خرافات المادية الجدلية لتكون أهم ما تظهره إنكار وجود الله، وإضفاء الشرعية على الصراع المستعر المجرم بين الطبقات؟ ماذا ستقول في الطبيب فرويد الذي تدرس نظرياته على أنها حقائق مبهرة في علم الاجتماع، وهو يلخص نظرته إلى الإنسان على أنه حيوان يقوم على الشبق الجنسي، وأوجد له بدلًا من الفطرة الإنسانية النقية عقدة أوديب، وعقدة إلكترا ليصل منهما إلى تحليل بل إلى تشريع زنا المحارم وجعل ذلك جزءاً من الحياة الطبيعية الإنسانية... بل ماذا تقول في هوكينج وهو يزعم أن الإنسان مجرد وسخ كيميائي.

(١) يراجع: التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين (ص: ٣٢)، وموسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ الشحود على النت، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال المستشرقين، د. عبدالرحمن عميرة، ص ٣٥ - ٣٦، رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد غراب ص ٦٣، قذائف الحق، محمد الغزالي، ص ٧٠-٧٤.

إلى أي مدى يريدنا الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب أن نضل السبيل؟

الأساس الخامس:

لا يسمون أنفسهم أعداء للإنسانية بل يظهرون غير ذلك، ويُبَصِّرُنا بهذا الأساس هذه البصيرة الحاكمةُ المُعَظِّمة: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ (النساء:٤٥) إن الله يذكرك بضرورة أن تثق بالمصدر الإلهي العليم بالواقع البشري، فالله أعلم بأعداء البشرية، فهو مصدر التقسيم العالمي إلى أعداء وأصدقاء، وفق علمه بأحوالهم ونفسياتهم التي تخدعون في التعرف إليها:

إن الله يبين لنا هنا أنه مصدر تقسيم العالم إلى أعداء وأصدقاء، وليس أفهامنا الضائعة، وأفكارنا التائهة وسط المكر الكبار.. ماذا تظن عندما تسمع الله يقول لك ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾؟

التعبير في الآية واضح في مخاطبته لنفسك ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾.. هو تعالى جده لم ينفِ العلم عنك.. بل أثبت لك بعض العلم الذي من خلاله ستحدد أعدائك وأولياءك.. انتبه! لأنه أعلم منك بأعدائك.. ليس عندك إلا بعض الصورة، أما الله جل في علاه، فهو الذي أحاط علمًا بكل شيء، فضع الاستراتيجيات الحامية لأمنك وفق ما حدده ربك.. إن هذه الآية إشارة ضمنية إلى أن بعض الأمة سيحدث له تيه عقلي، وغزو يستهدف أفكاره، فيصنف الأعداء وفق آرائه وأهوائه وما يبدو له من كلامٍ مقابل ربما تضمن مكرًا وكيدًا، وليس وفق ما حدده الله ربه عندما ذكر المغضوب عليهم والضالين، ومن يدخل فيهم ممن اتبعوا الشهوات وأرادوا لنا أن نضل ضلالًا مبينًا.

فالله أعلم بأعدائكم فَلَا تَغْتَرُّوا بتحالفاتكم المزينة المزخرفة مع عدوٍ يتلاعب بعقولكم، فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغشِّ والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون

أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا [١] كما يقول الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذه الآية أتت جوابًا لسؤال ربما نشأ عن ذكر أعداء الأمة والإنسانية السابقين وتحديد أبرزهم بدقة في الآية اللاحقة، وهذا السؤال هو ما يردده بعض المسلمين قولًا أو حالًا، ويمكن صياغته في الآتي:

إن من هؤلاء الذي جعلتهم يا الله أعداء لنا من نأنس به، ونجد عندهم مظاهر العدل في أنفسهم، ومحاولة إفشاء الحقوق لغيرهم؟ فيأتي الجواب قاطعًا: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ وذلك ليكون القرآن هو المعيار الحقيقي لكل الأمور ومنها بيان العدوات والصداقات، ووجود قلة من المنصفين لا يعني قدرتهم على التحكم بالرأي العام، ولا وصولهم إلى صنع القرار بين أقوامهم، كما قال وليد الأعظمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أبكل يوم فكرة وعقيدة ... تغزو الحمى من تاجر مستورد
يغري بها البسطاء من أبنائنا ... بالموبقات وبالحسان الخرد
ويصدهم عن دينهم بخديعة ... ما شابهتها حيلة المتصيد
نبني ويهدم غيرنا بدسيسة ... شتان بين مهدم ومشيد
لا رأس مال الغرب ينفعنا ولا ... فوضى شيوعي أجير أبلد
وسطًا نعيش كما يريد إلهنا ... لا نستعير مبادئًا لا نجتدي
قرآن ربك يا محمد عزنا ... ونظامنا الداعي لعيش أرغد

الأساس السادس:

يظهرون موالاة الإنسانية، ونصرة قضاياها، ويُبَصِّرُنا الله جل جلاله بذلك من خلال قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾، فالكفاية به وليًا ونصيرًا تعني أن هذه البصائر التي يربيكم بها، إنما هي لحمايتكم، وحراستكم في أمنكم الشخصي

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٢٩).

والقومي، ويجب عليكم بذل المستطاع الشرعي والمادي في حماية أمنكم ثم ثقوا بعد في أن يكفيكم عما عداه ولاية ونصرة:

فلا تتوهموا أن طلبكم التحالف مع أعدائكم الحقيقيين سيجعلهم يشعرون بالرغبة في رد الجميل، أو إظهار صادق المحبة لكم، بل تولوا الله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، وهذه الجملة المباركة تبين أن اتباع منهج الله تعالى ذكره في تحديد أعداء الأمة من أنصارها قد يوقع للوهلة الأولى في عداوة كثير من أهل الأرض لاتباعهم هذ الصنف المذكور في الآية السابقة واللاحقة؛ فلا يحزن الإنسان ولا يبأس بل يثق بالله ويتوكل على ولايته ونصرته جل في علاه.

كما أن قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينبه المسلمين الذين آل أمرهم إلى الدخول في تحالفاتٍ سياسيةٍ وعسكرية مع المحرفين بأن لا يظنوا أن تلك التحالفات والموالاة يمكن أن تفيدهم شيئًا، فأعداؤهم سينتهزون أقرب فرصة للغدر بهم، بالسلم أو بالحرب، فليكتفوا بولاية الله ونصرته.

والولي جمعه أَوْلِيَاءُ [1] مِنَ الوِلاَيَةِ بِكَسْرِ الوَاوِ وَهِيَ النُّصْرَةُ أو المحبة، وَأَمَّا الوَلاَيَةُ بِفَتْحِ الوَاوِ فَهِيَ تَوَلِّي الأَمْرِ، وكلاهما مشتقٌ من الولاء والتوالي من وَلِيَ، وهي كلمة تدل عَلَى قُرْبٍ، والتوالي: أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، وهذا يدل على القرب الشديد الذي يصل إلى ما يشبه التلاصق، فيُقَالُ: تَبَاعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ، والوَلْيُ: القربُ والدنوُّ، ومنه قول النبي ﷺ: « كل مما يَليكَ »، أي مما يقاربك قربًا مباشرًا، وكُلُّ مَنْ وَلِيَ أَمْرَ آخَرَ فَهُوَ وَلِيُّهُ، فهو أقرب الناس إليه ليس بينهما غيرهما، وَفُلَانٌ أَوْلَى بِكَذَا، أَيْ أَحْرَى بِهِ وَأَجْدَرُ، فَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي الشَّتْمِ: أَوْلَى

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٢٨)، مقاييس اللغة (٦/ ١٤١)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٥٣٣).

لَكَ فتهديد وَوَعِيدٌ، ومنه قولهم:

فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى وَهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدِّ

ولعل ذلك بسبب قرب تنفيذ المهدد لوعده، ولذا قال الأَصْمَعِيُّ: مَعْنَاهُ قَارَبَهُ مَا يُهْلِكُهُ، أَيْ نَزَلَ بِهِ.

والمَوْلَى: المُعْتِقُ وَالمُعْتَقُ، وَالصَّاحِبُ، وَالحَلِيفُ، وَابْنُ العَمِّ، وَالنَّاصِرُ، وَالجَارُ، كُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الوَلْيِ وَهُوَ القُرْبُ، فالولي اسم يدل على القرب والمحبة، والولاية بمعنى القيام على الشيء ورعايته، ومن ذلك الوالي، فهو القائم المتصرف على غيره، فالله تعالى ذكره يتولاكم ويقوم على شؤونكم ورعايتكم، وهو الذي ينصركم، فصارت الوِلاية والموالاة والولاء تدل على شدة التلاصق وعدم الانفكاك الذي يؤدي إلى العزة والشعور بالقوة، كما تدل على قوة القرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولي والمولى يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالِي، وفي معنى المفعول أي الموالَى، فقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (البقرة: ٢٥٧) أي يتولى أمرهم حكمًا ومحبة ونصرة فهو أقرب إليهم مما سواه، وقولهم: تولى إذا عَدَّى بنفسه اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع منه، ويقال وليت سمعي كذا، ووليت عيني كذا، ووليت وجهي كذا أقبلت به عليه، وقوله جل ذكره: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤) أي فلنحكمن عليك بتولي قبلة ترضاها أي بالإقبال عليها، ومنه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٥١) أي ومن يجعلهم أقرب الناس إليه أو يوافقهم إلا في أعشار من مائة، فهذا يعني أنهم مثل روحه، وذاك يعني أنهم يتصرفون فيه كما شاءوا، فهي أعلى درجات التحالف؛ إذ صارت أقرب إلى الامتزاج منها إلى التحالف، ولذا فإن قوله جل ذكره: ﴿فهو منهم﴾

إما أن يكون حكمًا ظاهرًا حيث تراه معهم في كل شؤونهم ينصرهم فيما يذهبون إليه من القضايا الإنسانية وفق رؤيتهم المعوجة، وإما أن يكون قوله ﴿فهو منهم﴾ حُكْمًا ظاهرًا وباطنًا أي لا يكتفي بنصرهم في الظاهر بل يوافقهم في الباطن أيضًا.

وجمع الله في الذكر في هذه الآية بين الولي والنصير لأنك قد تجد الولي المحب لكنك لا تجد عنده القدرة على النصر، وقد تجد النصير دون أن يكون وليًا محبًا، فجمع الله لنفسه بين الأمرين تحببًا لكم، وبيانًا للمجد الذي تجدونه منه جل جلاله.

والحظ كيف يحفز القرآن الأنفاس، ويحشد العواطف، ويشعل المشاعر فيكرر الله قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ مع إظهار الاسم دون إضماره في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٤٥).

فالتَّكْرَار والإظهار في مقام الإضمار فِي مِثْلِ هَذَا المَقَامِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي القَلْبِ وَأَكْثَرَ مُبَالَغَةً، وهذا التكرار يناسب تحريك العواطف الجامدة الباردة بعد تقرير الحقيقة العقلية الواضحة وهي: معرفة العدو من الصديق من المصدر الإلهي الذي يحيط بالغيب والشهادة لا من الأفهام القاصرة المخدوعة.

ولذا يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها عبارة مسددة جمع فيها بين حماية الله للأمة الإسلامية في أمنها القومي، وحمايته لها في نظامها الذي شكله الإسلام: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، يقول: وحسبكم بالله ناصرًا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى من بغاكم الغوائل، وبغى دينكم العَوَج» [1]، وهذا يعني حرص هذه الفئة المشترية الضلالة على إدخال العوج في الإسلام، ومحاولة تغييره، والحرص على تعويج أنظمته.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٣٠).

الأساس السابع:

أبرز قيادات الصف الأول للجنس الذي يقوم بسلب الحقوق البشرية، والإضلال العالمي ينتمون للذين هادوا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾.

بدأ بتحديد هوية الصنف القيادي المجرم القائم بالضلال والإضلال فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهذا التحديد لا يقصد منه الحصر بل هو بيان لأبرز أمثلة هؤلاء الأعداء، فهم قيادة القيادات، فحدد الله تعالى ذكره الصنف الأكثر تأثيرًا من أهل الكتاب، وهو الصنف الأكثر حشدًا ونفوذًا في العالم، وحسبك لترى زعماء ما يسمى بالعالم الثالث والأول يهبون لزيارة هذا الصنف، وتقديم فروض الولاء والطاعة له، وقد أدت كلمة ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ دورًا محوريًا لتنبيهنا على عدة قضايا فيما يتعلق بطبيعة العداوة المستحكمة لهذا الصنف المشتري للضلالة؛ وقد تسأل: كيف ذلك؟ تعال معي -أيدك الله- لنحدد مجال ارتباط هذه الكلمة لنستنبط معنيين:

المعنى الأول: يتضح من كون ﴿مِن﴾ ترتبط بقوله: ﴿أَلَمَ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾، فيكون قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بدلًا متصلًا بكلمة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وفي هذه الحالة يكون قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ جُمَلًا مُعْتَرِضَةً بَيْنَ البَيَانِ وَالمُبَيَّنِ، وهذا البدل بدل بعضٍ من كلٍّ، فالمحرفون من الذين هادوا هم قيادات الذين اشتروا الضلالة، وهم الذي يحرضون على حرمان العالم من معرفة حقوقهم النظرية والعملية في الأمور الدينية والدنيوية، ويريدون أن يضلوا العالم.. وإنما ذكر اليهود دون غيرهم لأنهم العقل المدبر، والجزء المحرك لبقية الدمى العالمية التي تسير في فلكهم، وحسبك أن ترى هذه الهيمنة العالمية لأسرة مثل الأسر اليهودية الثلاث الأسطورية المتحكمة باقتصاد أكبر دولة في العالم.

المعنى الثاني: أن تكون الجملة مستأنفة، والمعنى: من الذين هادوا من يُحرِّف الكلم عن مواضعه، فتكون «مَن» محذوفة من الكلام، اكتفاء بدلالة قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ عليها، والعرب تقول: «منا من يقول ذلك، ومِنا لا يقوله»، بمعنى: منا من يقول ذاك، ومنا من لا يقوله، فتحذف «مَن» اكتفاء بدلالة «مِنْ» عليه، كما قال ذو الرمة:

فَظَلُّوا، وَمِنْهُمْ دَمْعُهُ سَابِقٌ لَهُ وَآخَرُ يَثْنِي دَمْعَةَ العَيْنِ بِالهَمْلِ

يعني: ومنهم مَن دمعه، وكما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (سورة الصافات: ١٦٤).

وتكون ﴿مِن﴾ تبعيضية أي أن بعض اليهود يتصفون بذلك، ومفهومه أن منهم من لا يتصف بذلك، وذلك يعطي بعدًا آخر في كيفية التعامل معهم.

وهذا التحديد لا يقصد منه الحصر، بل بيان لأبرز أمثلة هؤلاء أعداء الإنسانية، فهم قيادة القيادات، وهذا التحديد ورد في التوراة ما يقاربه في ذكر الرجس الذي سببه القيادات الضالة في أورشليم للعالم، وبتعبير لا تدري كيف تصفه!! ففي سفر حزقيال١٦ : ٢ يا ابن آدم، عرف أورشليم برجاساتها.

وبعد أن يذكر عهده معها، أي: مع بني إسرائيل سكان أورشليم حينها:

١٥ فاتكلت على جمالك، وزنيت على اسمك، وسكبت زناك على كل عابر، فكان له. ٢٣ وكان بعد كل شرك، ويل ويل لك، يقول السيد الرب. ٢٥ في رأس كل طريق بنيت مرتفعتك، ورجست جمالك... لكل عابر، وأكثرت زناك. ٢٦ وزنيت مع جيرانك بني مصر الغلاظ اللحم، وزدت في زناك لإغاظتي.

وحتى يبين أن اليهود ليسوا كلهم مقصودين هنا بين أعمال العدو من اليهود

والتي بها يقومون بالضلال والإضلال، وهي الأعمال التي ترد في الأسس الباقية.

الأساس الثامن:

ليس جميع الذين هادوا يعبثون بالحقوق البشرية، ويقومون بعملية الإضلال العالمي، بل الصنف المقصود هم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

فهذا هو العمل الأول من أهم أعمال قيادات الضلالة والإضلال من الذين هادوا:

فيقومون بهذه الخطوة الكاذبة الخاطئة لتكتمل عملية الضلال والإضلال، فهم لما فقدوا كتاب موسى وجدت عندهم قراطيس متفرقة فأظهروا منها ما أظهروا ولفقوا بينها فجاء الخلط والتكرار.

ويظهر أن من أهم ما أخفوه اسم النبي الخاتم ﷺ ليتحكموا في طريقة التعامل معه لو ظهر اتباعًا وامتناعًا، وترجع أنواع التحريف الذي قاموا به في كلام الله إلى **ثلاثة أنواع:**

الأول: تحريف التبديل: فكَانُوا يُبَدِّلُونَ اللَّفْظَ بِلَفْظٍ آخَرَ، وربما بدلوا عبارات بأكملها تبعًا لأهوائهم، وذكر الله ذلك عنهم صراحة في القرآن والكتاب المقدس، أما في القرآن ففي قوله جل ذكره: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٩).

ولقد بلغ التحريف حدًا منافيًا للرسالات الإلهية، فإن من ثوابت كلام الله ألا تزر وازرة وزر أخرى، فماذا تقول عندما تجد نصًا يخطئ فيه حام، فيلعن نوحٌ عليه السلام أحفاده بسبب خطأ ارتكبه ابنه، ونوحٌ نبي من أولي العزم صبر على قومه نحو ألف سنة، ولم يصبر على ابنه في خطأ بل إن عقيدة الشعب المختار واستباحة الفلسطينيين

غرست هذا النص الغريب **في سفر التكوين٩**:

(٢٠وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. ٢١وَشَرِبَ مِنَ الخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. ٢٢فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. ٢٣فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. ٢٤فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، ٢٥فَقَالَ: «مَلعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ العَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». ٢٦وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. ٢٧لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ).

هل هذا يصدر عن نبي؟ **وفي سفر التكوين** أن أبناء حام أربعة: كوش ومصرام وفوط وكنعان، فلم خص كنعان الذي لا ذنب له مع نوح؟

النوع الثَّانِي: تحريف التأويل: فلا يغيرون اللفظ ولكنهم يتلاعبون بالمعنى،

النوع الثالث: تحريف الألفاظ والمصطلحات التي تنصر العدل في الإنسانية، فلم يخصص ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ بأنه كلم الله، فيدخل فيه كل كلم، وإن كان كلام الله يدخل ابتداء، فمن خلال النوعين السابقين يقومون بِإِلْقَاء الشُّبَهِ المجرمة المخربة، وَالتَّأْوِيلَاتِ الفَاسِدَةِ، وَيصرفون اللَّفْظِ عَنْ مَعْنَاهُ الحَقِّ إِلَى مَعْنًى بَاطِلٍ بِوُجُوهِ الحِيَلِ اللَّفْظِيَّةِ، كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ البِدْعَةِ فِي زَمَانِنَا هَذَا بِالآيَاتِ المُخَالِفَةِ لِمَذَاهِبِهِمْ (١).

ومما جاء في التوراة مما يقارب ما في القرآن عن هذا العمل السيء:

في **سفر التثنية** تجد أن موسى لقب بني إسرائيل بأصحاب الرقاب الصلبة، وجاء فيه ما يشبه التصريح بتعرض الكتاب للتحريف، فمن ذلك ما جاء في سفر التثنية ٣١إشارة إلى هذا العمل الخطير الذي قاموا به في التحريف:

(١) تفسير الرازي (١٠/ ٩٣).

٢٤ فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتابٍ إلى تمامها. ٢٥ أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلًا: ٢٦ خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم؛ ليكون هناك شاهدًا عليكم.

٢٧ لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة، هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم، قد صرتم تقاومون الرب، فكم بالحري بعد موتي. ٢٨ اجمعوا إلي كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم؛ لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض. ٢٩ لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون، وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به، ويصيبكم الشر في آخر الأيام؛ لأنكم تعملون الشر أمام الرب؛ حتى تغيظوه بأعمال أيديكم. ٣٠ فنطق موسى في مسامع كل جماعة اسرائيل بكلمات هذا النشيد الى تمامه. ٣٢: ١ أنصتي أيتها السماوات فأتكلم، ولتسمع الأرض أقوال فمي ٢ يهطل كالمطر (كالغيث) تعليمي، ويقطر كالندى كلامي، كالطل على الكلأ، وكالوابل على العشب. ٣ إني باسم الرب أنادي أعطوا عظمة (تعظيمًا) لإلهنا.

وقد ذكر الشيخ رَحْمَة اللهِ الهِنْدِيِّ – رحمه الله تَعَالَى– في كتابه الفريد إِظْهَار الحَقِّ، مِائَةَ شَاهِدٍ عَلَى التَّحْرِيفِ اللَّفْظِيِّ وَالمعْنَوِيِّ فِيهَا.

ثم أخبر عن موت موسى عليه السلام فقال:

٣٤: ٤ وقال له الرب: هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلًا: لنسلك أعطيها قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر.

٣٤: ٥ فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مواب حسب قول الرب.

٣٤: ٦ ودفنه في الجواء في أرض مواب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم .

فهذا من التحريف الواضح للكتاب الذي أنزله الله يبين تداخل ما أنزله الله مع ما عبث البشر فيه، ونجد في سفر الملوك الثاني هذا النص:

٢٢: ٨ فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب: قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه

فهل المراد أن سفر الشريعة ضاع ثم وجد، وكيف كان بنو إسرائيل في فترة ضياعه يفعلون؟

ولكن السؤال الذي تثيره الكلمات المحكمة للآية: لماذا قال الله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ولم يقل: يحرفون التوراة أو يحرفون كلام الله؟

هذا التعبير الدقيق هنا يعطي معاني غير المعاني التي نستلهمها من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ (البقرة: ٧٥)؛ إذ هذا الموضع من سورة البقرة ينص على تحريفهم لكلام الله، فذهب مجاهد إلى أن المراد بالكلم التوراة، فقال: تبديل اليهود التوراة[١].

والأصل في التفسير عدم التكرير، فلا بد أن نفهم من هذا الموضع في سورة النساء أمورًا أخرى، فمن ذلك:

يدخل كل كلام صالح من كلام الله أو من كلام البشر حرفوه وأمالوه عن موضعه، فالعبارة القرآنية واضحة ﴿ٱلْكَلِمَ﴾، وذلك أعم من التوراة، فيدخل في هذه الكلمة كل كلام حق حرف عن مواضعه، خذ نموذجًا لذلك كلمات مثل العدالة والسلام يجعلهما مجانين نبوءة هرمجدون ستارًا لكل جرائمهم التي يؤسسونها في حياتهم وتبقى بعد موتهم من مؤامراتهم على هذه الأرض، وربما هذا ما جعل «ألبرت آل

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٣٢).

غور» نائب كلينتون يقول: (بمناسبة خمسين عامًا على قيام الكيان الصهيوني، وبنبرة مألوفة من المسؤولين في الولايات المتحدة): «يشعر الأمريكيون بأن الوشائج التي تربطنا بإسرائيل أبدية، لقد مضى مؤسسو دولتنا مثلما مؤسسو دولتكم، ردحًا من الزمن في التيه بحثًا عن صهيون جديد، وكان كفاحنا، مثل كفاحكم، مع الإلهي والبشري، وقد قال لنا أنبياؤنا، وأنبياؤكم إن لديهم حلمًا، وأهابوا بنا بحلمهم، إلى هذا الكفاح من أجل العدالة والسلام» !!

فهل سرقة ثروات الشعوب والعيش على خيراتها هي العدالة، والسلام؟ هل العدالة، والسلام في إبادة الشعوب، سواء أكانوا من الفلسطينيين أم من الهنود الحمر؟

وأي إله ذلك الذي يرضى بالدمار النووي، والفرح بانتشار الاغتصاب، وبيع السلاح على ذئاب البشر، ومنع الضحية من الدفاع عن نفسه.. فقط إرضاء لأسوأ أنواع العنصرية، وجريًا وراء الأكاذيب التي يتحدث عنها مجانين النبوءات الخرافية الدائرة حول نص محرف لاغتصاب الحقوق والعيش على خيرات الشعوب.

الأساس التاسع:

من صفاتهم الأساسية ما يرددونه لأعظم أنبيائهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وهذه العبارة القرآنية تحكي حالتين لهم، وكل حالةٍ تناسب فئةً منهم حسب نفسياتهم أو حسب لعب الأدوار بينهم.

الحالة الأولى: أَنَّ الأنبياء ابتداء بموسى وانتهاء بمحمد صلى الله عليهم وسلم كَانَوا إِذَا أَمَروهُمْ بِشَيْءٍ قَالُوا فِي الظَّاهِرِ: سَمِعْنَا الكلام ووعيناه وفهمناه، وَقَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: وَعَصَيْنَا مقتضياته، فلم نعمل بصالحه، وسنقوم بكل ما يلزم لإحباطه، وهؤلاء يشبهون الذين يخالطون المسلمين ويخدعونهم بمعسول القول والكلام،

ويضمرون الخداع، ومنهم الذين يتفاوضون معهم في إطار المؤسسات الدولية.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ قَوْلَهُمْ: سَمِعْنَا الأقوال وَعَصَيْنَا بالأقوال والأفعال، إِظْهَارًا لِلْمُخَالَفَةِ، وَاسْتِحْقَارًا لِلْأَمْرِ، وعنادًا واستهزاء وسخرية بأهل الحق، وإظهارًا لأنفسهم الظالمة بمظهر القوي الآمر في الخلق، وهذا يدل على تعمدهم على الإجرام اللساني مع الإجرام الفعلي.. فتلك قنواتهم الإعلامية ما تفتأ تظهر تلاعبهم بكل ما هو صدق وحق في الوجود.. إذن هم يسمعون أقوال الآخرين، ويسمعون كلام رب العالمين، ويسمعون آهات المظلومين، ولكنهم يتفاخرون عندما يتلبسون بالمعصية، ويعلنون أو يسرون ذلك حسب فئاتهم.

الأساس العاشر:

من صفاتهم الأساسية أنهم يقولون: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾.

بعد أن يقولوا: عصينا يتحولون إلى إملاء التوجيهات، فيخاطبون مقابلهم سواء أكان نبيًا أم كان وليًا أم كان مظلومًا أم كان صاحب حق.. يقولون بلهجة متعالية متكبرة: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وهذه العبارة تظهرهم في صورتين:

الصورة الأولى: اسمع منا غير مسمع، كقول القائل للرجل يَسُبُّه: «اسمع، لا أسمعَك الله»، فيكون غير مسمع أي غير سامع، فهو دعاء على من يقابلهم بالصمم، وذلك يدل على سفههم، وسوء خلقهم.

الصورة الثاني: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ غير مقبول ما تقول، فكأنك لم تُسمِع شيئًا

والمراد من الصورتين أمرًا يدل على كبرهم وغرورهم وقسوة قلوبهم: سمعنا كلامك، وعصينا أمر ربك فيما تقول.. عصينا كل القوانين العادلة في حقك، ولكن ينبغي أنت أن تسمع لنا، واعلم مع سماعك لنا بأنك غير مقبول كلامك كأنك لم تقل

شيئًا، فكأنهم ينعتون أنفسهم بأنهم مصدر التلقي، ومحل إصدار التوجيهات.

الأساس الحادي عشر:

من صفاتهم الأساسية أنهم يقولون: ﴿وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾.

﴿وَرَٰعِنَا﴾: كَلِمَةٌ تعكس سخريتهم، وتخفي قبح ثقافتهم، وانحطاط مستواهم الخلقي، وحرصهم على تدمير معالم الإيمان:

يزيدون في سفاهتهم أثناء الحديث فيقولون: ﴿وَرَٰعِنَا﴾.

فهَذِهِ كَلِمَةٌ تعكس ما يجري بينهم من الهُزْءِ وَالسُّخْرِيَةِ، فنهي المسلمون عن تقليدهم في الألفاظ بطريقة التحدث، فربما ظن المسلمون ببراءتهم أن تلك الألفاظ ليس فيها سوء بينما هي تخفي قبح ثقافتهم، وانحطاط مستواهم الخلقي، وتلك اللفظة لَا يُخَاطَبُ بِها الناس من الناحية الأدبية، فتصور الأمر عندما يخاطبون بها الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم كانوا يرددونها أمام النبي ﷺ، ويرددون أمثالها أمام الناس لإيهامهم أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ معنى عاديًا مثل أَرْعِنَا سَمْعَكَ، أو انتظرنا، أو أمهلنا ولكنهم كَانُوا يُرِيدُونَ سَبَّهُ بِالرُّعُونَةِ فِي لُغَتِهِمْ.. وعندما كانوا يقولون هذه الكلمة كَانُوا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ حَتَّى يَصِيرَ قَوْلُهُمْ: راعِنا رَاعَيْنَا، وَكَانُوا يُرِيدُونَ أَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى أَغْنَامًا لَنَا، واللي هو الانعطاف والفتل، فكانوا يفتلون أشداقهم وألسنتهم عند ذِكْرِ هَذَا الكَلَامِ عَلَى سَبِيلِ السُّخْرِيَةِ، كَمَا جرت عادة من يهزأ بإنسان بمثل هذا الأَفْعَالِ، ليجمعوا بين لي اللسان الذي يفعله الساخرون والمستهزئون والطعن في الدين في الوقت ذاته، ويحتمل معنى آخر هو أنهم كانوا يلوون ألسنتهم عند النطق بالكلمة ليتوهم السامع أنها عربية، وهم يريدون بها معناها العبري، فذهب بعض المحققين إلى أن كلمة «רַע» العبرية معناها: سيّء

ولوْ كنتَ بينَ قومٍ عبرانيّينَ وأرادوا أن يشيروا لك إلى شخصٍ بعينِهِ بأنه السيءُ فيهم، أو بأنهُ سيّئهم، فإنهم يقولون عنهُ: «راعينو» רעינו ra`aino، ra3aino أيْ: هوَ سيئُنا.

وطعنهم في الدين بإظهار الاستهزاء والتحقير للمسلمين أمام أصحابهم لينشأوا على العنصرية المقيتة دون شعور، والتعالي وظن أن الحق معهم لا مع غيرهم، ليطعنوا في صحة دين الإسلام أمام العالم، وكَان بعضهم يَقُولُونَ لِأَصْحَابِهِمْ: إِنَّمَا نَشْتُمُهُ وَلَا يَعْرِفُ، وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا لَعَرَفَ ذَلِكَ، فَأَظْهَرَ اللَّه تَعَالَى ذَلِكَ فَعَرَّفَهُ خُبْثَ ضَمَائِرِهِمْ، فَانْقَلَبَ مَا فَعَلُوهُ طَعْنًا فِي نُبُوَّتِهِ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى نُبُوَّتِهِ، لِأَنَّ الإِخْبَارَ عَنِ الغَيْبِ مُعْجِزٌ.

وعندما كانوا يفعلون ذلك فهم يحاولون التعالي أمام المسلمين والسخرية منهم لزلزلة الضعفاء منهم. فجمع الله جل مجده في بيان صفاتهم بين أخلاقهم المنحطة ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾، وحرصهم على تدمير معالم الإيمان ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾.

الأساس الثاني عشر:

الوقوع في اللعن الإلهي بسبب إصرارهم علىٰ تغطية الحقائق التي تبين دينهم الحقيقي، فقال الله يحثهم حثًّا متلطفًا: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾.

فلنتكلم عنهم فيما بيننا ونحن نحاول تحليل نفسياتهم، ولنخاطبهم أيضًا عسى أن يستفيقوا من غيهم، فنقول: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا.

فكلمة (انظر) تأتي بمعنى انتظر وانظر، فأما انتظر فمنه قول الحطيئة:

وَقَـدْ نَظَـرْتُكُـمُ أَعْـشَـاءَ صَـادِرَةٍ لِلْخِمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَنْسَاسِي [١]

وأما انظر فمنه قول عبد الله بن قيس الرقيات:

ظَاهِرَاتُ الجَمالِ وَالحُسْنِ يَنْظُرْنَ كَـمَـا يَـنْـظُـرُ الأَرَاكَ الـظِّـبَـاءُ

أي انتظرنا وانظرنا أي انظر إلينا فنفقه منك ما تقول.

وهنا ترى البصائر القرآنية تحثك على مزج الخطاب الدعوي بالخطاب السياسي.. أما لماذا لا بد من مزج الدعوي بالسياسي؟ فلأمور:

الأول: لحث المسلمين على جعل الخطاب الدعوي جزءًا من الخطاب السياسي في كل شيء.

الثاني: لبيان ضرورة أن يكون المسلمون على النقيض من الصفات السيئة التي

---

(١) البيت للحطيئة من قصيدة أولها:

وَالـلَـهِ مـا مَعـشَـرٌ لامـوا اِمـرَءًا جُـنُـبًـا فـي آلِ لَأيِ بـنِ شَـمّـاسٍ بِأَكـياسِ

عَـلامَ كَلَّفتَني مَجـدَ اِبـنِ عَـمِّـكُم وَالـعيسُ تَـخـرُجُ مِـن أَعـلامِ أَوطـاسِ

وفيها:

دَعِ المَـكارِمَ لا تَرحَـل لِبُغيَتِها وَاِقـعُـد فَـإِنَّـكَ أَنـتَ الطاعِـمُ الكاسي

سيـري أُمـامَ فَـإِنَّ الأَكـثَـريـنَ حَصى وَالأَكـرَمينَ أَبًـا مِـن آلِ شَـمّاسِ

مَـن يَـفـعَـلِ الـخَـيـرَ لا يَـعـدَم جَـوازِيَـه لا يَـذهَـبُ الـعُـرفُ بَـيـنَ الـلَـهِ وَالـنـاسِ

من قصيدة يهجو بها الزبرقان ابن بدر، ويمدح بغيض بن عامر من شماس. والأعشاء جمع عشى (بكسر فسكون): وهو ما تتعشاه الإبل. والصادرة: الإبل التي تصدر عن الماء. والخمس: من أظماء الإبل، وهو أن تظل في المرعى بعد يوم ورودها ثلاثة أيام، ثم ترد في الرابع. والحوز: السوق اللين، حاز الإبل: ساقها سوقًا رويدًا. والتنساس والنس، مصدر قولك: نس الإبل بينها: ساقها سوقًا شديدًا لورود الماء. ويروى»إيناء صادرة». والإيناء مصدر آنيت الشيء: إذ أخرته. يقول للزبرقان، حين نزل بداره، ثم تحول عنها إلى دار بغيض (انظر خبرهما في طبقات فحول الشعراء: ٩٦ – ٩٨): انتظرت خيركم انتظار الإبل الخوامس لعشائها. وذلك أن الإبل إذا صدرت تعشت طويلا، وفي بطونها ماء كثير، فهي تحتاج إلى بقل كثير. يصف طول انتظاره حين لا صبر له على طول الانتظار.

وانظر: حاشية آل شاكر على تفسير الطبري ت شاكر (٢/ ٤٦٨)

لأعدائهم من اليهود المتصفين بتلك الصفات، فالمسلمون ينبغي أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا﴾ .

الثالث: لاستثناء طائفة من اليهود لا تتصف بتلك الصفات الرديئة.

الرابع: لكشف حالهم أمام أتباعهم المنخدعين بهم حيث يرفعون لهم تمسكهم بدينهم مع أنهم يلعبون به بأهوائهم.

وهذا الفهم يجعلنا نحاول خلط الجانب الدعوي بالجانب السياسي في التعامل معهم، بحثهم على فعل الأقوم سبيلًا.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾تبصرنا بأنه يجب أن نفضح حقيقتهم التي وردت في كتابهم، وأن نذكرهم بوقوع العقوبة لهم التي يُبَصِّرُنا القرآن بها، ونجدها في التوراة، وهذا إن لم يفدهم فهو يفيد الرأي العام الذي يقومون بتضليله؛ إذ إننا هنا نكشف لأتباعهم فساد قيادتهم، وانحرافهم عن التوراة.

عندها ذكر الله لنا عقوبة هؤلاء المتلاعبين لنعلنها لهم، فقال: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لعنهم الله لأنهم يغطون الحقائق، ويتلاعبون بالحقوق التي للخالق وللمخلوق مع أنهم يزعمون أنهم يؤمنون بالتوراة ولكنهم لا يقيمون كثيرًا مما فيها، ويحرفون الكلم عن مواضعه.

ومما ورد في التوراة في **سفر حزقيال** مما يبين لعن الله لهم:

١٦ : ٣٦ هكذا قال السيد الرب: من أجل أنه قد أنفق نحاسك، وانكشفت عورتك بزناك بمحبيك، وبكل أصنام رجاساتك، ولدماء بنيك الذين بذلتهم لها.

١٦ : ٣٧ لذلك هأنذا أجمع جميع محبيك الذين لذذت لهم، وكل الذين أحببتهم مع كل الذين أبغضتهم، فأجمعهم عليك من حولك، اكشف عورتك لهم؛ لينظروا كل عورتك.

١٦ : ٣٨ وأَحْكُم عليك أحكام الفاسقات السافكات الدم، واجعلك دم السخط والغيرة.

١٦ : ٣٩ وأسلمك ليدهم، فيهدمون قبتك، ويهدمون مرتفعاتك، وينزعون عنك ثيابك، ويأخذون أدوات زينتك، ويتركونك عريانة وعارية.

١٦ : ٤٠ و يصعدون عليك جماعة، ويرجمونك بالحجارة، ويقطعونك بسيوفهم.

الأساس الثالث عشر:

يجب إنصافهم، والتواصل مع الصالحين منهم، وحوارهم بالتي هي أحسن، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله جل شأنه: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فهذا توصيفٌ واقعيٌ معجزٌ يدل على بناء القرآن العقلية المسلمة على الدقة في نقل الأخبار، والإنصاف في توصيف الأحداث والوقائع بما لم يكن معهودًا عند الأمم المعاصرة، فقد ضمت هذه الجملة الكلام عن حالتين من أحوالهم:

الحالة الأولى: من يؤمن منهم الإيمان الحق قليل، وتكون كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لموصوف محذوف، والتقدير فلا يؤمنون إلا قومًا قليلًا، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»[1].

الحالة الثانية: أنهم لا يؤمنون إلا بالقليل مما في التوراة، فتكون كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ صفة للإيمان.. فهم يظلون يتشبثون بيهوديتهم لكن على سبيل الادعاء وحب التميز والتعصب، وعلى الرغم من هذه الدعوى فقد يفتخر بعضهم بالإلحاد لكنه يتشبث

(١) أحمد (٢ / ٣٤٦).

باليهودية ابتغاء المتاع الدنيوي الذي يوفره الادعاء العنصري، وهذا من أعجب التلاعب، فيزعمون أن الإلحاد الذي يمارس من قبل بعض اليهود لا يعني أنه يناقض اليهودية؛ لأن النسب يكفل توفير ميزات اليهودية، ثم ليلعب الواحد منهم بدينه كيف شاء.

فالوعي الذي يكونه قول الله جل شأنه: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن المؤمنين منهم بالكتاب كله قليل، وأن الأكثرين آمنوا ولكن بالقليل من الكتاب مما يوافق أهواءهم ورغباتهم. واعجب إن كنت عاجبًا للإعجاز الإخباري الذي تضمنته هذه الآية، فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا إلا اليهود الذين لا يؤمنون إلا قليلا، كما أن هذه الآية تبين أن من يدخل منهم في الإيمان بالكتاب كله في غاية القلة حتى لا يطمع أحد في غير مطمع، وننساق وراء الأوهام، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا فَهُوَ مِنْ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ، وَأُطْلِقَ القِلَّةُ عَلَى العَدَمِ. وَفُسِّرَ بِهِ قَوْلُ تَأَبَّطَ شَرًّا:

قَلِيلُ التَّشَكِّي لِلْمُهِمِّ يُصِيبُهُ كَثِيرُ الهَوَى شَتَّى النَّوَى وَالمَسَالِكِ [1]

ولا أميل لذلك، بل إن الممدوح هنا قليل التشكي وليس معدومًا تشكيه، فالظاهر وجود الإيمان بالكتاب كله فيهم ولكن من قلة منهم لا تكاد تذكر في زخم جموعهم، وكثرة مكرهم، وشدة كفرهم، على أن الإيمان وفق أهوائهم موجود منتشر، فهم من أكثر الشعوب تدينًا، وحسبك اسم إسرائيل عليه السلام علمًا لدولتهم.



(١) التحرير والتنوير ٥/ ٧٧.

القسم الثاني

من أعظم جنايات أهل الضلالة والإضلال في التعدي على حقوق أنفسهم وعلى سائر البشرية

(النساء:٤٧-٥٧)

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ (النساء:٤٨-٥٧).

المناسبة والاتصال:

بعد أن عرَّف الله جل جلاله البشرية بالجنس القيادي الذي يمنع الحقوق الإنسانية، وجعل أهم أهدافه في الحياة أن يشتري الضلالة ويعمل على إضلال

العالم، فضح هنا بعض جناياتهم الكبرى التي اقترفتها قياداتهم العلمية والسياسية في حق أنفسهم والعالم، **وهذه الجنايات هي:**

الجناية الأولى: حرمان العالم من معرفة الهدى الحقيقي بعدم الإيمان بما أنزل الله من البيانات الإلهية المتأخرة ، وهذا يقتضي كفرهم بالبيانات الإلهية المتقدمة كما أن ذلك يعني أنهم يريدون أن يفرضوا على ربهم الإيمان بالطريقة التي يريدونها، ويُبَصِّرُنا الله بذلك في قوله جل ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾ (النساء:٤٧):

فالخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ يبصرك دائمًا بالتفاعل معهم، والتحاور مع قياداتهم والرأي العام عندهم مهما رأينا عنادهم، وينبغي مناداتهم بأحسن الألفاظ، وهو نسبتهم إلى الكتاب، وهنا ينبغي أن نخاطب المتلاعبين منهم بأنهم يجب أن يؤمنوا بما أنزل الله من البيانات الإلهية المتأخرة؛ لأن ذلك مقتضى الكتب الإلهية المتقدمة، وإن لم يفعلوا فعليهم مواجهة التهديد الإلهي.. لقد عاد إلى مخاطبة الذين أوتوا الكتاب على العموم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، وربما تساءلت: لماذا خاطبهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ مع أنه وصفهم سابقًا بأنه أوتوا نصيبًا؟

هنا تلمح أمرين في البيان القرآني:

أما الأول فيتم على القول بأن الآية الرابعة والأربعين كلام عام في أهل الكتابين ثم خصص في السادسة والأربعين اليهود بالذكر ثم عاد ليكلمهم على العموم وليس القيادات فقال لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم ﴾ أي آمنوا بالقرآن المجيد وما نزل على النبي ﷺ من السنة المطهرة؛ فالإيمان بالتوراة

يقتضي الإيمان بالقرآن، ولماذا لم يقل آمنوا بالقرآن مباشرة؟ لعل ذلك لأنه أراد أن يذكر القرآن بالخاصية المشتركة له مع الكتب الإلهية وهي النزول أي المصدرية الإلهية ليضمن هذا الوصف البرهان على ضرورة أن يؤمنوا بالقرآن إن كانوا حقًا يؤمنون بالتوراة، وليعم الإيمان للقرآن والسنة المقبولة.

وأما الثاني فيتم على القول بأن الخطاب هنا لليهود كما كان الكلام عنهم في الآية السابقة إلا أنه لما قال عنهم في الآية الرابعة والأربعين: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أراد أن يوبخهم على مَا أَضَاعُوا وَحَرَّفُوا، فناسبه أن يهون من شأن عِلْمِهِمْ بِمَا أُوتُوهُ مِنَ الكِتَابِ، بينما هنا أراد أن يلزمهم بمقتضى مَا حَفِظُوا وَعَرَفُوا، ولأن المقصود بالخطاب في المقام الأول أحبار بني إسرائيل، فناسبه أن يرغبهم بِأَنَّهُمْ شُرِّفُوا بِإِيتَاءِ التَّوْرَاةِ لِتُثِيرَ هِمَمَهُمْ للقيام بمقتضيات ذلك فيؤمنوا، ولو آمن فريق معتبر من القيادات لآمن اليهود جميعًا، فقد قال أبو هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»[1].

العقوبة التهديدية المرعبة:

يهدد الله كلَّ من عرف الحقيقة أو قارب أن يعرفها من أهل الكتاب إن لم يؤمنوا بما أنزل الله مصدقًا لما معهم أصابهم بالعقوبات، وأشار إلى حوادث بعينها يعرفونها كقصة أصحاب السبت ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧):

وهذه عقوبة مرعبة تزلزل الأقدام، وتقشعر منها الجلود، وترجف منها القلوب، وترتعد منها الأنفس الصادقة، وهي ليست عقوبة خاصة بأهل الكتاب بل تشمل كل

(١) أحمد (٢ / ٣٤٦).

من يسمعها ممن يتعالى على الإيمان ومقتضياته جزئيًا أو كليًا حيث سيحدث له الطمس الحسي أو المعنوي.. أفلا يحذر من تباطئه عن إجابة نداء ربه؟ وما للمنتسبين إلى أمة الإسلام يقترفون الإجرام الذي يناقض إيمانهم وهم يمرون على هذا التهديد الرهيب ثم لا يخافون أن يصيبهم؟

فمعنى نطمس: نمحوها فنسويها، فلا يرى فيها عين ولا أنف ولا فم ولا شيء مما يرى في الوجه، والطَّمْسُ إِزَالَةُ الأَثَرِ بِمَحْوِهِ، أَوْ خَفَائِهِ كَمَا تُطْمَسُ آثَارُ الدَّارِ، وَأَعْلَامُ الطُّرُقِ بِنَقْلِ حِجَارَتِهَا أَوْ بِالرِّمَالِ تَسْفُوهَا الرِّيَاحُ عَلَيْهَا، وَمِنْهُ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (يونس: ٨٨)، أَيْ: أَزِلْهَا وَأَهْلِكْهَا، وَالطَّمْسُ عَلَى الأَعْيُنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ (يس: ٦٦)، يَصْدُقُ بِإِزَالَةِ نُورِهَا وَبِغُؤُورِهَا وَمَحْوِ حَدَقَتِهَا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ (القمر: ٣٧)، والمطموس العين: الذي ليس بين جفنيه شق، ويقال: طمست الكتاب والأثر فلا يرى منه شيء.

وَالأَدْبَارُ: جَمْعُ دُبُرٍ، وَهُوَ الخَلْفُ وَالقَفَا، وقوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ إما أن يراد به انقلاب ما في الوجه ليكون في الخلف، وإما أن يراد أن تفر أصحاب هذه الوجوه فزعًا وهلعًا، فترجع إلى الضلالة التي فرت منها ابتداء، ومن الارتداد على الأدبار أن يقصد المرء الهدى المشرق المبين، ثم يهرب فزعًا منه جزعًا من رؤيته حاقدًا عليه، وهو الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد: ٢٥).

هل هذه العقوبة معنوية أم حسية؟

فبعض أهل العلم جعل الطمس معنويًا، والمعنى: آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ مَقَاصِدِكُمُ الَّتِي تَوَجَّهْتُمْ إِلَيْهَا فِي كَيْدِ الإِسْلَامِ، وَنَرُدَّهَا

خَاسِئَةً حَاسِرَةً إِلَى الوَرَاءِ بِإِظْهَارِ الإِسْلَامِ وَنَصْرِهِ عَلَيْكُمْ وَفَضِيحَتِكُمْ فِيمَا تَأْتُونَهُ بِاسْمِ الدِّينِ وَالعِلْمِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ.

وبعضهم جعله حسيًا لكنه معنى مجازيٌّ، والمقصود به الجلاء، فرجعوا من حيث جاءوا إلى بلاد الشام كما حدث لبني النضير وقريظة، فنقل عن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن زَيْدٍ قال: هَذَا الوَعِيدُ قَدْ لَحِقَ اليَهُودَ وَمَضَى، وَتَأَوَّلَ ذَلِكَ فِي إِجْلَاءِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ إِلَى الشَّامِ، فَرَدَّ اللَّه وُجُوهَهُمْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ حِينَ عَادُوا إِلَى أَذْرِعَاتَ وَأَرِيحَاءَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، كَمَا جَاءُوا مِنْهَا بَدْءًا، وَطَمْسُ الوُجُوهِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: تَقْبِيحُ صُورَتِهِمْ يُقَالُ: طَمَسَ اللَّه صُورَتَهُ كَقَوْلِهِ: قَبَّحَ اللَّه وَجْهَهُ، وَالثَّانِي: إِزَالَةُ آثَارِهِمْ عَنْ بِلَادِ العَرَبِ وَمَحْوُ أَحْوَالِهِمْ عَنْهَا.

وبعضهم جعل اللفظ حقيقيًا، وأبقى التهديد قائمًا، وقد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة، والعقوبة الحسية هي الأصل؛ فإن الطمس المعنوي واقع عليهم من خلال أفعالهم المجرمة، وتحركاتهم الآثمة، وقلوبهم القاسية المظلمة.

والجمع بين دعوة أهل الكتاب إلى اتباع الحق البين وبين تذكيرهم بالتهديد الإلهي الذي يحذرهم من العقوبة الأخروية له أثرٌ حقيقيٌ على من كان عنده بقية تقوى منهم، وقد حدث ذلك لكعب بن ماتع الحميري حيث أقبل وهو يريد بيت المقدس، فمرّ على المدينة، فخرج إليه عمر فقال: يا كعب، أسلم! قال: ألستم تقرأون في كتابكم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ (الجمعة: ٥) ؟ وأنا قد حملت التوراة! قال: فتركه. ثم خرج حتى انتهى إلى حمص، قال: فسمع رجلا من أهلها حزينًا وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ

أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾ (النساء: ٤٧). فقال كعب: يا رب آمنت، يا رب أسلمت! مخافة أن تصيبه الآية، ثم رجع فأتى أهله باليمن، ثم جاء بهم مسلمين[١].

وهذا يجعلنا نؤكد على الحقيقة العظيمة وهي أن يكون الخطاب الدعوي جزءًا من الخطاب السياسي في تعاملنا العالمي وخاصة مع أهل الكتاب.

الجناية الثانية: عدم إعلام الرأي العام العالمي بخطورة الوقوع في الشرك مع أنه يمثل الخيانة العظمى، والظلم الأكبر، بل يسهمون في تزيينه للعالم للأسف. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٤٨)، **فتدرج الأمر عندهم من إنكار نبوة النبي الخاتم إلى التواطؤ على عدم إعلام البشرية بأهم المخاطر التي تقابلها، وهو الوقوع في الشرك الأكبر.**

انظر لخطورة الشرك الذي تبينه هذه الآية.. بلغ من خطورته وشؤمه وظلمه أن الرحمن الرحيم الذي رحمته وسعت كل شيء لا يغفر للمشرك.. فكيف ترى الجرم الذي يقترفه من لم يخبر البشرية بهذه الحقيقة العظيمة!؟ وهذه الآية من الآيات الحاكمة للفهم الإسلامي، وهي من المحكمات العظيمة التي نرجع إليها في كثيرٍ من المتشابهات.

فالسياق القبلي والبعدي يربط موضوع الشرك بأهل الكتاب؛ فإن لم يكونوا مشركين فقد حرموا العالم من حقه في معرفة الذنب الذي لا يغفره الله الرحمن الرحيم تعالى جده، وهو الشرك، ويترتب عليه أعظم مصير مستقبلي في حياة الإنسان، والشرك جريمة خطيرة تعني الانقطاع التام بين الله وعباده، فلا يبقى لهم أمل في مغفرة

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٤٦).

إن ماتوا وهم كذلك، ولخطورته ترى أن الله أظهر الاسمَ الجليل في موضعِ الإضمارِ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ لزيادةِ تقبيحِ الإشراكِ وتفظيعِ حالِ من يتصف به [1]، فكيف لا يحذر المسلمون من خطورة الشرك؟ وكيف لا يحذر منه أهل الكتاب، والوصية الأولى من الوصايا العشر العظيمة هي: ألا يشركوا بالله شيئًا!؟ **ففي سفر الخروج ٢٠:**

١ ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلًا: ٢ أنا الرب إلهك، الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ٣ لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ٤ لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض ٥ لا تسجد لهن، ولا تعبدهن؛ لأني أنا الرب إلهك إله غيور.

ويدخل في هذه الجناية إخفاء صورٍ خطيرة من الشرك نتيجة للتشويش العالمي، والتحريف الفكري والنصي، مثل:

الصورة الأولى: شرك الإنكار لوجود إله فيتخذ المرء نفسه إلهًا بديلًا، وهو أقبح أنواع الشرك [2]:

إنه جحود الإله، وقد يقال له: شرك التعطيل، ويطلق عليه الآن: الإلحاد، يا لهذا الغباء المركب، والجهل المجتمع عندما يجحد المرء وجود إلهٍ خلقه.. فاستفتهم: من أين جاءوا؟ إنهم عندما يجحدون ربهم فإنهم يجحدون وجود أنفسهم.. ولذا فإن الملحد إن أنكر خالقه اتخذ نفسه إلهًا، وقد حاول فرعون إنكار وجود الله فتساءل: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣) ؟ ثم تملص من نتيجة الحوار، فأعلن الإعلان الذي أحله البوار، وقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ١٨٧).

(٢) تفسير القاسمي (٣/ ١٥٣).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ (غافر: ٣٦- ٣٧)، فهو يوهم العالم أنه لا يمكن وجود إله للكون إلا إذا رآه فرعون، فما حجم فرعون ليستحق أن يطلع إلى إله السموات والأرض؟ وبعد ذلك أكمل مغالطاته أمام الناس فأصدر لهم مرسومًا قال فيه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤)، ثم زاد في صلفه فنفى وجود أي إلهٍ سواه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ (القصص: ٣٨)، وبهذه المغالطة أنكر وجود رب العالمين.. ماله.. ماله؟ كيف ينكر وجود صانعه؟ فما رأيكم بمن ينكر وجود نفسه؟ ذلك ما يعنيه تمامًا من ينكر وجود صانعه؟.

والمأساة هنا أن بعضًا من أهل الكتب الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن) لا يوجد عندهم أدنى تفاعل في تعليم الناس خطورة هذا النوع من الشرك بينما يشنون حربًا إعلامية ضروسًا ذات هوسٍ مقززٍ على من يحذر من هذا الشرك، وحرموا العالم من معرفة خطورة هذا النوع من الشرك.

وأما الصورة الثانية: شرك المساواة الذي يتم بعبادة غير الله، أو عبادة غير الله مع الله:

كمن زعم أن المسيح هو الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، أو عبد الحجر أو الشجر أو البقر مع الله أو من دونه.. فإذا مارس ذلك من يظهر منهم التفوق الدنيوي الحضاري صار فتنة؛ إذ يتم الربط بين دينه الخرافي وبين تفوقه الدنيوي مع أن التفوق الدنيوي يتعلق بمدى وجود العدل الاجتماعي والأخذ بالأسباب البشرية في العمل والإنتاج.

وترى الذين أوتوا الكتاب عندما كفروا بالنبي ﷺ وما أنزل عليه أسهموا إسهامًا فعالًا في حرمان العالمين من حقهم في معرفة حقيقة نبوة النبي الأمين ﷺ، وهم بذلك حرموهم من أحق حقوقهم في الدنيا، وهو معرفتهم بالله التي لا يمكن أن تتحقق كما ينبغي إلا بذكر وحدانيته وعدم الشرك به سبحانه..

إن عدم تصور مقدار بشاعة هذه الجريمة جرَّأهم على دعم الذين يفسدون في الأرض، وإمدادهم بالسلاح وتنسيقهم المخابراتي مع الأنظمة التي تقتل المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال.. انظر إلى العالم الحائر من الشرق إلى الغرب.. من الدول المتقدمة تكنولوجيًا إلى الدول الفقيرة.. من الدول الكافرة إلى المسلمة.. انظر إليهم جميعًا كيف يتبعون الكتابيين.. فيالَجناية الكبراء المتبوعين على الأتباع الحائرين الضالين، ويالَجناية المسلمين عندما يصرون على التبعية السياسية والثقافية لهم ولا يظهرون هذا الحق المبين. ولذا أكد الله على أنه لا يغفر لمن يشرك به حتى لا يقولوا مع ارتكابهم لهذه الجناية العظيمة: سيغفر لنا، فبين الله لهم ولنا وللعالمين أن من انتهك الحدود حتى وصل إلى الشرك فقد وصل إلى منطقة لا يمكن له أن يجد معها الغفران، وصحح هذه النظرة العنصرية المقيتة عندهم، وعند من يحذو حذوهم من هذه الأمة.

وأما الصورة الثالثة: شرك التشريع:

بتحويل الدين ليكون تابعًا للأهواء والرغبات الشخصية، فيؤخذ منه ما يوافق الشهوة ويطرح غير ذلك، أو يتم إعطاء حق التشريع المطلق للأفراد والمجالس بعيدًا عن الثوابت الشرعية الحاكمة للتفصيلات التشريعية، وهذا الذي يجعل المشرع البشري إلهًا من دون الله.. ألا ترى كيف صار بعض أهل الكتاب ولحقهم بعض المسلمين يمارسون هذا النوع المقزز صراحةً ويتباهون به حتى أفضى بهم الأمر إلى أن يقننوا القوانين التي تمنع العدل وتنصر الظالم في المجالس الدولية من خلال ما يسمى بحق الفيتو؟.. وهذا الذي ذكره النبي ﷺ لواحد من أهل الكتاب هو عدي بن حاتم رضي الله عنه، ويحكي عدي ذلك، فيقول: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه» (١).

وحذر النبي ﷺ من كل صور الشرك الظاهرة والخفية حتى روى معقل بن يسار يقول: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل» فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله الهًا آخر؟ قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل. ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم» (٢)، فالرياء مثلاً شرك أصغر، فكما أنه إله واحد، لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠).

وذكر أبو البقاء أن أنواع الشرك تتمثل في:

شرك الِاسْتِقْلَال: وَهُوَ إِثْبَات إِلَهَيْنِ مستقلين كشرك المَجُوس، وشرك التَّبْعِيض: وَهُوَ تركيب الإِلَه من آلِهَة كشرك بعض النَّصَارَى. **وشرك التَّقْرِيب**: وَهُوَ عبَادَة غير الله ليقرب إِلَى الله زلفى، كشرك مُتَقَدِّمي الجَاهِلِيَّة. **وشرك التَّقْلِيد**: وَهُوَ عبَادَة غير الله تبعا للْغَيْر، كشرك متأخري الجَاهِلِيَّة. **وشرك الأَسْبَاب**: وَهُوَ إِسْنَاد التَّأْثِير للأسباب العادية، كشرك الفلاسفة والطبائعيين وَمن تَبِعَهُمْ على ذَلِك. **وشرك الأَغْرَاض**: وَهُوَ العَمَل لغير الله.

---

(١) سنن الترمذي (٥ / ٢٧٨).

(٢) الأدب المفرد بأحكام الألباني (١ / ٢٥٠)، وصححه الألباني

فَحكم الأَرْبَعَة الأولى الكفْر بِإِجْمَاع، وَحكم السَّادِس المعْصِيَة من غير كفر بِإِجْمَاع، وَحكم الخَامِس التَّفْصِيل، فَمن قَالَ فِي الأَسْبَاب العادية إِنَّهَا تُؤثر بطبعها فقد حُكيَ الإِجْمَاع على كفره [١].

وفعل الغافلين من أهل الكتب الثلاثة في عدم التحذير من الشرك، يأتي عكسه في فعل النبي ﷺ، فقد بذل كل وسع في التحذير من الشرك؛ حتى قال ﷺ: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد» [٢]، وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [٣]، حتى ورد عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺ: أُتيَ بأسيرٍ، فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: «عرف الحق لأهله» [٤].

الجناية الثالثة: التسبب في إيقاع البشرية في الافتراء العظيم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾.

لماذا لا يغفر الله الشرك؟

لأن الشرك لا يمكن تصوره من إنسان سوي التفكير، فالمشرك مفترٍ افتراء عظيمًا، أَي: اخْتَرَعَ ذَنْبًا مُفْسِدًا، عَظِيمَ الفُحْشِ وَالضَّرَرِ، سَيِّئَ المبْدَأِ وَالأَثَرِ، ويمثل الشرك أبشع أنواع الظلم، وأحط الدركات التي يتسفل الإنسان في الوصول إليها مع الوضوح التام لعدم منطقيتها، فالشرك هو أسوأ ما تهبط إليه النفوس من حضيض

(١) الكليات (ص ٥٣٣).

(٢) أحمد (١ / ٤٠٥) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٣) أحمد (٢ / ٢٤٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٤) أحمد(٣ / ٤٣٥) وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف لانقطاعه الحسن: وهو البصري لم يسمع من الأسود بن سريع.

الإجرام والفساد، وَقد ينبثق عن الشرك جَمِيعُ الرَّذَائِلِ وَالخَسَائِسِ الَّتِي تُفْسِدُ النفس البَشَرية وتدمرها.. أتريد دليلًا على ذلك: التفت حواليك.. انظر كم جنت المؤسسات العنصرية الدولية والمحلية من شقاء على البشرية في جميع المجالات، ودعك مما يتم به الضحك على الوجوه من خيرٍ يسيرٍ يحاولون به أن يخفوا الصورة القاتمة السوداء لحكمهم العالمي المعاصر.

والوقوع في الافتراء العظيم يعني حرمان البشرية من رَحْمَةِ اللهِ؛ إذ تبصرنا الآية بسعة رحمة الله التي يجد أكابر المجرمين فيها الأمل ليبدؤوا حياة جديدة، ويحاولوا تغيير سلوكهم:

وقد بين النبي ﷺ بشاعة ظلم الشرك فقال: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وَقال الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضًا حتي يدين لبعضهم من بعض» (١).

وهذه الآية من الآيات الحاكمة للفهم الإسلامي.

هذه الآية في تركيبها من أعظم الآيات التي تضع القواعد الحاكمة في الفهم الإسلامي، ولذا ابْتُدِئَت بِمُحْكَمٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، فهي دالة بالنص الصريح الذي لا تختلف فيه الأفهام أن المشرك لا يتجاوز عنه في الآخرة، ثم جاءت الجملة الثانية ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وهذه الجملة قَالَ فيها القُرْطُبِيُّ: «مِنَ المُتَشَابِهِ الَّذِي قَدْ تَكَلَّمَ العُلَمَاءُ فِيهِ» (٢)، وذلك لأن ظاهرها يَقْتَضِي أُمُورًا مُشْكَلَةً:

(١) مسند البزار ١٨ (١٣ / ١١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم١٩٢٧.

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٤٥).

الأول: أنّ يَقْتَضِي أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَغْفِرُ الكُفْرَ الَّذِي لَيْسَ بِشِرْكٍ [١].

الثَّانِي: أَنَّهُ يَغْفِرُ لِمُرْتَكِبِ الذُّنُوبِ وَلَوْ لَمْ يَتُبْ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ قَدْ لَا يَغْفِرُ لِلْكَافِرِ بَعْدَ إِيمَانِهِ وَلِلْمُذْنِبِ بَعْدَ تَوْبَتِهِ، لِأَنَّهُ وَكَّلَ الغُفْرَانَ إِلَى المَشِيئَةِ، وَهِيَ تُلَاقِي الوُقُوعَ وَالِانْتِفَاءَ» [٢]

ولكن هذا التشابه يزول برد هذه الجملة إلى المحكمات، ولذا قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «وَهَذِهِ الآيَةُ هِيَ الحَاكِمَةُ بِبَيَانِ مَا تَعَارَضَ مِنْ آيَاتِ الوَعْدِ وَالوَعِيدِ» [٣]، وَتَلْخِيصُ الكَلَامِ فِيهَا أَنْ يُقَالَ:

النَّاسُ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ: كَافِرٌ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، فَهَذَا مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ بِإِجْمَاعٍ، وَمُؤْمِنٌ مُحْسِنٌ لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ فِي الجَنَّةِ مَحْتُومٌ عَلَيْهِ حسب الوَعْد من اللَّهِ بِإِجْمَاعٍ، وَتَائِبٌ مَاتَ عَلَى تَوْبَتِهِ فَهَذَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَجُمْهُورِ فُقَهَاء الأمّة لَاحق بِالمُؤْمِنِ المُحْسِنِ، وَمُذْنِبٌ مَاتَ قَبْلَ تَوْبَتِهِ فَهَذَا هُوَ مَوْضِعُ الخِلَافِ [٤]، والصحيح أنه تحت المشيئة، فقَوْلَهُ: ﴿وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ﴾ يبطل رأي المُعْتَزِلَةِ، وَقَوْلَهُ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ يرد عَلَى المُرْجِئَةِ.

وبناء على تحديد ما يدخل في الشرك ينبغي للإنسان التورع عن إطلاق التكفير بغير حق، فأول من أحدث التكفير الخوارج الذين خرجوا على عثمان ثم على علي ﷺ، ثم صاروا يقتلون المسلمين بأسماء مختلفة، وقد قرر الغزالي في (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) أن الكفر هو تكذيب الرسول ﷺ في شيء مما جاء به.

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٨١).

(٣) المحرر الوجيز٢/ ٦٤.

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٨١).

والإيمان تصديقه في جميع ما جاء به [١].

فدخل ضمن الجملة الثانية كلُّ الذنوب حتى أكابرها، فعن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ لا نَشُك في قاتلِ النفس، وآكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرَّحم، حتى نزلت هذه الآية: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، فأمسكنا عن الشهادة [٢]، وعنه قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨) قال: «إني ادخرت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي»، قال: فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا ثم نطقنا بعد ورجونا [٣].

وهذا لا يعني التساهل في كبائر الجرائم. فانظر لجمال التعبير بالمضارع ﴿لا يغفر﴾، ﴿ويغفر﴾ ففي التعبير به -كما يقول البقاعي-: «استكفاف مع استعطاف، واستجلاب في استرهاب» [٤].

وقد أبانت هذه الآية أنّ كلَّ صاحب كبيرةٍ ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليها، ما لم تكن كبيرته شركًا بالله، ونقل بعض المفسرين أن بعض المشركين كان لَا يَمْنَعُهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ (الفُرْقَانِ: ٦٨) فَقَالُوا: قَدِ ارْتَكَبْنَا كُلَّ مَا فِي الآيَةِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ (الفُرْقَانِ: ٧٠) فَقَالُوا: هَذَا شَرْطٌ شَدِيدٌ نَخَافُ أَنْ لَا نَقُومَ بِهِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فَقَالُوا:

(١) تفسير القاسمي (٣/ ١٦٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٥٠).

(٣) مسند أبي يعلى (١٠ / ١٨٥)، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٣٦٥): «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريج وهو ثقة».

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٢٩٨).

نَخَافُ أَنْ لَا نَكُونَ من أهل مشيئته، فنزل ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (الزُّمَرِ: ٥٣) فَدَخَلُوا عِنْدَ ذَلِكَ فِي الإِسْلَامِ.

وجاء نحو ذلك عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ وَحْشِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ جِئْتُكَ مُسْتَجِيرًا بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أَرَاكَ عَلَى غَيْرِ جِوَارٍ، فَأَمَا إِذَا كُنْتُ مُسْتَجِيرًا فَأَنْتَ فِي جَوَارِي حَتَّى تَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى»، قَالَ: فَإِنِّي أَشْرَكْتُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَقَتَلْتُ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ، فَهَلْ تُقْبَلُ مِنْ مِثْلِي تَوْبَةٌ؟، فَصَمَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يُجِبْهُ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الفرقان: ٦٨) إِلَى قَوْلِهِ ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠) الآيَةَ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَى شَرْطًا، فَلَعَلِّي لَا أَعْمَلُ صَالِحًا، أَنَا فِي جِوَارِكَ حَتَّى أَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ، فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨) فَدَعَاهُ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ وَحْشِيٌّ: فَلَعَلِّي مِمَّنْ لَا يَشَاءُ اللهُ، أَنَا فِي جِوَارِكَ حَتَّى أَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٣) الآيَةَ قَالَ وَحْشِيٌّ: الآنَ لَا أَرَى شَرْطًا، فَتَشَهَّدَ وَأَسْلَمَ [١]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذِهِ الآيَةِ: {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ}.قال: «أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى فَلا يُشْرَكُ بِي غَيْرِي وَأَنَا أَهْلٌ لِمَنِ اتَّقَى أَنْ لا يُشْرِكَ بِي غَيْرِي أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»[٢]، وعن خالد بن دهقان قال: كنا في غزوة القسطنطينية بذلقية (اسم مدينة بالروم) فأقبل رجل من أهل فلسطين من أشرافهم وخيارهم يعرفون ذلك له يقال له هانىء بن كلثوم بن شريك الكناني فسلم على عبد الله بن أبي زكريا وكان يعرف له حقه، قال لنا خالد:

(١) شعب الإيمان (٩/ ٣٤٢).

(٢) مسند أبي يعلى٦/ ٦٦، السنة لابن أبي عاصم ومعها ظلال الجنة للألباني (٢/ ٤٦٩)، وحسنه الألباني لغيره.

فحدثنا عبد الله بن أبي زكريا قال سمعت أم الدرداء تقول سمعت أبا الدرداء يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركًا أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا» فقال هانىء بن كلثوم سمعت محمود بن الربيع يحدث عن عبادة بن الصامت أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من قتل مؤمنًا فاعتبط -يريد أنه قتله ظلمًا- بقتله لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا » ، قال لنا خالد ثم حدثني ابن أبي زكريا عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لايزال المؤمن مُعْنِقًا -يريد خفيف الظهر يعنق في مشيه سير المخف- صالحًا ما لم يصب دمًا حرامًا فإذا أصاب دمًا حرامًا بلَّح -معناه أعيا وانقطع-» [١].

وعن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة [٢]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفَرْتُ لَهُ، وَلا أُبَالِي مَا لَمْ يُشْرِكْ بِي شَيْئًا[٣].

وبموجب هذا المعنى الظاهر للآية قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٤]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مجادلة أحدكم في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أُدخلوا النار.

(١) أبو داود (٤ / ١٦٧)، وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي (٥ / ٥٤٨)، وصححه الألباني.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٩ / ٤٤٠).

(٤) سنن الترمذي (٥ / ٥٤٨)، قال هذا حديث حسن غريب.

يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا فأدخلتهم النار، فيقول: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم. فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم، فيقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا. قال: ويقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان. ثم قال: من كان في قلبه وزن نصف دينار، حتى يقول من كان في قلبه وزن ذرة» قال: أبو سعيد فمن لم يصدق فليقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨) [١]، وعن ضمضم بن جوس اليمامي قال: قال لي أبو هريرة رضي الله عنه: يا يمامي! لا تقولن لرجلٍ: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة أبدًا. قلت: يا أبا هريرة! إن هذه لكلمةٌ يقولها أحدنا لأخيه، وصاحبه إذا غضب. قال: فلا تقلها؛ فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «كان في بنى إسرائيل رجلان: كان أحدهما مجتهدًا في العبادة، وكان الآخر مسرفًا على نفسه. فكانا متآخيين، فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول: يا هذا أقصر. فيقول: خلني وربي أبعثت علي رقيبًا؟ قال: إلى أن رآه يومًا على ذنب استعظمه. فقال له: ويحك أقصر. قال: خلني وربى. أبعثت علي رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة أبدًا. فبعث الله إليهما ملكًا فقبض أرواحهما، واجتمعا. فقال للمذنب: اذهب، فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: أكنت بي عالـمًا؟ أكنت على ما في يدي خازنًا؟ اذهبوا به إلى النار. قال: فوالذي نفس أبي القاسم بيده لتكلم بالكلمة أوبَقَتْ دنياه وأخرته» [٢].

---

(١) سنن النسائي (٨ / ١١٢).

(٢) أحمد(٢ / ٣٢٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن ومتنه غريب، وعند البزار (١٦ / ٢٤٤): قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»، فيحتمل أن يكون الحالف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ورواه أبو هريرة أحيانًا من قوله.

الجناية الرابعة: قلب الحقائق بالتزكية المطلقة لأنفسهم، واستخدام الإعلام المحلي والعالمي لإثبات ذلك . ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾.

وكلمة يزكي معناها هنا: يُظْهِرُ نفسه خالصًا من الرذائل، مملوءًا بالفضائل، والتزكية هنا ليس المراد طلب إيجاد زكاة النفس؛ إذ هذا معنى مطلوب، فقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا»[1].

وإذا كانت تزكية النفس مطلوبة، فما المراد بالتزكية المنهي عنها هنا؟

المراد بها هنا نسبة كل خيرٍ وفضلٍ للنفس.. يراد أن يزعم صاحبها أنه قد طُهِّرت حياته من الرذائل، ومُلِئ بالفضائل..

فتجد الله تعالى ذكره يُعَجِّبُ عبادَه من حالهم بكلمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كأنه يقول: انظر إلى هؤلاء الناس الذين يكثرون الدعاوى العريضة والافتراءات، فيدَّعون أنهم هم أصحاب الحق والاعتدال والعدل ورسل الرحمة وأساس الاستقامة في العالم، وينسبون لأنفسهم كل خير، ويعطون لأنفسهم حق توزيع الألقاب وتزكية الفئات، والله سبحانه يبين جناية هؤلاء المدعين على العالم ويفضحهم.. فالآية تتكلم عمن زعم أنه زكي النفس.. فمن يدخل فيها -أيدك الله-؟

يدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى

(١) صحيح مسلم (٨ / ٨١) برقم ٧٠٨١.

والزلفى عند الله [١]، وأولهم من جاء ذكرهم في السياق، وهم المنحرفون من الذين أوتوا الكتاب، فإن بعض اليهود كانوا يقولون: «إنا نعلم أبناءنا التوراة صغارًا، فلا تكون لهم ذنوب، وذنوبنا مثل ذنوب أبنائنا، ما عملنا بالنهار كُفِّر عنا بالليل» [٢]، ومن تزكيتهم لأنفسهم أنهم يقولون مبينين محدودية الضرر الذي سيصيبهم مع عظم الجرائم التي يمارسونها: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠)، ويقولون: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ (البقرة: ١١١)، ويزكون أنفسهم بما لم يعملوه من الأعمال الصالحة ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ (آل عمران: ١٨٨).

ويدخل فيها ثانيًا: كل من كان مثلهم، وادعى دعواهم.. أفتحسب أن المسلمين في منأى عن سبيلهم في النتائج إذا اتبعوا حذوهم في المقدمات؟ كيف يزكي بعض المسلمين أنفسهم بأنهم من خير أمة أخرجت للناس بينما هم يبعدون عن مناهجهم أحسن حديث أنزل للناس؟ كيف يزعمون انتسابهم لخير الأنبياء، ومحبتهم له، وهم يحاربون منهجه في حياتهم؟ كيف يزعمون الدعوة إلى الإسلام وهم أسوأ دعاية منفرة عنه؟

فهذه صفةٌ تَعُمُّ أهلَ الكتب الثلاثة، فتجد الله تعالى ذكره يُعَجِّبُ عبادَه من حالهم بكلمة ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ كأنه يقول: انظر إلى هؤلاء الناس الذين يكثرون الدعاوى العريضة والافتراءات، فيدَّعون أنهم هم أصحاب الحق والاعتدال والعدل ورسل الرحمة وأساس الاستقامة في العالم، وينسبون لأنفسهم كل خير، ويعطون لأنفسهم حق توزيع الألقاب وتزكية الفئات، والله سبحانه يبين جناية هؤلاء المدعين على العالم

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٥٥٢).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٥٣).

ويفضحهم فهؤلاء كما وصفوا في الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي بسند فيه ضعف، ورواه الدارمي بسند صحيح موقوفًا على معاذ بن جبل قال: (سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أعمالهم طمع لا يخالطه خوف إن قصروا قالوا: سنبلغ وإن أساؤوا قالوا: سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئًا)، وكذا رواه بسند صحيح موقوفًا على كعب قال: (إني لأجد نعت قوم يتعلمون بغير العمل ويتفقهون لغير العبادة ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون جلود الضآن وقلوبهم أمر من الصبر فبي يغترون أو إياي يخادعون فحلفت بي لأتيحن لهم فتنة تترك الحليم فيها حيرانًا).

ومن هنا يستبين لك المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؛ فإن بعض من يشرك بالله يزكي نفسه، ويظن أنه بذلك سيد المهتدين، فجاءت هذه الآية تفصل حاله، وتفضح خياله، ولكنها صيغت على هيئة الاستقلال ليدخل فيها كل مزَكٍّ نفسه بغير حق، فدخل فيها الذين يصمون الآذان، ويملؤون سطور الصحف بمدح أنفسهم من المسلمين أيضًا، وقد جاء التحذير من المدح في غير مكانه لأنه يتضمن تزكية للذات أو للآخرين بغير حق، ويحذرنا ابن مسعود من وقوع المسلمين في هذا الفخ الشيطاني، فعن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليغدو بدينه، ثم يرجع وما معه منه شيء! يلقى الرجل ليس يملك له نفعًا ولا ضرًا، فيقول: «والله إنك لذَيْتَ وذَيْتَ»، ولعله أن يرجع ولم يَحْلَ من حاجته بشيء، وقد أسخط الله عليه. ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ (١)، وعَنْ أَبِي مُوسَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي مَدْحِهِ فَقَالَ: أَهْلَكْتُمْ، أَوْ قَطَعْتُمْ - ظَهْرَ الرَّجُلِ (٢)، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٥٥).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٣١)

رَجُل عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ مِرَارًا ثُمَّ قَالَ: - مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلاَنًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ[1].

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ الحَارِثِ أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ فَعَمِدَ المِقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ - وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا - فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الحَصْبَاءَ فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ المَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»[2].

وروى أحمد عن عمر بن الخطاب: من قال: أنا مؤمن فهو كافر. ومن قال: هو عالم، فهو جاهل. ومن قال: هو في الجنة فهو في النار. ورواه ابن مردويه عنه أنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه، فمن قال إنه مؤمن فهو كافر، ومن قال هو عالم فهو جاهل، ومن قال هو في الجنة فهو في النار.

وربما تسأل هنا: لماذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ولم يقل: ألم تر إلى اليهود أو إلى أهل الكتاب الذين يزكون أنفسهم؟

والجواب: واضح لأن الله يربي المسلمين على اتقاء ما وقع فيه غيرهم من الإجرام والفجور، فيدخل في سنة التزكية كل من زكى نفسه، ولو انتسب إلى الإسلام، فسنة التزكية جارية على المسلمين كما جرت على غيرهم، وفي ذلك تأنيب شديد للمسلمين؛ إذ حتام يبقون في زعمهم أنهم المسلمون، وهم لا يقيمون الدين كما شرعه الله.. إن تزكية النفس لا تغني من الحق شيئًا سواء أكانت صادرة من أهل الكتاب أم من المسلمين؟ وكم ترى من يسمى نفسه أهل الحق، أو أهل العدل، أو

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٣١)

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٢٢٨).

ناصر المستضعفين، أو معز أهل الدين، أو القائم على ولاية أهل البيت، أو الحامي لحاكمية الشريعة وهو أضل الضالين، وأشد الخلق قسوة بين العالمين.

الجناية الخامسة: منع الرد على المتلاعبين بالحقائق، فالآية تبصرنا بضرورة الرد عليهم لحمايتهم والبشرية من غفلتهم..

ألا ترى أن هذا يجعلنا نشعر بمقدار الإضلال الذين ينشرونه عندما لا توجد منابر للرد عليهم تبين للعالمين الحقيقة، والله يرد على تفاخرهم بأنهم أصحاب الصراط السوي، وأهل حقوق الإنسان بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٤٩، ٥٠).

الـرَّد الأول: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء:٤٩)، فالعبرة ليست بالدعاوى العريضة بل بالأعمال، فليذكروا أن الحكم بين المخلوقات مدحًا وذمًا، وتوزيع الألقاب بناء على ذلك، حق خالص لله رب الأرض والسماوات، ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾، تبصرنا بأن الله يثيب هؤلاء الذين يزكون أنفسهم من خلال طاعاتهم الصحيحة لا من خلال التفاخر بتوزيع الألقاب في العالم، فليحذروا فإن الله سيحاسبهم على ما قدموا من أعمال وما قاموا به من جرأة في ادعاء أنهم أزكياء النفس، دون أن يظلمهم أقلَّ الأشياء التي لا خطر لها، فكيف بما له خطر؟، و«الفتيل» قيل: هو ما خرج من بين الإصبعين والكفين من الوسخ، إذا فتلتَ إحداهما بالأخرى، وأصله المفتول، وقيل: الفَتِيلُ: مَا كَانَ فِي شِقِّ النَّوَاةِ، وَالنَّقِيرُ: النُّقْطَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ، وَالقِطْمِيرُ: القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ عَلَى النَّوَاةِ، وَهَذِهِ الأَشْيَاءُ كُلُّهَا تُضْرَبُ أَمْثَالًا لِلشَّيْءِ التَّافِهِ الحَقِيرِ، أَيْ: لَا يُظْلَمُونَ لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا [1].

(١) الطبري (٨/ ٤٥٩)..

الرد الثاني: ينبغي أن نعلم خطورة زعمهم أنهم خير الناس، وينبغي أن يدركوا خطورة تلاعبهم بالإعلام لإصباغ الشرعية لأنفسهم في أن يفعلوا ما شاءوا لأنهم الصالحون وغيرهم المجرمون، ولأنهم الذين يقومون بحقوق الإنسان وغيرهم ليسوا كذلك...ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء:٥٠)، فالتزكية الخالصة حق لمن له العلم التام، والقدرة الشاملة، والحكمة البالغة، والعدل السوي، فحقيقة المزكي أنه يتكلم باسم الله المحيط بكل شيء، هنا تعلم معنى قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء:٥٠)، فلا يعزب عن عقل ذي تفكير أن التزكية الخالصة حق لمن له الكمال التام علمًا وقدرة وإحاطة بخلجات النفوس والقلوب.. إنه الله يزكي من يشاء بما له من العلم التام والقدرة الشاملة والحكمة البالغة والعدل السوي، فحقيقة المزكي بين يدي الله -جلَّ شأنه- أنه يتكلم باسم الله المحيط بكل شيء، هنا تعلم معنى قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٥٠).

فتعمدهم الافتراء لتشويه الحقيقة تم بتزكية أنفسهم وتوزيع الألقاب الفخمة على بعضهم، وذلك دليل على كذبهم على ربهم، والذي يكذب على ربه أولى أن يكذب على الخلق، ويدمر حياتهم.

الجناية السادسة: الإيمان بالجبت والطاغوت، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ (النساء:٥١).

تعجب منهم كيف يؤتون نصيبًا من الكتاب، ثم يؤمنون بالجبت والطاغوت! هؤلاء القوم تعجب من عوج تفكيرهم، فقد أوتوا نصيبًا من الكتاب، وبدلًا من العمل بمقتضاه نفذوا أكبر جريمتين مضادتين لمقتضى الكتاب، لذا قال الله عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ألم تر إليهم.. انظر إليهم، وكان الأصل:

إليهم، ولكنه أعاد ذكر أنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب؛ لزيادة التقريع والتوبيخ، وليوقظ الإنسانية الغافلة عن حقيقة نفسياتهم العفنة، ويدخل فيهم: كل من عبد الجبت والطاغوت ممن ينتسب إلى اليهود، والنصارى، والمسلمين وغيرهم.

ألا يستحقون أن يتعجب الخلق من إجرامهم وهم الذئاب المفترسة التي تظهر نفسها في زي الحملان البيضاء الوديعة.. ماذا يفعلون؟ يؤمنون بالجبت والطاغوت.. ما الجبت؟ وما الطاغوت؟

إن «الجِبْتُ» هو الرَّدِيءُ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ، فيدخل فيه السِّحْر، والسَّاحِرِ، وَالشَّيْطَانِ، وأعماله حتى قَالَ الحَسَن: رَنَّة الشَّيْطَان، والجَبُوبَةُ: المَدَرةُ الغَلِيظَةُ تُقْلَعُ مِنْ وَجْهِ الأَرْضِ، والمَجَبَّةُ: المَحَجَّةُ، وجَادّةُ الطَّرِيق، فكأن الجبت: هو الشيء الرديء الغليظ الذي يحجه الناس ويقصدونه رغبًا ورهبًا مما لا خير فيه، وَ«الطَّاغُوتُ»: مِنْ الطُّغْيَانِ، والطُّغْوانُ لغةٌ فيه، والطَّغْوَى مثلُه، وطاغُوتٌ، وإن جاء على وزن لاهُوتٍ فهو مَقْلُوبٌ لأَنه من طَغَى، ولاهُوت غير مَقْلوبٍ لأَنه من لاه بمَنْزِلة الرَّغَبُوت والرَّهَبُوتِ، وأَصل وَزْن طاغُوتٍ طَغَيُوت على فَعَلُوتٍ، ثم قُدِّمَتِ الياءُ قبل الغينِ مُحافَظَة على بَقائِها فَصار طَيَغُوت، ووَزْنُه فَلَعُوت، ثم قُلِبت الياء أَلفًا لتَحَرُّكها وانفتاح ما قبلها فصار طاغُوت، ويطلق على المفرد كما قال تعالى ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾، وقد يكون جَمْعًا كما قال تعالى جده: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم﴾ وهو مثل الفُلْكِ يُذَكَّرُ ويؤنَّث كما قال جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾، والفِعْل طَغَوْت وطَغَيْت، طَغَى يَطْغى طَغْيًا ويَطْغُو طُغْيانًا، وما فعله صادر عن طغيان:

۞ فيدخل فيهما: الشيطان، والكاهِنُ وكلُّ رأْسٍ في الضَّلال، والمخلوقات التي تعبد، والشركاء الذي يشرعون الجرائم مما يضاد الشريعة، ويهدم الطبيعة، ويدخل

فيهما الهوى الذي جعله صاحبه إلهًا له، ويدخل في الطغيان الإِسْرَافُ فِي العصيان، فَكُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى المَعَاصِي الكِبَارِ لَزِمَهُ هَذَا الِاسْمُ، والجَبَّارُ العَنيدُ، والطاغِيةُ الأَحْمَقُ المسْتَكْبِرُ الظالِمُ الذي لا يُبالي ما أَتى يأْكلُ الناسَ ويَقْهَرُهم، لا يَثْنِيه تَحَرُّجٌ ولا فَرَقٌ، وقد ذكر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى الجامع للطاغوت فقال: «والصواب من القول عندي في «الطاغوت»، أنه كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، وإنسانًا كان ذلك المعبود، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صنمًا، أو كائنًا ما كان من شيء» (١).

فمرجع كلمة (الجبت) إلى الشيطان والسحر إلا أنها تعم كل ما يتعلق به، ولها تعلق خاص بالشيطان، ومرجع الطاغوت إلى كل ما يتم التحاكم إليه من البشر والقوانين من دون الله، ولذا جاء عن مجاهد في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، قال: «الجبت» السحر، و«الطاغوت»، الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم (٢).

والظاهر أن الجبت هو الشيء الرديء الغليظ الذي يحجه الناس ويقصدونه رغبًا ورهبًا مما لا خير فيه مثل: أوثان الحجر والبشر، أو أوثان التشريعات الظالمة، كما يدخل فيه السحر وأوهام الأساطير الإلحادية والكهانة المفترية مثل أوهام هرمجدون، ومن الجبت ما يتعلق بمحاولة معرفة الغيب رجمًا بالظنون، وافتراء على الناس، ولذا روى قَطَن بْن قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ -بسند فيه نظر- قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «العِيَافَةُ وَالطِّيَرَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الجِبْتِ» (٣).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٥/ ٤١٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٦٢).

(٣) أبو داود (٤ / ٢٣).

والطرق الثلاث ملتويةٌ لمحاولة معرفة الغيب، فالعِيَافَة بِالخَطِّ، وَهُوَ ضَرْبُ الرَّمْلِ، وَتُطْلَقُ العِيَافَةُ عَلَى التَّفَاؤُلِ وَالتَّشَاؤُمِ بِمَا يُؤْخَذُ مِنَ الأَلْفَاظِ بِطَرِيقِ الِاشْتِقَاقِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

تَفَاءَلْتُ فِي أَنْ تَبْذُلِي طَارِفَ الوَفَا بِأَنْ عَنَّ لِي مِنْكِ البَنَانُ المُطَرَّفُ
فَأَوْصَلَتَا مَا قُلْتُهُ فَتَبَسَّمَتْ وَقَالَتْ أَحَادِيثُ العِيَافَةِ زُخْرُفُ

وَالطِّيَرَةُ: التَّشَاؤُمُ، وَأَصْلُهُ مِنْ زَجْرِ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: هُوَ الضَّرْبُ بِالحَصَا أَوِ الوَدَعِ، أَوْ حَبِّ الفُولِ، أَوِ الرَّمْلِ لمعرفة الحظ والمستقبل، وما هو إلا الدَّجَلُ وَالأَوْهَامُ وَالخُرَافَاتُ، ويتصدر ذلك السحر والتعلق بالشيطان.

والطاغوت من طَغَى يَطْغى طُغْيانًا جاوَزَ القَدْرَ وغَلا في استكباره وإصراره على الصفة الرديئة، كأن يطغى بماله أو ملكه فيخضع له الظالمون، وتجد عددًا لا يستهان به من أهل الكتاب المعاصرين يبجلون الشيطان الذي يسمونه إله النور، وهذا الإنكار الشديد عليهم في إيمانهم بالجبت والطاغوت يكشف لنا حقيقة تلاعبهم بدينهم.. أليست الوصية الأولى من الوصايا العشر العظيمة هي ألا يشركوا بالله شيئًا.

الجناية السابعة: تزكيتهم للمجرمين في العالم لنشر الفساد في الأرض. ومع دخولها فيما سبق، إلا أن المراد هنا صنف مخصوص ممن يتم تزكيتهم وهم مجرمو الوثنية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ (النساء:٥١).

وهذه الجريمة تمثل الكفر العملي (التحالف مع الوثنيين ضد المؤمنين)، وتزكية مجرمي العالم لنشر الفساد في الأرض ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٥١)، وهنا يبرز مدى تأثير أهل الكتاب على الوثنيين، وبدلًا من استغلال هذا النفوذ لتوجيههم إلى الخير استغلوه في السوء، وزادوا الوثنيين

ضلالًا فوق الضلال بادعاء أنهم خير من المؤمنين في طرق حياتهم واعتقاداتهم وأفعالهم، ومن أمثلتهم الواقعية ما جاء عن ابن عباس ﷺ قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت حَبْر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصُّنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (سورة الكوثر: ٣)، وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[1]، والصنبور: النخلةُ تخرج من أَصْلِ النخلةِ الأُخرى من غير أَن تُغْرَسَ، النخلة المنفردة من جماعة النخل، ورجل صُنْبُورٌ: فَرْد ضعيف ذليل لا أَهل له ولا عَقِب ولا ناصر.

وفي رواية عن السدي: قال: لما كان من أمر رسول الله ﷺ واليهود من بني النضير ما كان، حين أتاهم يستعينهم في دية العامريَّين، فهمّوا به وبأصحابه، فأطلع الله رسوله على ما هموا به من ذلك. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فهرب كعب بن الأشرف حتى أتى مكة، فعاهدهم على محمد، فقال له أبو سفيان: يا أبا سعد، إنكم قوم تقرؤون الكتابَ وتعلمون، ونحن قوم لا نعلم! فأخبرنا، ديننا خير أم دين محمد؟ قال كعب: اعرضوا عليّ دينكم. فقال أبو سفيان: نحن قوم ننحر الكوماء، ونسقي الحجيج الماء، ونقري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ونعبد آلهتنا التي كان يعبد آباؤنا، ومحمد يأمرنا أن نترك هذا ونتبعه! قال: دينكم خير من دين محمد، فاثبتوا عليه، ألا ترون أنّ محمدًا يزعم أنه بُعِث بالتواضع، وهو ينكح من النساء ما شاء! وما نعلم مُلْكًا أعظم من ملك النساء!! فذلك حين يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[2].

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٦٦)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٦٨).

إنهم الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يقومون على مر الزمان بحشد القوى والطاقات المجرمة عبر العالم لاستئصال المسلمين، فتخلوا عن مبادئ دينهم، وقاموا يزكون أكثر المجرمين خبثًا، وأسوأهم اعتقادًا ليسبغوا على أنفسهم الشرعية، وما زال فريق من الذين أوتوا الكتاب إلى اليوم يحزبون الأحزاب، ويجيشون الجيوش ضد المسلمين، ويسيرون على سنة الذين خلوا من قبلهم.

فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ وَعُثْمَانَ بْنِ يَهُوذَا أَحَدِ بَنِى عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ عَنْ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالُوا: كَانَ الَّذِينَ حَزَّبُوا الأَحْزَابَ نَفَرٌ مِنْ بَنِى النَّضِيرِ وَنَفَرٌ مِنْ بَنِى وَائِلٍ، وَكَانَ مِنْ بَنِى النَّضِيرِ حُيَىُّ بْنُ أَخْطَبَ وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِى الحُقَيْقِ وَأَبُو عَمَّارٍ وَمِنْ بَنِى وَائِلٍ حَىٌّ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْ أَوْسِ اللَّهِ وَحْوَحُ بْنُ عَمْرٍو وَرِجَالٌ مِنْهُمْ خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَشِطُوا لِذَلِكَ ثُمَّ ذَكَرَ القِصَّةَ فِي خُرُوجِ أَبِى سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَالأَحْزَابِ قَالَ: وَخَرَجَ حُيَىُّ بْنُ أَخْطَبَ حَتَّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ صَاحِبَ عَقْدِ بَنِى قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ فَلَمَّا سَمِعَ بِهِ كَعْبٌ أَغْلَقَ حِصْنَهُ دُونَهُ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ افْتَحْ لِى حَتَّى أَدْخُلَ عَلَيْكَ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا حُيَىُّ إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشْئُومٌ وَإِنَّهُ لاَ حَاجَةَ لِى بِكَ وَلاَ بِمَا جِئْتَنِى بِهِ إِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلاَّ صِدْقًا وَوَفَاءً وَقَدْ وَادَعَنِي وَوَادَعْتُهُ فَدَعْنِي وَارْجِعْ عَنِّي فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنْ غَلَّقْتَ دُونِى إِلاَّ عَنْ جَشِيشَتِكَ أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا فَأَحْفَظَهُ فَفَتَحَ لَهُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ بِقُرَيْشٍ مَعَهَا قَادَتُهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهَا بِرُومَةَ وَجِئْتُكَ بِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهَا إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ جِئْتُكَ بِبَحْرٍ طَامٍّ لاَ يَرُدُّهُ شَىْءٌ فَقَالَ: جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِالذُّلِّ وَيْلَكَ فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لاَ حَاجَةَ لِي بِكَ وَلاَ بِمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ حُيَىُّ بْنُ أَخْطَبَ يَفْتِلُهُ فِى الذِّرْوَةِ وَالغَارِبِ حَتَّى أَطَاعَ لَهُ وَأَعْطَاهُ حُيَىُّ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ لَئِنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ قَبْلَ أَنْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا لأَدْخُلَنَّ مَعَكَ فِي حِصْنِكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ فَنَقَضَ كَعْبٌ العَهْدَ وَأَظْهَرَ البَرَاءَةَ مِنْ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَبَرُ كَعْبٍ وَنَقْضُ بَنِي قُرَيْظَةَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ وَسَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَخَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ لِيَعْلَمُوا خَبَرَهُمْ فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِمْ وَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ فَذَكَرَ قِصَّةَ سَبَبِ إِسْلاَمِ ثَعْلَبَةَ وَأَسِيدٍ ابْنَىْ سَعْيَةَ وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ وَنُزُولِهِمْ عَنْ حِصْنِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَإِسْلاَمِهِمْ، وَخَرَجَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فِيمَا زَعَمَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَمْرُو بْنُ سَعْدِيٍّ القُرَظِيُّ، فَمَرَّ بِحَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَنَا عَمْرُو بْنُ سَعْدِيٍّ وَكَانَ عَمْرٌو قَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَدْرِهِمْ وَقَالَ: لاَ أَغْدِرُ بِمُحَمَّدٍ أَبَدًا فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ حِينَ عَرَفَهُ: اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنِي عَثَرَاتِ الكِرَامِ ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ فَخَرَجَ حَتَّى بَاتَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ثُمَّ ذَهَبَ فَلَمْ يُدْرَ أَيْنَ ذَهَبَ مِنَ الأَرْضِ فَذُكِرَ شَأْنُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «ذَلِكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللَّهُ بِوَفَائِهِ». وَذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي هَذِهِ القِصَّةِ: أَنَّ حُيَيًّا لَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى شَأَمَهُمْ، فَاجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ عَلَى الغَدْرِ عَلَى أَمْرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ غَيْرَ أَسَدٍ وَأَسِيدٍ وَثَعْلَبَةَ خَرَجُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١).

وهذه الوقائع لا تدل على أنها سبب نزول الآية بل الآيات شديدة الإحكام والاتصال، والسورة مدنية، ولعل ذلك وقع قرب معركة الأحزاب حيث تواطأ اليهود مع المشركين ولأنهم يزكون أنفسهم فهم يمنعون الناس من اتباع الحق، ويحاربون كل من يجهر به، بل يرمونه عن قوسٍ واحدة.

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٩ / ٢٣٢).

وتصدق هذه التزكية للمجرمين على بعض المسلمين المنحرفين، واسمع إلى ابن الزملكاني يبثك الآلام من صنف من الناس اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، فيقول: «قال بعض مشايخنا: كأن هذه الآية فينا نزلت وقد طم البلاء وعم بسبب طمع العلماء في الحطام وصار المؤمن القابض على دينه معهم كالقابض على الجمر لأنهم قد تمكنوا من صدور الخلق لغلبة الجهل عليهم فهم المقتدى بهم والمنظور إليهم فهم عند الخلق علماء وفي الملكوت جهال فمن تمسك بالسنة بين ظهراني هؤلاء بعد تمكنهم من الرياسة ونفاذ القول في الخلق فقد بارزهم بالمحاربة لأن في تمسكه بها هتكًا لسترهم عند العامة وكشفًا لعوارهم ونشرًا لفضائحهم، فالمتمسك بالحق يرصدونه بالعداوة ويرمونه عن قوس واحدة ويقذفونه بالعظائم ومع ذلك حرمة الإيمان معهم فالأولى أن لا يعذبهم بل يرحمهم»[1].

وهذه الآية معجزة مبهرة، فهؤلاء القوم مع زعمهم الإيمان بإله واحد إلا أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وكثير منهم يعظم الشيطان ويحاول أن يستمد القوة منه، وينتج الأفلام المتعددة لإثبات ذلك وتسهيله وتزيينه على الخلق، وأما أنظمتهم الدينية والسياسية الفاسدة فإنهم إلى الآن يتحالفون مع الوثنيين ويقولون لهم: أنتم أهدى من المسلمين سبيلًا.

لم يتوقف تحالف الذين يشترون الضلالة مع الوثنيين في زمنٍ، فانظر له في عصر جنكيز خان كيف تحالف بوب الفاتيكان مع المغول الوثنيين على اجتياح بلاد الإسلام، وأرسلوا بعض بناتهم ليكن زوجات للقادة المؤثرين من المغول، فنتج من ذلك حلفٌ دَنِسٌ لتحالف المنحرفين من الذين أوتوا نصيبًا من الكتب الثلاثة مع الوثنيين ضد المسلمين.

---

(١) فيض القدير (٤/ ٣٧١).

وهذه الآيات تشير إلى النوازع النفسية المريضة التي تسببت في تدمير الأفراد والأمم، ولذا تراهم يشرعون لأنفسهم العبادات، والأعياد، والطقوس، وترى المنحرفين من أهل الكتب الثلاثة، يفعلون ذلك بصورةٍ صارخة ومأساوية.

الجناية الثامنة: جر العالم إلى دائرة استحقاق اللعن الإلهي بسبب ما سبق. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء:٥٢). **فهذا سبب وجزاء في الوقت ذاته، فهم ذوو شعارٍ شهوانيٍّ متمرد، وأصحاب أطماعٍ متكبرةٍ لا تنتهي، وأهل أهواءٍ منحرفة لا تعتدل، وأسرى أحقادهم التي لا تزول.**

فهذا سبب وجزاء في الوقت ذاته.. إذ تتعجب: لماذا هذا الموقف الغريب من القيادات اليهودية؟

ماذا تقول في قوم متلاعبين وصل إجرامهم وفسقهم أن يستحقوا أن يجبههم الله باللعن، ويحرمهم من النصير؟ «إنهم ذوو أطماع لا تنتهي، وذوو أهواء لا تعتدل، وذوو أحقاد لا تزول» [1].

و﴿نَصِيرًا﴾ هنا نكرة فتشمل كل نصير مهما قل نصره، وربما تقول: لكننا نرى لهم نصيرًا ممن وصلهم بحبله من الناس.

ربما ستقول: لكننا وجدنا نصيرهم اليوم في العالم يفوق كل نصير، ورأينا التحالفات الاستراتيجية تتسابق إليهم إلى النخاع مما أوجد لهم حالة العلو الكبير، فكيف النظر في الآية؟

والجواب: ذلك عائدٌ لسنة أخرى هي سنة تداول الأيام، فقد قال الله عن هذه السنة الكلية: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، والقول المختصر لبيان ذلك: أن الذي أصيب بلعنة الله فلن تجد له نصيرًا في الدنيا ولا في

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٨١).

الآخرة، وفي الآخرة الأمر واضح، وأما في الدنيا فقد يقابله من استحق لعنة أيضًا لتلاعبه بالكتاب الذي أوتيه، وحين ذلك يتقابل فريقان: كلاهما مصابٌ بمقت الله، فينتصر الأكثر ذكاء لكن ذلك لا يعني وجود نصيرٍ له ينجيه من عذاب الآخرة، وفي بدائع السلك في طبائع الملك للأصبحي الأندلسي: أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ في رسالة طويلة «أما بعد: فإني آمرك، ومن معك من الأجناد، بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله؛ ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا لم ننصر عليهم بفضلنا، ولم نغلبهم بقوتنا، وفي كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء للكلاعي، ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة للآبادي للهندي، وغيرهما، أن عمر ﷺ كتب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح: من عبد الله عمر – أمير المؤمنين – إلى أبي عبيدة بن الجرّاح: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد أتاني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من إهلاك الله المشركين، ونصره المؤمنين، وما صنع الله لأوليائه وأهل طاعته، فأحمد الله على صنيعه إلينا، واستتم الله ذلك بشكره، ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوّكم بعدد، ولا عدّة، ولا حول، ولا قوة، ولكنه بعون الله، ونصره، ومنّه، وفضله.

وانظر لجمال موقع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لترى أن الله يشير إليهم وكأنك تشاهدهم، فموقع اسْمِ الإِشَارَةِ هُنَا -كما يقول الطاهر بن عاشور- فِي نِهَايَةِ الرَّشَاقَةِ، لِأَنَّ مَنْ بَلَغَ مِنْ وَصْفِ حَالِهِ هَذَا المَبْلَغَ صَارَ كَالمُشَاهَدِ، فَنَاسَبَ بَعْدَ قَوْلِهِ: أَلَمْ تَرَ أَنْ يُشَارَ إِلَى هَذَا الفَرِيقِ المُدَّعَى أَنَّهُ مَرْئِيٌّ، فَيُقَالُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

ولتجدن اللعن الإلهي لفساق بني إسرائيل منتشرًا في الكتاب المقدس.

ففي إرمياء ١٧:

٥ وقالَ الرّبُّ: «مَلعونٌ مَنْ يتوكَّلُ على الإنسانِ ويَجعَلُ البشَرَ سنَدًا لَه. ويَصرِفُ قلبَهُ عَنِ الرّبِّ. ٦ فيكونُ مِثلَ النَّبْتِ في الصَّحراءِ، وَلا يَرى الخيْرَ إِذا أَقبَلَ يَسكُنُ الفَلاةَ الشَّديدةَ الحَرِّ والأرضَ المالِحةَ التي لا تُسكَنُ. ٧ مُبارَكٌ مَنْ يَحتَمي بِالرّبِّ ويَجعَلُ الرّبَّ مَأْمَنًا لَه. ٨ فيكونُ كشجرَةٍ مَغروسةٍ على المياهِ، وعِندَ النَّهرِ تَمُدُّ جذورَها. لا تَرى الحَرَّ إذا أقبَلَ، بل يَبقى ورَقُها أخضَرَ. وفي سنَةِ القَحْطِ لا تَخافُ ولا تَكُفُّ عَنِ الإثمارِ. ٩ القلبُ أخدَعُ الأشياءِ وأخبَثُها فمَنْ يَعرِفُهُ؟ ١٠ أنا الرّبُّ أفحَصُ نيَّاتِ القُلوبِ وأمتَحِنُ مشاعِرَ البشَرِ، فأُجازي الإنسانَ بِحسَبِ طُرُقِهِ، بِحسَبِ ثمَرَةِ أعمالِهِ

وفي سفر التثنية ٢٧:

١٤ فَيُصَرِّحُ اللاَّوِيُّونَ وَيَقُولُونَ لِجَمِيعِ قَوْمِ إِسْرَائِيلَ بِصَوْتٍ عَالٍ:

١٥ مَلْعُونٌ الإِنْسَانُ الَّذِي يَصْنَعُ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا أَوْ مَسْبُوكًا، رِجْسًا لَدَى الرَّبِّ عَمَلَ يَدَيْ نَحَّاتٍ، وَيَضَعُهُ فِي الخَفَاءِ. وَيُجِيبُ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَيَقُولُونَ: آمِينَ.

١٦ مَلْعُونٌ مَنْ يَسْتَخِفُّ بِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

١٧ مَلْعُونٌ مَنْ يَنْقُلُ تُخْمَ صَاحِبِهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

١٨ مَلْعُونٌ مَنْ يُضِلُّ الأَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

١٩ مَلْعُونٌ مَنْ يُعَوِّجُ حَقَّ الغَرِيبِ وَاليَتِيمِ وَالأَرْمَلَةِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٠ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعُ مَعَ امْرَأَةِ أَبِيهِ، لأَنَّهُ يَكْشِفُ ذَيْلَ أَبِيهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢١ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعُ مَعَ بَهِيمَةٍ مَّا. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٢ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعُ مَعَ أُخْتِهِ بِنْتِ أَبِيهِ أَوْ بِنْتِ أُمِّهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٣ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعُ مَعَ حَمَاتِهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٤ مَلْعُونٌ مَنْ يَقْتُلُ قَرِيبَهُ فِي الخَفَاءِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٥ مَلْعُونٌ مَنْ يَأْخُذُ رَشْوَةً لِكَيْ يَقْتُلَ نَفْسَ دَمٍ بَرِيءٍ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٦ مَلْعُونٌ مَنْ لاَ يُقِيمُ كَلِمَاتِ هذَا النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهَا. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

وفي التثنية١١:

٢٦ اُنْظُرْ. أَنَا وَاضِعٌ أَمَامَكُمُ اليَوْمَ بَرَكَةً وَلَعْنَةً:

٢٧ البَرَكَةُ إِذَا سَمِعْتُمْ لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكُمُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا اليَوْمَ.

٢٨ وَاللَّعْنَةُ إِذَا لَمْ تَسْمَعُوا لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكُمْ، وَزُغْتُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا اليَوْمَ لِتَذْهَبُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا.

وفي سفر إرميا٤٤:

٢ «هكَذَا قَالَ رَبُّ الجُنُودِ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ كُلَّ الشَّرِّ الَّذِي جَلَبْتُهُ عَلَى أُورُشَلِيمَ، وَعَلَى كُلِّ مُدُنِ يَهُوذَا، فَهَا هِيَ خَرِبَةٌ هذَا اليَوْمَ وَلَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ،

٣ مِنْ أَجْلِ شَرِّهِمِ الَّذِي فَعَلُوهُ لِيُغِيظُونِي، إِذْ ذَهَبُوا لِيُبَخِّرُوا وَيَعْبُدُوا آلِهَةً أُخْرَى لَمْ يَعْرِفُوهَا هُمْ وَلاَ أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ.

٤ فَأَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ كُلَّ عَبِيدِي الأَنْبِيَاءِ مُبَكِّرًا وَمُرْسِلًا قَائِلًا: لاَ تَفْعَلُوا أَمْرَ هذَا الرِّجْسِ الَّذِي أَبْغَضْتُهُ.

٥ فَلَمْ يَسْمَعُوا وَلاَ أَمَالُوا أُذْنَهُمْ لِيَرْجِعُوا عَنْ شَرِّهِمْ فَلاَ يُبَخِّرُوا لآلِهَةٍ أُخْرَى.

٦ فَانْسَكَبَ غَيْظِي وَغَضَبِي، وَاشْتَعَلاَ في مُدُنِ يَهُوذَا وَفِي شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ، فَصَارَتْ خَرِبَةً مُقْفِرَةً كَهذَا اليَوْمِ.

٧ فَالآنَ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ الجُنُودِ، إِلهُ إِسْرَائِيلَ: لِمَاذَا أَنْتُمْ فَاعِلُونَ شَرًّا عَظِيمًا ضِدَّ أَنْفُسِكُمْ لانْقِرَاضِكُمْ رِجَالًا وَنِسَاءً أَطْفَالًا وَرُضَّعًا مِنْ وَسْطِ يَهُوذَا وَلاَ تَبْقَى لَكُمْ بَقِيَّةٌ؟

٨ لإِغَاظَتِي بِأَعْمَالِ أَيَادِيكُمْ، إِذْ تُبَخِّرُونَ لآلِهَةٍ أُخْرَى فِي أَرْضِ مِصْرَ الَّتِي أَتَيْتُمْ إِلَيْهَا لِتَتَغَرَّبُوا فِيهَا، لِكَيْ تَنْقَرِضُوا وَلِكَيْ تَصِيرُوا لَعْنَةً وَعَارًا بَيْنَ كُلِّ أُمَمِ الأَرْضِ.

٩ هَلْ نَسِيتُمْ شُرُورَ آبَائِكُمْ وَشُرُورَ مُلُوكِ يَهُوذَا وَشُرُورَ نِسَائِهِمْ، وَشُرُورَكُمْ وَشُرُورَ نِسَائِكُمُ الَّتِي فُعِلَتْ فِي أَرْضِ يَهُوذَا وَفِي شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ؟

١٠ لَمْ يُذَلُّوا إِلَى هذَا اليَوْمِ، وَلاَ خَافُوا وَلاَ سَلَكُوا فِي شَرِيعَتِي وَفَرَائِضِي الَّتِي جَعَلْتُهَا أَمَامَكُمْ وَأَمَامَ آبَائِكُمْ.

١١ لِذلِكَ هكَذَا قَالَ رَبُّ الجُنُودِ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: هأَنَذَا أَجْعَلُ وَجْهِي عَلَيْكُمْ لِلشَّرِّ، وَلأَقْرِضَ كُلَّ يَهُوذَا.

الجناية التاسعة: الكبر، والبخل، وإشعار العالم بأن لهم في ملك الله شيئًا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ (النساء:٥٣) حتى جعل بعضهم نفسه إلهًا بإنكار الإله الحق.

فـ «النقير» هو النقطة التي في ظهر النواة، ويروعك أن كلمة: ﴿أَمْ﴾ هنا تؤدي دورًا خطيرًا، يكشف واقع هؤلاء الفاسدين، فيذكر بعض المفسرين أن ﴿أَمْ﴾ منقطعة، والتقدير (بل)، ويظهر لي في مثل هذه الحالات أن مجيء اللفظة محتملة تجعلنا نقيمها على الاحتمالات المختلفة، ولو أراد الله حصر معناها فيما ذكروه -رحمهم الله- لكان

أولى أن تكون الآية بلفظ (بل) مباشرة.. وبذا نجد عدة أصناف من أهل الكتاب تبين حالة كلٍ منهم هذه الكلمة المباركة ﴿أَمْ﴾، وتقدم عدة مشاهد بناء على ذلك:

فالمشهد الأول تقدمه لك هذه الكلمة القرآنية المدهشة من جهة يمكن أن تكون المِيمُ صِلَةً، وَتَقْدِيرُ الكلام: أَلَهُمْ نصيب من الملك لِأَنَّ حَرْفَ «أَمْ» إِذَا لَمْ يَسْبِقْهُ اسْتِفْهَامٌ كَانَ المِيمُ فِيهِ صِلَةً، والمشهد الثاني مشهد نفي الملك فلَمَّا حَكَى الله عَنْ هَؤُلَاءِ قَوْلَهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ: إِنَّهُمْ أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ المؤْمِنِينَ، عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: أَمِنْ ذَلِكَ يُتَعَجَّبُ، أَمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ، فيكون الملك معناه التَّمْلِيكُ، أي هل لهم الحكم فيُمَلِّكون من شاءوا، ويمنعون من شاءوا.. لو كان الأمر كذلك لمنعوا الناس جميعًا أقل شيء يمكن أن يتم الانتفاع به، فبخلوا بِالنَّقِيرِ وَالقِطْمِيرِ.. أي هم لا يملكون الهدى ولا النجاة من النار، ولا إيجاد البشر والمخلوقات، ولا الهواء، ولو ملكوا من ذلك شيئًا لما أعطوا الناس أدنى شيء منه، فالاستفهام إنكاري يبين أن الملك لله يخلق ما يشاء ويختار، ويصطفي من شاء من الأبرار، فهذا نفيٌ للملك الحقيقي، (فهذا يوضح الكبر؛ إذ ليس لهم شيء في حكم الله، الذي به يحكم على أحد بالهدى أو بالضلالة).

وأنت ترى أنهم لم يستطيعوا منع الناس من أن يُخلقوا، ولم يحجروا على البشرية من أن يُرزَق أبناؤها، وها أنت ترى البشر يتنفسون ويشربون حيث لم يتدخل بعض بني الإنسان ليمنع الناس من حقوقهم، بل إن كثيرًا من البشر تراهم أجمل من أهل الكتاب في أجسادهم، وأذكى منهم في عقولهم، ولو كان لهؤلاء البخلاء المزورين الحسدة نصيب من الملك لما آتوا أحدًا من الناس نقيرًا أي أقل شيء يُعرف إلا بالأثمان الباهظة مقابل بيوع يعتريها الكثير من العبث.

والمشهد الثالث تقدمه لك ﴿أَمْ﴾ من جهة ثالثة؛ إذ يمكن أن تكون «أم» هاهنا

مُنْقَطِعَةً وَغَيْرَ مُتَّصِلَةٍ بِمَا قَبْلَهَا الْبَتَّةَ، كَأَنَّهُ لَمَّا تَمَّ الكَلَامُ الأَوَّلُ قَالَ: بَلْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ.. ويراد بالملك الملك الحقيقي الشامل للغنى والثروة والنفوذ والتسلط أي لهم نصيب حقيقي من الملك، ولكنهم لا يؤتون منه لأحد شيئًا، فانظر كيف ترى أثرهم في القرار الدولي الآن غالبًا، والمؤسسات الدولية، ولكنهم يعقدون المسائل، ويمنعون الشعوب من حقوقها المشروعة.. يرسلون الوسطاء لحل المشكلات، فهل رأيت مشكلة واحدة حلت وفق منهج عادل؟ خذ الأراضي الملتهبة في الأرض لتراهم ينصرون الظالم، ثم لا يكتفون بذلك حتى يبقوا رمقًا عند المظلوم ليستمر الصراع ويبقى بالنسبة لهم الانتفاع.

كما أنهم لما رأوا هذا النصيب أعطي لغيرهم حسدوا من أوتي نصيبًا من جهة أخرى مثل النبي ﷺ، فقد قيل: إن اليَهُود كَانُوا يَقُولُونَ نَحْنُ أَوْلَى بِالمُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ فَكَيْفَ نَتَّبِعُ العَرَبَ؟.. وبذا فلن يؤتوا الناس نقيرًا، فبخلهم يجعلهم يضنون بالخيرات التي آتاهم الله إياها لدرجة أن يحرقوها بدلًا من إعطائها الآخرين، فهذا في أمور الدنيا فما بالك في أمور الدين. إنهم من أعظم الناس كزازة بقلة خيرهم للآخرين، ونـدرة مساعدتهم.. وقد تلقف هذا الحسد اليهودي كثير من الأجيال اليهودية اللاحقة ثم خدمهم من أتباع المسيحية الصهيونية ممن امتلأت قلوبهم بالأضغان العنصرية على المسلمين، ولا يزالون يبثونها في كتبهم، وقد تعلق بها أشياعهم من أهل الضلالة المتعبدين لسادتهم من المستشرقين في زماننا هذا، ثم خدمهم الباطنية وفساق المسلمين لزيادة الإفساد في العالمين.

والكلام فيه إشارةٌ واضحةٌ لما يشيعونه هذه الأيام من انتظارهم عودة ملك إِسْرَائِيلَ.. وبيان أنهم مع كونهم أكثر نفيرًا في الأرض إلا أن البخل ملازم لهم، وذاك من دواعي ذهاب ملكهم كَمَا قَالَ أَبُو الفَتْحِ البُسْتِيُّ:

إِذَا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَه فَدَعْهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَهْ

إلا أن حبل الناس يبقي دولتهم، وقد فطنوا لذلك، فصاروا يقيمون لأنفسهم عبيدًا من البشرية يوافقونهم في التحكم بالشعوب، وتدمير كل حركة تحررية، وبذا يبقون قوتهم الغاشمة المتكبرة البخيلة قائمة لأطول مدة زمنية.

الجناية العاشرة: الحسد، وفي مقدمة ذلك حسدهم للنبي ﷺ على النبوة الخاتمة فلم تكن من بينهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فإن حسدوا أخاهم يوسف عليه السلام، فكيف لا يحسدون أبناء عمهم؟.

الحسد أن يتمنى الإنسان النعمة التي حبا المنعِم بها غيره، ويتمنى زوالها من المحسود، وكما ترى فإن أسوأ ما في الحسد أنه صاحبه يتمرد على واهب النعمة في هبته.. ما معنى ذلك؟ إنه يرد الحكم القدري، ويحاول أن يُقَسِّمَ على وفْق الهوى البشري، وهؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، وقد بدأ استسلامهم للحسد من وقتٍ مبكر دون أن يحاربوه بل جعلوه شرعيًا منذ أن سولت لهم أنفسهم المريضة أن يزعموا أن يعقوب حسد أخاه البكر عيسو على أن قدمه أبوهما إسحاق عليهم السلام، وأراد مباركته، فاحتال يعقوب -حاشاه- مع أمه لسرقة هذه البركة كما في سفر التكوين، وما زال الحسد تسري ناره ويشتعل أُواره في نفوسهم، حتى حسدوا النبي ﷺ على أن كانت النبوة الخاتمة على يديه، ثم حسدوا من حباهم الله بنعمةٍ معينة زائدة لا توجد عندهم مثل حسد الأفارقة على أرضهم التي تنضح ذهبًا وثروات، وحسدهم بلاد النفط.. فعملوا إشعال الفتن والحرائق في تلك الأمكنة لتبقى لهم السيطرة على صنع القرار في تلك الأرجاء.. واملأ نفسك من معاني الآية هنا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن

﴿فَضْلِهِۦ﴾: يجوز أن تكون ﴿أَمْ﴾ استفهامًا إنكاريًا توبيخيًا، فيبدأ بالاستفهام، وينتهي بالإثبات لما بعده، ويجوز أن تكون بمعنى: (بل)، والاستفهام لإثارة الرأي العام، ومخاطبة المنصفين، والإثبات لفضح واقع القيادات الفاسدة منهم، والحسد عام لكل من أوتي خيرًا، وأول المحسودين من أوتي النبوة الخاتمة، وسمى الله النبي ﷺ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وكأن الإنسانية بما يمدح فيها لا توجد إلا في النبي ﷺ.. فهل ذلك إلا كما حسد إخوة يوسف عليه السلام أخاهم؟.

حسد هؤلاء الغاضبون من القسمة الإلهية النبي ﷺ وأتباعه «لما رأوا من إقبال جَدهم وظهور سعدهم وأنهم سادة الناس وقادة أهل الندى والبأس.

إن العرانين تلقاها محسدة ولن ترى للئام الناس حسادًا» [1]

والتحذير من الحسد متكرر في الكتاب المقدس، **ففي سفر الأمثال من الكتاب المقدس**: ١٤: ٣٠: حياة الجسد هدوء القلب، ونخر العظام الحسد.

وفي تتمة سفر أستير: ولا أسير مع من يذوب حسدًا؛ لأن مثل هذا لا حظ له في الحكمة.

وفي الإصحاح١٤: ١: طوبى للرجل الذي لم يَزِلَّ بفيه، ولم ينخسه الندم على الخطيئة. ٣ الغنى لا يجمل بالرجل الشحيح، وما منفعة الأموال مع الإنسان الحسود. ٦ لا أسوأ ممن يحسد نفسه. إن ذلك جزاء خبثه ٧ وإن هو أحسن فعن سهو وفي الآخر يبدي خبثه ٨ لا أخبث ممن يحسد بعينه ويحول وجهه ويحتقر النفوس ٩ عين البخيل لا تشبع من حظه وظلم الشرير يضني نفسه ١٠ العين الشريرة تحسد على الخبز وعلى مائدتها تكون في عوز.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٠٣).

فيقول الله لهم مبكتًا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي فليفضحوا على الملأ وليكشفوا خباياهم.. فهم مجموعة من البخلاء الحسدة، ووصل البخل والحسد بهم حدًا جعلهم ينفقون المليارات ويسخرون مؤسسات العالم لأهوائهم المريضة، ورغباتهم الفاسدة التي تجعلهم يستهدفون القضاء على الإيمان، وإزالة العدل بين البشرية أجمعين.

وتعال بنا لنتأمل في خلفية وصفهم بالصفات الخطيرة السباقة: تزكيتهم لأنفسهم وتزكيتهم لمجرمي العالم والبخل والحسد؟

ألا ترى أن هذه الصفات هي التي تؤدي إلى تضييع حقوق الحق والخلق معًا.

الجناية الحادية عشرة: الصد عما آتاه الله لإبراهيم عليه السلام، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (النساء:٥٤-٥٥).

فبين الله -تعالى ذكره- أنهم من آل إبراهيم، وقد آتاهم الله ملكًا عظيمًا فلماذا الحسد؟ « إنه لمن أَلأم الحسد: أن يحسد ذو النعمة الموهوب! قد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة، فهذا هو الشر الأصيل العميق!» [(١)]، فالله قد فضل إبراهيم عليه الصلاة بفرعيه إسماعيل، وإسحاق، ثم آتى آل إسحاق ملكًا عظيمًا، فخرج منه يوسف النبي الملك، وموسى الكليم العظيم، وداود وسليمان النبيان اللذان كانا من أعظم ملوك الدنيا، وغيرهم عليهم الصلاة والسلام.. فلم الحسد للفرع الثاني من آل إبراهيم أن يخرج منه النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام؟.

فهذه الآية تكشف واقعهم المريض، فليس بخلهم وحسدهم للنبي ﷺ ولا

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٨٣).

للعرب إلا تمردًا معتادًا على أوامر ربهم فقد حدث منهم الأمر ذاته مع الأنبياء الذين جاءوا من آل إبراهيم من قبل، حيث يقول الله مبينًا واقعهم: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ٥٥)

ومن هذه الآية يستنبط الطبري استنباطًا رائعًا لائقًا بما فتح الله له في التفسير، فيقول: «وفي هذه الآية دلالة على أن الذين صدّوا عما أنزل الله على محمد ﷺ، من يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالَيْ مُهاجَر رسول الله ﷺ، إنما رُفِعَ عنهم وعيدُ الله الذي توعدهم به في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧) في الدنيا، وأخرت عقوبتهم إلى يوم القيامة، لإيمان من آمن منهم، وأن الوعيدَ لهم من الله بتعجيل العقوبة في الدنيا، إنما كان على مقام جميعهم على الكفر بما أنزل على نبيه محمد ﷺ. فلما آمن بَعضُهم، خرجوا من الوعيد الذي توعَّده في عاجل الدنيا، وأخرت عقوبةُ المقيمين على التكذيب إلى الآخرة، فقال لهم: كفاكم بجهنم سعيرًا»[1].

وهنا ترى بصيرة واضحة تطمئنك: فإن لم يعاقب مانعو الحقوق الحسدة البخلاء في الدنيا فكفاهم جهنم سعيرًا.

و﴿سَعِيرًا﴾، أصله مسعورًا من «سُعِرت تُسعَر فهي مسعورة»، فعيل بمعنى مفعول كما قيل: «كف خضيب»، و«لحية دهين»، بمعنى: مخضوبة ومدهونة، كما قال الله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (التكوير: ١٢)، و«السعير» الوقود.

الجناية الثالثة عشرة: نسيان المستقبل الأخروي الحقيقي للكافرين والمؤمنين.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٨٣).

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ (النساء:٥٦، ٥٧).

بعد كل الأسباب السابقة يبين الله لنا سببًا خطيرًا في انحطاط الإنسان الذي أوتي نصيبًا من الكتاب ثم عمل على تحريف الكلم عن مواضعه: إنه نسيان المستقبل القادم الأخطر في الحياة البشرية، نسيان الدار الآخرة، وقد قسم الله الناس حسب المستقبل الأخروي إلى فريقين:

الفريق الأول: الكافرون الذين غطوا الحقائق، وتلاعبوا بحق العالم في معرفة وجوده، ويبدأ بهم؛ لأن الكلام السابق عنهم:

فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وآياته تشمل جميع الكتب الإلهية، وهددهم بما سيحدث في المستقبل القادم، فقال: ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾، والصلي والصِلاء يتضمن الدخول، والشي، ويؤدي إلى تعذيب مؤلم سيحرق جلودهم، سيقال: فهذا لمصلحتهم إذ سيفقدون عضو الإحساس كما أكتشفه العلم الحيوي والطبي مؤخرًا..

عندها يأتيك الجواب المرعب الذي يحدث العذاب الأبدي الرهيب ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، فيكون إِحْسَاسَهُمْ بِذَلِكَ العَذَابِ فِي كُلِّ حَالٍ، يَكُونُ كَإِحْسَاسِ الذَّائِقِ المذُوقَ، «إنه مشهد لا يكاد ينتهي، مشهد شاخص متكرر، يشخص له الخيال، ولا ينصرف عنه! إنه الهول، وللهول جاذبية آسرة قاهرة! والسياق يرسم ذلك المشهد، ويكرره بلفظ واحد.. ﴿كُلَّمَا﴾.. ويرسمه كذلك عنيفًا مفزعًا بشطر جملة: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾، ويرسمه عجيبًا خارقًا للمألوف بتكملة الجملة: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ﴾»[1].

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٨٣).

وربما تقول: فمن الذي يُعذَّب: هل تعذب الجلود فقط؟ فربما أغمي عليهم، وزال الإحساس كما في التخدير الطبي.. إذ يخدر العضو ثم يصنع الأطباء ما شاءوا في جراحة الأعضاء.. هنا استلم الجواب واستعذ بالله من النار وأعد العدة لها ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يذوق هم.. إنها النفس الواعية وليس العضو المحدد، فلا يموت أحدهم ولا يحيا.. بل يذوق العذاب.. إنه تصويرٌ مفجعٌ يعين الكافرين على العودة عن هذا الاختيار السيء الذي اختاروه لأنفسهم.. الاختيار الذي جعلهم يمنعون الإنسانية من حقوقها في معرفة الله فيكفرون بآيات الله.. وهذا التصوير معجزٌ فهو سابقٌ لعصره؛ إذ لم تُكتشف تفاصيله الحيوية والطبية إلا مؤخرًا، فمن أنبأ محمدًا ﷺ أن أداة الإحساس التي تُذيق الإنسان النعيم أو العذاب هي الجلد، ولذا إذا ذهبت لا بد من خلق جلود غيرها ليتم التذوق؟.

وعندها ربما ينبعث من يعترض، ويقول: فكيف تريدني أن أؤمن بإلهٍ يعذب عباده هذا التعذيب الرهيب؟

يأتيك الجواب في ختام الآية فيقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كأن الآية تناقش السائل مباشرة، فتقول:

انتبه لسؤالك أيها السائل.. إنه سؤال لا يدل على منطقٍ ولا على عقلٍ، ولكنه لشدة التلبيس الشيطاني يختبىء خلف المنطق والعقل.. فقط فكر أنت: فيمن أعطي مالًا وقوة وإمكاناتٍ وراتبًا ثم ارتكب جرمًا من الجرائم الكبرى، وأصر على ارتكاب هذه الكبيرة طوال حياته، وعمد إلى من أعطاه كل الإمكانات فعاش محاربًا له طوال حياته، ولما حانت عقوبته ذاق العقوبة ثم حلف لو أعطي فرصة ثانية فإنه سيتوب، ولما رد عاد لما نهي عنه، وقد أُنذِرَ أنه سيُخلد في العذاب إن أصر على ارتكاب

جريمته.. ولكنه أصر واستمر.. ألا يستحق الخلود في العذاب؟

إن الله عزيزٌ قاهر لا يغلبه هذا الذي يحاربه مع أنه أعطاه كل شيء يتمتع به، حكيم؛ إذ لم يعذبهم إلا لأن هذا التعذيب كان في موضعه.

الفريق الثاني: المؤمنون: فجمعوا قوة الإيمان، وهي القوة الفكرية العلمية النظرية، فقال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والقوة العملية حيث وصفهم الله بقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فذكر أصول نعيمهم، وأسس متعهم:

الأصل الأول: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، وربما كان دخول: ﴿سَوۡفَ﴾ على عذاب أهل النار؛ للعذاب الشديد الذي يجده الكافر في الموقف الطويل للقيامة، فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة في الرشح إلى أنصاف آذانهم» [١]، ونقل ابن حجر عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن الذي يلجمه العرق الكافر، أخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عنه، قال: «يشتد كرب ذلك اليوم؛ حتى يلجم الكافر العرق»، قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: «على الكراسي من ذهب، ويظلل عليهم الغمام»، وبسند قوي عن أبي موسى قال: «الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة، وأعمالهم تظلهم» [٢]، وذكر العراقي أن لأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد: «يهون ذلك على المؤمن، كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب» [٣].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف

(١) أحمد (٢ / ١١٢) وقال الأرناؤوط: صحيح.

(٢) فتح الباري لابن حجر (١١ / ٣٩٤).

(٣) تخريج أحاديث الإحياء (٤ / ٢٢٩).

على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا» [١]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب» [٢].

الأصل الثاني: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فمن أنهارها الأنهار الأربعة المذكورة في سورة محمد ﷺ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ (محمد: ١٥)، من هذه الأنهار: نهر الكوثر الذي حكى عنه أنس رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا فَقُلْتُ: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ»؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ، وعن أبي عبيدة عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قَالَ: سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قَالَتْ: نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ [٣]، ومن الأنهار: نهر الشهداء ذكره ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيًّا» [٤].

الأصل الثالث: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وهذا الأصل يشعرهم بالحماية من أن ينقطعوا عن ذلك النعيم أو ينقطع عنهم ذلك النعيم، وأكد لهم ديمومة هذا النعيم وذاك التنعم بكلمتين: خالدين فيها أبدًا، فالجمع بين الخلود والتأبيد، يدل على أن الخلود عِبَارَةٌ عَنْ طُولِ المكْثِ مِنْ غَيْرِ بَيَانِ أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ أو غير منقطع، فجاءت لفظة:

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١١ / ٢٦٣)، رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه..

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١١ / ٢٦٣)، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن عبد الله بن خالد وهو ثقة.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٢١٩).

(٤) أحمد(١ / ٢٦٦)، وحسن إسناده الأرناؤوط.

﴿أَبَدًا﴾ لتؤكد التأبيد.

الأصل الرابع: ﴿لَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، إنها الدلالة على الصحبة الممتعة، ووصف الأزواج بأنها مطهرة؛ ليبين أنهن جمعن بين طهارة الباطن، وهي الطهارة النفسية والعقلية والخلقية كما قال تعالى: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أَي مكرمَة مطهَّرة من الأدناس وَالبَاطِل، وطهارة الظاهر التي تشمل التنزه من النقائص الدنيوية فلا يحضن ولا يمرضن ولا يتغيرن ولَا يحتجن إِلَى مَا تحْتَاج إِلَيْهِ نسَاء أهل الدُّنْيَا بعد الأكل وَالشرب كما قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾، ومن ذلك الطهارة التي تعني جمال الخلق وبراءته من العيوب ويدل له قَوله تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ (الفرقان: ٤٨).

الأصل الخامس: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

ظل ظليل لتصوير تركيبه ومضاعفته، فهو ظل مزدوج أي ظل مظلل كما تقول العرب: يوم أيوم، وليل أليل، وما زلنا نقول: سقف مسقوف.

هنا ستسأل متعجبًا: فما حاجتهم للظل، وهم لا يرون شمسًا ولا زمهريرًا؟

الظل لا يقتصر على الشيء الذي يظهر بسبب انسحاب الشمس من مكانه فقط، بل يمكن أن تقول هذا ظل العرش، ويمكنك بوضوح أن ترى ظل الصبح أي ما بعد الفجر إلى طلوع الشمس، وهو قول روي عن ابن مسعود أنه قال: «الجنة سَجْسَج، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس» فالظل أعم من الفيء، وقد نص علماء اللغة على أن الظل ضد الضح وهو أعم من الفئ، فإنه يقال: ظل الليل وظل الجنة، ويقال: لكل موضع لم تصل إليه الشمس: ظل ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس، ويعبر بالظل عن العزة والمنعة وعن الرفاهة، وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا

ظَلِيلًا ﴾ كناية عن غضارة العيش» [١]، وانظر إلى بعض ذلك الظل في قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا» [٢]، وذكر ابن حجر أن معنى قوله: «في ظلها» أي في نعيمها وراحتها ومنه قولهم: عيش ظليل، وقيل: معنى ظلها ناحيتها وأشار بذلك إلى امتدادها[٣]، ومنه تعلم أن المقصود أن ظل الجنة دائم لا تنسخه الشمس كظل أهل الدنيا وذلك لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها، لكن الظلال الموجودة تختلف ووصف الظل بأنه ظليل يدل على أنه ليس ظلًا كئيبًا كما في الدول التي لا تظهر فيها الشمس إلا لمامًا، ويسبب ذلك كآبة تجعلهم يشعرون بالرغبة في الانتحار أحيانًا، فوصفه بالظليل ليبين جماله وأنه عليل.. وتشعر بجمال الظل في يوم لا شمس فيه.. وماذا تحسب؟ أتظن عدم وجود الشمس يعني أن يعيش أهل الجنة في ظلام، لا وعزة ربك فإنه يقول جل مجده: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (الزمر: ٦٩)، إنه الظل الظليل الذي يعبر عن العيش الناعم الغض النضر كما يعبر عن ازدواج تركيبه على هيئةٍ الله يعلم جمالها ومتعتها، وانظر إلى قول حمدة بنت زياد بن تقي العوفي الأندلسية في وصف ظل دنيوي فكيف يكون ظل الجنة:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ... سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالًا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها، ويأذن للنسيم

فتذوق هناك أعظم أنواع الراحة في السكنى، والاستقرار؛ وذلك بحسب شهوة الإنسان، وإرادته، ومنها جمال البيئة المحيطة.

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٢٦).
(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٤٤) برقم ٣٢٥١.
(٣) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٢٦).

هي جنة طابت وطاب نعيمها فنعيمها باق وليس بفان
دار السلام وجنة المأوى ومنزل ثلة الإيمان والقرآن
جيران رب العالمين وحزبُه أكرم بهم في صفوة الجيران
فيها الذي -والله- لا عين رأت كلا ولا سمعت به الآذنان
أنهارها تجري لهم من تحتهم محفوفة بالنخل والرمان

ويتكرر ذكر المستقبل الأخروي في القرآن؛ لأن المعتدين من أهل الكتب الثلاثة، يشاركون تغطية أعين العالم عن معرفته:

فتحريف الكلم عن مواضعه، قد بلغ أشده في موضوع الآخرة، فأما الغافلون من النصارى والمسلمون، فلا يبرزون ذلك على المستوى العالمي، على الرغم من ذكره في كتابيهم، وأما اليهود فتتفاجأ من خلو التناخ اليهودي (التوراة، والأسفار الأخرى) من الإشارة إلى اليوم الآخر صراحة، وهاك نماذج غير واضحة عن اليوم الآخر في التناخ، ففي سفر حزقيال نوع من المعجزة بإحياء الموتى، ولكن دون إشارة إلى اليوم الآخر، وورد في الأسفار كلام عن يوم الرب، ولكن لا يدرى هل هو من بقايا النصوص التي تثبت الآخرة أم من النصوص التي تتكلم عن مجيء ملك اليهود في آخر الزمان.

ففي سفر أشعياء:

٢٦: ١٩ تحيا أمواتك، تقوم الجثث، استيقظوا ترنموا -يا سكان التراب-.

وفيه:

١٢: ١٣ فلنسمع ختام الأمر كله، اتق الله، واحفظ وصاياه؛ لأن هذا هو الإنسان كله.

١٢: ١٤ لأن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفي إن كان خيرًا أو شرًا.

وورد في الأسفار كلام عن يوم الرب، ولكن لا يدرى هل هو من بقايا النصوص التي تثبت الآخرة أم من النصوص التي تتكلم عن مجيئ ملك اليهود في آخر الزمان..

اسمع إلى هذه النصوص التي يعتريها بعض الغموض:

ففي سفر أشعياء:

١٣: ٤ صوت جمهور على الجبال شبه قوم كثيرين.. صوت ضجيج ممالك أمم مجتمعة. رب الجنود يعرض جيش الحرب.

١٣: ٥ يأتون من أرض بعيدة من أقصى سماوات الرب، وأدوات سخطه ليخرب كل الأرض.

١٣: ٦ ولْولِوا؛ لأن يوم الرب قريبٌ قادمٌ كخرابٍ من القادر على كل شيء.

١٣: ٧ لذلك ترتخي كل الأيادي، ويذوب كل قلب إنسان.

١٣: ٨ فيرتاعون تأخذهم أوجاعٌ ومخاض، يتلوون كوالدة، يبهتون بعضهم إلى بعض، وجوههم وجوه لهيب.

١٣: ٩ هو ذا يوم الرب قادمٌ قاسيًا بسخطٍ، وحمو غضب؛ ليجعل الأرض خرابًا، ويبيد منها خطاتها.

وفي سفر يوئيل:

١: ١٥ آه على اليوم لأن يوم الرب قريبٌ يأتي كخراب من القادر على كل شيء

وفيه:

٢: ٣١ تتحول الشمس إلى ظلمة، والقمر إلى دم قبل أن يجيء يوم الرب العظيم المخوف.

وفيه:

٣: ١٤ جماهير جماهير في وادي القضاء؛ لأن يوم الرب قريب في وادي القضاء

٣: ١٥ الشمس والقمر يظلمان والنجوم تحجز لمعانها

وفي سفر صفنيا:

١: ١٤ قريب يوم الرب العظيم. قريب وسريع جدًا صوت يوم الرب. يصرخ حينئذ الجبار مرا

١: ١٥ ذلك اليوم يوم سخط، يوم ضيق وشدة، يوم خراب ودمار، يوم ظلام وقتام، يوم سحاب وضباب

وفي سفر أشعياء:

١٢: ١٣ فلنسمع ختام الامر كله اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله

١٢: ١٤ لأن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفي إن كان خيرا أو شرا

وفي سفر الجامعة

٣: ٢٠ يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما.

فرفض المفكر الديني موريتس لازاروس فكرة خلود روح الفرد وفكرة الآخرة. أما هرمان كوهن، فيرى أن خلود الروح في اليهودية ينطبق على الشعب ككل، لا على أفراده، فالشعب هو وحده الذي لا يموت (فتاريخه أزلي) [١].

وهنا تعرف لماذا يذكر الله المصير الأخروي للكفار بآياته وللمؤمنين في هذا الموضع، ففي مقابل هذا التجاهل الفاحش للحياة الأخروية في التوراة الموجودة الآن ترى التربية القرآنية تكرر ذكره.

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

القسم الثالث

أسس الإدارة الراشدة التي تضمن أداء الحقوق الإنسانية إلى أصحابها

(النساء:٥٨-٥٩)

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ (النساء:٥٨-٥٩).

المناسبة والاتصال:

أدار الله السورة على بيان حق الجنس الإنساني في الاستقرار والانتشار، ولذا لا بد أن يقيم أفراده الحقوق الإنسانية المختلفة المتبادلة، وذكر تعالى شأنه في القسمين السابقين الدور الخطير الذي يمارسه الصنف القيادي الذي يشتري الضلالة ويهدف إلى إضلال العالم؛ ليحرم الإنسانية من حقوقها.. لقد كشف الله عن أجناسهم، وطبيعتهم الدنسة القائمة على تزكية النفس، وتزكية مجرمي العالم، والهوى المريض والشهوات العابثة، والبخل، والحسد، ومضادة إرث إبراهيم عليه الصلاة والسلام.. ينتمي هؤلاء المعتدون على الحقوق العالمية إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، وقد بينا أن ذلك حقيقة عرفية قرآنية في اليهود والنصارى ويلحق بهم المسلمون، وحتى لا تظن أن مسألة الحقوق الإنسانية مجرد كلامٍ ديني عاطفي جاء هذا القسم الإداري

الدستوري لتجد فيه أن الله جل مجده أنزل إلى البشرية آيتين مركزيتين في السورة تبينان الأسس الدستورية والتشريعية للإدارة الراشدة التي يجب إنشاؤها لتوصل الحقوق إلى الإنسانية، حتى يمكن للعالم أن يستوفي حقوقه.

وبذا تُرسي آيات هذا المحور الأسسَ الدستورية التي تبني أمةً متمدنة محكومةً بتشريعاتٍ واضحةٍ يمكنها إيصال الحقوق إلى أهلها، وجعل الحقوق المادية والعقلية والمعنوية واجباتٍ محددة تسهر عليهما الحكومات المتولية للأمور العامة، وهنا ترى الإعجاز القرآني في تصوير أسس الإدارة الراشدة التي تقوم بدورها في إيصال الحقوق الإنسانية لأصحابها بواسطة طريقين:

الطريق العام: بأداء الأمانات إلى أهلها.

والطريق التنظيمي الخاص: الحكم بين الناس بالعدل، وتوابع، ذلك، ثم يرفع الله لنا صراطًا مستقيمًا في بيان كيفية إنشاء سلطة تنظم كل ذلك، والعلاقة بينها وبين الإنسانية التي تديرها، ويضع الله لنا بصائر دستورية مدهشة تسبق كل النظم الإدارية الحديثة، وعندها تجد البشرية في ظل هذه الإدارة الراشدة خيرًا وأحسن تأويلًا في واقعها وحياتها، حيث ترى الله جل جلاله يبين لك ذلك هنا في آيتين فقط بصورةٍ معجزة أهم الأسس الدستورية للقيادة البشرية الراشدة بصورةٍ تشريعية مذهلة.. هاتان الآيتان تقرران الأسس الدستورية التي يمكننا أن نرد إليها آلاف المسائل والأحكام الموجودة والحادثة، **وهذه الأسس هي:**

الأساس الأول:

أداء الأمانات إلىٰ أهلها، وذلك يعني القيام بحقوق الإنسان، بمنح كل إنسان حقوقه في الحياة، بعيدًا عن مؤسسات العنصرية، والفساد الأخلاقي، وسوق السلاح، وتجارة الحروب والاعتداء.

فالأمانة من الأمن، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النساء:٥٨)، والأمانات جمع أمانة، وهي: ما يُؤْمَنُ عَلَيْهِ الإِنْسَانُ، مِنَ الأَمْنِ ضِدُّ الخِيَانَةِ، تشمل الحقوق المختلفة التي يجب على الإنسان أداؤها بإعطاء كل ذي حقٍ حقه، فأداء الأمانات إلى أهلها أساس الأمان الفردي، والمجتمعي، والعالمي.

وَمَعْنَاهَا: سُكُونُ القَلْبِ، وطُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ عند التعامل مع الأمين؛ وَعَدَمُ الخَوْفِ من خيانته، أو غدره، ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ (آل عمران:٧٥)؛ فالأمانة تقتضي ثلاثة أركان: الطرف الأول: (المؤمِّن)، والطرف الثاني: (المؤتَمن)، والطرف الثالث: الحق الذي تم الائتمان عليه، وهو الذي نسميه: (الأمانة)، فيدخل فيه كل الحقوق البشرية المادية والمعنوية، التي تصلح أن تكون موضعًا للائتمان عليه من قبل طرفٍ لآخر؛ ولذا جمع الله الأمانة في الآية، والأمانة يمكن تعريفها بأنها حق الغير، فالإِنْسَانُ إِمَّا أَنْ يتعامل مع رَبِّهِ، أَوْ مَعَ سَائِرِ العِبَادِ، أَوْ مَعَ نَفْسِهِ، وَلَا بُدَّ له أن يرعى أمانة تعامله مع هذه الجهات الثلاث، وفهم السلف هذا الشمول العظيم لمعاني الأمانة، فعن أَبِي العَالِيَةِ، قال: الأَمَانَةُ مَا أُمِرُوا بِهِ، وَنُهُوا عَنْهُ [1]،ومن هنا تدرك بسهولة لأي شيء تكرر جمع الأمانة في القرآن الكريم.. اسمع الله عز وجل يقول لك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧)، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ (المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢)، ولهذا التنوع سمى الله البيوع والتجارات أمانة فقال: ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، وبين النبي ﷺ هذا التنوع الهائل للأمانات حتى في الكلام البيني فقال: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ

(١) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي برقم: (٥٠٢).

ثُمَّ التَفَتَ فَهُوَ أَمَانَةٌ» [١]. بذا يتضح أن رَدَّ الودائع مظهرٌ يسيرٌ من الأمانات.. لقد دخل في مفهوم الأمانة كل شيء من الحديث الذي يكون بين اثنين إلى إقامة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى إقامة أعظم الحقوق الكونية بالإيمان بالله وحده لا شريك له، ولأن الأمانة تمثل الحقوق والواجبات البشرية جميعًا عَظَّمَ الله شأنها فَقَالَ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ (الأَحْزَابِ: ٧٢)، ويدخل في الأمانة: إفشاء العلم ونشره، وتعليم ما لا يسع جهله، وهي أمانة تجب على العلماء بالفعل والتنفيذ، وعلى المقتدرين بالتهيئة المناسبة.انظر لرحابة فهم ابن عباس ﷺ حيث ذكر قول ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء:٥٨) .

ثم قال: يدخل فيه وعظ السلطان النساء يوم العيد [٢]، فمن الأمانة أن تؤدي السلطة التنفيذية حق النساء في أن يجتمعن وأن يتم تعليمهم يوم العيد، وهنا تطرب عندما تشعر بهذا المعنى في الآية؛ إذ لم يقل ربك جل ثناؤه: أن تؤدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها بل أوجب أداء الأمانة إلى أهلها، فالله ائتمنك على قدرات كثيرة لتؤديها إلى أهلها، فمن ذلك: أنه ائتمن أهل العلم على العلم، وأهل الحكم على الحكم، وأهل القدرة على القدرة، وأهل الجاه على الجاه، وأهل المال على المال.. ائتمن كلًا منهم على نوعٍ أو أنواعٍ ليقوموا بأداء الأمانات إلى أهلها الذين ينبغي إيصال الأمانة إليهم.

والأمانة العملية في الحياة تمثل روح الإسلام، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: ما خطبنا نبي الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها، إلا الأمانة، قال: يؤتى

(١) أبو داود (٤ / ٤١٨) برقم ٤٨٧٠.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩ / ٩٥).

العبد يوم القيامة، وإن قتل في سبيل الله، فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه؛ حتى إذا ظن أنه خارج قلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها، وأشد ذلك: الودائع. قال -يعني زاذان-: فأتيت البراء بن عازب، فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود! قال: كذا، قال: صدق، أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (١).

فأساس إقامة الحقوق الإنسانية أداء الأمانة، وهي الوسيلة الوحيدة لمواجهة تآمر الحسدة البخلاء من مجرمي العالم الذين يزكون أنفسهم، ويكون معهم عصابات الإجرام الإنسانية.. أداء الأمانة أهم وسيلة تبعد الرأي العام عن الوقوع في أيدي المجرمين، وتبقي الوضع على خير حالٍ تنموي مستقر، وأحسن عاقبة ومصيرًا.

ويجب أداء الأمانات إلى أهلها، ولو كانوا فجرة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هِيَ مُبْهَمَةٌ لِلْبَرِّ وَالفَاجِرِ(٢)، وقد قطع النبي ﷺ بتوجيهاته الحازمة، فقال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» (٣)،

أجل! إنه خلق المؤمنين، وليس خلق أصحاب الفيتو الذي يمتصون حقوق

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٤٨٠) برقم: (١٧٠١)، وحسنه مشهور سلمان، وذكره الألباني في الصحيحة برقم: (٢٩٩٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٢/ ٢٢٢) برقم (٣٣٢٣٠).

(٣) الترمذي (٣/ ٥٦٤) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني.

الآخرين بالهوى والتشهي والظلم، واسمع إلى استنباط أهل العلم ذلك من هذه الآية، فقد قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: ثَلَاثَةٌ يُؤَدَّيْنَ إِلَى البَرِّ وَالفَاجِرِ: الأَمَانَةُ، وَالعَهْدُ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ (١).

بل يوسع ابن عباس ﷺ فهمنا لذلك كأنه يكلم هؤلاء الذين يستبيحون أموال الناس بغير حق، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، فإنه لم يرخص لموسِر ولا معسر أن يُمسكها (٢).

فهذه الآية تبين أهم قواعد التعامل الحيوي البيني، فهي أساس النمو في الموازين الاقتصادية، والأمن الاجتماعي، ومن دونها تختل الأنظمة، ويأكل الناس بعضهم بعضًا على هيئة أسوأ من أوضاع حيوانات الغابات.. هنا تعلم لماذا يحذر النبي ﷺ في بلاغه العالمي من خلال نظره المستقبلي من رفع الأمانة في حياة الناس، فعن حُذَيْفَة ﷺ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثَنَا أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَ عَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى فِيهَا أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ المَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ، وَلاَ أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ وَأَمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا (٣)..

(١) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٣١) برقم: (٢٦٠١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٩٣).

(٣) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٩ / ٦٦).

وترى الإعراض عن هذا التوجيه الإلهي واضحًا في تحول كثير من الناس والمؤسسات العالمية إلى مجموعات من المرتزقة الذين يأكلون الأمانات، ويجعلونها مغانم، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فلما صلى صلاته ناداه رجل: متى الساعة؟ فزجره رسول الله ﷺ وانتهره وقال: «اسكت» حتى إذا أسفر رفع طرفه إلى السماء فقال: «تبارك رافعها ومدبرها». ثم رمى ببصره إلى الأرض فقال: «تبارك داحيها وخالقها». ثم قال: «أين السائل عن الساعة؟». فجثا رجل على ركبتيه فقال: أنا بأبي وأمي سألتك فقال: «ذاك عند حيف الأئمة، وتصديق بالنجوم، وتكذيب بالقدر، وحتى تتخذ الأمانة مغنمًا، والصدقة مغرمًا، والفاحشة زيارة، فعند ذلك هلك قومك» (١)،

وظن بعض الناس أن الآية نزلت في حادثة خاصة هي ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لعثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة -أي وهو يناولهم مفاتح الكعبة-: «خُذُوهَا يَا بني طَلْحَةَ خَالِدَةً تالدةً لا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلا ظَالِمٌ» (٢)..

إلا إنك ترى أن هذه الحادثة لم يرد فيها في طريق صحيح أنها سبب نزول الآية، والآية عامة تقرر أداء الأمانات إلى أهلها بأنواعها..

واسمع إلى هذا الأنموذج الفريد في بيع الأمانة ضمن التاريخ الصافي للتطبيق القرآني حيث يحكي أُمَيَّةُ بْنُ بِسْطَامٍ، قَالَ: « جَاءَتْ يُونُسَ بْنَ عُبَيْدٍ امْرَأَةٌ بِجُبَّةِ خَزٍّ، فَقَالَتْ لَهُ: اشْتَرِهَا، فَقَالَ: بِكَمْ تَبِيعِيهَا؟ قَالَتْ: بِخَمْسِمِائَةٍ، قَالَ: هِيَ خَيْرٌ مِنْ ذَاكَ،

(١) البزار٣/ ٣٨٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧ / ٦٣٣): «رواه البزار وفيه من لم أعرفهم».

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٩ / ٣٢٨).

قَالَتْ: بِستِّمِائَةٍ، قَالَ: هِيَ خَيْرٌ مِنْ ذَاكَ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ: هِيَ خَيْرٌ مِنْ ذَاكَ حَتَّى بَلَغَتْ أَلْفًا وَقَدْ بَذَلَتْهَا بِخَمْسِمِائَةٍ «، ويحكي مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: « جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ إِلَى سُوقِ الخَزَّازِينَ فَقَالَ: مِطْرَفٌ بِأَرْبَعِمِائَةٍ، فَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: عِنْدَنَا بِمِائَتَيْنِ، فَنَادَى المُنَادِي بِالصَّلَاةِ، فَانْطَلَقَ يُونُسُ إِلَى بَنِي قُشَيْرٍ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ فَجَاءَ وَقَدْ بَاعَ ابْنُ أُخْتِهِ المِطْرَفَ مِنَ الشَّامِيِّ بِأَرْبَعِمِائَةٍ، فَقَالَ يُونُسُ: مَا هَذِهِ الدَّرَاهِمُ؟ قَالَ: ذَاكَ المِطْرَفُ بِعْنَاهُ مِنْ ذَا الرَّجُلِ، قَالَ يُونُسُ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا المِطْرَفُ الَّذِي عَرَضْتُ عَلَيْكَ بِمِائَتَيْ دِرْهَمٍ، فَإِنْ شِئْتَ خُذْهُ وَخُذْ مِائَتَيْنِ، وَإِنْ شِئْتَ فَدَعْهُ، قَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ قَالَ: بَلْ أَسْأَلُكَ بِاللهِ مَنْ أَنْتَ وَمَا اسْمُكَ؟ قَالَ: يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَكُونُ فِي نَحْرِ العَدُوِّ، فَإِذَا اشْتَدَّ الأَمْرُ عَلَيْنَا، قُلْنَا: اللهُمَّ رَبَّ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، فَرِّجْ عَنَّا، أَوْ شَبِيهَ هَذَا، فَقَالَ يُونُسُ: سُبْحَانَ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ»[1].

إنه حق تأدية الأمانات إلى أهلها، سَوَاءٌ كَانَتْ تِلْكَ الأُمُورُ مِنْ بَابِ المَذَاهِبِ وَالدِّيَانَاتِ، أَوْ مِنْ بَابِ الدُّنْيَا وَالمُعَامَلَاتِ، وفي مقدمتها أمانة الحكم، وفي مقدمة من يؤمر بهذا الحق المؤمنون من أمة النبي ﷺ. ولا ينبغي لأحد أن يتعلل أو يعتذر عن عدم قدرته على أداء الأمانات إلى أهلها، فلو صدقوا الله لكان خيرًا لهم، وقد قيل:

لَوْ صَحَّ مِنْكَ الهَوَى أُرْشِدْتَ لِلْحِيَلِ

الأساس الثاني:

أعظم الأمانات بعد أمانة التوحيد: أمانة الحكم بالعدل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، ومعنى الآية: إِنَّ اللَّه يَأْمُرُكُمْ أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ويأمركم إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ مطلقًا - مسلمهم وكافرهم - أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٥).

فانظر لجمال ذلك: العدل مطلوب مع كل أحد، والآية منسجمة مع مقصد السورة الأصلي في إثبات الحقوق الإنسانية عمومًا، وحسبك أن تجد مثل هذا النص ليطمئن غير المسلم لأمانة المسلم وعدله.. وعلى ذلك عاشت الأقليات غير المسلمة واثقة من نيل حقوقها في المجتمعات المسلمة كما هو معلومٌ عبر التاريخ قبل أن تستجد المجتمعات الغربية هذه المبادئ في السنوات الأخيرة فقط.

تعال لتتأمل مسألة أخرى وهي اقتران الأمانة بالحكم بالعدل لأن أول مظاهر الأمانة تولية الأكفاء الذين يعدلون، ويمكن التفريق بين الأمانة والعدل بأن يقال:

الأمانة حق في ذمتك تؤديه إلى الغير، والعدل حق عند الغير تؤديه إلى الغير، ولكنك عند التوسع تجد أن العدل يدخل فيه أن تنصف من نفسك، فالعدل ذاته أمانة لكنه يتعلق بأمانة القوة أو بأمانة القضاء، وانظر لفهم زيد بن أسلم لهذا الموضوع حيث قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ في ولاة الأمر [1].

وهناك ضياء آخر في الآيات حيث جاء الأمر بالعدل بعد أن بين الله فيما سبق أنه آتى بعض أهل الكتاب الملك والحكمة وآتاهم ملكًا عظيمًا، لكنهم لم يرعوه حق رعايته، ولا استمعوه حق استماعه، ولا قاموا بأداء حقوقه.. فأمر هذه الأمة بتصحيح مسار ذلك الاعوجاج الإسرائيلي والنصراني المذهل، فإن حكموا بين الناس فليحكموا بالعدل لا بشريعة الظلم والمحاباة العنصرية التي زخرفت تحت شعارات كثيرة منها ما يسمى (الفيتو).

والحكم: الإلزام بالنافع، والردع عن الضار، فيقال: حَكَمْتُ السفيه وأَحْكَمْتُهُ، إذا أخذتَ على يده، ومنه: حَكَمَةُ اللِّجَامِ، وَهِيَ الحَدِيدَةُ الَّتِي تُجْعَلُ فِي فَمِ الفَرَسِ، وَيُقَالُ: أَحْكِمْ فُلَانًا، أَيْ أَمْسِكْهُ قال جرير:

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٩٠).

أَبَـنـي حَنيفةَ أَحْـكِـمُـوا سفهاَءكم إنِّـــي أخـــاف عـليـكـم أن أغـضـبـا

فصار الحكم بالعدل الإلزام به، والعدل عِبَارَةٌ عَنْ إِيصَالِ الحَقِّ إِلَى صَاحِبِهِ بأحسن الطُّرُقِ، ويكون بِالفَتْحِ وَالكَسْرِ، وهو المِثْلُ، وَالعَدِيلُ: المَثِيلُ وَفُلَانٌ يَعْدِلُ فُلَانًا أَيْ يُسَاوِيهِ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ (المائدة: ٩٥)، قَالَ مُهَلْهِلٌ:

عَـلَـى أَنْ لَـيْـسَ عَــدْلًا مِـنْ كُـلَـيْـبٍ إِذَا ظَــهَــرَتْ مُـخَـبَّــأَةُ الـخُــدُورِ
عَـلَـى أَنْ لَـيْـسَ عَــدْلًا مِـنْ كُـلَـيْـبٍ إِذَا خَــافَ الـمُـغَارُ مِـنَ الـمُـغِيرِ
عَـلَـى أَنْ لَـيْـسَ عَــدْلًا مِـنْ كُـلَـيْـبٍ إِذَا طُــرِدَ اليَتِيمُ عَــنِ الـجَــزُورِ
عَـلَـى أَنْ لَـيْـسَ عَــدْلًا مِـنْ كُـلَـيْـبٍ إذا مــا ضـيــمَ جــارُ المستجيرِ
عَـلَـى أَنْ لَـيْـسَ عَــدْلًا مِـنْ كُـلَـيْـبٍ إذا ضـاقــتْ رحـيــباتُ الـصــدورِ
عَـلَـى أَنْ لَـيْـسَ عَــدْلًا مِـنْ كُـلَـيْـبٍ إِذَا خَــافَ المَخُوفُ مِـنَ الثُّغُورِ

فالعدل هو القيمة الحقيقية، وأما المساواة فقد تكون عدلًا، وقد لا تكون كذلك إذا لم تعطِ كل ذي حقٍ حقَّه، أما إعطاء بعض الأطراف أكثر من حقه، أو إعطاء بعضهم أقل من حقه، فذلك الظلم المحض، والعدل يكون في تقسيم الحقوق، وفي تنفيذ هذا التقسيم، وهو الذي فصله الله بقوله: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البَقَرَة: ٢٧٩).

وأعظم الأمانات على الإطلاق بعد التوحيد وعدم الشرك: أمانة الحكم بين الناس سواء أكانت من الملك والرئيس والقاضي والوزير، أو من الحاكم الذي يقصده الناس ليكون مرجعهم عند الاختلاف ولو لم يكن ملكًا أو رئيس أو وزيرًا، وربما تقول ولماذا بالذات ذكر الحكم بالعدل بعد الكلام عن وجوب أداء الأمانات؟

تعال بنا لنتساءل عن مراتب الناس في الأمانة: أليس أعظم الناس أمانة هو الذي ائتمنه إنسان على مبلغ عظيم من المال؟ أليس كلما كثر المال الذي أضعه عندك يزيد عبء

تحمله، وثقل أدائه؟ إذن فكيف ترى بمن ائتمنه الناس على أديانهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم، وطلبوا منه الحكم في ذلك، وفوضوا إليه إدارة كل ذلك؟

ولماذا لا يذكر الله هذا الأساس العظيم في أداء الأمانة، وأعظم التبعات إنما تقع على المتسلطين من ذوي النفوذ والرئاسات الذين يضلون الملايين أو يهدونهم سواء السبيل؟

لقد كان دأب الربانيين أن يذكروا من صمدوا للحكم بين الناس أن يؤدوا الأمانات بالحكم بالعدل، ويحذروا من أدنى غشٍّ يصل إلى الرأي العام عن طريقهم، فعَنِ الحَسَنِ: قَالَ: أَتَيْنَا مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ نَعُودُهُ، فَدَخَلَ عُبَيْدُ اللهِ فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وَهْوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»[١].

هنا نفهم لماذا قال الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ ثم بين عظمة التشريع الإسلامي الذي يجمع بين وجوب أداء الأمانات وإقامة العدل فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ (النساء: ٥٨).

إن العدل قوام الملك، ودوام الدول، ورأس كل مملكة سواء أكانت نبوية أم اصطلاحية[٢]، فجاءت هذه الجملة لبيان خصوص أمانة الحكم لأهميتها بعد أن عمم الكلام على الأمانات في الجملة السابقة، وقد ملأ الكلام عن أمانة الحكم حيزًا طويلًا، ومحاور متتابعة، وملفاتٍ متنوعة من هذه السورة، فذكر الله أمانة التحاكم اعتبارًا من الآية ٦٠ إلى الآية ٧٠، ثم أمانة إدارة الأمن القومي العسكري والأمني وحماية

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٨٠).

(٢) سراج الملوك (ص: ٥١).

المستضعفين في الأمة الإسلامية اعتبارًا من الآية ٧١ إلى الآية٨٧، ثم أمانة التعامل مع العناصر المدمرة للجسد الإسلامي وهم العناصر المعروفون بالمنافقين، ثم ذكر أمانة الدماء البريئة المسلمة والمسالمة، وعصمتها، وحرمتها، ثم أمانة التقاضي والحذر من الدفاع عن الذي يختانون أنفسهم، ثم أمانة إنشاء المؤسسات المدنية التي تأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، ثم أمانة إقامة حقوق النساء والزوجات خاصة، ثم أمانة الانتماء والولاء ورفع الظلم الاقتصادي والفكري عن البشرية...

كل هذه المحاور والملفات الرائعة التي تديرها سورة النساء لحماية الحقوق البشرية قائمة على أساسين: أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل، وهما العاملان المؤثران في صلاح المجتمعات وسعادتها في الدنيا والآخرة، ولأن الحكم بالعدل رأس صلاح الدنيا، وأساس هداية العالمين، وقوام سعادة البشرية كرر الله الأمر به في مواضع متعددة مثل قوله -جلَّ مجده-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ (النحل: ٩٠)، وَقَوْله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، وَقَوْلُهُ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ (النساء: ١٣٥) وقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ (ص: ٢٦) وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ العَدْلِ الآيَاتُ الوَارِدَةُ فِي مَذَمَّةِ الظُّلْمِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ (الصَّافات: ٢٢) وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (إبراهيم: ٤٢) وَقَالَ: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ (النمل: ٥٢) فَإِنْ قِيلَ: الغَرَضُ مِنَ الظُّلْمِ مَنْفَعَةُ الدُّنْيَا أَجَابَ اللَّه عَنِ السُّؤَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗا وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ (القصص: ٥٨).

وَقد قيل: من عدل فِي سُلْطَانه اسْتغنى عَن أعوانه، وَقَالَ بعض الحُكَمَاء: الملك يبْقى على الكفْر وَلَا يبْقى على الظُّلم، والله يقيم الدولة العادلة الكافرة، ويبيد الدولة الظالمة المسلمة، وفي ذلك قالوا:

عَلَيْك بِالعَدْلِ إِن وليت مملكة وَاحْذَرْ من الجور فيها غَايَة الحذر
فالملك يبْقى على الكفْر البهيم وَلَا يبْقى مَعَ الجور فِي بَدو وَلَا حضر

وبعض المفاهيم السائدة عند الناس في غاية الغرابة والبعد عن العدل، فالمدير مثلًا يرعد ويزبد في أداء الموظف لأمانة وظيفته -وهذا جيد- ولكنه ينسى أمانة مسؤوليته، وبعض الناس يشدد في أمانة البيع بمائة أو مائتين لوزن مدٍّ أو صاعٍ أو كيلو أو كيلوين ثم هو يطفف في مناقصات تبلغ الملايين، بل ربما تلاعب بثروات الأمة التي تكفيها لأجيال، فيتلاعب بها مع الشركات العابرة للقارات ثم يذهب يتسول لشعبه، والقوانين الجاهلية الأولى والأخرى متفننة في تشريع الظلم وإسباغ المشروعية له، وترجع كلها إلى وضع امتيازات لجهات، أو إظهار الغضب على جهات مثل القوانين التي يضعها من يسمون بالثوار بِدَافِعِ الغَضَبِ عَلَى مَنْ كَانُوا مُتَوَلِّينَ الأُمُورَ قَبْلَهُمْ، ومثل قوانين الفيتو التي وضعتها أمم تظهر أن لها امتياز التلاعب بحقوق الأمم وثرواتهم بل تستعبد الأمم بهذا النظام العنصري الأكثر شناعة في التاريخ الذي يسمى الفيتو، وتخيل أن هذا الحق العنصري الظالم قد استخدم لإشاعة الظلم العالمي منذ تأسيس الأمم المتحدة عام ١٩٤٥، إلى عام ٢٠١٠ تقريبًا بصورة بشعة، فقد استخدم الاتحاد السوفيتي وروسيا حق الفيتو (النقض) ١٢٣ مرة، والولايات المتحدة ٧٦ مرة وبريطانيا ٣٢ مرة وفرنسا ١٨ مرة، بينما استخدمته الصين ٨ مرات..

عد بنا إلى جمال العدل القرآني واقتران أداء الأمانة إلى أهلها بإقامة العدل في الحكم يدل على شدة العلاقة بينهما، وقد بين النبي ﷺ شدة العلاقة بينهما، وأن من أعظم مظاهر خيانة الأمانة تولية غير الأكفاء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى

إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ، عَنِ السَّاعَةِ قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ [١].

وقد بين النبي ﷺ جسامة مسؤولية الحكم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه قال: «ما من رجلٍ ولي عشرة إلا أُتِيَ به يوم القيامة مغلولةً يده إلى عنقه حتى يقضى بينه وبينهم» [٢].

وهل هذه الجسامة لمسؤولية العدل والمحاسبة الشديدة عليها تجعل من الأفضل ترك المسؤولية، واعتزال الإمرة؟

بل هذه الجسامة للمسؤولية تجعل الحرص على العدل قائدًا لأعظم الأجور يوم القيامة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ..» [٣]، فبدأ بالإمام العادل لعظم أثره في إصلاح البشرية، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت، وإذا استرحمت رحمت» [٤]، وَقد بين الحَسَن البصري رحمه الله القواعد القرآنية العامة التي أنزلها الله لإدارة الحكم بالعدل في جميع المجالات فقَالَ: إِنَّ اللَّه أَخَذَ عَلَى الحُكَّامِ ثَلَاثًا: أَنْ لَا يَتَّبِعُوا الهَوَى، وَأَنْ يَخْشَوْهُ وَلَا يَخْشَوُا النَّاسَ، وَلَا يَشْتَرُوا بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قليلا. ثم قرأ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)، وَقَرَأَ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٢٣).

(٢) الطبراني في الكبير ١٠/ ٢٨٢ برقم١٢٥٢١، والأوسط١/ ٩٤ برقم٢٨٦، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٦٨).

(٤) مسند أبي يعلى (٧ / ٩٨) قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (المائدة: ٤٤).

الأساس الثالث:

الشعور بالقيمة العالية والموثوقية الرفيعة للتوجيهات الإلهية.

ويثبت الله الشعور بذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (النساء:٥٨): هنا ربما تتعجب وتخاطبني قائلًا: ماذا الذي تقوله؟ هذا مجرد ختام للآية.. أقول لك: صحيح، وكونه تذييلًا رائعًا للآية لا يعني أنه لا يقدم أساسًا من أسس الإدارة الراشدة، فربما جاريتني -أيدك الله- وقلت: وما علاقة الشعور بالقيمة العالية للتوجيهات الإلهية بالإدارة الراشدة التي تمنح الإنسانية الحقوق؟ عندها: أنظرني وتأمل معي:

إن هذا الشعور بالقيمة العالية والموثوقية الكاملة للتوجيهات الإلهية يجعل الحاكم والسلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية على ثقة تامة بوجود حلول يجب استنباطها من هذه التوجيهات.. حلول للمشاكل الحالية، والأحداث المستجدة، والأمور المتوقعة، ولذا يقول الله لك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أَيْ نِعْمَ شَيْءٌ يَعِظُكُمْ بِهِ، أَوْ نِعْمَ الَّذِي يَعِظُكُمْ بِهِ.. نِعْمَ الذي يوجهكم إليه مما يقيكم المكروهات المستقبلية؛ إذ تتنعم به حياتكم، وتطمئن به نفوسكم.. فبعد أن يذكر الله الأساسين الكبيرين لإدارة الحياة (أداء الأمانات والحكم بالعدل) يجذب العالم لتطبيق ذلك ببيان الأثر الكبير لتطبيق التوجيهات الربانية على مستوى الحياة البشرية فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).. إنه يحثهم على استشعار مدى الثقة بالنص القرآني حيث تجد البشرية دولًا وأفرادًا كل نعمة في اتباع أوامر الله والسير وفق التعاليم القرآنية.

والوَعْظُ: النُصْحُ الذي يصحبه التذكيرُ بالعواقب والمآلات المستقبلية تذكيرًا يرق له القلب [١]، ولماذا كان وعظ الله شيء يُتنعم به؟

لأن الله جل جلاله لا ينتفع من هذه الأوامر.. أنتم من ينتفع بها، وأعظم الأوامر نفعًا ما لا تجد فيه مصلحة للآمر؛ إذ صارت المصلحة كلها خالصة للمأمور، ونِعْمَتْ الأوامرُ التي أَمَرَنا الله بها؛ لأنه الكامل العلم والحكمة، فالأمر صدر عن علمٍ كامل، وحكمةٍ مطلقة، فلا يُخاف من أن يعتريَ هذه الأوامر النقص أو الخلل.. بل يطمئن السامع لها، ويثق بها، فكأنه جل ثناؤه يقول: يا أيها الناس، إن الله نعم الشيء يَعظكم به، ونعمت العظة يعظكم بها عندما أمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن تحكموا بين الناس بالعدل ليكون في ذلك صلاح المجتمعات، وإسباغ الأمن والأمان عليها.

ثم بين الله جل ذكره الرقابة الإلهية الدائمة لمدى تطبيقهم لتلك الأسس الثلاثة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ بأقوالكم وأفعالكم التي يتم من خلالها تطبيقكم لتلك التوجيهات القرآنية، فهذه الجملة الختامية « أَعْظَمُ أَسْبَابِ الوَعْدِ لِلْمُطِيعِ، وَأَعْظَمُ أَسْبَابِ الوَعِيدِ لِلْعَاصِي» كما يقول الرازي، ولذا قال النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[٢]، وحتى تفئ إلى أمر الله، وتحسن في تذوق التوجيهات السابقة ختم الله الآية بتذكيرك بهاتين الصفتين ليناسب ذلك أداء الأمانة والحكم بالعدل فإن السمع يتعلق باللفظ والبصر يتعلق باللَّحظ، فالله سميع للفظك بصير بلحظك، فلا يفتننك الشيطان فتتلاعب بلفظك أو تخادع بلحظك في الأمانة أو في الحكم بالعدل؛ إذ من الناس من يؤدي الأمانة صورة لا حقيقة، أو يوهم الناس أنه يحكم بالعدل صورة لا حقيقة، وما أكثر ما شاع هذا في زماننا، ولكن الله تعالى جده

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ١١٨١)، مقاييس اللغة (٦/ ١٢٦).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٢٠).

يخبرك أنه سميع بصير فأين تفر منه؟

وهو سميع بصير لكلامك وأفعالك التي تثبت حقيقة شعورك بالثقة بالوعظ الإلهي، وتثبت اعتزازك به.

ولاحظ أن الصفات الإلهية جاءت على المبالغة مع أنه كان يمكن أن تأتي على صيغة اسم الفاعل، فيقول: سامع ومبصر، ولكنه أتى بهذه الصيغة: سميع بصير ليُعلمك أنه السامع لكل شيء المبصر لكل شيء حتى لا يفوته شيء، وأتى بكان لما سبق أن أخبرناك أن صفاته ملازمة لذاته، فهو سميع بصير قبل أن يخلق المخلوقات جل شأنه.

الأساس الرابع:

يجب التزام النظام الدستوري الذي يحكم تفكير الإرادة الراشدة وتصرفاتها في المتفق عليه، والمتنازع فيه. وهذا النظام الدستوري يتمثل في المصادر والأصول التشريعية، وقد ذكر الله هذه الأصول في قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ (النساء:٥٩).

وهذه المصادر التي يجب الرجوع إليها في التشريعات المتعلقة بالأمانات والعدل، وفض النزاعات، سواء أكان ذلك من قبل الحكام أم قبل المحكومين، ولذا قال الرازي: «هَذِهِ الآيَةَ آيَةٌ شَرِيفَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَكْثَرِ عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الفُقَهَاءَ زَعَمُوا أَنَّ أُصُولَ الشَّرِيعَةِ أَرْبَعٌ: الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ وَالقِيَاسُ، وَهَذِهِ الآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَقْرِيرِ هَذِهِ الأُصُولِ الأَرْبَعَةِ بِهَذَا التَّرْتِيبِ»[1].

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١١٢).

فالمناسبة والاتصال هنا في غاية الوضوح، وتظهر الآية أن الله لـمَّا أَمَرَ الرُّعَاةَ وَالوُلَاةَ بِالعَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ أَمَرَ الرَّعِيَّةَ بِطَاعَةِ الوُلَاةِ، وأخضع الحكام والمحكومين لأربعة مصادر دستورية حاسمة هي المصادر الآتية:

الأصل الأول: الرجوع إلى الله سبحانه من خلال الرجوع إلى القرآن الكريم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

فبدأ الآية بخطاب المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ ليخبرهم أن حقيقة إسلامهم التي يعلنونها، وينتسبون إليها، وربما تفاخروا بها، تقتضي أن يلتزموا بما سيذكره.

الأصل الثاني: الرجوع إلى النبي ﷺ، ونجد كلامه في سنته المطهرة إذا كانت غير مردودة، وفقًا لمعايير أهل الحديث: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

هنا ينبغي أن نشير إلى قومٍ جاءوا ظلمًا وزورًا يزعمون أن ظهور الإسلام، وبعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم كان سببًا في تخلف العرب، وتبعهم بعض أصحاب المراهقة الفكرية، والخبرة السياسية المحدودة من المتأخرين، فأرادوا نبذ الصبغة الإسلامية، واستبدالها بمراهقة فكرية غرورة ليقيموا الحكومة التي تنافس العالم؟ هكذا زعموا.. قلِّب النظرَ في الآيات المحكمات، واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي تالين كتابه لترى أن الاستقامة على هذين المصدرين العظيمين أقامت التاريخ لهذه الأمة التي غرقت في التخلف لما نبذتهما وراءها ظهريًا... يحتوي هذان المصدران على كل ما تتمنى الإنسانية أن يشرق عليها مما يزيل كل قيود الظلم العنصرية، إذ ترى أن أهم القواعد التي دار عليهما المصدران إقامة حقوق الإنسانية في التكريم البشري، والمعرفة الكونية لسبب الماضي، واتجاه المصير في المستقبل، واليُسْرُ، وَرَفْعُ الحَرَجِ وَالعُسْرِ، وَحَظْرُ الضَّارِّ، وَإِبَاحَةُ النَّافِعِ،

وَكَوْنُ مَا حُرِّمَ لِذَاتِهِ يُبَاحُ لِلضَّرُورَةِ، وَمَا حُرِّمَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ يُبَاحُ لِلْحَاجَةِ، وَرَدُّ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، والحكم بالعدل، لا بنظام الفيتو العنصري.

فأعاد فِعْل الطاعة مع الرسول ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ مَعَ أَنَّ حَرْفَ العَطْفِ يُغْنِي عَنْ إِعَادَتِهِ ليظهر أن للرسول ﷺ أن يجتهد فيستقل بإصدار التشريعات؛ فهو مبلغ عن ربه، قائم بأمره، لا ينطق عن الهوى، ومهما قال فهو مسدد بالوحي، وليحذر ممن يتردد في التسليم لقوله ﷺ وخبره مستقبلًا؛ إذ ذلك طريقة الانسلاخ من الإسلام كله، ومن معجزات النبي ﷺ الغيبية خبره عن ذلك، حيث يحذر المسلمين ممن يتردد في التسليم لأمره ﷺ وخبره مستقبلًا؛ ولذا قَالَ ﷺ: «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لاَ نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ»[1].

الأصل الثالث: الرجوع إلى أولي الأمر المستنبطين من المصدرين السابقين أصالة، أو نيابة، ويذكر الله ذلك في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء:٥٩) وهم أهل الحل والعقد الذين تكون لهم السلطات العليا في البلد المسلم، ويضمون السلطة التشريعية والرقابية والقضائية، ويتقدمهم العلماء وذوو العقل والفقه ودين الله كما يقول مجاهد، وعنهم تنبثق تولية الأمراء والقيادات التنفيذية التي تدير مصالح الأمة.

فلم يقل ولي الأمر بل وأولي الأمر منكم فمن هم أولو الأمر المذكورون في الآية؟ الأَمْرُ المُشَارُ إِلَيْهِ هنا هو ذاته الأمر فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)، فذهب بعضهم إلى أنهم العلماء، وذهب آخرون إلى أنهم الحكام والأمراء، واسمع لمجاهد يصفهم فيقول فيهم: أصحاب محمد ﷺ، وربما قال: أولي العقل والفقه ودين الله[2]، فاجمع كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتجده عنى أنهم أولو العقل

(١) أبو داود (٤ / ٣٢٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٠١).

والفقه ودين الله، ومثل لهم بأصحاب النبي ﷺ.

وعند الجمع بين هذه الأقوال تجد النور في فهمهم للآية؛ إذ معنى ذلك أن أولي الأمر ابتداء هم أهل الحل والعقد وهم الذين تكون لهم السلطات العليا في البلد المسلم، ويتكونون من العلماء وذوي العقل والفقه ودين الله كما يقول مجاهد.. هذا يعني:

أن الصفات الأساسية لهم: قوة العارضة العقلية، والاستقامة السلوكية، ويكون أساسهم العلماء العاملون، كما يوجد فيهم الخبراء من جميع التخصصات، وآلية اختيارهم قد تكون بالتزكية والشهرة بين الناس كما في عهد النبي ﷺ والقرون المفضلة، وقد تكون بالانتخاب المقيد بشروط محددة في المنتخبين، وهذه الآلية أنسب لواقعنا وعصرنا الذي بعد عن عهد النبوة، وبتكون هذه السلطة التشريعية الرقابية يتم اختيار السلطة القضائية والسلطة التنفيذية، ثم تكون السلطات الثلاث النظام العام الذي يجتهد على حراسة المجتمع وسياسة الدنيا بالمنهج الذي ارتضاه الله للبشرية. وقد تم تطبيق هذا التصور في القرون المفضلة ولكن وفق تفصيلات مختلفة، وصور متعددة مع حدوث خلل جزئي كلما ابتعد الزمان عن عهد النبوة.

وعنهم ينبثق تولية الأمراء والقيادات التنفيذية التي تدير مصالح الأمة، ويكونون عليهم رقباء، فينشأ عن سلطاتهم تقسيم الوظائف الرئاسية والوزارية، وبذا ينتظم أهل الحَلِّ والعقد من: مسؤولي السلطة القضائية والتنفيذية والتشريعية، والعلماء وكبار المسؤولين العسكريين والاقتصاديين الذين يتولون المَصَالِح العَامَّة.

وينشأ عن مرجعية أهل الحل والعقد سلطتان:

١ـ سلطة الإجماع في القرارات الصادرة عن أهل الحل والعقد بإجماعهم.

لا عندما يختلفون، وهذا المصدر نستنبطه من المصادر الثلاثة السابقة فإن أهل الحل والعقد (السلطات التشريعية والرقابية والقضائية)، والسلطات التنفيذية قد يجمعون على شيء، فيجب الرجوع إليه، فعَنْ أَبِى مَالِكٍ الأَشْعَرِىَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلاَثِ خِلاَلٍ أَنْ لاَ يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلِكُوا جَمِيعًا وَأَنْ لاَ يَظْهَرَ أَهْلُ البَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الحَقِّ وَأَنْ لاَ تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلاَلَةٍ» (١)، وقد أشار إلى هذا الاستنباط الرازي والنيسابوري، فقال: «تعين أن يكون ذلك المعصوم كل الأمة أي أهل الحل والعقد وأصحاب الاعتبار والآراء» (٢).

٢ـ وسلطة القوة التنفيذية التشريعية، والرقابية، والقضائية، الذين تجب طاعتهم في غير معصية.

وبذا يظهر واضحًا قول من جمع بين العلماء والأمراء في مفهوم أولي الأمر (٣)؛ إذ يعني ذلك أن العلماء هم أصحاب التشريعية والرقابية والقضائية، والأمراء هم أصحاب السلطة التنفيذية الخاضعة لسلطة العلماء الذين يؤيدهم المستشارون من شتى التخصصات.

وهذا واضحٌ تمام الوضوح من فعل الصحابة عندما اختاروا أبا بكر في الشورى التي تم عقدها في سقيفة بني ساعدة، فاجتمعوا عليه عن سواء لم يخالف في ذلك أحد من بعدهم إلا ما ذكر عن تأخر علي بسبب مرض فاطمة ﵂، وبعد أن يتم اختيار أهل الحل والعقد لمن يقوم بالسلطات التنفيذية تجب الطاعة للسلطة التنفيذية المعينة من قبل السلطة التشريعية ثم تبقى السلطة الرقابية والقضائية قائمة لمراقبة

(١) أبو داود (٤ / ١٥٨)، وصحح الألباني الجملة الثالثة.

(٢) تفسير النيسابوري (٢/ ٤٣٥)، تفسير المنار (٥/ ١٤٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٥).

سلوك السلطة التنفيذية، والأمة تفرض سلطتها، ولكن من خلال أهل الحل والعقد، ويتصفون كلٌّ في تخصصه بالصفات الأربع المذكورة في القرآن الكريم لأصحاب الولايات ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥).

المجتمع الراشد يقوم على أساس العدل من جهة الحاكم، وعلى الطاعة والالتزام بالقوانين والقواعد والنظم والقرارات من جهة المحكوم، وينظم طبيعة العدل، وتفصيلاته، وطبيعة الطاعة وتفصيلاتها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولذا قدم ذكر طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وجعل طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ مطلقةً دون قيدٍ لبيان وجوب هذه الطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر وما يهوى الإنسان وما لا يهوى.. سواء أكان النشاط الحياتي الذي حكم فيه الشرع له أو عليه دون تردد أو مجاملة لأحد كائنًا من كان، ولذا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: حَقٌّ عَلَى الإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّه وَيُؤَدِّيَ الأَمَانَةَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى الرَّعِيَّةِ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا.

فالآيتان تفصلان الحقوق والواجبات التي على كل جهة من جهات الأمة حكامًا ومحكومين، وبين الطبري هذا التناسق بينهما فقال: هو خطاب من الله ولاةَ أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من وَلُوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقَسْم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وَعظ به الرعية في: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الرّاعي بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة [1].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٩٢).

عن مصعب بن سعد قال، قال علي ﷺ كلماتٍ أصاب فيهن: «حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدِّيَ الأمانة، وإذا فعل ذلك، فحقّ على الناس أن يسمعوا، وأن يُطيعوا، وأن يجيبوا إذا دُعوا» (١).

ولكن الرجوع إلى أولي الأمر، ليس على إطلاقه، بل مقيد بما لم يخالف الأصلين السابقين، ويُبَصِّرُنا بذلك أن الله لم يعد كلمة: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ مع أولي الأمر؛ ليبين أن طاعتهم تبعية للمصدرين السابقين، وليست أصلية، وذلك ضمن المجتمع المسلم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء:٥٩).

تعال لتملأ عينيك من الإعجاز البياني الذي يختزل الأحوال التشريعية المختلفة، فالله ذكر طاعته مطلقة دون تقييد باللفظ الصريح الآمر بها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ ثم ذكر طاعة الرسول ذكرًا مطلقًا دون قيدٍ فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، لكنه لما ذكر أولي الأمر قيد طاعتهم بأن تكون تابعة لطاعة الله ورسوله ﷺ؛ إذ لم يعد فعل الطاعة مع أولي الأمر ليبين أن طاعتهم مقيدة بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فيجب طاعة أولي الأمر بناء على طاعتهم لله وطاعتهم لرسوله ﷺ لا في الأمور المخالفة لذلك، فطاعتهم تبعية وليست أصلية، وهذا يؤدي إلى أن تكون جميع القوانين والتشريعات والنظم مستمدة من مصدر وحيد هو الشريعة الإسلامية.. وهذا ينافي أن تجعل بعض المجتمعات الإسلامية الشريعة مجرد مصدر رئيس فقط للتشريعات والقوانين ونظم المجتمع.

فإذا مثَّل أهل الحل والعقد الأمةَ، فاجتمعوا على أمر، فهو إجماع معصوم أو

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٩٠).

كالإجماع القريب من الحق، وإن اختلفوا وضعت آليات لصدور القرار عنهم حيث تجب طاعته، وبين النبي ﷺ ضرورة الطاعة للسلطات التنفيذية المكونة من الأمراء ليتم الانضباط، ويحد من الفوضى في المجتمع، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي [١].

ولكن النبي ﷺ بين حدود هذه الطاعة، وأنها لا تكون في معصية، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ، وَلاَ طَاعَةَ» [٢].

ونهى لذلك عن منازعة أولي الأمر أي الخروج عليهم ما داموا لم يأمروا بمعاصي متتابعة يظهر منها المروق من الدين؛ فعن جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهْوَ مَرِيضٌ قُلْنَا أَصْلَحَكَ اللَّهُ حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ [٣].

قال ابن حجر مفصلًا المعنى: «وعند أبي بكر بن أبي شيبة من طريق أزهر بن عبد الله عن عبادة رفعه: «سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما لا تعرفون، ويفعلون ما تنكرون، فليس لأولئك عليكم طاعة» قوله عندكم من الله فيه برهان أي نص آية أو

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٧٧).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٦٠).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٥٩).

خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل. قال: النووي المراد بالكفر هنا المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرًا محققًا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم، وقولوا بالحق حيثما كنتم انتهى. وقال غيره: المراد هنا المعصية والكفر، فلا يعترض على السلطان إلا إذا وقع في الكفر الظاهر والذي يظهر حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينازعه بما يقدح في الولاية الا إذا ارتكب الكفر، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فإذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية بأن ينكر عليه برفق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف» (١).

اضمم إلى جناحك هذه الكلمات القرآنية النبوية بالإجلال، وتأمل معهما ما ذكر في شرح النووي وابن حجر.. وأخبر بها عبيد السلطان، وعبيد سفارات الاستكبار الدولي في هذه الأيام.. أخبرهم عن القرآن والسنة وفهم أهل العلم لهما.. أخبرهم وذكرهم بأيام الله في الدنيا والآخرة.

ولقد نهى النبي ﷺ عن مفارقة الجماعة لمجرد شيءٍ يكرهه الإنسان من أميره، فعن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلاَّ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» (٢).

تذكر أن عدم المفارقة لا يعني عدم النصيحة، ولا يعني عدم قول الحق، ولا يعني ترك الأمر بالمعروف، ولا يعني ترك النهي عن المنكر.

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٨).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٥٩).

وفرَّق النبي ﷺ بين منازعة الأمر؛ إذ تكون مقيدة بالكفر البواح، وبين عدم الطاعة فإن مجرد الأمر بالمعصية كافٍ في عدم الطاعة.. فانظر لتجد أن النبي ﷺ بقدر ما يأمر بطاعة تجده ينهى عنها حال وجود معصية، فعَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ، وَلاَ طَاعَةَ»[1]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قَالَ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ [2].

وقد ذكر أنه أمرهم بأمر فيه معصية واضحة، فعن عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ [3].

ونحن نرى في التطبيق الراشد للصحابة الكرام -رضي الله عنهم- أن الطاعة لولي الأمر ليس على إطلاقه، بل هو مقيد بأن لا يكون في معصية، ولا حتى في أمور اجتهادية يغلب على الفرد أنها مخالفة للشريعة، واسمع إلى بعض الأمثلة

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٧٨).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٥٧).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٧٩).

المضيئة في ذلك، فعَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ صَبَأْنَا صَبَأْنَا فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لاَ أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلاَ يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ [١].

وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ في سرية ومعي عمار بن ياسر، فأصبنا ناسًا منهم أهل بيت قد ذكروا الإسلام، فقال عمار: إن هؤلاء قد وحدوا، فلم ألتفت إلى قوله فأصابهم ما أصاب الناس. قال: فجعل عمار يتوعدني لو قد رأيت رسول الله ﷺ فأخبرته فأتى النبي ﷺ فأخبره، فلما رآه لا ينصره وَلَّى وعيناه تدمعان -لعل ذلك لظنه خطأ فعله- قال: فدعاني فقال: «يا خالد لا تسب عمارًا؛ فإنه من يسب عمارًا يسبه الله، ومن يبغض عمارًا يبغضه الله، ومن يسفه عمارًا يسفهه الله» قال خالد: استغفر لي يا رسول الله، فو الله ما منعني أن أجيبه إلا تسفيهي إياه قال خالد: وما من شيء أخوف عندي من تسفيهي عمار بن ياسر يومئذ [٢].

واسمع لهذا الحديث المهيب الجامع: فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الكَعْبَةِ قَالَ: دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٢٠٣).

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٣ / ٤٣٩) وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: الصَّلاَةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «... فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ». فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ أَنْشُدُكَ اللَّهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. فَقُلْتُ لَهُ هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالبَاطِلِ وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ قَالَ فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ [1].

الأصل الرابع: إقامة المحاكم الدستورية، واللجان الشرعية لفض النزاع بالرجوع إلى الكتاب والسنة عند التنازع، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ (النساء:٥٩).

التَّنَازُعُ: من نزع الشيء ينزعه نزعًا، فهو منزوع ونزيع، وانتزعه فانتزع: اقتلعه فاقتلع على وجه الاستلاب. وانتزع الرمح: اقتلعه ثم حمل، وانتزع الشيء: انقلع شِدَّةُ الِاخْتِلَافِ، وَهُوَ تَفَاعُلٌ مِنَ النَّزْعِ، أَيِ الأَخْذِ، قَالَ الأَعْشَى:

نَازَعْتُهُمْ قُضْبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئًا وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ

(١) صحيح مسلم (٦ / ١٨)، الجشر: إخراج الدواب للرعى، ينتضل : يرمى بالسهام.

فَأَطْلَقَ التَّنَازُعَ عَلَى الِاخْتِلَافِ الشَّدِيدِ الذي يشبه أن يقتلع كل واحد من الطرفين أو الأطراف شيئًا من عند الآخر على وجه الاستلاب والجذب لما ليس له، فإن كان ذلك على سبيل المزاح المتبادل كما يحدث بين الأصحاب أو الأزواج فهو تفكه يدل على التمتع والنعيم كما قال تعالى ذكره: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ (الطور: ٢٣).

وإن كان ذلك على سبيل تبادل الرأي، فهو مؤدٍّ إلى الفشل؛ إذ لا ينبغي أن يؤدي الاختلاف في الرأي إلى التنازع كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ (الأَنْفَال: ٤٦) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ (طه: ٦٢)، ولا ينتهي إلا بانكسار أحد الأطراف كسرًا لا يبقي وحدة الفريق، ولا يحافظ على توافقه الفكري كالذي تسمعه في قوله جل ثناؤه: ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ (الكهف: ٢١).

وهذا هو المراد في هذه الآية، فقوله ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ يدل على الاختلاف الفكري الشديد في قضيةٍ اختلافًا يؤدى إلى التجاذب، حتى يكاد كل طرفٍ أن يقلع شيئًا يعتبره الآخر حقًّا له.

وقوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ يحتمل الوقوع، وذلك يعني أن الله تعالى ذكره قرر الوجود الطبيعي للتنازع، ويتصور التنازع بين ثلاث فئات: بين السلطات الثلاثة والأمة، وبين السلطات الثلاث نفسها: القضائية والتنفيذية والتشريعية، وبين أعضاء كل سلطة بذاتها، وبين أفراد الأمة أي فيما بينهم، وَيشَمَلَ التَنَازُعَ تنازع العُلَمَاءِ بَعْضِهِمْ مَعَ بعض فِي شؤون عِلْمِ الدِّينِ، فَمَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَمَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ فِي تَفْسِيرِ

التَّنَازُعِ بِتَنَازُعِ أَهْلِ العِلْمِ إِنَّمَا هُوَ تَنْبِيهٌ عَلَى الفَرْدِ الأَخْفَى مِنْ أَفْرَادِ العُمُومِ، وَلَيْسَ تَخْصِيصًا لِلْعُمُومِ [١].

فعند التنازع لا بد من تكوين مجالس شرعية خاصة للفصل تشبه المحاكم الدستورية العليا، ولا يرجع في ذلك إلى الأغلبية أو الأكثرية، وفي النظم الحديثة يتم التلاعب برأي الأكثرية حسب معايير متعددة لا تقف عند التهريج الإعلامي بل تصل إلى شراء الذمم، وتمويل الحملات وفق قواعد المصالح المتبادلة بين مراكز القوى والنفوذ؛ وذلك لأن قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩) يدخل فيه عرض المسألة المختلف فيها المتنازع عليها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما يدخل فيه الرجوع إلى الخبراء الماهرين، وأصحاب الذكر والرأي في كل مسألة بحسبها لتنزيل الحكم الشرعي بحسبه، ولا بد مع ذلك من مراقبة الله تَعَالَى فِي طَلَبِ انْجِلَاءِ الحَقِّ فِي مَوَاقِعِ النِّزَاعِ، تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى [٢].

وهذا يقتضي البحث بجهد عن القواعد العامة والخاصة المبثوثة في الكتاب والسنة مما يعضد الرأي الذي يميل إليه كل طرف، وليس الاختيال بالفهم السياسي المتفوق، أو بالحصافة والذكاء الذي حرم منه الطرف الآخر.

لعلك تُكْبِرُ الآن فقه أبي حازم حينما قال مسلمة بن عبد الملك: ألستم أمرتم بطاعتنا في قوله ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾؟ قال: أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٠).

بقوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؟ (١).

الأصل الخامس: القياس: ويُبَصِّرُنا به قَوْلَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فلا يراد بالتنازع ما يكون حول أمر منصوصٍ عليه في الكتاب، والسنة، والإجماع، بل حول أمرٍ غير منصوصٍ عليه، فأسهل الطرق لمعرفة حكمه القياس على مثله مما هو منصوص.

الأساس الخامس: الشورى.

فالأَمْرُ المشَارُ إِلَيْهِ في قوله ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ هو ذاته الأمر فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ (الشورى:٣٨)، والصفات العامة التي يجب توفرها في كل هذه الوظائف أربع، ذكرت في قوله: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦)، ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (يوسف:٥٥).

فالأمور العامة في قضايا الأمن الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي لا بد فيها من الشورى الحقيقية، وكذلك من يتولاها، ولذا وجب اختيار الأكفاء من العلماء والأمراء والأكفاء في المجالات المختلفة ليكونوا مجلس أهل الحل والعقد، وأهم الصفات التي ينبغي توافرها فيهم الصفات الأربع: القوي الأمين الحفيظ العليم، وجميعهم يخضعون لسلطة الكتاب والسنة، ويقوم العلماء المؤهلون بعملية الاستنباط من الكتاب والسنة في مسائل الأمن أو الخوف أي مسائل السلم والحرب، والبناء والإعمار، وحل مشاكل البلاء والبوار، وقد ذكر الله ذلك بدقة واضحة لا لبس فيها فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٥٥٦).

أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (النساء: ٨٣)، وبوب البخاري: باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

ثم قال: «﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وَأَنَّ المُشَاوَرَةَ قَبْلَ العَزْمِ وَالتَّبَيُّنِ لِقَوْلِهِ: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} فَإِذَا عَزَمَ الرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِبَشَرٍ التَّقَدُّمُ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَاوَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فِي المُقَامِ وَالخُرُوجِ، فَرَأَوْا لَهُ الخُرُوجَ، فَلَمَّا لَبِسَ لأْمَتَهُ وَعَزَمَ قَالُوا: أَقِمْ، فَلَمْ يَمِلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ العَزْمِ وَقَالَ: «لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ يَلْبَسُ لأْمَتَهُ فَيَضَعُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ»، وَشَاوَرَ عَلِيًّا وَأُسَامَةَ فِيمَا رَمَى أَهْلُ الإِفْكِ عَائِشَةَ، فَسَمِعَ مِنْهُمَا حَتَّى نَزَلَ القُرْآنُ فَجَلَدَ الرَّامِينَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى تَنَازُعِهِمْ، وَلَكِنْ حَكَمَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، وَكَانَتِ الأَئِمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي الأُمُورِ المُبَاحَةِ لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا فَإِذَا وَضَحَ الكِتَابُ، أَوِ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةِ عُمَرَ كُهُولًا كَانُوا، أَوْ شُبَّانًا، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ عزَّ وجلَّ» [1].

ومجلس أهل الحل والعقد الذي يتكون في أصله من (العلماء، والخبراء) يختارون السلطات التنفيذية، ويتفقون على إيجاد السلطة القضائية التي تكون مستقلة في ميزانيتها، ويشترط في أصحابها العلم المؤصل يأَنْ يَكُونوا عَالِمين بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالمَصَالِحِ العَامَّةِ ليفصلوا في قضايا النزاع لا بالأهواء بل بالرجوع إلى الكتاب والسنة، فالفارق بين القوانين البشرية الوضعية والقوانين الإسلامية أن المرجعية

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ١٣٨).

الحاكمة عندنا هي الكتاب والسنة، فلا تجوز عبادة الأكثرية بل يجب أن يرجعوا إِلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ويعرضون المستجدات عَلَى أُصُولِهِمَا وَقَوَاعِدِهِمَا، فالأَكْثَرِيَّةُ لَا تَسْتَلْزِمُ الحَقِّيَّةَ وَالإِصَابَةَ فِي الحُكْمِ، فالنَّبِيّ ﷺ رَجَّحَ فِي أُحُدٍ رَأْيَ الأَكْثَرِينَ مُخَالِفًا لِرَأْيِهِ، وَرَجَّحَ فِي بَدْرٍ الرَّأْيَ المُوَافِقَ لِرَأْيِهِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَكْثَرِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ[1].

ولا ينبغي أن يوجد تنازعٌ في المسائل الدينية المحضة لأن المرجع فيها هو النص، وما لم يرد فيه نص وسعه الخلاف في النظر بعد الرد إلى أصلٍ معتبر، وإنما النزاع في المسائل الدينية ذات الصبغة الدنيوية مما لم يرد فيه نص ظاهر وتجاذبتها الأدلة، واختلف النظر في المصالح الموافق للشريعة.

والشورى تقتضي الرقابة العليمة على السلطة التنفيذية.. لقد كان ذلك أمرًا بديهيًا في العهود الزاهرة، فقد دَخَلَ أَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلَانِيُّ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الأَجِيرُ، فَقَالُوا: قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الأَمِيرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الأَجِيرُ، فَأَعَادُوا قَوْلَهُمْ وَأَعَادَ قَوْلَهُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ، وَنَظَمَ ذَلِكَ أَبُو العَلَاءِ المَعَرِّي فَقَالَ:

مُـلَّ الـمُـقَـامُ فَـكَـمْ أُعَـاشِـرُ أُمَّـةً أَمَـرَتْ بِغَيْرِ صَلَاحِهَا أُمَرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الـرَّعِـيَّـةَ وَاسْـتَـجَـازُوا كَيْدَهَا فَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وَهُـمْ أُجَرَاؤُهَا

أنموذج راشدي لكيفية التعامل مع المسائل المتنازع فيها:

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ خَصْمٌ نَظَرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ مَا يَقْضِي بِهِ، قَضَى بِهِ بَيْنَهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِي الكِتَابِ،

(١) تفسير المنار٥/ ١٥٥.

نَظَرَ هَلْ كَانَتْ مِنَ النَّبِي ﷺ فِيهِ سُنَّةٌ، فَإِنْ عَلِمَهَا، قَضَى بِهَا، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ، خَرَجَ فَسَأَلَ المسْلِمِينَ، فَقَالَ: أَتَانِي كَذَا وَكَذَا، فَنَظَرْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ أَجِدْ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، فَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ نَبِي اللَّهِ ﷺ، قَضَى فِي ذَلِكَ بِقَضَاءٍ، فَرُبَّمَا قَامَ إِلَيْهِ الرَّهْطُ، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَضَى فِيهِ بِكَذَا وَكَذَا، فَيَأْخُذُ بِقَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ جَعْفَرٌ: وَحَدَّثَنِي غَيْرُ مَيْمُونٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه كَانَ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِينَا مَنْ يَحْفَظُ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ، وَإِنْ أَعْيَاهُ ذَلِكَ، دَعَا رُؤوسَ المسْلِمِينَ وَعُلَمَاءَهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَإِذَا اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى الأَمْرِ، قَضَى بِهِ، قَالَ جَعْفَرٌ: وَحَدَّثَنِي مَيْمُونٌ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَعْيَاهُ أَنْ يَجِدَ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، نَظَرَ هَلْ كَانَ لأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فِيهِ قَضَاءٌ، فَإِنْ وَجَدَ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه قَدْ قَضَى فِيهِ بِقَضَاءٍ، قَضَى بِهِ، وَإِلاَ دَعَا رُؤوسَ المسْلِمِينَ وَعُلَمَاءَهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى الأَمْرِ قَضَى بَيْنَهُمْ [1].

الأساس السادس:

منع إدخال أي جهات أجنبية لتكون وساطات إصلاح عند التنازع. وهذا الأساس تبصرنا به الثقة التي يجب أن نغرسها بالمصادر التشريعية الإسلامية، وهذه الثقة تجدها في قوله تعالى جده: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء:٥٩)، فما عند الله خير وأحسن عاقبة ومصيرًا إذا قورن بها أهم الشرائع الأرضية وأعظمها.

ومعنى ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أن رجوعكم إلى مصادركم التشريعية، وإلى الهيئات التي تشرف على تنفيذ هذه المصادر خير لكم وأحسن تأويلًا أي أحسن عاقبة

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (١٠ / ١١٤).

ومصيرًا من أن تفكروا ببديل عنها، وقوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ﴾ ليس اسما التفضيل على بابهما بل المراد تمامًا كما في قوله تعالى ذكره: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٤)، فإن قوله ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ لا يعني أن أهل النار عندهم خير في المستقر وعندهم حسن ولكنه أقل مما عند أهل الجنة، وكذلك هذه الآية فإن قوله ﴿خَيْرٌ﴾ ﴿وَأَحْسَنُ﴾ ليسا على بابهما في أفعل التفضل بل المراد أن هذه المصادر وما ينبثق عنها هي التي تحوي الخيرية الكاملة، والحسن التام الذي يترتب عليه المصير الحسن، والنتائج الطيبة.. فانظر كم سَبَّبَ رجوعنا إلى الوساطات الأجنبية من الآلام والأوهام، ويمكن القول: هما على بابهما، إذ يبدو لكم أن هناك خيرية ما، وحسنًا ما في تشريعات مناقضة للمنظومة التشريعية الإسلامية.. فإن بدا لكم ذلك فلتتيقنوا أن المنظومة التشريعية الإلهية الظاهرة خير لكم وأحسن مصيرًا وعاقبة في شؤونكم الحيوية المختلفة.

إن الالتزام بالأصول التشريعية السابقة هو خير للأفراد والمجتمعات وأحسن تأويلًا أي مرجعًا ومصيرًا من كل مصلحة متوهمة يظنها الإنسان في غير الشريعة..

يترتب على ذلك شيوع الخير في نفسية الأفراد وأوضاع المجتمعات، وتوابع ذلك من الاستقرار الاقتصادي، والعدل الوظيفي والمجتمعي، وعدم شيوع الطبقية أو الطاغوتية التي يحرص أصحابها على تصدير التشريعات المناسبة لهم دون النظر إلى غيرهم، والاطمئنان إلى العاقبة الحسنة والمستقبل المشرق لمن يفعل ذلك، وهذا هو المعنى الأول لقوله ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، فقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يعني الاطمئنان على صدق الإيمان من الإنسان حيث يجعل أكبر همه معرفة حكم الله وحكم رسوله ﷺ، وهذا هو المعنى الثاني لقوله ﴿وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلًا ﴾، إن قوله ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ يعني أن الرجوع إلى المصادر التشريعية السابقة هو الذي يحقق المصلحة، ويدرأ المفسدة، ولا يتنافى هذا مع قَاعِدَةِ جَلْبِ المَصَالِحِ وَحِفْظِهَا وَدَرْءِ المَفَاسِدِ وَإِزَالَتِهَا؛ لأن الذي يجلي الضوابط العامة لكون الأمر مصلحة أو مفسدة هي الشريعة، والمَصَالِحِ المُرْسَلَةِ كما يقول القَرَافِيُّ: عِنْدَ التَحْقِيقِ ثَابِتَةٌ فِي جَمِيعِ المَذَاهِبِ، وَمِنَ الأَدِلَّةِ عَلَيْهَا حَدِيثُ: «لَا ضَرَرَ، وَلَا ضِرَارَ».

وكذلك فإن قوله ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ يعني الاجتهاد الشديد في البحث عن مراد الله تعالى في الأمور المختلفة مهما كانت غامضة ودقيقة، ومن لم يفعل ذلك فهو يحمل بذور الشر للعالم ويحاول جر الناس إلى مصير مجهول مليء بالمخاطر؛ لأن البحث عن المراد الشرعي ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

ستقول: أليس هذا الأساس قد سبق في الأساس الثالث؟

والجواب: بلى سبق ما يماثله، لكن الثقة التي بصرنا بها قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥٨) ثقة اقترنت بالرقابة الإلهية على تطبيق أداء الأمانة وإقامة العدل، والثقة هنا لا بد من إعادتها وذلك لمنع إدخال أي وساطات أجنبية تأتي من الخارج لتحاول الفض بين المتنازعين.. حسبك فقط أن تنظر إلى النتائج الكارثية لدخول المؤسسات الأممية المرتزقة لتكون وساطات بين المتنازعين من الأمة.. حسبك أن ترى ذلك لتعلم لماذا قال الله جل في علاه عن التزام الأحكام الدستورية السابقة في بيان الإدارة الراشدة: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

«تِلْكَ أُصُولُ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ المَدَنِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ القَضَائِيَّةُ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا

وَلَا أَمْتًا، وَلَا تُبْصِرُ فِيهَا غِلًّا وَلَا قَيْدًا، وَلَيْسَ فِيهَا عُسْرٌ وَلَا حَرَجٌ، وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِلِاضْطِرَابِ وَالهَرْجِ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا إِلَّا الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ، بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حَالُ الأُمَّةِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ حُجَّةَ اللهِ عَلَى نَوْعِ الإِنْسَانِ، إِذْ لَمْ تَكْتَحِلْ بِمِثْلِ عَدْلِهِمْ عَيْنُ الدُّنْيَا إِلَى الآنِ» [١].

(١) تفسير المنار (٥/ ١٥٧).

القسم الرابع

(قوى النفاق) هم الصنف الثاني الذي يحارب الإدارة الراشدة، ويمنع الإنسانية أن تنال حقوقَها، وتتنعم بما هو خيرٌ وأحسن تأويلًا (النساء:٦٠-٦٥)

آيات هذا القسم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء:٦٠-٦٥).

المناسبة والاتصال:

ذكر الله سابقًا الصنف القيادي الأول الذي يعمل على تدمير الإدارة الراشدة لكي يمنع البشرية من استيفاء حقوقها المشروعة، وهم الذين يشترون الضلالة وينشرون الإضلال في العالم، وينتمون إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، ثم بين أهم أصول

الإدارة الراشدة التي تعطي الحقوق لأهلها، وهنا يذكر الله الصنف الثاني من مانعي الحقوق البشرية. إنه الصنف الخطير الذي يختلف عن الصنف الأول في قدرته على التلون.. فهو يزعم الإسلام، ويحاول تدمير أي محاولة لقيام الإدارة الراشدة.. يبذل جهودًا مدهشة ليمنع من وصول الحقوق البشرية لأهلها، فيمنع الأمانات أن تؤدى إلى أهلها، ويحارب كل سبيل يتم من خلاله الحكم بالعدل بين الناس، ويزعزع الثقة في التوجيهات الإلهية.. ويفصل الله جل مجده في هذا القسم الأسس التي تعرفنا بهذا الصنف، وخطورة هذا الصنف أنه خفيٌّ متلون يزعم أنه آمن بما أنزل الله إلى النبي ﷺ وأمن بما أنزل من قبله، لكن يصر على تحكيم الطاغوت، إنه يجسد أهم صور خيانة الأمانة، ويبذل أعظم الجهود ليصد الإنسانية عن النبي ﷺ ومعرفة سنته الصحيحة، وسيرته العطرة الصالحة، ويزعم أنه بذلك يحسن إلى المسلمين، ويريد التوفيق في القرارات الدولية، وكما ترى فإن هذا الصنف يتحالف بصورةٍ فجة مع الصنف الأول، وهنا تعلم لماذا كانت وصية لويس التاسع للقضاء على المسلمين مقولته الشهيرة: لا يقطع الشجرة إلا أحد أغصانها.. إنك تراهم على المستوى الإعلامي يصرون على التحاكم على الطاغوت وحتى يبقى ظاهرًا كأنه غصن من شجرة الإسلام يحسن ألفاظه ويجملها فينبذ التشريع من الشريعة، ويجعلها مجرد مصدر إلهام.

ويُبَصِّرُنا الله جل جلاله بأهم المعالم التي تعرفنا بهذا الصنف، وهي:

المعلم الأول: يكرر الطغاة الزعم بأنهم يؤمنون بالوحي الخاتم، والكتب السابقة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

يعجب الله تعالى عبده القارئ لكلامه فيقول له: انظر إلى هذه المخلوقات

الغريبة، وتأملها بعينك فإن فيها أعاجيب تُتأمل.. إنهم الذين يزعمون أنهم آمنوا، فكلمة يزعمون من (زعم)، وَمُضَارِعُهُ مُثَلَّثُ العَيْنِ، والزعم هو القَوْلُ مِنْ غَيْرِ صِحَّةٍ وَلَا يَقِينٍ، فيقال الزَّعْمُ وَالزُّعْمُ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

زَعَمَتْ غُدَانَةُ أَنَّ فِيهَا سَيِّدًا ضَخْمًا يُوَارِيهِ جَنَاحُ الجُنْدُبِ [١]

فكلمة (زعم) تدل على عدم وجود دليل يؤكد صحة القول الوارد، ولذا قَالَ الأَصْمَعِيُّ: الزَّعُومُ مِنَ الغَنَمِ الَّتِي لَا يَعْرِفُونَ أَبِهَا شَحْمٌ أَمْ لا، وقد تَسْتَعْمَلُ الزَّعْمُ فِي الخَبَرِ المُحَقَّقِ بِالقَرِينَةِ، كَقَوْلِهِ:

زَعَمَ العَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ صَدَقُوا وَلَكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

فَقَوْلُهُ صَدَقُوا هُوَ القَرِينَةُ، وَبين الرَّاغِبُ أنه يغلب أن يكون الزعم حكاية قولٍ يكون مظنةً للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذَمَّ القائلين به [٢] نحو: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ (التغابن: ٧)، وَقَالَ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام: ٩٤)، وَقَالَ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٥٦)، وَقَالَ: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف: ٥٢)، وقيل للضمان بالقول والرئاسة زعامة فقيل للمتكفل والرئيس زعيم للاعتقاد في قوليهما إنهما مظنة للكذب.

ولماذا ذكر الله زعمهم الإيمان بالكتب السابقة بعد أن ذكر أنهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ؟ لأنهم يملأون الآفاق، ويسودون الإعلام والصحف الطباق بمدى احترامهم للكتب الإلهية، وحمايتهم لها، وقيامهم على أمرها،

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٠).

(٢) مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٢١٣).

ويحاولون الكلام عن ذلك في كل مناسبة، ولكنهم يكذبون في الواقع العملي.. فهذه الصفة من علاماتهم البارزة.

المعلم الثاني: يتميزون بالإرادة المتجددة في التحاكم إلى الطاغوت، وهو كل مُعظم عندهم صار رمزًا للطغيان، والإعراض عن حكم الرحمن سواء أكان بشرًا أم تشريعات وتقاليد، مع أنهم يجب أن يكفروا بكل ما يضاد أمر الله في الخلق، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ٦٠).

فهم قوم ينتمون إلى المجتمع الإسلامي، ويعلنون أنهم آمنوا بما أنزل إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في حياتهم ثم تناقض أفعالهم أقوالهم، فتصبح دعواهم كذبًا محضًا، إذ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وانظر إلى هذه الدقة في وصفهم: فلم يقل يتحاكمون إلى الطاغوت بل يريدون أن يتحاكموا إليه، والإرادة من الرود وهو التردد والإكثار في طلب الشيء برفق، يقال: راد وارتاد، ومنه الرائد لطالب الكلأ، وباعتبار الرفق قيل: رادت الإبل في مشيها ترود رودانًا، فالإرادة بالنسبة للمخلوق منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شيء، والإرادة في الاصل قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجعل اسما لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل [1]، ولكنها في حق الله جلَّ ذكره صفة كمال تدل على الحكم المتوجه إلى المراد به.

فهم يطلبون أن يُحَكِّموا الطاغوت رغبة في ذلك، والطاغوت ما يسبب الطغيان للإنسان من قوانين أو أصنام أو أهواء أو عبودية، فيدخل فيه كل من غلوا في تعظيمه بتقديمه على الله ورسوله ﷺ، ولذا قال الطبري: «يعني إلى: من يعظمونه، ويصدرون

(١) مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٢٠٦).

عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله» [١]، ومن الطاغوت جميع من يُتحاكم إليه ممن يضاد حكمهم حكم الله ورسوله ﷺ، مثل التحاكم إلى الدستور الذي وضعه جنكيز خان، وذكر ابن كثير أن اسمه الياسق، ويدخل فيه القوانين الوضعية، والتقاليد والأعرف البشرية المضادة للشريعة.

فهؤلاء خونة الأمانات من المناوئين للخير والتأويل الحسن يصرون على التحاكم للطاغوت لأنه يؤدي إلى زيادة طغيانهم، وغيهم وإجرامهم، ويفرون من حكم الشريعة التي تؤدي إلى إشاعة العدل والحق والمساواة.

والتحاكم إلى الطاغوت يعني عدم الكفر به بل يعني الإيمان به، والتسليم له، وذلك ينافي ما أمرهم الله.. ألم يقل جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦) ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، فالله أمر باجتناب الطاغوت في سورة النحل، والاجتناب أمرٌ بليغ يدل على الابتعاد الحذِر منه، والحذر هنا يعني ألا يَغفل المرء فيقترب وهو لا يشعر، وكذلك أمر الله بالكفر بالطاغوت هنا، والكفر يعني جحود الطاغوت وليس أن يُتحاكم إليه.

فإذا زعموا أنهم يؤمنون بالكتب الإلهية، فكيف يتحاكمون إلى الطاغوت؟ السؤال ليس هكذا.. بل كيف يريدون مجرد إرادة أن يتحاكموا إلى الطاغوت؟

إن انتسابهم للإسلام يقتضي أن يكفروا بالطاغوت لا أن يتحاكموا إليه فاستبدلوا نعمة الله بالإسلام كفرًا به مع إصرارهم أنهم مسلمون.

ويُبَصِّرُنا قوله تعالى ذكره: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ بأن

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٠٧).

الشيطان لا يتركهم.. إنها الخطة الشيطانية المرعبة في إيصال العباد إلى مرحلة الضلال البعيد، وهنا تجتمع الإرادتان: إرادتهم المذكورة في أول الآية، وإرادة الشيطان في إضلالهم فيستجيبون لإرادتهم متبعين في ذلك الشيطان الذي يبعدهم عن هدى الرحمن، وتكون النتيجة أن يضلوا فيتيهوا تيهًا عظيمًا بعيدًا، ويأخذوا معهم المجتمعات إلى هذه الضلالات والخسائر الكبيرات، والإرادة منهم ومن الشيطان تدل على شدة الرغبة في تنفيذ ما يطلبونه، ولكنهم يسلكون لذلك برفقٍ قد يجعل أفعالهم تخفى حقيقتها على غيرهم.

ويدخل فيهم المتحاكمون إلى غير شرع الله أيا كانوا فمنهم المتحاكمون إلى المحاكم غير الإسلامية، والقوانين الجاهلية، ومنهم المتنازعون في المسائل العلمية مع وضوح الدليل ثم يأبون إلا قول فلان المخالف للدليل، ومنهم الجماعات التي سنت لها قوانين تقوم على تقديس الجنس أو التراب وتقديمه على الشرع.

المعلم الثالث: خرق أهم الحصون الأمنية للهوية الإسلامية بالصد عن رسول الله ﷺ، وذلك يعني أنهم يصرون على أن يصدوا الناس عن التحاكم إلى السنة، ويمنعون قيام مؤسساتها، ويظهرون محاربة التطبيق النبوي للكتاب المبين، وهذه الصفة علامةٌ ظاهرةٌ، يُبَصِّرُنا بها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ (النساء:٦١).

هلم إلى أعظم علامة ظاهرة لهم: إنه تشكيكهم في السنة النبوية، وصدهم عن حكم رسول الله ﷺ.. انظر تفصيل الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ لم يقل: يصدون عما أنزل الله.. لأنهم يتشدقون بأنهم يعرفون كتاب الله.. لكنهم يريدون تفسيره بأهوائهم، فيصدون عن النبي ﷺ.

وصدَّه عن الأمر يعني منعه، وصرفه، وردعه، فهو صَادٌّ من قوم صُدَّادٍ، وهي صادَّة من نسوةٍ صَوادَّ، وقريب من ذلك: صدّ من الشّخص ضجَّ وأعرض كما في قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ؛ لأنهم يريدون إثارة الضجيج للصد عن حقائق التوحيد.

فكلمة ﴿صُدُودًا﴾ تدل على أنهم يصرفون الناس عن التحاكم إلى السنة النبوية، ويمنعونهم، ويردعونهم.. فانظر كيف اختزلت هذه الكلمة مشاهد تصرفاتهم المختلفة في الحرب المسعورة التي يشنونها لمن يتحاكم إلى السنة النبوية، وأكد صدهم بقوله: ﴿صُدُودًا﴾؛ ليدخل فيه كل أنواع الصدود بما في ذلك إنشاء مؤسسات تشوه وتشوش السنة النبوية، والتطبيق النبوي للقرآن الكريم... أهؤلاء وقر الإيمان في قلوبهم؟ من أجل ذلك كان أعظم ما تميز به الأنصار رضاهم برسول الله ﷺ وإقبالهم عليه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الأَنْصَارَ فَقَالَ: «أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ». فَقَالُوا لاَ إِلاَّ ابْنُ أُخْتٍ لَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ ابْنَ أُخْتِ القَوْمِ مِنْهُمْ». فَقَالَ «إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ. أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ»(١).

﴿يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ من أجل ذلك يستبين المؤمنون الحقيقيون بمدى بحثهم عن التطبيق النبوي للقرآن الكريم وليس بمدى تفسير القرآن الكريم بأهوائهم وشهواتهم..

وبلغت حساسية الصحابة في تتبع أقوال النبي ﷺ ومعرفتها وتطبيقها حدًا تعلم منه لماذا كانوا الأعلى شأنًا في عالمهم، فعن ابن عباس ﷺ قال: استوى النبي

(١) صحيح مسلم (٣ / ١٠٦).

ﷺ على المنبر يوم الجمعة فقال للناس: اجلسوا فسمعه ابن مسعود وهو على باب المسجد فجلس فقال له النبي ﷺ: «تعال يا ابن مسعود»[١].

وتأمل في الآية، فأصل ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ المناداة لحضور نفعٍ اشتقت من مادة العلو كأن المنادي في علو والمنادى عليه أسفل، وقوله ﴿عَنكَ﴾ يدل على شدة بغضهم للسنة، وطعنهم فيها، ولذا أكد ذلك بقوله ﴿صُدُودًا﴾، كما أن هذا التأكيد له فائدة أخرى: أن صدودهم صار عظيمًا فيدخل فيه إعلانهم له، وتبجحهم بهذا الصدود.

وطلب الحضور الذي يظهر من خلال قوله تعالى جده: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يدل على صورةٍ محسوسة لزيادة بيان ضلال هؤلاء في شرك الحاكمية؛ إذ يصورهم في مكان بعيدٍ ومنادي الرشد يناديهم ليتجشموا عناء مجاهدة أنفسهم، ويفارقوا أهواءها، ويحضروا إلى حيث الرشد الحقيقي، فيتركوا التحاكم إلى القوانين الأرضية الجائرة، ويتحاكموا إلى الشريعة الراشدة المطهرة.

ولذا روى الطبري السياق التاريخي الذي نزلت فيه هذه الآيات حيث كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو إلى اليهود؛ لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين؛ لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة. فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهنٍ من جُهَيْنة، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ حتى بلغ ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ (النساء:٦٠- ٦٥)[٢].

وذكر أنه اختلف نفر من اليهود من قريظة والنضير ونفر من المنافقين، فأراد

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (١ / ٤٢٠)، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه تعليق الذهبي في التلخيص: على شرطهما.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٠٨).

المنافقون التحاكم إلى كاهن يقال له أبو بردة، وقيل: بل اختار المنافقون التحاكم إلى كعب بن الأشرف، فقال اليهود: لا بل النبي ﷺ يُنفِّر بيننا، فتعالوا إليه! فأبى المنافقون، وانطلقوا إلى أبي بردة فسألوه، فقال للمنافقين: أعظِموا اللُّقمة -يقول: أعظِموا الخَطَر- فقالوا: لك عشرة أوساق. قال: لا بل مئة وسْق، ديتي، فإني أخاف أن أنفِّر النضير فتقتلني قريظة، أو أنفِّر قريظة فتقتلني النضير! فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوساق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ -وهو أبو بردة - ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [1]، وذكر ابن حجر أن الطبري روى بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن حاكم اليهود يومئذ كان أبا برزة الأسلمي قبل أن يسلم ويصحب، وروى بإسناد آخر صحيح إلى مجاهد أنه كعب بن الأشرف [2].

المعلم الرابع: إظهار الرجوع إلى الحق عند وقوعهم في المصائب، مع سرد الاعتذارات عن الخيانات السابقة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴾ (النساء:٦٢).

يقسمون الأيمان أن باعثهم على الصد عن حكم الله وحكم رسوله ﷺ هو البحث عن مصالح الأمة والإنسانية والإحسان إليها، وعندما يعتذرون يعلنون أن مرادهم الإحسان والتوفيق أي المداراة والمصانعة لدفع إجرام المعتدين كما قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (المَائِدَة:٥٢)،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥١١).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٥ / ٣٧).

فيزعمون أن الصد عن السنة النبوية فعلٌ سياسيٌّ عبقريٌّ في ظنهم يوفقون به بينهم وبين القوى العالمية، ويستمدون به التوفيق من الله! كيف؟ بالصد عن رسول الله ﷺ، فانظر للتلاعب.

والاستفهام في قوله ﴿ فَكَيْفَ ﴾ للتهويل العظيم، فهم لا يعاتبون أنفسهم ولا ينتقدون انحرافهم، ولا يراجعون القرارات الهامة في حياتهم، بل يكررون الأيمان المتعددة أن باعثهم على الصدود هو الإحسان والتوفيق، ويقع كثيرٌ من المنتسبين إلى الإسلام في شيء من هذه العلامة، ويزيد الأمر سوءًا أننا نظن عندما نقرأ هذه الآيات أنها تخص المنافقين، وأن المتدينين عنها بمنأى وحصن حصين، وأن الحركات الإسلامية معصومة من هذا التلاعب المهين، مع أن القرآن واضح كل الوضوح والأصل أنه يخاطب المنتسبين به قبل غيرهم.

والآية تتضمن تهديدًا مستقبليًا بأنه ستحدث لهم مصائب مستقبلية لا يجدون معها سبيلًا سوى اللجوء إلى النبي ﷺ ومراجعة الحق، ولا بد منه في الخطاب الدعوي السياسي؛ وإلا كثرت صفوف هؤلاء المرضى بما يجدون من لين في غير محله.

المعلم الخامس: التعامل معهم يجب أن يتسم بالحُسْن والحذر في الوقت ذاته لشدة الخبث الذي يتسم به قياداتهم، ولاستيعاب المغرر به من أتباعهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣)؛ **إذ لا يمكن أن يعاملوا معاملة الأعداء الصرحاء ويصعب أن يعاملوا معاملة الأصدقاء الموالين.**

ويُبَصِّرُنا الله جل جلاله بكيفية التعامل معهم فيقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذه العبارة تستخدم في بيان اختلاف أحوالهم فمنهم النشطون

الخونة، ومنهم المغرر بهم، وقلوبهم تختلف في رغباتها وإراداتها، كما أنك عندما تسمع هذه العبارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ تشعر بأن يثير فيك تفظيع أمر القيادات الخائنة منهم وشدة شناعته، فلا يحيط بما في قلوبهم من الخبث إلا الله؛ إذ هم العدو الحقيقي الأسوأ، فينتمي بعضهم للمنافقين وبعضهم لمرضى القلوب عباد الدينار والدرهم وشهوات البطون والفروج، وبعضهم للجهل المركب، ولأنهم متفاوتون في مراداتهم وأهدافهم؛ فإن هذه الجملة المباركة تقتضي ألا يرد المرء زعمهم إرادة الإحسان والتوفيق، ولكنه لا يترك لومهم وتقريعهم والتثريب عليهم في انحرافهم عن حكم الله وحكم رسوله ﷺ، والتعامل الحسن الحذر يقتضي أيضًا أن تنبه ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ والإعراض يقتضي عدم تمكينهم من ولايةٍ أو مسؤولية لأن ذلك خيانة للأمانة، ويقتضي صرف الوجه عنهم، فلا يقبل عليهم بالإكرام والاحترام والبشاشة دائمًا، ويقتضي عدم قبول عذرهم كما يقتضي ألا ترد زعمهم أنهم يريدون الإحسان والتوفيق، ولكنك تطالبهم بمقتضى إيمانهم بأن يتركوا التحاكم إلى الطاغوت، والإعراض عنهم يقتضي عدم الحرص على إرجاعهم إلى ما يجب عليهم لشدة صدهم، وعدم إكرامهم بما يشعرهم بالأمان في مؤامراتهم، ولا بد من أن تظهر أنك تشعر بالريبة نحوهم ليبقيهم ذلك على وجل خائفين من سوء العاقبة شاكين هل استطاعوا خداع المسلمين مجددًا أم لا.. وَلِذَلِكَ كَانُوا يَحْذَرُونَ أَنْ تَنْزِلَ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عليهم، وبذلك يخفف من شرهم، ويمكن استيعاب المغرر بهم من أتباعهم، ولكن لا تكتفي بالإعراض عنهم بل انتقل إلى أمر آخر ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ عظهم الموعظة الحسنة، وهذا يقتضي التعميم في الخطاب، والموعظة تذكيرٌ ونصحٌ مشفق يقترن بالتخويف من المآلات المستقبلية لأفعالهم الحالية، فتزجرهم عن الوقوع في النِّفَاقِ وَالمَكْرِ وَالكَيْدِ وَالحَسَدِ وَالكَذِبِ وَتخَوِّفُهُمْ من عِقَابِ الآخِرَةِ، ولا تكتفي بوعظهم، بل ينقلك الله إلى مرحلة موازية لا

بد منهم فيقول عنها -عزَّ جارُه-: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾:

هذه الجملة تدل على ضرورة النصيحة المحاسِبة لهم، فإما ان تكون على ظاهرها، ويكون المعنى: قل لهم في خاصة أنفسهم على وجه السرية فيما بينك وبينهم قولًا بليغًا يكشف لهم عن معرفتك بخيانتهم.

وتحتمل الجملة تقديمًا وتأخيرًا، والتقدير: وقل لهم قولًا بليغًا في أنفسهم يَغُوصُ فِي أعماقها، ويكشف خبيئة دسائسها ومؤامراتها وخياناتها ببيان التحركات التي قاموا بها من خلال التقارير الظاهرية والأمنية عن تحركاتهم المريبة -كما قال الرازي-: «وَقُلْ لَهُمْ فِي مَعْنَى أَنْفُسِهِمُ الخَبِيثَةِ وَقُلُوبِهِمُ المَطْوِيَّةِ عَلَى النِّفَاقِ قَوْلًا بَلِيغًا، وَإِنَّ اللَّه يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ فَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ إِخْفَاؤُهُ، فَطَهِّرُوا قُلُوبَكُمْ مِنَ النِّفَاقِ وَإِلَّا أَنْزَلَ اللَّه بِكُمْ مَا أَنْزَلَ بِالمُجَاهِرِينَ بِالشِّرْكِ أَوْ شَرًّا مِنْ ذَلِكَ وَأَغْلَظَ»[1].

والفرق بين الوعظ السابق والقول البليغ هنا أن الوَعْظ هنا يتعلق بالنُّصْح المُتَعَلِّق بالمآلات المأساوية المتعلقة بهم في الدنيا والآخرة، وَالقَوْلُ البَلِيغُ يتعلق بكشف واقعهم بما يشكل ردعًا لهم عسى أن يرجعوا إلى الحق، فيظهر منه الإحاطة بتحركاتهم وخياناتهم، ويكشف خبيئة دسائسها ومؤامراتها، والبليغ الذي يبلغهم عن مآلات تصرفاتهم في الدنيا.

فبصرتنا الآية بضرورة التنويع بين النصيحة، والمحاسبة والتهديد على وفق مصلحتهم الحقيقية ومصالح الإنسانية، وربما اقتضى ذلك السرية، وربما اقتضى العلنية.. كل ذلك تبصرك به الآية في الوقت ذاته حسب مقتضيات الحال في التعامل مع هذه النفوس، والمصلحة العامة للأمة الإسلامية، وهذا يقتضي التخصيص مع السر أو الإعلان حسب ما تقتضيه الحكمة.

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٢٤).

ولذكر الوعظ والقول البليغ هنا أهمية خاصة؛ إذ ترى كثيرًا من المسلمين يكتفي باللقاءات السياسية معهم، ويعرض عن تطبيق مفهوم الوعظ والقول البليغ، فيخسر وهو يظن نفسه يصنع النجاح.. يخسر إظهار هويته، وتجميع من ينتمي إليه حوله، ويخسر خلخلة تفكير هذا الصنف الخطير، وزعزعة أتباعهم من حواليهم، وكم جنى الفعل السياسي المحض الخالي من تطبيق مفهوم هذه الآيات.. كم جنى على التحركات الصادقة.

المعلم السادس: السنة النبوية تمثل المرجعية المركزية لإدارة شؤون الحياة.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤)، فينبغي إحراجهم أمام الرأي العام بأن يتم كشف مدى التزامهم بالإسلام بمقياس الرجوع إلى السنة النبوية المقبولة، وأن يُحثوا إذا أظهروا ما يُعكِرُ ذلك على أن يستغفروا الله، ويطلبوا استغفار الرسول ﷺ في حياته، ويراجعوا سنته بعد وفاته، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾(النساء:٦٤)، ولاحظ أنه ينبغي أن نحثهم على أن يستغفروا الله لا أن نحرص على تفسيقهم أو تكفيرهم:

هذه الجملة المباركة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ تبصرك بتوقعٍ مستقبليٍّ لردة فعل الناس بعد إرسال الرسل، فأي رسولٍ بُعِثَ فإنه يجب أن يطاع إذ يستمد طاعته من الله، وقوله ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ يعني بتوفيق الله لمن أطاعه، وإعانته على لزوم تلك الطاعة، ومعنى ذلك أن غير الموفقين يكلهم الله إلى أنفسهم، فيأبون إلا المعصية «فَمِنَ الرُّسُلِ مَنْ أُطِيعَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عُصِيَ تَارَةً أَوْ دَائِمًا، وَقَدْ عُصِيَ مُوسَى فِي مَوَاقِعَ، وَعُصِيَ عِيسَى فِي مُعْظَمِ أَمْرِهِ، وَلَمْ يُعْصَ مُحَمَّدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الْمُحِقِّينَ إِلَّا

بِتَأَوُّلٍ، مِثْلِ مَا وَقَعَ فِي يَوْمِ أُحُدٍ إِذْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ (آل عمرَان: ١٥٢)»[١].

وكلمة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تحمل معنى آخر، فهي تدل على أن شرعية طاعة هذا الرسول جاءت من الله جل جلاله، فكيف يطعن في سنته طاعنٌ يزعم أنه ينتسب إلى الإسلام؟

وكما يحمل هذا المعنى تسليةً للنبي ﷺ عندما يوجد من يخالفون أمره، ويصرون على التحاكم إلى غيره فإنه يحمل معنى التثريب على هؤلاء المعرضين عن طاعة رسوله ﷺ، إذ إن الله لم يشرع الشرائع ليتم الإعراض عنها وبناء شرائع قائمة على الأهواء.. تأمل الآية لتمدك ببصيرة واضحة:

كل رسول بعث ومعه شريعة ليتم طاعته في تلك الشريعة، فما فائدة الزعم باتباع دين مع عدم طاعة ذلك النبي؟. والآية تخيف من لم يطع النبي ﷺ من المسلمين بأنه قد يكون منتميًا إلى هذه الفئة الخائنة التي تزعم الإيمان وتأبى التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ، أو يتشبه بها وهو لا يشعر، فليستيقظ ولا تأخذه نشوة الغرور العلمي أو الواقعي ليُعرض، فالتمسك بالسنة والتحاكم إليها لأنها المبينة للقرآن في جميع الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والآية تبين سبب طاعة الرسول ﷺ لأن الله جعل له هذه الطاعة فهي بإذنه، وإنما ذكر إذن الله تعالى حتى لا يتوهم أن هذه الطاعة قد تؤدي إلى الطاغوت فيأتي من يزعم أنه لا يريد تقديس البشر، فلا يعطي النبي ﷺ مكانته، ولا يوقر ما ثبت من سنته ﷺ.

وبعد هذه القاعدة العامة في كل رسول يُبَصِّرُنا الله جل جلاله بألا نسارع إلى

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٩).

تكفير هؤلاء أو تفسيقهم بل أن نخبرهم حال ظلمهم لأنفسهم بإصرارهم على تحكيم الطاغوت أو ارتكابهم للمعصية بأن يسارعوا إلى استغفار الله جل جلاله، وأن يأتوا إلى النبي ﷺ ليستغفر لهم إن كان حيًّا، وأن يراجعوا سنته ويظهروا محبته إن كان ميتًا ﷺ، وفي هذا بيانٌ لمكانة النبي ﷺ، وإظهارٌ لمنزلة السنة النبوية؛ إذ يبين الله -عزَّ جاره- أن قبول التوبة لا يتم ممن أعرض عن أمر الرسول ﷺ إلا أن يظهر صدق التوبة باستغفار الرسول له في حياته ﷺ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤).

وقد بدأ الجملة بكلمة ﴿لَوْ﴾ ليبين أنه حرف شرطٍ غير جازم يفيد التعليق في الماضي أو المستقبل، يستعمل في الامتناع أو في غير الإمكان، أي: امتناع الجواب لامتناع الشرط فتقول: لو كنت غنيا لتصدقت بنصف مالي، وهنا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤)، فامتنع أن يجدوا الله توابًا رحيمًا لما منعوا أنفسهم من المجيئ ليستغفروا الله ويستغفر لهم الرسول.. فما لهم لا يبادرون؟ ما لهم لا يفعلون؟

وانظر كيف جعل جرائمهم ظلمًا لأنفسهم.. إن حقيقة شرك التشريع عندهم ظلم لأنفسهم.. إن صدَّهم عن النبي ﷺ أو عن سنته ظلمٌ لأنفسهم.. قد نفهم أن إنسانًا يظلم غيره؛ إذ يحاول أن ينقص حظوظ غيره ليأخذها.. لكن أن يظلم نفسه أي يصيب نفسه بالنقص.. فما هذا؟

نعم إن شرك التشريع ليس إلا ظلمًا للنفس.. إن الصد عن رسول الله ليس إلا ظلمًا للنفس؛ إذ يبتعد الإنسان إن اقترف هاتين السيئتين عن الحياة السعيدة التي توازن بين الروح والجسد، وتوازن بين الأولى والأخرى، ويرضى بعاجل من الطمع يوشك أن يفارقه.. ولكن الله لم يجعل هؤلاء في يأس من روحه ولا من رحمته،

ففتح لهم الباب واسعًا للعودة من ظلمهم لأنفسهم، وشرط لذلك ثلاثة أمور: أن يأتوا النبي ﷺ، وبعد وفاته أن يراجعوا سنته، ويثبتوا على ملته، ثم لا يكفي ذلك حتى يستغفروا الله جل جلاله، ثم لا يكفي ذلك فيضموا إلى هذين الأمرين أن يستغفر لهم النبي ﷺ، وبعد وفاته يكون البديل عن استغفاره ﷺ أن يحسن أخلاقه بعد الإكثار من الرجوع إلى سنته ﷺ، وأن يكثر من الصلاة عليه، ولعله يدل على ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ قال في مجلس: «ألا أحدثكم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة» ثلاث مرات يقولها. قلنا: بلى يا رسول الله. فقال: «أحسنكم أخلاقا» (١).

وكذلك كثرة الصلاة على النبي ﷺ فإنها تعرض عليه فعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ؟ يَقُولُونَ بَلِيتَ. فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ» (٢).

فإن جاءوا فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول تكون النتيجة المجيدة: ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وجعل الله هذه الجملة جَوَابًا لـ ﴿لَوْ﴾ ليدل على أنهم لم يجدوا الله توابًا رحيمًا لأنهم لم يسلكوا سبيل المغفرة فلم يستغفروا الله ولم يأتوا النبي ﷺ ليستغفر لهم في حياته، ولم يراجعوا سنته ويطبقوها بعد موته، وانظر كيف أتى بصيغة المبالغة: توابًا رحيمًا، ليدل على تأصل توبته ورحمته، وعلى كثرة ذنوب عباده حيث

(١) أحمد (٢ / ٢١٧) برقم ٧٠٣٥، وحسنه الأرناؤوط، وراه الترمذي (٤ / ٣٧٠)، برقم ٢٠١٨، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني.

(٢) أبو داود (١ / ٤٠٥) برقم ١٠٤٩، وصححه الألباني.

تقابلهم التوبة مهما كثرت أعدادهم أو كثرت ذنوبهم.

المعلم السابع: أهم قانون كلي يمنع الوقوع في شرك الطاعة.

ويقيم الإيمان الحقيقي تربية النفس على ثلاثية الإيمان الصادق التي تذكر بالثلاثية في الاية السابقة: التحاكم إلى النبي ﷺ في أمور الحياة وخاصة فيما تتم فيه الخصومة، وعند معرفة الحكم النبوي لا بد من أن يزول الحرج أي الضيق من القضاء النبوي، وأن يتم التسليم الكامل لقضائه، وذلك يعني الرجوع غير المتردد لسنته ﷺ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ ﴾ (النساء:٦٥).

إن الله يعلمنا كيف ننشر في وسائل التعليم والإعلام ما يجعل المتحاكمين إلى الطاغوت يضطرون إلى الاستقامة على ما يقتضيه زعمهم بأنهم مسلمون، فشرط الله جل جلاله ليتحقق الإيمان أن يلتزموا بالتحاكم إلى النبي ﷺ حتى يظهر أن الإيمان حقيقيٌ.. إن ذلك تأكيدٌ عظيمٌ على ضرورة تتبع سنة النبي ﷺ، والتزام حكمه؛ إذ نفى الله الإيمان عمن لا يفعل ذلك فقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ وَأَكَّدَهُ بِالقَسَمِ وَبِالتَّوْكِيدِ اللَّفْظِيِّ، «وأصل الكَلَام: فو ربّك لَا يُؤْمِنُونَ، وَالعَرَبُ تَأْتِي بِحَرْفِ النَّفْيِ قَبْلَ القَسَمِ إِذَا كَانَ جَوَابُ القَسَمِ مَنْفِيًّا لِلتَّعْجِيلِ بِإِفَادَةِ أَنَّ مَا بَعْدَ حَرْفِ العَطْفِ قَسَمٌ عَلَى النَّفْيِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ الجُمْلَةُ المَعْطُوفُ عَلَيْهَا، فَتَقْدِيمُ النَّفْيِ لِلِاهْتِمَامِ بِالنَّفْيِ، كَقَوْلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ:

فَــلَا وَاللهِ أَشْــرَبُــهَــا صَحِيحًا وَلَا أُشْفَى بِهَا أَبَدًا سَقِيمَا» [1]

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٩)، وقال: «وَلَيْسَتْ (لَا) هَذِهِ هِيَ الَّتِي تَرِدُ مَعَ فِعْلِ القَسَمِ مَزِيدَةً وَالكَلَامُ مَعَهَا عَلَى الإِثْبَاتِ، نَحْوَ: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ (القِيَامَة: ١) وَفِي غَيْرِ القسم نَحْو: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتابِ﴾ (الحَدِيد: ٢٩)، لِأَنَّ تِلْكَ لَيْسَ الكَلَامُ مَعَهَا نفي».

إنها عبارة واضحة صريحة في تحديد شرط الإيمان، فشرط الإيمان التحاكم إلى الرسول ﷺ في كل شيء مهما صغر ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، وشجر يشجُر شُجورًا وشَجْرًا»، إِذَا اخْتَلَفَ وَاخْتَلَطَ و»تشاجر القوم»، تنازعوا في الكلام والأمر «مشاجرة وشِجارًا»، مَأْخُوذٌ عِنْدِي مِنَ التِفَافِ الشَّجَرِ، فَإِنَّ الشَّجَرَ يَتَدَاخَلُ بَعْضُ أَغْصَانِهِ فِي بَعْضٍ، ولم يتبين، ومعلوم بأن تحكيم الرسول ﷺ لا يعني تحكيم شخصه بل تحكيم شريعته، والالتزام بمنهجه، والبحث عن سنته لا التخلي عن ذلك لمجرد وجود العناء في التمييز بين الصحيح والضعيف، والآن عد إلى الآية لتجد أن الله جعل مجرد التحاكم إلى سنة النبي ﷺ غير كافٍ في تحقيق الإيمان حتى يضم إليه أمرين

فقال الله عن الأول: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ والحرج الانزعاج والضيق الشديد والقلق كما في قوله تعالى ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (الأَنْعَام: ١٢٥)، فهو يأمر بألا يحدث أدنى تردد في النفس أو في الصدر من الحكم المتوصَل إليه، «وَلَيْسَ المُرَادُ الحَرَجَ الَّذِي يَجِدُهُ المَحْكُومُ عَلَيْهِ مِنْ كَرَاهِيَةِ مَا يُلْزَمُ بِهِ إِذَا لَمْ يُخَامِرْهُ شَكٌّ فِي عَدْلِ الرَّسُولِ وَفِي إِصَابَتِهِ وَجْهَ الحَقِّ» (١).

وقال عن الثاني: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟﴾ (النساء: ٦٥) والتسليم القلبي المطلق بنتائج التحاكم، فأمر بالتسليم الباطني مع الانقياد الظاهري.

وعدم الحرج والتسليم يعنيان التحرك لتنفيذ ذلك دون إبطاءٍ أو تراخٍ.. وقد ذكر الله هذا الركن الركين من معاني الإيمان: ركن التحاكم إلى سنة النبي ﷺ في مواضع متعددة مبينًا مناقضة الممتنع عنه لحقيقة الإيمان كما في قوله تعالى جده: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١١١).

بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٤٧ - ٥١) [١].

قال الطاهر بن عاشور: « ثُمَّ إِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ التقاضي لَدَى قَاضٍ يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ قَدْ يَكُونُ لِلطَّعْنِ فِي الأَحْكَامِ الإِسْلَامِيَّةِ الثَّابِتِ كَوْنِهَا حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ كُفْرٌ لِدُخُولِهِ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ (النُّور: ٥٠) وَقَدْ يَكُونُ لِمُجَرَّدِ مُتَابَعَةِ الهَوَى إِذَا كَانَ الحُكْمُ المُخَالِفُ لِلشَّرْعِ مُلَائِمًا لِهَوَى المَحْكُومِ لَهُ، وَهَذَا فُسُوقٌ وَضَلَالٌ، كَشَأْنِ كُلِّ مُخَالَفَةٍ يُخَالِفُ بِهَا المُكَلَّفُ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ لِاتِّبَاعِ الأَعْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ لِلطَّعْنِ فِي الحَاكِمِ وَظَنِّ الجَوْرِ بِهِ إِذَا كَانَ غَيْرَ مَعْصُومٍ» [٢].

الآن فكر كثيرًا في الأحكام الواردة في هذه السورة لتفكر الرجال والنساء جيدًا بأحكام مثل واجبات الزوجة وحقوقها، وواجبات الزوج وحقوقه.. فليفكر التجار في موضوع الربا.. ليفكر ولاة أمر المسلمين بحقوق إخوانهم المستضعفين ممن ذُكِرت حقوقهم في هذه السورة.

تعال معي لنجمع كل هذه الآيات التي تتكلم عن أمانة الحاكمية، وشرك الحاكمية مع قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩) إذ قال الله بعدها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ

(١) في تفسير الرازي (١٠/ ١٢١): «وَفِي هَذِهِ الآيَاتِ دَلَائِلُ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّه أَوْ أَوَامِرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الإِسْلَامِ، سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّمَرُّدِ..».

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١١٢).

أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الآيات (النساء: ٦٠) . ألا ترى فيها إشارة إلى أن كل قضية نزلت فلا بد أن يجدها الإنسان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ صراحة أو إيماء بالطريق الأصلي أو بالطريق التبعي.. وإنما ذكر ما يتعلق بالسنة في هذه الآيات المباركات ليشير إلى دعوى الزاعمين أنهم يحمون كتاب الله ثم يطعنون في سنة رسول الله أو يعرضون عنها..

ومن الأمثلة العملية التي فهم الصحابة -رضي الله عنهم- أنها تدخل في عدم التسليم للحكم النبوي ما ذكره الزُّبَيْر بن العوام أَنَّهُ خَاصَمَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي شِرَاجٍ مِنَ الحَرَّةِ كَانَا يَسْقِيَانِ بِهِ كِلاَهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ ؟! فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ اسْقِ ثمَّ احْبِسْ حَتَّى يَبْلُغَ الجَدْرَ فَاسْتَوْعَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَئِذٍ حَقَّهُ لِلزُّبَيْرِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ أَشَارَ عَلَى الزُّبَيْرِ بِرَأْيٍ سَعَةٍ لَهُ وَلِلأَنْصَارِيِّ فَلَمَّا أَحْفَظَ الأَنْصَارِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَوْعَى لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الحُكْمِ قَالَ عُرْوَةُ قَالَ الزُّبَيْرُ وَاللَّهِ مَا أَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ إِلاَّ فِي ذَلِكَ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآيَةَ [1].

واسمع إلى ومضة من المدرسة التربوية الطاهرية العملاقة عند تأمل الحديث، حيث قال عن خصم الزبير «وَالأَنْصَارِيُّ، قِيلَ: هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ، وَحَبَّذَا إِخْفَاؤُهُ» [2]، فقد كَانَ قَضَاء النبي ﷺ في المرة الأولى صُلْحًا، وَكَانَ قَضَاؤُهُ الثَّانِي أَخْذًا بِالحَقِّ، وَكَأَنَّ هَذَا الأَنْصَارِيّ ظن أَنَّ النَّبِيءَ ﷺ أَرَادَ الصُّلْحَ بَيْنَهُمْ عَلَى وَجْهٍ فِيهِ تَوْفِيرٌ لِحَقِّ الزُّبَيْرِ جَبْرًا لِخَاطِرِهِ، وَلَمْ يَرَ فِي ذَلِكَ مَا يُنَافِي العِصْمَةَ، فَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ مُتَفَاوِتِينَ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٤٥)، وَالجَدْرُ هُوَ مَا يُدَارُ بِالنَّخْلِ مِنَ التُّرَابِ كَالجِدَارِ.
(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١١٣).

فِي العِلْمِ بِحَقَائِقِ صِفَاتِ الرَّسُولِ مَدْفُوعِينَ فِي سَبْرِ النُّفُوسِ بِمَا اعْتَادُوهُ مِنَ الأَمْيَالِ وَالمُصَانَعَاتِ، فَنَبَّهَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ ذَلِكَ يَجُرُّ إِلَى الطَّعْنِ فِي العِصْمَةِ. وَلَيْسَ هَذَا الأَنْصَارِيُّ بِمُنَافِقٍ وَلَا شَاكٍّ».

والمقتضى العملي لذلك: الاهتمام العظيم بسنة النبي ﷺ، والتنقيب عن المقبول منها، وتمييزه عما لا يثبت، وإقامة الجهود الكبرى لإقرائها، وتعليمها، وإشاعتها، ونشر أبحاثها.

القسم الخامس

الثمار العظيمة لتطبيق الأوامر الإلهية، وأداء الحقوق الإنسانية وترك تحكيم الطاغوت (النساء:٦٦-٧٠)

آيات هذا القسم:

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ (النساء: ٦٦ - ٧٠).

المناسبة والاتصال:

ذكر الله جلَّ ذكره في القسم السابق حال الصنف الثاني الذي لا يؤدي الأمانات إلى أهلها، ويمنع الحقوق الإنسانية، ويشكل تهديدًا لـلإدارة الراشدة، ويحكم الطاغوت، وإذا كان الرجوع إلى أسس الإدارة الراشدة خيرًا وأحسنَ تأويلًا لأنها تمكن الإنسانية من الحصول على حقوقها- فإن الله يُجَلِّي لنا في هذا القسم بعض الثمار العظيمة عندما تطبق الإنسانية الأوامر الإلهية بأن تؤدي الأمانات إلى أهلها، وتحكم بين الناس بالعدل، وتترك تحكيم الطاغوت، وهذه الثمار تبصرنا بها الآيات في هذا القسم وهي:

الثمرة الأولى: التحاكم إلى الرسول ﷺ.

يعني القدرة على إدارة النفس الإنسانية بمقاومة أهوائها المستكبرة، ومعاندتها المفتخرة، والثقة بأن الحكم الشرعي خير وأحسن تأويلًا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦)، فهو يدل على معنيين يدلان على قدرتهم على أن يتحكموا بأهوائهم:

الأول: أمرناهم بالتحاكم إليك في أمور الحياة، فشق على بعضهم، ولو أمرناهم بأعظم المشاق من قتل أنفسهم أوالخروج من ديارهم لم يطع إلا قليل منهم،

الثاني: هم يعاندون كل أمرٍ إلهي، فأمرناهم بالمحافظة على الحياة الإنسانية ففعلوا العكس فقتلوا أنفسهم وإخوانهم، وشردوا أنفسهم وإخوانهم من ديارهم، ولو أمروا بعكس ذاك بأن يقتلوا أنفسهم لعاندوا فما فعلوه:

يكشف الله في الآية حقيقة تفكير الذين لا يؤدون الأمانات إلى أهلها، فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦)، فالاطلاع على تفكيرهم يجعلنا ندرك الواقع الحقيقي، ولا نغتر بالكثرة العددية التي لا تحدث في اجتماعها على الحق إلا نادرًا، ونحترس ممن يزعمون الإيمان والطاعة، وتبصرنا الآية المباركة بمعنيين:

المعنى الأول: الواو عاطفة على ما قبلها: أي نحن كلفناهم أن يتحاكموا إليك فيما شجر بينهم، وذلك يقتضي أن يعرفوا سنتك وسيرتك، وليس في ذلك مشقة عظيمة عليهم، فتردد بعضهم، ولو كلفنا هؤلاء الذين يزعمون بأنهم آمنوا بالتكاليف الشاقة مثل أن يقتلوا أنفسهم أو يتركوا ديارهم ويهجروا الأموال والأوطان في سبيل غايةٍ أسمى ما فعلوه إلا قليلٌ منهم، فهنا عتابٌ عجيب، وبيانٌ مبهرٌ ليسر الشريعة الخاتمة؛ فهو يذكر أن هذا التكليف الشاق ليبين أنه لم يحدث، فلم يكلف الله

الإنسانية في الشريعة التكاليف العسيرة، وكأنه يقول: لو كتبنا على الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ما كتبناه على بني إسرائيل مثلًا كأن يقتل كل واحدٍ أخاه، أو يهجر الأوطان والديار فكيف يكون موقف هؤلاء الزاعمين للإيمان من ذلك؟ ما فعلوه إلا قليل منهم.. أما يكفيهم أنا رحمناهم وخففنا عنهم، ولم نوجب عليهم العبادات الشاقة مثل الجهاد إلا في نطاقٍ محدودٍ، فقد كانت كفارة بعض الذنوب مباشرة القتل حقيقة بأن يقتل المرء نفسه أو يقتله أخوه، وهجر الأوطان يماثل قتل النفس، وبين مجاهد بن جبر ذلك المعنى فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضًا بالخناجر، لم يفعلوا إلا قليل منهم [1]، فنحن لم نطلب منهم قتل أنفسهم ولا ترك ديارهم بل أيسر الأمور أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وأن يتحاكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولاحظ أنه قرن بين قتل النفس والخروج من الوطن، وذلك لأن قتل النفس تعني إخراج الروح من وطنها وهو الجسد، والخروج من الديار تعني إخراج الأجساد من أوطانها وهي الديار، وكلاهما شاقٌ مشقة عظيمة كما يدل ذلك على مكانة الأوطان في نفوس بني الإنسان.

والمقصود بالضمير في قوله ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ الأمران معًا: القَتْل وَالخُرُوج، وَذَلِكَ لِأَنَّ الفِعْلَ جِنْسٌ وَاحِدٌ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ ضُرُوبُهُ وأنواعه، أي ما فعلوا ما يطلب منهم، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ بالنصب لأنه مستثنى، أو بالرفع قراءة ابن عامر على أنه بدل.

لماذا ذكر الله جل ذكره قتل النفس، وهجر الديار؟ لأن كثيرًا منهم يتشدقون بأنهم مستعدون أن يبذلوا أنفسهم دفاعًا عن الأوطان، وحراسة للثوابت.. فليحذر

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٢٦).

من يقال له ذلك؛ لأنهم لا يفعلون ذلك على الحقيقة.

المعنى الثاني: وهو معنى رائعٌ تميل إليه النفس في فهم الآية يضاف إلى المعنى الأول، ويعرض هذا المعنى ابن كثير ﷺ فيقول: «»يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُونَهُ مِنَ المَنَاهِي لَمَا فَعَلُوهُ؛ لَأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ الأَمْرِ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِمَا لَمْ يَكُنْ» [1]

فالمراد من الآية: هم أسرى لعنادهم واستكبارهم فيقابلون الأوامر الإلهية التي تحافظ عليهم وعلى الإنسانية بالعكس منها، فلما أمرهم بالمحافظة على الإنسانية صنعوا نقيض ذلك، ولذا يقترفون المنكرات فيقتلون إخوانهم، ويخرجونهم من ديارهم، فكَنَى عن إخوتهم بلفظ (أنفسهم).. والمراد من هذا المعنى أنهم يطيعون أهواءهم وأنفسهم الأمارة بالسوء، فيعاندون الأمر لمجرد صدوره عن ربهم، فلما لم يأمرهم أن يقتلوا إخوانهم بادروا فأراقوا دماءهم، ولو أنا كتبنا عليهم أن افعلوا ذلك ما فعلوه إلا قليل منهم.

والآية تدعو إلى التربية على الاستعداد للتضحية بأعز الأمور الدنيوية كالتضحية بالأنفس أو راحة المسكن إذا كتبها الله تعالى، والمعنى هنا فيه تسلية للنبي ﷺ وللمسلمين عندما يرون من يعرض عما جاء من السنة.. أفلا يرون أنهم يعرضون عن كلام ربهم، والآية تحملنا أمانة طاعة الله تعالى مهما كان التضحيات وثمارها، وعندما تبحث عن المناسبة والاتصال بين هذه الآية وبين ما سبق سترى فيما سبق أنه تمَّ تقرير أن أصل أداء الحقوق يقوم على فكرة أداء الأمانات إلى أهلها، ثم ذكر الله تعالى ثلاثة مظاهر للأمانة:

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٢).

الأول: أمانة الحكم بالعدل من جهة الحكام، وأمانة الطاعة بالمعروف من جهة المتحاكمين.

الثاني: أمانة التحاكم إليه وإلى رسوله ﷺ لا إلى الطاغوت،

ثم عقب على ذلك بذكر الثالث، وهو أمانة طاعة الله تعالى مهما كان التضحيات والثمار العظيمة لذلك، والتشويق لها ببيان ثمارها، وذلك لأن الطغاة والطواغيت يحاولون تمييع هذه القضية بذكر مستجدات العصور، وتكوين مجموعات الضغط التي تنشط لنشر ذلك، وذكر مثل هذا أيضًا تمهيدًا لذكر أمانة الإعداد الأمني للمسلمين حماية للعدل ونصرًا للمستضعفين.

وهذه التربية تؤدي إلى إيجاد الصدق في التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ مهما كانت التبعات والتضحيات، وكما فعل المهاجرون بتعريض أنفسهم لذلك ثلاث عشرة سنة، هم فيها عند أعداء الله مضغة لحم بين مخالب نسورٍ تتخاطفها.

والآية تزرع فينا أحد أهم الأمور في التعامل مع هؤلاء الزاعمين: ألا نبحث عن الكثرة، ونشغل أنفسنا بها؛ إذ الكثرة لا تجتمع على الحق إلا نادرًا.

الثمرة الثانية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (النساء:٦٦)

فاتباع الأوامر الإلهية خير لهم من كل مصلحة عاجلة يظنونها أولى:

انظر كيف عبر عن أوامره سبحانه بأنها وعظ لهم؛ لأنها تتضمن النصح المقترن بالرحمة، والتحذير من التبعات المستقبلية إن لم يقوموا بما يؤمرون به.. فيقول: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم مما اختاروه لأنفسهم في القيام بالمصالح التي تضمن لهم الرقي والمجد في الحياتين مهما بدا من تضحية في طاعة الله فمآلها إلى خير الأفراد والمجتمع.

ومن الثمرات العاجلة التي تبين الخيرية المذكورة هنا ما بينه النبي ﷺ بنفسه للأنصار لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ (فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا الْمِئَةَ مِنَ الإِبِلِ) وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ (فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ)، فَخَطَبَهُمْ: (فَقَالَ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ فَقَالَ فُقَهَاءُ الأَنْصَارِ أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ) فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ «يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله قالوا صدق الله ورسوله قال ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله قالوا صدق الله ورسوله قال ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله قالوا صدق الله ورسوله. ثم قال ألا تجيبونني ألا تقولون أتيتنا طريدا فآويناك وأتيتنا خائفا فآمناك» قَالَ مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ قَالَ لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ[1]..

الثمرة الثالثة: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (النساء:٦٦).

والتَّثْبِيتُ: التقوية حتى يصبح المثَبَّت راسخًا، فالطاعة تؤدي إلى الثبات على المبادئ ولزوم الحق، فإن استقام الصالح ومات يكون موته على الحق تثبيتًا لغيره:

وإنما ذلك يكون بطلب الطاعة بعد الطاعة، فمن كانت له بداية محرقة، كانت له نهاية مشرقة، كما قال الحُصَيْنُ بْنُ الحُمَامِ:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِد لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٢٠٠)، أحمد (٣ / ٥٧).

الثمرة الرابعة: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٦٧).

فوصف الأجر بأنه من لدن الله، وأنه عظيم، وذلك يدل على أنه غير محدود كمًا وكيفًا: فالأجر المترتب على الاستعداد للطاعة غير محدود، وهذه الجملة تدل على أن ما قبلها كان ثمراتٍ دنيوية، وإذن تدل على محذوف، والتقدير: وإذا فعلوا ذلك لأتيناهم من لدنا أجرًا عظيمًا، وبين الزمخشري أن كلمة «إِذًا» جَوَابٌ لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَاذَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الخَيْرِ وَالتَّثْبِيتِ. فَقِيلَ: هُوَ أَنْ نُؤْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النِّسَاءِ: ٤٠).

ولقد عظَّم الله الأجر الممنوح منه تعظيمًا مشوقًا للنفوس الطامحة الطامعة.. اللهم أذقنا حلاوته: فقال: ﴿لَّآتَيْنَٰهُم﴾ فأتى بـ(نا) الدالة على التعظيم، ولم يقل لآتيتهم، ليعظم العطاء بتعظيم المعطي، ثم قال ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ وكأنه سيعطيك الأجر مقابل العمل، ثم يزيدك شيئًا خاصًا من لدنه كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكَهْفِ: ٦٥) ثم وَصَفَ هَذَا الأَجْرَ بِالعَظِيمِ، وَالشَّيْءُ الَّذِي وَصَفَهُ أَعْظَمُ العُظَمَاءِ بِالعَظَمَةِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ فِي نِهَايَةِ الجَلَالَةِ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1].

الثمرة الخامسة: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء:٦٨).

والصراط المستقيم يجدون منه صوابية اتخاذ القرارات، ووضوح الرؤية في الحياة، ويشكل جسر العبور إلى الجنة بعد الحساب يوم القيامة

الثمرة السادسة: اكتساب أحسن الرفقة التي يفتخر بالانتساب إليها.

ويُبَصِّرُنا بها قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٤٣) برقم ٣٢٤٤.

ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٦٩-٧٠):

إنه -تعالى جده- يكمل ثمرات تنفيذ ما يوعظون به أي يطيعونه لكنه هنا أعاد طلب الطاعة مجددًا فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ لماذا أعاد جل جلاله؟

إنه التشويق للتنفيذ، والتهييج ليتصف المنفذ بكمال الطاعة، ويستمر عليها ولا يأتي بمناقضها إلا على سبيل الزلل الذي تمحوه التوبة، وهو التشويق إلى الثمرة المدهشة التي سيجدها المنفذ.. للنتيجة العظيمة التي سيحققها.. للهدف الكبير الذي سيصل إليه.. اسمع له بتلهف حيث قال تعالى ذكره: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ من المشهورين العظماء، فكلمة ﴿مَعَ﴾ تدل عَلَى أَنَّ مَكَانَةَ مَدْخُولِهَا أَرْسَخُ وَأَعْرَفُ [١].. والصحبة للعظماء يتطلع لها المتنافسون، وإذا كان النبي ﷺ يشتاق للرفيق الأعلى الأسعد فكيف غيره؟، فعن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهْوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرَ» فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى» فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهْوَ صَحِيحٌ [٢]، وعنها قالت: لما مرض النبي ﷺ أخذتُ يده، فجعلت أمرها على صدره، ودعوت بهذه الكلمات: اذهب البأس رب الناس، فانتزع يده من يدي، وقال: «أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد» [٣].

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١١٦).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ١٢).

(٣) أحمد (٦ / ١٢٠) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

فذكر الله جل جلاله في الآية أربعة مراتب للصحبة:

المرتبة الأولى: مرتبة الأنبياء ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

والمرتبة الثانية: مرتبة الصديقين ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾.

و«الصديقون»: الذين بالغوا في الصدق والتصديق للأنبياء، واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم، فـ«الصدِّيق»، «فِعِّيل» من«الصدق» إذا كان مدمنًا على الصدق والتصديق للصادقين، كما يقال: «رجل سِكّير» من «السُّكر» إذا كان مدمنًا على ذلك، و«شِرِّيبٌ»، و«خِمِّير»، ويظهر أن «الصديق» يجمع ثلاث صفات: يُصَدِّق قولَ الصادق آخذًا به دون تردد أو تباطؤ أو تثاقل، فيصدق قول ربه جل وعز، ويصدق قول نبيه ﷺ دون تردد، فلا يحتاج إلى البينة بل يشغل نفسه بشيء واضح: هل قال الصادق فيصدقه، أم لم يقل، ولا يطلب على ما قال برهانا، وهنا تدرك لم يقول ربي جل شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ (الحديد: ١٩)، والصفة الثانية: أن يتحرى الصدق فلا يكذب في صغير ولا كبير حتى يكتب عند الله صديقا، وربنا الرحمن يقول: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ (الزُّمَر: ٣٣)، والصفة الثالثة: أن تصدق أفعالُه أقوالَه، ومنه قوله جل ثناؤه في صفة مريم: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ (سورة المائدة: ٧٥).

فالصديقون «زَكَتْ فِطْرَتُهُمْ، وَاعْتَدَلَتْ أَمْزِجَتُهُمْ، وَصَفَتْ سَرَائِرُهُمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ وَالخَيْرِ وَالشَّرِّ بِمُجَرَّدِ عُرُوضِهِ لَهُمْ، فَهُمْ يُصَدِّقُونَ بِالحَقِّ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَيُبَالِغُونَ فِي صِدْقِ اللِّسَانِ وَالعَمَلِ، كَمَا نُقِلَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه»[1].

(١) تفسير المنار (٥/ ١٩٨).

واسمع إلى جانبٍ من جوانب هذا التصديق الفريد الذي اتسم به عبد الله بن عثمان المشهور بأبي بكر الصديق، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ ممَنْ كَانوا آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعوا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، قَالَ: أَوَ قَالَ ذَلِكَ ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لأَصُدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ [١]، ويحدث النبي ﷺ عن جمع أبي بكرٍ لهذه الخصال فيقول: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا» [٢].

والمرتبة الثالثة: مرتبة الشهداء ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾:

والشَّهِيدُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الفَاعِلِ، وَهُوَ الَّذِي يشهد لله بالوحدانية والقيام بالقسط في هذا الكون كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٨) ثم يجتهد في القيام بشهادة الحق حتى يقدم حياته ثمنًا لإقامة الحجة على الناس من خلال دمائه، فصار شاهدًا على الحق الذي ضحى بنفسه من أجله، وهذا هو المعنى المراد هنا، ويكون الشهداء أعظم الناس شهادة على أداء الأنبياء لرسالاتهم مما ورد في قوله عز شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البَقَرَةِ: ١٤٣).

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٣ / ٦٥)، هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٣٠٦.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٦).

المرتبة الرابعة: الصالحين ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

وَالصَّالِحُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ صَالِحًا فِي اعْتِقَادِهِ وَفِي عَمَلِهِ.. في سريرته وعلانيته[١]، والصالح هو الذي يكون صالحًا للقيام بواجباته في الحفاظ على صلاح الأرض، وبذا يكون صالحًا ليدخل الجنة، ويرافق النبيين والصديقين والشهداء، ويكون صالحًا لينال رضوان الله جل في علاه.

ووفق هذه المراتب يتقلب الفائزون، فالصالح قد يرتقي إلى مرتبة الشهيد، وقد يرتقي إلى مرتبة الصديق، وقد يرتقي عندما يختاره الله اختيارًا خاصًا ليكون في مرتبة النبي: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ (النَّحْل: ٢).

ومرافقة الكاملين من أعظم النعيم، فقد قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ومعناه: التَّعْجِيبِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا أَحْسَنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، والرفيق مشتق من الرفق وهو التلطف المتحبب ولِينُ الجَانِبِ، وخفض الجناح، ولطافة المعشر، ونبل الفعل حضرًا وسفرًا رخاء وشدة، والصَّاحِبُ يُسَمَّى رفيقا لرفقه بصاحبه «فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الأَنْبِيَاءَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ يَكُونُونَ لَهُ كَالرُّفَقَاءِ مِنْ شِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ وَسُرُورِهِمْ بِرُؤْيَتِهِ»[٢].

ووحَّدَ الرَّفِيقَ وَهُوَ صِفَةٌ لِجَمْعٍ، لِأَنَّ الرَّفِيقَ وَالرَّسُولَ وَالبَرِيدَ تَذْهَبُ بِهِ العَرَبُ إِلَى الواحد وإلى الجمع قال تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٦)، وقال الشاعر:

دَعَوْنَ الهَوَى، ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا بِأَسْهُمِ أَعْدَاءٍ، وَهُنَّ صَدِيقُ[٣]

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣٢).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ١٣٦).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣٢).

بمعنى: وهن صدائق. **والمعنى**: وحسن، هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم، رفقاء في الجنة[١].

وتشعر بالنور الغامر من هذه الآية عندما يُتبِعُها الله بقوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٧٠)، والفضل الزيادة المخصوصة التي لا يقابلها عملٌ سابق.. اللهم أذقنا أوفر الحظوظ من هذا الفضل.. كيف لا يكون فضلًا من الله وهو جلَّ شأنه يختصر على البشرية مشوار التجارب عندما ينعم عليها بهذه الأنظمة التشريعية الفذة؟ كيف لا يكون فضلًا مِن صاحبِ الفضل الأكمل، وهو -عزَّ جارُه- يُكسب الأجر الكبير على العمل اليسير؟ كيف لا يكون فضلًا وهو يرفع المرء درجاتٍ في الجنات ليتنعم بالصحبة العلوية التي تستجيش مشاعر كل قلب، وتستثير كل عطفة صدق؟.

وهذه الآية أسرت قلوب المسلمين بمضمونها، فعن سعيد بن جبير؛ قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان! ما لي أراك محزونًا؟». فقال: يا نبي الله! شيء فكَّرت فيه. فقال: «ما هو؟». قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك، ونجالسك، وغدًا تُرفع مع النبيين؛ فلا نصل إليك. فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئًا، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ...﴾ الآية، فبعث النبي ﷺ، فبشره[٢]، وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي البَيْتِ فَأَذْكُرُكَ، فَمَا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣٢).

(٢) قال ابن كثير (٢/ ٣٥٤): رُوِيَ هَذَا الأَثَرُ مُرْسَلًا عَنْ مَسْرُوقٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَعَامِرٍ الشَّعْبي، وَقَتَادَةَ، وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِهَا سَنَدًا..

أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ، فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ دَخَلْتُ الجَنَّةَ، خَشِيتُ أَلَّا أَرَاكَ. فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ...﴾[1].

وسأل رجل رسول الله ﷺ عن قيام الساعة، وأقيمت الصلاة، فلما قضى صلاته، قال: أين السائل عن الساعة؟ قال الرجل: أنا يا رسول الله، قال: ما أعددت لها، فإنها قائمة؟ قال: ما أعددت لها كثير عمل، غير أني أحب الله ورسوله. قال رسول الله ﷺ: «فأنت مع من أحببت» قال: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام، ما فرحوا بهذا الحديث، قال: فكان أنس يقول: فنحن نحب الله ورسوله . وفي لفظ: فَأَنَا أُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأُحِبُّ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ مِثْلَ أَعْمَالِهُمْ [2].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَيُونَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَيُونَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ، أَوِ المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ» [3].

إنها آية النور، وحديث الأمل الصادق، فتشرق الأرض بنور ربها، وتبتهج النفوس بنور مولاها.

---

(١) قال ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٥٤): وَهَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ المَقْدِسِيُّ فِي كِتَابِهِ: «صِفَةُ الجَنَّةِ»، مِنْ طَرِيقِ الطَّبَرَانِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَمْرِو بْنِ مُسْلِمٍ الخَلَّالِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِمْرَانَ العَابِدِيِّ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: لَا أَرَى بإسناده بأسًا، وروى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط (١ / ١٥٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٣٦٧): «رواه الطبراني في الصغير، والأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة»

(٢) المنتخب من مسند عبد بن حميد (١ / ٤٠٣).

(٣) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٤ / ١٤٥).

ومن الأعمال الموصلة إلى هذه المتعة – متعة الصحبة التي لا يقدر أحد أن يصفها – ما جاء عن رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي «سَلْ». فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ. قَالَ «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ». قُلْتُ هُوَ ذَاكَ. قَالَ «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[١].

«لقد كان الأمر يشغل قلوبهم وأرواحهم.. أمر الصحبة في الآخرة.. وقد ذاقوا طعم الصحبة في الدنيا! وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم.. وفي الحديث الأخير أمل وطمأنينة ونور..» [٢]، وقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ [٣].

وهذا مضمار المنافسة والمسابقة لمن أراد الدخول فيه.. فهل من مشمرٍ له؟

قال الرازي معقبًا بنظرة قرآنية تربوية غامرة: «قَالَ المُحَقِّقُونَ: لَا نُنْكِرُ صِحَّةَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ إِلَّا أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ الآيَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ البَعْثُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّرْغِيبُ فِيهَا، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ خُصُوصَ السَّبَبِ لَا يَقْدَحُ فِي عُمُومِ اللَّفْظِ، فَهَذِهِ الآيَةُ عَامَّةٌ فِي حَقِّ جَمِيعِ المُكَلَّفِينَ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَطَاعَ اللَّه وَأَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ فَازَ بِالدَّرَجَاتِ العَالِيَةِ وَالمَرَاتِبِ الشَّرِيفَةِ عِنْدَ اللَّه تَعَالَى» [٤].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بأوضاع عباده، وبما يصلحهم، وبما يتنافسون فيه.. كفى به عليمًا بخباياهم، وآهاتهم الداخلية، ومشاعرهم، وهم يحبون أن يجدوا لذة تلك

(١) صحيح مسلم (٢ / ٥٢).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٠٠).

(٣) صحيح البخاري – ترقيم فتح الباري (٨ / ٤٩).

(٤) تفسير الرازي (١٠/ ١٣٢).

الرفقة الحسنة السعيدة.. اسمع إليهم، وكيف أثرت فيهم هذه الآية.

فعن عَبْد الوَاحِدِ بْن زَيْدٍ، يَقُولُ: يَا إِخْوَتَاهْ أَلَا تَبْكُونَ خَوْفًا مِنَ النِّيرَانِ؟ أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ بَكَى خَوْفًا مِنَ النَّارِ أَعَاذَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا، يَا إِخْوَتَاهْ أَلَا تَبْكُونَ خَوْفًا مِنْ شِدَّةِ العَطَشِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَا إِخْوَتَاهْ أَلَا تَبْكُونَ؟ بَلَى، فَابْكُوا عَلَى المَاءِ البَارِدِ أَيَّامَ الدُّنْيَا لَعَلَّهُ أَنْ يُسْقِيكُمُوهُ فِي حَظَائِرِ القُدُسِ مَعَ خَيْرِ القُدَمَاءِ وَالأَصْحَابِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ» (١).

ولَمَّا مَاتَ عَطَاءٌ السَّلِيمِيُّ حَزِنْتُ عَلَيْهِ حُزْنًا شَدِيدًا فَرَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ أَلَسْتَ فِي زُمْرَةِ المَوْتَى؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَمَاذَا صِرْتَ إِلَيْهِ بَعْدَ المَوْتِ. فَقَالَ: صِرْتُ وَاللهِ إِلَى خَيْرٍ كَثِيرٍ وَرَبٍّ غَفُورٍ شَكُورٍ، قَالَ: قُلْتُ: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ طَوِيلَ الحُزْنِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: أَمَا وَاللهِ يَا أَبَا بِشْرٍ لَقَدْ أَعْقَبَنِي ذَلِكَ رَاحَةً طَوِيلَةً وَفَرَحًا دَائِمًا، قُلْتُ: فَفِي أَيِّ الدَّرَجَاتِ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (النساء: ٦٩) (٢)

وعن صَخْرِ بْن رَاشِدٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ المُبَارَكِ فِي مَنَامِي بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدِمْتَ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَمَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ قَالَ: غَفَرَ لِي مَغْفِرَةً أَحَاطَتْ بِكُلِّ ذَنْبٍ، قَالَ: قُلْتُ: فَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ قَالَ: بَخٍ بَخٍ ذَاكَ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (النساء: ٦٩) (٣).

وعن الحَسَن بْن صَالِحٍ، يَقُولُ: « لَمَّا احْتُضِرَ أَخِي عَلِيُّ بْنُ صَالِحٍ، رَفَعَ بَصَرَهُ ثُمَّ قَالَ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٦١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٧٢).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٨٥).

أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩) ثُمَّ خَرَجَتْ نَفْسُهُ ، قَالَ: فَنَظَرْنَا إِلَى جَنْبِهِ فَإِذَا ثُقْبٌ فِي جَنْبِهِ وَقَدْ وَصَلَ إِلَى جَوْفِهِ وَمَا عَلِمَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ» [١]، وعَنْ، زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: أُغْمِيَ عَلَى المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: « أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَصْلُ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩) [٢].. اللهم أسالك إيمانًا لا يرتد ونعيمًا لا ينفد ومرافقة نبينا محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد:

زعَمُوني أُحِبُّ هِندًا وَمَيّا ... قَد أَتى الزاعِمونَ شَيئًا فَرِيّا
ما لِهِندٍ وَلا لِمَيٍّ نَصيبٌ ... في فُؤادِ اِمرِئٍ أَحَبَّ النَبِيّا
مُصطَفى اللَهِ مِن جَميعِ البَرايا ... مُجتَباهُ حَبيبهُ القُرَشِيّا
أَشرَقَت شَمسُ فَضلِهِ فَرَآها ... كُلُّ مَن لَم يَكُن غَبِيًّا غَوِيّا
جاءَ وَالناسُ عَن هُدى اللَهِ ضَلّوا ... فَهَداهُم لَهُ الصِراطَ السَوِيّا
قَد أَقامَ الدَليلَ فيهِم كَلام الله ... أَو لا فَالصارِمَ المَشرَفِيّا
فَعَلَيهِ يا رَبِّ صَلِّ صَلاةً ... تَجمَعُ الفَضلَ لا تُغادِرُ شَيّا

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٢٩).

(٢) المحتضرين لابن أبي الدنيا (ص ٢٣٦).

المحور الخامس

التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين

(النساء٧١-١٠٤)



وفيه: بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي تطبيق استراتيجية أخذ الحِذْر، والبحث عن أرض العدل والكرامة.

المناسبة والاتصال

لمست كيف فصَّل الله في المحور الرابع أهم أسس الإدارة الراشدة التي تعطي الحقوق لأصحابها، وهذه الأسس هي:

الأساس الأول: أداء الأمانات إلى أهلها، ولو كانوا فجرة.

والأساس الثاني: أمانة الحكم بالعدل.

والأساس الثالث: الشعور بالقيمة العالية، والموثوقية الرفيعة للتوجيهات الإلهية.

والأساس الرابع: التزام المصادر والأصول التشريعية في المتفق عليه، والمتنازع فيه.

والأساس الخامس: الشورى.

والأساس السادس: منع تدخل الجهات الأجنبية في التحكيم عند التنازع، فهذا أثر من آثار الثقة بالمصادر التشريعية الإسلامية، وبناء على ذلك فإن التحاكم إلى الطاغوت، من أهم صور خيانة الأمانة، وعدم الحكم بالعدل، وهو الذي يمنع البشرية من استيفاء حقوقها، والتنعم بما هو خير وأحسن تأويلًا.

كما مضى في المحاور السابقة الكلام عن الأنظمة التشريعية التنظيمية التي يُمنحُ من خلالها لأبناء البشرية حقوقهم فيتلذذون بما هو خير وأحسن تأويلًا في حياتهم، وبعد أن بنى الله جل ذكره الأسرة المركزية والأسرة الإنسانية الكبيرة، وأسَّس المجتمع الحقوقي في واقعه الأسري والإداري بصورةٍ مذهلة، والإدارة الراشدة

التي تؤدي الأمانات إلى أهلها، وتحكم بين الناس بالعدل جاء هذا المحور في موقعه المنطقي ليفصل لنا ضرورة أن نجعل محور سياسات الإدارة الراشدة تدور على الأمن الداخلي والسلام العالمي القائم على العدل، وهذا ما يميز المجتمع المدني الذي أقامه النبي ﷺ في المدينة.

ففي هذا المحور الحقوقي الأمني المذهل يبين الله أن السلم والسلام أساس العلاقات الداخلية والدولية في التعامل مع الآخرين؛ وليتم ذلك لا بد من تطبيق الاستراتيجية الأمنية العسكرية التي سماها الله عزَّ وجل (أخذ الحذر)؛ ونسج القرآن خطوطها ودوائرها بصورة مذهلة؛ فإن المجتمع الضعيف الرخو من الناحية الأمنية يكون فريسة سهلة للمجرمين في داخله، والطامعين المعتدين من خارجه، وهؤلاء الأشرار غالبًا ما يكونون من البخلاء الحسدة ذوي الأفعال الأنانية الذين يعبدون شهواتهم ومصالحهم الذاتية في داخله أو خارجه.

أهمية استراتيجية (أخذ الحِذر) في صنع الأمن الداخلي، والسلام الخارجي:

بث الحياة الإنسانية يقتضي الاستقرار والإعمار، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا اعتمد على صنع الأمن الداخلي والسلام الخارجي، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا وفق هذه الاستراتيجية الكبيرة (أخذ الحِذْر) فإنها تعني الاستعداد الأمني والعسكري بالقوة البشرية والتسليحية والمخابراتية على أوسع نطاق.

لاحظ كيف تسير بك الآيات: أخذ الحذر، والحث على الاستعداد لبذل النفس في سبيل التضحية لأجل المبادئ الحقة (في سبيل الله) ومن ذلك الدفاع عن المستضعفين، ثم التحذير من مس أي جهة ترفع راية السلام وتكف اليد، ولا يمكن للعدو الشرس أن يذعن للسلام إلا عندما يعلم قوة خصمه.. لا يمكن للذئب الجائع الغادر أن يكون حكيمًا؛ فيكف عن اعتدائه إلا عندما يعلم أن الطرف الآخر لديه

الاستعداد للدخول في معركة ذات خطورة شديدة على الطرفين ، وقد ألف (إدوارد لتواك EDWARD N. LUTTWAK) كتابه العسكري المهم: (الاستراتيجية: منطق الحرب والسلام STRATEGY: THE LOGIC OF WAR AND PEACE)، ومن أبرز ما يقابلك فيه في أول الفصل الأول قوله:

إن كنت تريد السلام فاستعد للحرب if you want peace, prepare war»

هنا ينقلنا الله -عزَّ جارُه- إلى أهم الاستراتيجيات التي تبني المجتمع الحقوقي في المدينة النبوية باعتبارها أهم ميادين تطبيق تأدية الأمانات إلى أهلها، وإقامة العدل في مدينة النبي ﷺ، حتى يتم حمايتها من التحالف السيء الذي قام بين من يشترون الضلالة وينشرون الضلال في العالم وبين الذين يتحاكمون إلى الطاغوت ممن ينتسب إلى المسلمين، وهي أهم الاستراتيجيات التي تبني المجتمع الحقوقي: إنها استراتيجية إشاعة السلام مع العالم التي تستلزم تطبيق استراتيجية أخذ الحذر، واستراتيجية نصرة المستضعفين (النساء:٧١-١٠٤).

فكان هذا المحور في موضعه المناسب، فالعدل المتميز الذي تُؤدى به الحقوق إلى أهلها تنفذه القوة الحامية في هذا المحور، وبذا ترى أن الإسلام جاء لحماية الإنسانية، وللمحافظة على الأمن القومي، ونصرة المستضعفين في الأرض، ولأجل ذلك أقام الله جل ذكره عددًا من الخطط الاستراتيجية الأساسية في المجالات الأمنية والعسكرية، وهذا الترتيب يليق بالأمة التي أخرجت لتكون خير أمة للناس بنشرها للعدل ومحاربتها للظلم، وحماية الإنسانية من الهجمات الخارجية والداخلية من مجموعات الشر الذين يتربصون بها السوء، وقد بين الله أسس الاستقرار في الأمة من خلال المصادر التشريعية والرقابية والقضائية في المحاور السابقة، فكان لا بد من ذكر ما يتعلق بحفظ الأمن الداخلي والخارجي، وقد قيل بأن الإِسْكَنْدَر قال لحكماء

الهِنْد: أَيهمَا أفضل العدْل أم الشجَاعَة؟ فقالوا: لو عدل ما احتاج إلى الشجاعة [١]، وهذا غير صحيح؛ فإن العدل لا بد له من قوة تحميه، العدل هو الأصل لكنه يضيع دون قوة، وهنا نعلم لماذا جاء الكلام عن إدارة الملف العسكري والأمني في البشرية بعد الكلام عن الحكم بالعدل، وجعل الله رأس الكلام عن الملف الأمني استراتيجية أخذ الحذر.

ولتحقق مقاصد المحور انقسم إلى الأقسام الآتية:

القسم الأول: أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية (النساء:٧١-٧٣).

القسم الثاني: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: استخدام الخيار العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين، و لصناعة حالة (توازن قوى) وجاهزية الردع (النساء:٧٤-٧٦).

القسم الثالث: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي (النساء:٧٧-٧٩).

القسم الرابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقًا، والاستنباط من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي (النساء:٨٠-٨٧) .

(١) درر السلوك في سياسة الملوك ، لأبي الحسن لماوردي تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، (ص: ٩٣).

القسم الخامس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إلقاء السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع المعتدين(النساء:٨٨-٩١).

القسم السادس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة التطبيق للسياسة الأمنية أو العسكرية (النساء:٩٢-٩٤) .

القسم السابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين (النساء:٩٥-٩٦) .

القسم الثامن: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرضٍ تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي (النساء:٩٧-١٠٠) .

القسم التاسع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الصلاة، فهي من أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني، والعبودية الصادقة، والجمع بينها وبين سياسة أخذ الحذر (النساء:١٠١-١٠٤).

المحور الخامس: التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين (النساء٧١-١٠٤): وفيه: بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي تطبيق استراتيجية أخذ الحِذْر، والبحث عن أرض العدل والكرامة.

وتكون هذا المحور من تسعة أقسام:

القسم الأول

أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية [النساء:٧١-٧٣]

القسم الثاني

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الإعداد العسكري العالي لصناعة حالة (توازن الردع)، واستخدام الحل العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين [النساء:٧٤-٧٦]

القسم الثالث

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي [النساء:٧٧-٧٩]

القسم الرابع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقًا، والاستنباط من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي [النساء:٨٠-٨٧]

القسم الخامس

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إلقاء السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع المعتدين [النساء:٨٨-٩١]

القسم السادس

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة تطبيق السياسة الأمنية [النساء:٩٢-٩٤]

القسم السابع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين [النساء:٩٥-٩٦]

القسم الثامن

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرضٍ تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي [النساء:٩٧-١٠٠]

القسم التاسع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الصلاة من أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني والعبودية الصادقة، والجمع بينها وبين سياسة أخذ الحذر النساء (١٠١-١٠٤)

شكل (٩) صورة تلخص أقسام المحور الخامس، ويظهر في كل قسم مبدأ من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي



القسم الأول

أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية (النساء:٧١-٧٣)

آيات هذا القسم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُۢنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾ (النساء:٧١-٧٣). وتبصرنا الآيات بضرورة (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية من خلال القوانين الآتية:

القانون الأول: المؤمنون هم المعنيون بنشر الأمن والسلم في العالم ويُبَصِّرُنا الله بذلك بخطابه للمؤمنين في قوله جل ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ (النساء:٧١)؛ فالكتلة المؤمنة تحالفٌ دينيٌ متميزٌ يجب أن يُعْنَى بإحلال الأمن في أنفسهم والعالم، ومن أهم وسائل ذلك اعتماد استراتيجية أخذ الحِذْر من الشرور كلها، وهي استراتيجية قرآنيةٌ فريدة مدهشة بنت المجتمع المدني المكون من المسلمين وغيرهم على السلام العادل.

لقد خاطب الله جل جلاله المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ليذكرهم بالوحدة الإيمانية التي جمعتهم، وأنها أساسٌ لنشر النور والخير والسلام حولهم، وبهذا الخطاب بنى الاستعداد الأمني على المبدأ الإيماني العقدي..

انظر كيف يبني القرآن الكريم الاستعداد الأمني على المبدأ الإيماني العقدي، فهو لم يقل خذوا حذركم مباشرة، وإنما بدأها بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فكأنه يقرر أن عدم أخذ الحذر ينافي الإيمان، وهناك بعدٌ آخر في قوله ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾، وهو أن أخذ الحذر ينبغي أن يكون قائمًا على الأسس الإيمانية، وليس قائما على الأهواء الشخصية، ولا التعصب لجنسٍ أو هُويةٍ حزبية، أو جماعة تنظيمية..

لماذا يخاطب الله جل جلاله المؤمنين؟ لأنهم أولى الناس بأن يقوموا بنشر السلام في العالم؛ فالنبي ﷺ يوضح أفضلَ الإسلام عندما سئل عنه فيقول: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» [(١)]، والمقصود سلامة جميع الناس، ويوضح ذلك الرواية الأخرى التي قال فيها ﷺ مبينًا التعريف العملي للمسلم والمؤمن: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» [(٢)]، ويحدث فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ عرَّف المسلم والمؤمن بهذين التعريفين في بيانٍ عالمي ذكره في أعظم مجامع المسلمين في حجة الوداع، فقال: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[(٣)].

القانون الثاني: (أَخْذُ الحِذْر) يكون بعد (أَخْذِ الحَذَر)؛ فالحَذَرُ هو التيقظ الناتج عن الخوف المترقب، وهو يؤدي إلى البحث عن كيفيةِ الاحترازِ والحمايةِ من أمور مخيفة، وهذا ينقلنا إلى المرحلة الثانية، وهي أَخْذُ الحِذْر الذي يعني الاستعداد للأخطار المتوقعة، فأخذ الحَذَر يعني قبول الخوف الذي يجعل الإنسان متيقظًا للخطر، وأخذ الحِذْرِ يعني الانتقال من مرحلة الخوف المتيقظ إلى الاستعداد لمواجهة الأخطار المتوقعة.

---

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١/ ١١)، برقم ١٠، ومسلم (١/ ٦٥)، برقم ٦٤.

(٢) أحمد (٢ / ٣٧٩) برقم ٨٩١٨، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٣) أحمد (٦ / ٢١) برقم ٢٤٠٠٤، وصحح إسناده الأرناؤوط.

وذلك مثل الحذر من أخطار الحساب في الآخرة التي ذكرها الله في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ (الزمر: ٩)، أو الحذر من مراقبة الله لعبده ومحاسبته القادمة، وأخذ الحذر يجعله حَذِرًا من أن يقع في الأخطاء والخطايا، وتستنشق عبير هذه الفائدة من قول الله جل شأنه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (آل عمران: ٢٨)، وهذا التفريق بين الحَذَر وَالحِذْر أولى مما قرره بعض المفسرين من أنهما بِمَعْنًى وَاحِدٍ كَالإِثْرِ وَالأَثَرِ وَالمِثْلِ وَالمَثَلِ، وتفصل لك ذلك هَذِه الآيَة المباركة: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ (الشُّعَرَاء: ٥٦) ففيها قراءتان: **الأولى** قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب ﴿حَٰذِرُونَ﴾ بدون ألف، **والثانية** ﴿حَٰذِرُونَ﴾ وهي قراءة الكوفيين وابن عامر بخلف هشام[1]، وكلتا القراءتين تصوران استراتيجية أخذ الحذر على أعلى نطاق وفق مشهدين، وهذا متوقع من القوة الفرعونية التي كانت تعد القوة العالمية الأولى في ذلك الزمان:

فالمشهد الأول تصوره القراءة الأولى: ﴿حَٰذِرُونَ﴾ حيث تصور فرعون وهو يصدر بيانًا عامًا لشعبه حول استعداده لمواجهة الإسرائيليين، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أَي إِنَّا نخَافُ شَرَّهُم[2] لكنه ليس خوفًا سلبيًا بل نخاف من تحركاتهم خوفًا دفعنا إلى مراقبتهم، فقد قدمت لنا مخابراتنا الأمنية التقارير الكافية حول التحركات الإسرائيلية المسلمة، أي أخذنا الحَذَر منهم.

والمشهد الثاني تصوره قراءة الكوفيين ﴿حَٰذِرُونَ﴾ بالألف يعني بعد أن خِفنا شرهم وأمدتنا أجهزتنا الأمنية بتحركاتهم، فقد أعتدنا لهم جيوشنا التي ستفتك بهم وتعيدهم، ولذا زعم رواة التاريخ أن فرعون هيأ عددًا كبيرًا من جيشه (قيل ستمائة ألف) لملاحقة بني إسرائيل، فالبداية ﴿حَٰذِرُونَ﴾ بمعنى خائفون من شرهم نرقب

(١) شرح طيبة النشر في القراءات، لابن الجزري، ضبطه وعلق عليه: أنس مهرة، دار الكتب العلمية بيروت، ط٢، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م (ص: ٢٨٨).

(٢) تهذيب اللغة (٤/ ٢٦٧).

تحركاتهم، والنهاية ﴿حَٰذِرُونَ﴾ بمعنى مُسْتَعِدُّون، وكذلك فرق بينهما أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، فقال: حاذرون: متأهبون. ومعنى حَذِرون: خائفون [١]، وزاد الزمخشري الأمر إيضاحًا في الفرق بين الكلمتين، فقال: رجل حذر: متيقظ محترز، وحاذر: مستعد. كما قال الشاعر:

فلا غَرْوَ إلا يومَ جَاءَتْ مُحَارِبٌ إلينا بألفٍ حاذِرٍ قَدْ تَكَتَّبَا

لأن الفَزِعَ متيقظٌ ومتأهبٌ [٢].

وبذا فإن أخذ الحِذْر يقتضي التخوف الإيجابي الذي يؤدي إلى التيقظ وعدم الغفلة، أي: تيقظوا وافزعوا، ويترتب على ذلك أن تنظروا إلى الأحداث على وفق منهجية المؤامرة إن كان في الوقائع ما يشير إليها، وإنه ليطول عجبك ممن ينفي نظرية المؤامرة، فيقول: أنتم دائمًا تزعمون أن الدينا كلها مؤامرة وهذا كله يدل على كسلكم، والأمر على العكس مما يقوله، فزعمنا بوجود مؤامرة لوجود المؤشرات الواقعية والنصوص القطعية التي تدل عليها، وهذا الزعم جزء من استراتيجية أخذ الحذر، وشعورنا بذلك يؤدي إلى ما قاله أرنولد توينبي في نظريته «الحركة والخوف والاستجابة»؛ إذ ذلك يدفعنا إلى المرحلة الثانية التي عبرت عنها قراءة: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ (الشُّعَرَاء:٥٦)، أَي: مُسْتَعِدُّون متأهبون متيقظون لا نياماً كسالى واهمين.. إن استراتيجية أخذ الحذر تقتضي الحَذَر ثم الحِذْر وذلك يعني التأهب التام استعدادًا للطوارئ المستقبلية، ولذا قال الزمخشري في معناها: «والمعنى: احذروا واحترزوا من العدوّ ولا تمكنوه من أنفسكم» [٣]، ويعرف الطبري ﷺ أخذ الحذر تعريفًا بديعًا

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٦٢٦).

(٢) أساس البلاغة (١/ ١٧٦).

(٣) تفسير الزمخشري (١/ ٥٣٢).

فيقول: «خذوا جُنَّتكم وأسلحتكم التي تتقون بها من عدوكم لغزوهم، وحربهم» [١]،

وأخذ الحذر يكون من الجهات التي يتوقع منها الشر، فليس الأمر مقيدًا بالجنس ولا الجنسية ولا الدين ولا الهُوية الثقافية، فقد تأتي الشرور من بعض من ينتسبون إلى الإسلام إما لأنهم جهلة وإما لأنهم كذبة متكبرون، وإما لأنهم مغرر بهم، ولكن أخذ الحذر لا يعني أن تجري الأجهزة الأمنية في طلب عورات الناس أو الشك فيهم، وابتغاء الريبة في تصرفاتهم دون مبرر ظاهر. ويبدر تساؤل بشأن قوله جل ذكره: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ من أي شيء من الأخطار الداخلية أم الخارجية؟ وفي أي مجال؟ وفي المجالات الأمنية أم الثقافية؟ والجواب: كل داخل في مفهوم هذا القانون الدستوري:

خذوا حذركم داخليًا من البطانة الفاسدة، أو المجموعات العميلة الخائنة، أو الفاسقين الفجرة الذين يزعزعون الأمن لمطامع ذاتية، أو تأويلات دينية فاسدة.

وخذوا حذركم من الاختراق الخارجي، فالآية تشمل أخذ الحذر الأمني، والعسكري من المنافقين في المدينة وأمثالهم، ومن كفار قريش في مكة وأمثالهم، وهذا يقتضي الاستعداد العسكري، والأمني على أوسع نطاق.

وأخذ الحذر يقتضي ابتكار وسائل للدفاع والحماية التي تُجِنُّ من يحتمي بها أي: تخفيه عن الأنظار فلا يهتدى إليه، أو لا يوصل إليه مثل الدروع سواء كانت من خلال المعاهدات ذات التوثيقات الدقيقة جدًا، والواضحة جدًا حتى لا يحصل الاختلاف ولا تتلاعب الأطراف بالثغرات القانونية من خلالها، فالطبري أخبرنا بأن نأخذ الجُنَّة والسلاح، فهل يعتبر من يشتري أسلحته من عدوه آخذًا حذره؟ قد يقال بأنه قد يشتري سلاحه من عدوه ويأخذ حذره منه، لكن عدوه قد يجعل المصيدة في

(١) الطبري (٨/ ٥٣٦).

هذا السلاح الذي يبيعه، فحقيقة خذوا حذركم تؤدي إلى أمرٍ آخر لا بد منه وهو لزوم صنع السلاح الذي يوفر الحماية أي: اصنعوا أسلحتكم بأنفسكم، واصنعوا كل ما يؤدي إلى استقلالكم وعدم ارتهانكم للخارج سواء أكان في مجال السلاح أم في مجال النُظُم والتشريعات، أم في مجال التكنولوجيا، أم في نظم المعلومات، أم كان في مجال الصناعات والأغذية، أم الاستقلال الغذائي، فكلمة ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ كلمة استراتيجية عجيبة شاملة، و كلما قرأتُ هذه الآية ما أزال أتعجب من حال مَنْ عندهم مثل هذا المبادئ ثم يعتمدون في صناعاتهم على الآخرين، فأين أخذ الحذر؟ أين تطبيق هذه الآية؟ لقد نزل هذا القانون قبل ١٤٠٠ عام، وهنا نعرف لماذا يصر كثير من المناوئين والمتعصبين والجاهلين على عدم ظهور الخطاب القرآني في الواقع الإنساني؛ إذ القرآن هو الذي يبني استراتيجياتنا الأمنية والدفاعية، ويشيع السلام في العالم عندما تعلم جهات الشر أن هناك من يمكن له أن يردعها إن اختارت التصرفات العدوانية الخاطئة.

ما الذي تقتضيه استراتيجية أخذ الحذر غير ما سبق؟

إنها تقتضي إعداد المنظومات الأمنية والمخابراتية التي تكفل الأمن للمجتمع، وتكون متنبهة للثغرات المتوقعة التي سيحاول العدو النفاذ من خلالها، ولذا يخبر فرعون في بلاغ عاجل عن تبليغ الجهات الاستخباراتية له عن قيام موسى عليه السلام بقيادة بني إسرائيل للهرب من السجن الجماعي الذي كانوا يعيشون فيه، ويصف الله كيف لخص فرعون لجنده وقادة ملكه المشهد بقوله: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ (الشعراء: ٥٣ – ٥٦) .. أفيكون صاحب القوة الطاغية الغاشمة أكثر انتباهًا لما يزعمه أخطارًا ممن يعملون على تطبيق العدل في أنفسهم ومجتمعاتهم؟

كما أن استراتيجية أخذ الحذر تقتضي التنبه للقضايا اليسيرة التي قد يغفل عنها الإنسان لشدة المداخلة والمعايشة لغيره، واسمع إلى الله يبين ذلك فيقول: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن: ١٤)، وهذا لا يعني أن تشك في الأهل والأولاد، ولا يعني أن تقلب حياتك مع الأولاد والأزواج إلى أن تحول الحياة إلى جحيم، بل يعني ألا يستسلم الإنسان لدعوات الشيطان التي قد ترد على لسان الولد أو لسان الزوجة؛ لأن الإسلام ربانا على عاطفة عظيمة جداً تجاه الأهل والأولاد فالله يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) فبنى الحياة على عاطفة شديدة السيطرة على النفس الإنسانية، وينبهنا الله إلى ضرورة ألا تجرنا العاطفة إلى أن ننسى أخذ الحذر حماية لنا ولهم من التبعات لو وقعنا فيها كترك الواجبات، أو نسيان مساعدة الآخرين بسبب الاشتغال لزيادة الترف للأسرة، لكن الآية تعني ضمن ما تعني أن بعض الأولاد وبعض الأهل ربما ضغط على الإنسان لترك واجباته تجاه ربه أو تجاه مجتمعه، أو ربما ضحى بدينه أو مجتمعه لأجل ترفيه أسرته، وحقيقة الأمر أنه يقضي على أسرته لأنه إن لم يكن صادقًا أمينًا مع مجتمعه ظهر الفساد الذي يوشك أن يرتد على أسرته ومنجزاته الشخصية.

وبذا يجتمع لنا من هذا اللفظ الوجيز: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أن نعد الوسائل التي تكفل وتحقق لنا الأمن العام والخاص، ولم يبين لنا سبحانه ممن نأخذ الحذر، وذلك ليشمل كل الثغور الأمنية والعسكرية والتعليمية والإعلامية التي يمكن أن يدخل من خلالها أهل الشر من أولياء الشيطان، وقد خص الله بالذكر الحركة المنافقة التي تعيث فسادًا في جسد المجتمع الإسلامي فقال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ (المنافقون: ٤).

وتأمل في التعبير القرآني العجيب هنا ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾، والأخذ تناول

الشيء البعيد المحسوس، والأصل فيه: « حَوْز الشيء وجبْيُه وجمعه» [١]، كأنها شيء مأخوذ، لم يقل: يا أيها الذين آمنوا احذروا، كأنه شيء ملموس دلالة على شدة الاستعداد، وجمع كل تلك الاستراتيجيات الممكنة وحوزها، وعدم الغفلة عنها وليس النوم والاستنامة وزعم الفأل والأمل، والأماني الخيالية، وبذلك يضع الله لنا صورة محسوسة مدهشة تتمثل في ضرورة وضع أعلى الاستراتيجيات الأمنية المحققة للحذر.

وهذه الاستراتيجية تقتضي أن ننشط أعلى برامج الاستعداد لاتقاء شر العدو، كما يقتضي ذلك إعدادًا داخليًا خاصًا في جميع المجالات التعليمية والإعلامية والعسكرية فإنه يقتضي دراسات تفصيلية ترصد واقع العدو، ومدى قوته، وأماكن ضعفه، وكيفية التواصل معه، لأنه قد نصل معه إلى اتفاق أو هدنه ندرسه عن قرب، والواقع الجغرافي والاجتماعي والتاريخي لأرضه وقومه مما يسمى بالجغرافيا الجيوسياسية، وقد قالت العرب:» قَتَلَتْ أَرْضٌ جَاهِلَهَا»[٢]، وينبغي تسليط الأضواء على مقدار خطوط التعاون بينه وبين غيره من الأعداء الآخرين، وكيفية الوصول إلى التفريق بينهم وتسليط بعضهم على بعض، ومن أهم معالم أخذ الحذر الوصول إلى الاكتفاء الذاتي في السلع الأساسية الغذائية، وكيفية التخلي عن الاعتماد على الآخرين في الاحتياجات الحياتية الأساسية، ويدخل في أخذ الحذر: صناعة الأسلحة المختلفة، وعدم الاعتماد على الآخرين في اختراعها وتوفيرها.

ومن أعظم وسائل أخذ الحذر: تكوين الأمة الواحدة وتكثير العدد المدرب، والبدائل القيادية.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، اتحاد الكتاب العرب (١/ ٨٦).

(٢) مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت، لبنان (٢/ ١٠٨.).

ومن أعجب ما طرأ على المسلمين زعم بعضهم أن أخذ الحذر ينافي الإيمان بالقدر، فانظر كيف يضرب هؤلاء كتاب الله بعضه ببعض، فالله الذي أمر بأخذ الحذر هو الله وحده الذي قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)، لكن لا يعني إيماننا بالقدر ألا نأخذ الحذر، وهل إيماننا بالقدر منعنا من أن نسلم؟ كان الناس مشركين في الجاهلية ثم أسلموا، واحتج المشركون من قبل بالقدر على عدم إسلامهم فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، فهذا القول من الأقوال التي لا يستطيع الإنسان أن يتصورها عند التأمل أن أخذ الحذر ينافي الإيمان بالقدر، بل كلاهما يصدق بعضه بعضًا، ومثل هؤلاء في الاستدلال بالقدر مثل الذين يتخذون الكتاب عضين، ويخالفون سنة الرسول الأمين ﷺ، ولو صح ما يقولون لبطلت الشرائع كما يقول الرازي ﷺ، فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغًا.

وكما ترى فإن القرآن الكريم يرسم للمسلمين بدقة تفصيلية مدهشة استراتيجيات الانتصار في المعارك التي تفرض عليهم من قبل المعتدين.. ويقدم التفصيلات التكتيكية للمعارك المتوقعة، ويبين طبيعة الواقع العسكري الذي يتولى حماية الأمة، وحماية المستضعفين في الأرض.. وتأمل هنا كيف يتم الغوص في التفصيلات العسكرية والأمنية.. أَفترى القرآن مجرد كتاب يتكلم عن العبادات الشعائرية الخاصة أم كتاب هداية في كل تفصيلات الحياة؟ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

إن القرآن ليس مجرد كتاب يعلم شعائر العبادات، بل يهدي لحماية الحياة.

القانون الثالث: من أهم مبادئ استراتيجية أخذ الحِذْر: بناء الجيش الذي يحمي المجتمع، ويمكنه أن يُعَدِّدَ أشكال النفير الأمني، والعسكري بين نفر الثُبات أي

المجموعات الصغيرة (مثل الألوية)، ونفر الجميع، أي: النفير العام؛ ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

ومعنى ﴿ٱنفِرُواْ﴾ اخْرُجُوا إلى أماكن بعيدة، حال كون خروجكم قويًا متأهبًا مستعدًا مستعجلًا، لأن النَفر يقتضي الحركة السريعة المنتبهة، وليس الخروج الهادئ، وكلمة نفر هنا تعني الاستعداد وأخذ أقصى درجات التأهب النفسي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ (التوبة: ١٢٢)، فجعل الذهاب إلى طلب العلم نوعًا من النفر.. لماذا؟

لأنه يتطلب أن يستعد الإنسان لطلبه، وأن يُعطي العلم حقَّه، ولا يذهب ذهاب الكسالى إليه، إذا فمعنى انفروا، أي: اخرجوا لِلْحَرْبِ، من نفر ينفِر نَفْرًا، فمَصْدَرُهُ النَّفْرُ، بِخِلَافِ نَفَرَ ينفُر- بضمّ العين- فِي المُضَارِعِ فَمَصْدَرُهُ النُّفُورُ، أي: الهرب، وهذه الكلمة تدل على التحرك بانزعاج وفزع، وليس المقصود بها أن يكون مضطربًا وخائفًا، بل أن يكون مستعدًا متأهبًا ليس غافلًا ولا كسلًا، أي: بخفة واهتمام وجمع للطاقة المركزة في الفعل والتفكير وعدم التفريط والتجافي والتباعد، فهو -كما قال الراغب-: الانْزِعَاجُ عن الشيءِ وإلى الشيء، كالفَزَعِ إلى الشيء وعن الشيء. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤١)، وقال: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (فاطر: ٤٢)، ونَفَرَ إلى الحربِ يَنْفُرُ ويَنْفِرُ نَفْرًا، ومنه: يَوْمُ النَّفْرِ. قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [١]

والثُّباتُ جمع «ثُبَةٍ»، و «الثُّبَةُ»، العصبة والجماعة المنفردة، « قال زهير[٢]:

وَقَدْ أَغْدُو عَلَى ثُبَةٍ كِرَامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاء

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٨١٧).

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه حمدو طماش، دار المعرفة، لبنان- بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م (ص: ١٢).

ومعنى الكلام: افزعوا لحماية أمن مجتمعكم ثباتٍ، أي: جماعاتٍ صغيرةً أو كبيرة انفروا إلى عدوكم جماعة بعد جماعة متسلحين[١] أو انفروا جميعًا فينفر الجيش كاملًا أو تنفر الأمة بجميع أفرادها، وهذا يقتضي تدريب الأمة جميعًا...

إن البيان الإلهي الخاتم يبين لنا بدقة مدهشة أن نتعامل وفق ما يحقق الانتصار في الواقع، ولذلك قسم الخروج أو النفر إلى أمرين: أن ننفر ثبات، أي: جماعات صغيرة، أو أن ننفر جميعًا، ما الفرق بين أن ننفر جماعات صغيرة أو أن ننفر جميعًا؟ الفرق بحسب مقتضيات الواقع، قد يقتضي الواقع العسكري أن يتم النفر على هيئة جماعاتٍ قليلة، وقد يقتضي أن يتم النفر على هيئة جماعات قليلة متفرقة متتابعة كما حصل مثلًا مع خالد بن الوليد رضي الله عنه في مؤتة فإنه فرق جيشه إلى مجموعة جماعات يوهم العدو بدخول مددٍ جديدٍ لهم، وقد يكون من الحكمة أن تكون النفرة عصائبية، وهي نفرة السرايا والمجموعات، وقد تكون الحكمة في النفرة الجماعية وهي النفرة العامة، فيتم فعل الأنسب لمتطلبات الأمن القومي الإسلامي، ولذا قد يقتضي الأمر توزيع الأدوار بين فئات متعددة في الأمة إما بتنسيق مشترك أو بأن يصبر كل طرف على الآخر في سبيل تحقيق الغايات العظمى، فالمراد افعلوا الأنسب لمتطلبات الأمن المجتمعي، وتوزيع الأدوار بين النفر العام، أو النفر المحدود، ولذا قال ابن عباس ﷺ: قوله ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾، يقول: عصبًا، يعني سَرايَا متفرقين ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾، يعني: كلكم[٢].

وهذا كله ينبغي أن يُكَوِّن قيادةً واحدة تنسق بين الجميع كما حصل في معركة بدر، كان المجموع ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، ولكن طريقة إدارتهم للمعركة قائمة

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣٦).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣٧).

على الثُبات، فانقسموا إلى ثلاثة أقسام كما ورد في مسند الإمام أحمد، أما الشباب فكانوا يحاربون العدو ويطاردونه، وأما مجموعة أخرى فحازوا الغنائم وجمعوها لأنها تعين في الدعم الاقتصادي، وأما المجموعة الثالثة وهم الشيوخ فبقوا تحت الرايات يحرسون النبي ﷺ لا ينال منه العدو غرة، وبذلك طبقوا استراتيجية أخذ الحذر أثناء المعركة على أعلى ما يكون: أخذ حذر من الناحية الهجومية، وأخذ حذر من الناحية الاقتصادية، وأخذ حذر من ناحية حماية القيادة النبوية ﷺ، ثم حصل بينهم خلاف في مسألة توزيع الغنائم من الأحق بها، فأنزل الله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

وقد يقتضي الأمر إرسال المجموعات الصغيرة لإقامة حرب العصابات في جهات محددة، فعن مجاهد في قول الله: «فانفروا ثبات»، قال: فرقًا، قليلًا قليلًا [١].

وهذه الجملة تعطي آفاقًا واسعة مدهشة في التخطيط العسكري والسياسي؛ إذ يمكن تبادل الأدوار بين الأفراد والجماعات والمجموعات، والأمة ولو لم يكن بتنسيق مشترك، وقد شعر عمرو بن كلثوم بأهمية هذا المبدأ في استراتيجية أخذ الحذر فقال[٢]:

فأما يوم خشيتنا عليهم فنصبح غارة متلببينا
وأما يوم لا نخشى عليهم فنصبح في مجالسنا ثبينا

كما تقتضي هذه التفصيلات العسكرية تدريب جميع أفراد الأمة على النفر في أي لحظة، وبذا يكون التدريب العسكري واجبًا لكل فردٍ إعدادًا له للنفرة العامة أو الخاصة في أي لحظة، فقد يحتاج إلى مجموعة أو سرية محدودة لمواجهة الأخطار المتعلقة بالأمن، وقد يحتاج إلى الأمة جميعًا، وهو ما يؤدي هذه الأيام إلى إقامة

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣٧).

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق إيميل يعقوب، (ص ٧١).

النشاط الذي يسمى الخدمة الوطنية، فالخدمة والتدريب العسكري تكون لجميع أفراد الأمة، لأن جميع أفراد الأمة مشتركون في حماية مجتمعهم، وحماية البلد الذي هم فيه، ليس حماية البلد قائمة على مجرد الانتماء الدائم أو الانتماء المؤقت، بل جميعهم ما دام اشتركوا في مسكنٍ فينبغي أن يدافعوا عنه، فهذه الآية تؤسس لضرورة تدريب جميع أفراد المجتمع؛ فقوله ﴿ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ تقتضي أنه قد يأتي يوم يجب على الأمة كلها أن تنفر، فكيف لها أن تنفر إذا كانت غير مستعدة، ذلك يعني أن تعود على الاستعداد، وتدرب على الحد الأدنى من التدرب لمواجهة أي أخطارٍ محتملة.

والله.. ما زال المرء يحار ويعجب من أمة عندها مثل هذه الآية البينة المعجزة المدهشة ثم هي تؤكل من كل جانب ومن كل مكان.. ويعجب أكثر من ذلك ألا تكون مثل هذه الآيات ضمن المعجزات المعدودة في التشريع الإسلامي، لأن الإنسان لا يصل إلى هذه التشريعات إلا بعد فترةٍ طويلة من الخبرة.. انظر الآن إلى الدول العظمى التي تنتج أسلحة الردع المتعددة وما تزال تخترع وتخترع،

وهذه الآية تبين أن استعمال السلاح والتدرب عليه حق من الحقوق العامة لكل فردٍ في الأمة، ويكون إنتاج ما تحتاج إليه الأمة مما يسبب لها الاكتفاء في المجالات المختلفة حق من حقوقها وواجب يلزم من صار مسؤولًا عنها.

والدول التي تحترم نفسها، وتحرص على أمنها القومي تسارع إلى ذلك بغض النظر عن كونها دولاً معادية أم مسالمة، فهاهو رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو، في تغريدة على «تويتر» عند قتل قواته لأربعة عشر فردًا في سوريا بينهم ضباط في الحرس الثوري: «لدينا مبدأ بسيط وواضح نحرص دائما على التعبير عنه؛ من يريد أن يمس بك، فإن عليك أن تمس به مسبقًا... لن نسمح لأحد أن يمس بنا»، وفق قوله، ورأى نتنياهو أن «تحقيق الأمن في الحاضر، هو شرط أساسي لتحقيق

الأمن في المستقبل، وما يحدث اليوم هو تعبير عظيم وقوي للغاية عن تحقيق أمننا في المستقبل».

القانون الرابع: من أهم مبادئ استراتيجية أخذ الحذر: الحذر الأمني الشديد من المجموعات (اللوبيات) المرجفة المخذلة. وبصرنا الله بهم في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٧١-٧٣)، فهم يقومون بعملية التبطيء السيء؛ لتدمير جميع خطط الحماية الأمنية في المجتمع، وأهم صفاتهم.

الصفة الأولى: ينتمون للمسلمين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿مِنكُمْ﴾، ولم يقل: «فيكم»، فدخل فيهم المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والغافلون، والمقصرون، وربما بعض صالحي المؤمنين:

وللأسف فإنك تجد كثيرًا من المفسرين يقصر الآية على المنافقين.. هذا القصر يؤدي إلى فقهٍ خاطئٍ في التعامل مع الواقع المؤلم؛ إذ يحتمل أن يكونوا من السماعين لهم من صالحي المؤمنين.. وهنا ربما تتساءل مستغربًا: أمعقول أن يوجد من صالح المؤمنين سماعون للمنافقين؟ تجيبك الآية بنفسها فلأجل ألا تسيطر الغفلة على قوى الحق والعدل نجد التأكيد في هذه الجملة بأقوى المؤكدات عن هذه العناصر المخربة لخطط الحماية الأمنية وعن السماعين لهم، انظر إلى النص الدستوري المبارك: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ فأكد فحوى الجملة بإن المشددة المؤكدة الناصبة، وباللام الداخلة على خبر إن، وبلام القسم، فـ«دخلت «اللام» في قوله: ﴿لَمَن﴾، وفتحت، لأنها «اللام» التي تدخل توكيدًا للخبر مع «إنَّ»، كقول القائل: «إنّ في الدار لَمَن يكرمك». وأما «اللام « الثانية التي في «ليبطئن»، فدخلت في جواب القسم، كأن

معنى الكلام: وإن منكم أيها القوم لمن والله ليبطئن»[١].

لاحظ -أيدك الله- يقول: ﴿مِنكُمْ﴾ ولم يقل (فيكم)، فالكلام ليس عن المنافقين فقط بل يدخل في المتكلم عنهم فئة من المؤمنين، وهذا تحليل عظيم للواقع الإسلامي المعاصر، وبيان صريح بأن نعترف بأننا قد نكون من هذه الفئات، فهي ليست من عملاء المخابرات الخارجية، وليست من المنافقين بالضرورة.. إذا كان منا من يبطئ فمن باب أولى من أدخل نفسه معنا وهو ليس منا، فالآية تتكلم عن بعض المؤمنين أكثر من تكلمها عن المنافقين، ولكنها بطريقة أخرى تشير إلى المنافقين، وبذا لا يظهر لي صواب ميل بعض المفسرين كالطبري ﷺ إلى قصر الآية على المنافقين.

لماذا نؤكد على أن الآية قد تشير إلى المنافقين وبعض المؤمنين؟ لأن عدم الاعتراف بذلك يجعلنا نشرب شرب الهيم من الأوهام، فندمر استراتيجية أخذ الحذر، فحاطب بن أبي بلتعة ﷺ أرسل رسالةً تتعلق ببعض الأسرار الأمنية إلى قريش، وهذا يعد خيانة عظمى مع أنه من أهل بدر، والنبي ﷺ بين أنه لم يفعل ذلك خروجًا من الإيمان، بل قال ﷺ: «إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ ﷻ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[٢]، فقد وقع ذلك من هذا الجبل إيمانًا وتقى، فكيف لا يقع من غيره ﷺ وعن الصحابة أجمعين، فلمَ نهرب من كلمة ﴿مِنكُمْ﴾ ونقول هذا يستشنع أن يقع من المؤمنين؟ فإذا هربنا من الاعتراف ببشريتنا أدى ذلك إلى فقهٍ خاطئ في التعامل مع الواقع المؤلم.

الصفة الثانية: لا يقومون بالمهام الأمنية الحارسة للمجتمع، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾، فالبطء تأخر الانبعاث في السير.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣٩).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ١٨٦) برقم ٣٠٠٧.

وهذه الكلمة تدل بحروفها الثقيلة على العمل الثقيل الهائل الذي تسببه هذه العناصر عندما تصر على القعود وعدم القيام بالمهمات الحارسة للمجتمع المسلم، فيتثاقلون عن القيام بواجباتهم الأمنية.

الصفة الثالثة: ينشطون في زرع التثاقل عن القيام بالواجبات الأمنية عند الآخرين، وتكوين مجموعات مخذلة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ إذ تدل هذه الكلمة أصالة، أو تبعًا على هذا الصنف، فالتشديد للدلالة على تكرار الفعل في نفسه، وعلى محاولة صاحبه أن يؤثر على غيره؛ ليكون مثله في التخلف عن القيام بواجباته الأمنية، فيتأخر ويؤخر غيره [١]، واستعمل النبي ﷺ هذا الفعل متعديًا فقال: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» [٢]، فلا يكتفي هذا الصنف بعدم خروجه حتى يتحول إلى أداةٍ نشطةٍ لتخذيل غيره، وذلك لئلا يكون وحيدًا في الفضيحة، والأعمال القبيحة، وهناك سبب آخر أن يحول فعله القبيح إلى مجد ويمسح عنه أن يكون قد اقترف كبيرة من الكبائر، فهو عندما يتأخر عن مكارم الأمور يبحث عن المبررات في التأخر، ويوهم الناس أنه من خلال تأخره استطاع أن يحمي مصالحهم.. هكذا تتكون المجموعات المخذلة المرجفة (اللوبيات المجرمة) التي يكون أثرها في الإجرام أسوأ من المعتدين الخارجيين.

الصفة الرابعة: الأنانية المفرطة، وعدم تحمل تبعات مواجهة تحديات الحياة، ويُبَصِّرُنا بها قوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (النساء:٧٢).

إنهم يبتعدون ويبعدون المجتمع حولهم عن رؤية الأحداث بصورة شرعية،

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٥٢).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٧١).

فيكونون رؤية قاتمة قائمة على المصلحة الشخصية الخاصة، فعند المصيبة التي تحل على الصف المطيع لله تعالى يرفع أحدهم عقيرته، فيقول: أنا بطأت عن القيام بالواجبات الأمنية من أجل السلامة العامة؛ لأن الذين قاموا بها أصيبوا إما بالقتل أو الجراح، أما أنا فألهمني التفكير السديد فـ﴿لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾، و﴿شَهِيدًا﴾ بمعنى حاضر وهو المعنى الأول، ويُبَصِّرُنا بأنانيتهم كأنه يقول: إيثاره للسلامة وعدم المواجهة كان هو القرار الصائب بدليل أن المسلمين الذين لم يستمعوا له وخرجوا للجهاد قد أصيبوا، وهو لم يكن حاضرًا، ويحمد الله على ذلك إذ لم تصبه جراح أو ألم أو قتل«وسَرَّه تخلّفه عنكم، شماتةً بكم، لأنه من أهل الشك في وعد الله الذي وعد المؤمنين على ما نالهم في سبيله من الأجر والثواب، وفي وعيده. فهو غيرُ راج ثوابًا، ولا خائف عقابًا»[1]... نسي أن الله جعل حدوث المصيبة في الجهاد من أعظم أماكن الطاعات والقربات، بل جعلها من الأمور الحسنة المرغوب فيها فقال: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ (التوبة: ٥٢).

نسى أن المسلم إذا أصيب بجرحٍ أو تأذى فهو في سبيل الله، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢٠).

فصارت وظيفة هذه الفئة المخذلة العمل قصدًا أو بغير قصدٍ على إنهاك الصف المسلم.. هذه الفئة يزين لها الشيطان أعمالها، فتعمل على إنهاك العقول الرشيدة باسم العقل، ويطلبون منها الهرب الدائم، ورفع راية الاستسلام باسم القبول

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣٨).

بالحلول الممكنة.. ومع المدى تصبح الحلول الممكنة عين التدمير البطيء أو السريع لأصحاب الحق، وبعضهم يعبر عن هذا باسم المصالح والحفاظ على الدماء مع أن حقيقة الأمر أن تلك الحلول قد تؤدي إلى المزيد من إراقة الدماء، إن هؤلاء هم الذين يرقصون على جراح المظلومين، ويقتاتون من دماء المستضعفين.

وستسأل: لماذا يذكر الله هذه الصفات عن هذا الصنف المبطئ؟

الجواب: لأن ذلك جزء من استراتيجية أخذ الحذر؛ فإن كان الإنسان المبطئ المبَطئ منافقًا، فهذا شأنه.. هذه طبيعته.. هذه وظيفته: العمل على تدمير أصحاب الحق، وإن كان مؤمنًا فقد يكون موقفه بسبب ضعف إيمانه، أو لأن طريقة تفكيره خاطئة، فينبغي أن ننبهه وننتبه منه أيضًا.. لا أن ننجر إليه لمكانته أو لسابقته الإيمانية، لذا كان معاذ بن جبل ﷺ يقول: (إياك وزيغة الحكيم، ولا ينئينك ذلك عنه)[1] يعني هذا مؤمن حكيم عالم، ولكن إياك وما يقع فيه من الزيغ، ولا يُنئينك، أي: لا تبتعد عنه ولكن احذر من زيغته.

الصفة الخامسة: إيثار الدنيا على الآخرة من خلال كره معالي الأمور الحقيقية، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنى الثاني لقوله: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾، فالشهيد هو الذي قضى نحبه مواجهًا لتحديات إحلال السلام والأمان في المجتمع، وهذا هو المعنى الثاني للكلمة:

فيجوز أن يكون معنى ﴿شَهِيدًا﴾ الشهيد بالمعنى الشرعي، فيكون كلامه للاستهزاء والسخرية بطلب الصالحين الشهادة لإحلال السلام للآخرين، فكأنه لم يعرف الإيمان طرفة عين؛ إذ يجعل أجل الأهداف الحقيقية في الحياة شيئًا يسخر منه.. كذلك يقول المنافقون ومرضى القلوب دائمًا، واسمع إلى الله يحكي عنهم في سورة الأنفال: ﴿إِذْ

(١) سنن أبي داوود، (٤/ ٢٠٢)، قال الأرناؤوط: أثر إسناده صحيح.

﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ (الأنفال: ٤٩).

وبهذا يكون ديدن هذه الفئة الفت في عضد المؤمنين، وتوهين قواهم، وتشكيكهم في جدوى المجاهدة والمناضلة عن الحقوق، وتقديم التضحيات في سبيل إعزاز دينهم ورفعة أمتهم وأمن مجتمعهم.

لماذا يذكر الله هذه الصفات عن هذا الصنف المبطئ؟

لأنه إن كان منافقًا فهذا شأنه وحاله وطبيعته لا نكلفه فوق طبيعته ولكننا نفضح نفاقه، وإن كان ضعيف الإيمان فقد نسي كل شيء يربطه بالمسلمين: نسي أخوته لمجتمعه ونسي إيمانه، فنذكر له أنه يسير على صفات المنافقين، ويركب متن رواحل الخاسرين.

الصفة السادسة: التخفي وسط المؤمنين، فلا يفطن له إلا أولو الألباب منهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ﴾ (النساء:٧٣):

قد يتسلل الواحد منهم إلى إدارات التوجيه، وعندما يفوز المؤمنون في مواجهة التحديات، يشعر بأنه ليس منهم، فيتمنى أن لو كان معهم.

انظر كيف يؤكد الله غرابة مواقف هذا الصنف المريض المنتكس، فيؤكده باللام الموطئة لجواب القسم في قوله ﴿وَلَئِنْ﴾، معناه وأقسم لئن أصابكم، وبلام جواب القسم وبنون التوكيد في قوله ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ثلاث مؤكدات كما في السابق.. كل ذلك ليؤكد لقوى الخير حقيقة يغفلون عنها في غمرة الأحداث المتعاقبة، وكثرة الضجيج الذي يصدر عن التلاعب العالمي والإقليمي بهم.. التأكيد المتتابع ليوقظ الصالحين من غفلتهم عن الحذر من هذا الصنف بأنواعه .. إن الصالحين قد يغفلون عن وجود هذا الصنف المبطئ بينما هو يتسلل في إعلامهم وتعليمهم، ومنتدياتهم، وربما تسلل إلى أهم مراكز أمنهم القومي.

والمقصود هنا تحذير مجتمع المؤمنين إما من الصنف المريض القلب مع صحة إيمانه، وإما من الصنف المنافق؛ إذ كل منهم يقوم بالدور ذاته في الإبطاء والتبطيء مع تفاوت حجم السوء الذين يحدثه كل منهم.

الصفة السابعة: نسيانه لكل صلة إيمانية أو محبة رحمية، أو وشيجة قربى، أو إحسان يد عندما تحدث الأحداث الفاصلة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾:

وتعال إلى البلاغة القرآنية حيث تأخذ أنفاسك عندما ترتقي عرشًا لا يمكن للكلام البشري الوصول إليه؛ فجملة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ القَوْلِ وَمَقُولِهِ أي بين قوله ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وقوله حكاية عنهم ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فكلمة مودة جاءت نكرة منفية في سياق التشبيه؛ فإن كان مؤمنًا أصاب قلبه مرض فاحذروا منه؛ إذ يتكلم بحسد ولؤم بخلاف المؤمنين الذين هم إِخْوَةٌ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وهم جسد واحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، ويد واحدة على من سواهم، ويحتمل أن يكون القائل مؤمنًا ويشعر بالندم لأنه بطأ فيقول: يا ليتني كنت معهم، وإن كان منافقًا فهو لا يذكر أي إحسانٍ أنعم المجتمع المسلم به عليه، وهذا يجعلنا نقول: إن الآيات وردت في المؤمنين كما هي في المنافقين، وانظر إلى أهل البدع الكبرى كيف يعيشون بين المؤمنين، فيأكلون خيراتهم، ويجدون من رفقهم وإحسانهم حتى إذا علا وارتقى المفسدون على المؤمنين نسي أولئك كل مودةٍ كانت بينهم وبين المؤمنين، والمودة إما أن تكون حقيقية إن صدرت هذه المقولة من ضعفة المؤمنين، وإما أن تكون صورية إن كانت المقولة صادرة من المنافقين..

وبالقدر الذي تدل فيه هذه الجملة على تحذير المؤمنين من هذا الصنف المبطئ الذي يعمل ضد أمنهم القومي، ويحاول أن يربك حساباتهم الشرعية والواقعية إلا

أن الأسلوب الذي جاء فيه هذا التحذير مثيرٌ جدًا من الناحية البلاغية؛ إذ هذه الجملة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ تستدر كل عطف، وتحمل كل عتاب لمن أصاب قلبه مرض، فاتصف بصفات المنافقين دون أن يشعر، وصار من المبطئين المُبَطِّئين، ثم عمل الحسد في نفسه عمله لما رأى انتصار المؤمنين فقام يقول: يا ليتني كنت معهم.. فيذكره الله بالمودة السالفة، والمحبة السابقة حيث كان يبادل إخوانه الابتسامات الحانية، ويظهر لهم المحبة الخالصة.. وتعجب من هذه العبارة التي تحمل التحذير، وتتضمن في الوقت ذاته أجمل التأثير عسى أن يتأثر من زلت قدمه من المؤمنين فوقع في هذه الخصلة من خصال الذين في قلوبهم مرض والمنافقين

وهناك بعدٌ بلاغي ثالث في كلمة ﴿مَوَدَّةٌ﴾ هنا، فهو إنما ذكرها لأن الذين يقولون هذا القول من مرضى القلوب ومن المنافقين كانوا يبالغون في إظهار الود والشفقة والنصيحة للمؤمنين [1]، وهذا يعني مزيدًا من التحذير الشديد من أفعالهم، وعدم الاغترار بنصحهم وإظهار مودتهم.

وفي كلمة ﴿يكن﴾ من قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ قراءتان:

الأولى: قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ﴾ بِالتَّاءِ لتأنيث مودة، وقد جاء مثل هذه القراءة في المجمع عليه قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (يُونُسَ: ٥٧).

وَالبَاقُونَ بِاليَاءِ لأن المودة مؤنث غير حقيقي مع وجود فاصل بين الفعل والفاعل، ومما يشبه ذلك من المجمع عليه قوله تعالى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ (البَقَرَةِ: ٢٧٥).

الصفة الثامنة: حب المناصب والمجد الدنيوي أو الأخروي ولكن عبر

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٢٦).

الدعاوى الفارغة، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الواحد منهم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٧٣).

فهذا الإبطاء والتبطيء يجر لهؤلاء المنتكسين تارة السرور بالسلامة، وتارة الشعور بالغيظ والحسرة والندامة، فعندما يحصل الانتصار لا يكون همهم تصويب رؤيتهم وفق مبدأ الطاعة الشرعي بل يلومون أنفسهم أنهم لم يركبوا الموجة ليجدوا مغنمًا مع المنتصرين، ولشدة حسدهم للصف المتقدم المثابر لا يعدون انتصار المطيعين انتصارًا لهم، ولا فوزهم فوزًا لهم، بل يتلهفون على ما فاتهم من مكانةٍ وغنيمة.

إن هذا الصنف المبطئ يتربص بالصف المطيع المقدم التضحيات فإن حصلت المصيبة لهم فرحوا بقراراتهم الجبانة، وإن تحقق النجاح لمن يواجه تحديات الحياة، وحصل الانتصار للمطيعين تمنوا أنهم معهم: ليجدوا الفوز بمنصبٍ، أو شرفٍ أو مالٍ، أو أجرٍ أخرويٍّ.

نعود الآن إلى السؤال الذي يفرض نفسه: من هؤلاء المُبْطِئون المُبَطِّئون؟

حاول كثيرٌ من المفسرين أن يجعلوا هذه الصفات حصرية على المنافقين، واستثقلوا كما استبشعوا صدورها من قومٍ مؤمنين، فكيف يمكن أن تصدر من بعض الأنصار أو من بعض المهاجرين؟.. هكذا رأوا رحمهم الله.. تأمل في الآيات لترى أن ما ذهبوا إليه ليس صحيحًا لا من الناحية الأسلوبية القرآنية، ولا من الناحية الطبعية..

أما من حيث الأسلوب القرآني: فإن الله جل شأنه إن أراد أن يذكر المنافقين ذكرهم بالاسم كما في سورتهم.. أما إذا لم يذكرهم بالاسم بل أشار بالوصف إلى قومٍ بين صفاتهم فهذا يدل على أن هذه الصفات موجودة في كل من يقع فيها أو يطبقها ولو كان من المؤمنين المخلصين.. ألا ترى أن حاطب بن أبي بلتعة كان من أهل بدر ثم وقع منه شيء ليس بالهين في حق المسلمين إلا أن ذلك غمر في بحر

حسناته؟ إن الآيات توقظنا إلى حقيقة أنفسنا التي قد نسقط في براثن أمرها بالسوء عسى أن نتقي ذلك الوقوع، فإن عجزنا لما غرس فينا من الطبيعة فإن الآيات تخاطب المجموع ليُعينَ الذاكرُ الناسيَ، ويُنَبِّهَ اليقظُ الغافلَ..

وفي هذه السورة إشارة واضحة إلى أن بعض الصفات السيئة تكون كاملة في المنافقين لكن مقدارها لا يصل إلى الكمال في المؤمنين، ولا يمنعهم ذلك من أن يمسهم منها طيف، وطائف من الشيطان.. انظر إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (النساء: ٦١) فصرح بأن المنافقين يصدون عن رسول الله ﷺ صدًا عنيفًا.. أفدنا ذلك من التأكيد.. ومعنى ذلك أنه قد يوجد من المؤمنين من يصد عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ لتأويل ظهر له، أو ضعف طرأ عليه.. وما قصة الأنصاري البدري الذي قال لرسول الله في مخاصمته للزبير: أن كان ابن عمتك يا رسول الله، وجعل الزبير قصتهما تلك داخلة -فيما يحسب- في قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

وأما من الناحية النفسية البشرية فإن المتقين يمسهم طائف من الشيطان، فيُذَكَّرون فيتذكرون، وربما فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم كما وصفهم الله في سورة آل عمران.. إلا أنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون.. إن هذه الآيات تعالج واقع المؤمنين في أنفسهم عندما يعتريهم الضعف، وينتابهم الخور، وتهجم عليهم وساوس الشيطان فربما جادلوا في الحق بعدما تبين.. وبذا فإن كل ما فيه لوم وتقريع في هذه الآيات: من التحاكم إلى الطاغوت، ووجود الحرج من قضاء الرسول ﷺ، والتبطيء، وخشية الناس كخشية الله، وإذاعة ما فيه أمر من الأمن أو الخوف مما يخلخل صفوف المؤمنين..

كل ذلك يشمل المؤمنين يحذرهم من أنفسهم، كما يشمل المنافقين يفضحهم أمام المؤمنين، لكنه يكون في المؤمنين شيئًا عارضًا إن وجد من يذكرهم بقوة، ويأطرهم على الحق رجعوا فرحين برجوعهم، ويكون ذلك في المنافقين على حد الكمال في السوء، فيمضون في غيهم، ويشتدون في جرمهم.



القسم الثاني

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: استخدام الخيار العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين و لصناعة حالة (توازن قوى) وجاهزية الردع (النساء:٧٤-٧٦)

آيات هذا القسم:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٧٤-٧٦).

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله في القسم الأول أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وهي الاستراتيجية الأمنية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية يذكر الله هنا أن من استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الإعداد العسكري العالي لصناعة حالة (توازن الردع)، ولإثبات القدرة على استخدام الحل العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين، وهنا تشعر بمدى حاجة الكليات الأمنية والعسكرية لأن تُدَرِّس هذا

المحور المدهش، وأن تنهل منه ما يؤدي إلى إلهامها للرقي بمهماتها، وذكر الله في هذا القسم عدة أسسٍ تبين ضوابطَ الحلِّ العسكري عند الاضطرار إليه:

الأساس الأول:

الاستعداد للحل العسكري، والإقدام عليه عند تحتمه.ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ (النساء:٧٤)، فحددت هذه البصيرة القرآنية: سبب القتال وهو أن يكون في سبيل الله لا في سبيل القتل أو الغرور أو الكبر أو السيطرة علىٰ الثروات أو الانتقام، وحددت الشخصيات التي يجب بناؤها لتقاتل بإخلاص، وهم الذين يبيعون الحياة الأولىٰ الدنيا بالحياة الآخرة العليا.

هنا يحث الله جل شأنه عباده على الاستعداد للحل العسكري عند تحتمه، فيقول: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾، ويحق لك أن تسأل: ما الفرق بين قوله ﴿فَٱنفِرُوا۟﴾ وقوله ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾؟

الجواب: هناك أمر بالنفر، والنفر لا يقتضي القتال، ولكنه يقتضي التأهب والحماية وقد يؤدي إلى الالتحام وقد لا يؤدي، أما هنا فقد أمر الله بالقتال بعد الكلام عن الفئات المخذِّلة المبطئة ليبين أن قتال المعتدين أهل الشرور في وقته وزمانه ومكانه مطلوب، ما دمنا اضطررنا إليه، وقوله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يبين لك أهم ضابط للقتال؛ إذ ينبغي أن يكون في سبيل الله، والسبيل هو الطريق الذى فيه سهولة وجمعه سبل كما قال تعالى ذكره: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ (النحل: ١٥)، وقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (طه: ٥٣)، ويستعمل السبيل في الطريق السهل الواضح الذي يتوصل به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًا، كما قال جل مجده:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال تعالى جده: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ (يوسف: ١٠٨)، وكلاهما واحد لكن أضاف

الاول إلى الآمر وهو الله سبحانه وتعالى، والثاني إلى السالك بهم وهو محمد ﷺ [١]. و﴿يَشْرُونَ﴾ معناها يبيعون فشَرَى مُقَابِلُ اشْتَرَى، مِثْلَ بَاعَ وَابْتَاعَ وَأَكْرَى وَاكْتَرَى، قَالَ ابْنُ مُفَرِّغٍ[٢]:

وَشَـرَيْـتُ بُـرْدًا لَـيْـتَـنِـي ... مِـنْ بَـعْـدِ بُـرْدٍ كُـنْـتُ هَـامَـهْ

أي: بعت بردًا، وتحسر عليه.

والاستعمال القرآني قائم على أن شرى بمعنى باع كما قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ (يوسف: ٢٠)، أَيْ: بَاعُوهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ (البقرة: ١٠٢)، أَيْ: بَاعُوهَا وَقَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٠٧) أَيْ يَبِيعُهَا، وَالبَاءُ فِي صِيغَةِ البَيْعِ تَدْخُلُ عَلَى الثَّمَنِ المقبوض، فحددت هذه البصيرة القرآنية: سبب القتال وهو أن يكون في سبيل الله لا في سبيل القتل أو الغرور أو الكبر أو السيطرة على الثروات أو الانتقام، وحددت الشخصية التي يجب بناؤها لتقاتل بإخلاص، فوصفهم بأنهم: يبيعون الحياة الأولى الدنيا بالحياة الآخرة العليا، ومعنى هذه الجملة المباركة ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فليقاتل في سبيل الله الذين يبيعون الدنيا، ويشترون الآخرة بدلًا منها، فالخطاب هنا للمؤمنين المخذلين وغير المخذلين: إن كنتم أيها المؤمنون حقًا تريدون بيع الدنيا وشراء الآخرة التي هي الحياة الحقيقية.. إن كنتم أيها المؤمنون تريدون شراء الحياة الخالدة وهي الآخرة فقاتلوا، ولكن لا تقاتلوا للعبث واللعب وتجارة الأسلحة والسيطرة على الثروات، وإنما ينبغي أن يكون قتالكم في سبيل الله الذي يعني إحلال العدل وحماية المستضعفين، مثل قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟

(١) مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٢٢٣).

(٢) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار الحديث- القاهرة، ١٤٢٣هـ (١/ ٣٤٩).

بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم﴾ (التَّوْبَة: ١١١).. فقال: ﴿يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ﴾ لماذا؟ تعظيمًا للمقاتلين في سبيله، وفضيحةً للمبطئين المخذلين.

وحسبك أن يقابل البيان القرآني المدهش بين الحياتين مقابلة فيها غرابة ظاهرة تدعو للتأمل؛ إذ عبر عن الحياة الأولى بالحياة الدنيا، وعبر عما يقابلها بالآخرة، فيمكنك جعل ذلك على مبدأ (الاحتباك) الرائع، ويكون التقدير: يشرون الحياة الأولى الدنيا بالحياة الآخرة العليا، ويمكنك أن تقول أيضًا مع ذلك إنما كان التركيز على وصف الحياة الأولى بالدنيا لأنه لا يوجد وصفٌ يجعلها أقل ولا أذل في أعين بني الإنسان من هذا الوصف، وإنما وصف الحياة العليا بالآخرة لأنها الباقية، فلو لم يكن فيها إلا السلامة من النار لكان ذلك كافيًا في اشترائها، فكيف إذا ضم إلى ذلك ما فيها من النعيم لمن فاز في هذه الصفقة العظيمة؟

الأساس الثاني:

الحل العسكري لا يَعتمِد علىٰ النتيجة عند تحتمه، بل علىٰ القيام بالواجب. فالله يقول: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤).

في الأساس الأول بني الله الشخصية السوية التي يمكنها أن تقوم بالتبعات الأمنية والعسكرية في سبيل الله، أي: لحماية المجتمع والمستضعفين، وهنا يبني الله النفسية التي تؤمن بأنها فائزة سواء قُتِلَت أم غلبت، فإن أجبرتم على القتال فيجب عليكم أن تقاتلوا، فلا تقولوا: لا نملك فرصة للانتصار، ما دام القتال متحتمًا، ولا مفر منه إلا حياة مؤلمة، فيجب عليكم أن تقاتلوا، فكل نتيجةٍ تترتب عليه فهي انتصارٌ ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لم يقل فينتصر، فمهما كانت النتيجة فهي انتصار؛ إذ يترتب على الالتحام أحد أمرين: إما أن يُقتل المشارك،

وينتصر الجيش من بعده، وإما أن يَغلِبَ، أي: يبقى على قيد الحياة منتصرًا، وعلى الحالين سيجد أجرًا عظيمًا يعلم الله مقداره سواء أكانت النتيجة أن يُقتل المجاهدون أم أن يَغلبوا عدوهم.. اسمع إلى ذلك مرة أخرى في الآية ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤).. هذه الآية تعطينا هدية ضخمة توجد الردع عند كل أهل الشر والعدوان، فطالما غفلنا عن هذه الحقيقة، وهي أساس الانتصار الحقيقي، وهذه الفكرة الهدية أن المساواة بين المقتول في سبيل الله تعالى وبين المنتصر في المعركة في الأجر قائمة، فالمقتول في سبيل الله إذا أراد الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، ومثله المنتصر، بل نلاحظ تقديم المقتول في سبيل الله تعالى ﴿فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾؛ لأن بعض الناس يعتقدون إذا انكسر القائم بهذا الواجب، فقتل وحلت عليه الهزيمة فقد جر مصيبة على نفسه وعلى قومه.. هذا الفهم في هذه الحالة غير صحيح بما أن خياراته نفدت، والخيار الوحيد الباقي له غير القتال هو الاستسلام المذل الذي يود معه أن يموت مراتٍ.

وهذه الجملة المباركة يستبين معناها بجلاء من خلال تطبيق قواعد الاحتباك العربي، فقد ذكر الله القتل أولًا، والغَلَب ثانيًا، ويكون المعنى: ومن يقاتل في سبيل الله فيُهزم ويقتل، أو يَغلب ويَسلم فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا، وهذه الجملة ردٌّ بليغ على المبْطئين المبَطِّئين؛ إذ ما الذي يخافه المسلمون من القتال عند وجوبه وتحتمه؟ هل يخافون أن يغلبوا؟ فما الضير في ذلك؟ والأجر العظيم ثابتٌ في كل الأحوال.. إن هذا الأساس الرائع من أسس أخذ الحذر تضمن ردع المعتدين، عندما يشعر المعتدي بأن المجتمع الذي يريد أن يأكله ويهجم عليه ويقتل أبناءه ويستولي على خيراته.. عندما يشعر المعتدي أن هذا المجتمع مستعد للتضحية إلى آخر حد فإن هذا سيردعه، وسيجعله يهرب ويحسب ألف حساب، لكن إن رأى بأن هذا المجتمع خائف من المواجهة فإنه سيزداد عَداء واعتداء، فحقيقة هذا الأساس هو بناء لأهم أسس استراتيجية

أخذ الحذر، وحماية الأمة من محاولة الاختراق والاستيلاء عليها، ولذا قال الطبري: «وهذا حضٌّ من الله المؤمنين على جهاد عدوه من أهل الكفر به على أحايينهم غالبين كانوا أو مغلوبين، والتهاونِ بأقوال المنافقين في جهاد من جاهدوا من المشركين وأن لهم في جهادهم إياهم -مغلوبين كانوا أو غالبين- منزلة من الله رفيعة»[1].

وتأمل في الآية مجددًا لترى أن الله جل جلاله يقول: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ ولم يقل يؤتيه، وذلك لأن الأجر العظيم الذي يجده إما أن يجده من ربه خالصًا وإما أن يغلب عدوه فيجد الأجر من ربه، وما يستتبع الغلبة من النصر والجاه والسيادة التي يسبغها عليه الناس.

الأساس الثالث:

تفاوت العدد لا يشكل أهمية في خطة الحماية الناجحة. فالله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: بما أن القتال قد تحتم ليس هناك مجال، إما أن تواجه الإبادة التامة، أو يستولي عليك العدو ويقوم بإهانتك وإبادتك تدريجيًا، وإما أن تقاتل وقد تنتصر أو لا تنتصر، ففي هذه الحالة تفاوت العدد لا يشكل أهمية، ولقد استسلم الأندلسيون لعدوهم ووقعوا العهود خمسين شرطًا، بين أبي عبد الله الأحمر الصغير آخر ملوك غرناطة المسلمة وبين إيزابيلا وفرنالدو ملوك أسبانيا، ولم يلبثوا حتى نقض المعتدون كل تلك العهود وأبادوا المسلمين وأجبروهم على أن يتنصروا، ثم أقاموا محاكم التفتيش الرهيبة، التي يفترض أن تدان على مستوى الهيئات الدولية لشدة قسوتها وهمجيتها.

فالمقصود أن تفاوت العدد لا يشكل أهمية في خطة الحماية الناجحة حال تحتم

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٤١).

القتال عندما لا يجد الإنسان مفرًا من المواجهة، بل على العكس قد يشكل هذا الاندفاع للإصرار على المواجهة ردعًا للمعتدي لذا قال الله ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ويذكر البقاعي هذه البصيرة المستقاة من الجملة السابقة فيقول: «اقتصاره على هذين القسمين حث على الثبات ولو كان العدو أكثر من الضعف فـ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٩) ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ١٣) والله مع الصابرين»[١].

ومما ينبثق عن ذلك أن الأصل عدم الوقوع في الأسر حال المواجهة، فالله ذكر احتمالين فقط، ولم يذكر ثالثًا، فقال: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فالوقوع في الأسر قد يكون أسوأ بكثير من أن يُقتل المرء وإن أجازه بعض أهل العلم؛ إذ قد تغلب على المعتدين الوحشية، ويستمتعون بفنون التعذيب في التعامل مع الأسرى حتى يود أحدهم لو مات ولم يقع أسيرًا، كما قال المتنبي[٢]:

كَفَى بكَ داءً أَنْ ترى الموتَ شافِيا وحَسْبُ المنايا أَنْ يَكُنَّ أمانِيَا

الأساس الرابع:

أهم أهداف القتال في سبيل الله تعالىٰ: الدفاع عن حقوق الإنسان بأداء الأمانات إلىٰ أهلها، والدفاع عن الحكم بالعدل. وهذا بصرنا به مجيء هذه الاستراتيجية بعد تقرير ما سبق، ونصرة المستضعفين سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، والمستضعفون هم من استباح الظالمون كرامتهم، ويُبَصِّرُنا بهذا الهدف قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٢٧).

(٢) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لمصطفى سبيتي، لبنان: بيروت، دار الكتب العلمية، ط٤، ٢٠٠٩م (٢/ ٢٠٢).

كلمة ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوفة على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، والتقدير: وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفي خلاص المسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ، أو يكون مَعْطُوفًا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، والتقدير: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين، ويكون تخليص المستضعفين من سبيل الله ولكنه عطفه عليه من باب عطف الخاص على العام لأهميته أو لغياب حضوره عندهم، وَأَجَازَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنْ يَكُونَ: وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مَنْصُوبًا عَلَى الِاخْتِصَاصِ يَعْنِي وَأَخْتَصُّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ خَلَاصَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، لِأَنَّ سَبِيلَ اللَّهِ عَامٌّ فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَخَلَاصُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَعْظَمِ الخَيْرِ وَأَخَصِّهِ.. عد بنا إلى الاستفهام:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ هذا استفهام إنكاري توبيخي.. ما معنى أنه توبيخي؟ حدد ابن هشام ضابط الإنكار التوبيخي بأن مَا بعْد أداة الاستفهام وَاقع وَفَاعله ملوم، فهم لم يقاتلوا في سبيل الله لإنقاذ المستضعفين، وفعلهم هذا يستحق اللوم، وهذه الآية تحرض المسلمين على إنقاذ المستضعفين المظلومين عمومًا حتى لو كانوا غير مسلمين؛ فإن إنقاذ المستضعفين واجب حتى لو كانوا كفارًا، لأن الشريعة الإسلامية جاءت بالعدالة للعموم؛ فالله جلَّ مجده يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)، وقال تعالى جده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨) وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

الأساس الخامس:

عدم جعل الأولوية للمكان الذي ولد فيه الإنسان، وإنما جعل الأولوية للمكان

الذي يكون فيه تكريم الإنسان، ويقام العدل فيه، فليست الأولية للتراب، بل للإنسان الذي يعمر التراب، وهذا الأساس يُبَصِّرُنا به قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

في هذه الآية يصرخ المستضعفون من الرجال والنساء والولدان.. يطالبون بالخروج من أرض الظلم إلى أين؟ مفهوم الآية واضح: إلى أرض العدل.. ولا يكون ولاء الإنسان للأرض مطلقًا، بل للأرض التي يجد فيها العدل، وينجو من الظلم، والأراضي التي يفشو فيها الظلم لا قدسية لها؛ إذ المراد إيجاد أرض العدل ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥)، فإن لم توجد أرض العدل الحقيقي فيبحث المرء عن الأرض التي يوجد فيها القانون، وتكون مفاسدها أقل من غيرها، ويمكنه أن يجد السعة فيها على أن يعبد الله بحرية، وهنا لا بد من الموازنة بين الأراضي المختلفة في إيجابياتها وسلبياتها، والمصالح التي تتحقق فيها، والمفاسد التي تخف أو تنعدم فيها.

مهلًا أعد سماع الآية: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ المستضعفون من النساء والولدان أمرهم بينٌ واضحٌ بحكم طبيعة تكوينهم وأجسادهم، لكن ما قصة المستضعفين من الرجال ولماذا قدم الرجال أولًا؟

لقد بلغ من الظلم في هذه القرية أن الرجال الذين يمكن أن يدفعوا عن أنفسهم لا يستطيعون.. الرجال الذين يقومون على احتياجات النساء والولدان لا يستطيعون أن يجلبوا اللقمة للنساء والولدان، فإذا كانوا مستضعفين لا يستطيعون أن يضمنوا أدنى حقوقهم لفشو الظلم في هذه القرية فكيف بالنساء والولدان؟ والآية تصور لك حالةً من القهر الرهيب الذي أصاب عموم الناس، واستنفد حقوقهم بل بدأ يأكل حياتهم

وكرامتهم.. وصل الحرج والضيق بهم أنهم ودوا الهرب والخروج من مكانهم.. فلم يعودوا يطلبون الماء ولا الغذاء ولا الدواء ولا الحاجات الأساسية؛ لأنهم لا يجدونها أصلًا فهم أموات كالأحياء، وأحياء كالأموات.. وقولهم ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا﴾ تبين أنهم فقدوا كل من يمكنه أن يزيل عنهم ذلك الظلم أو يخففه عنهم حتى أنهم كانوا يتوسطون ببعض الظلمة يعطونهم مالًا أو يكون بعضهم له قرابة نسبية، أو يتوسطون بمن يزعمون نصرة الحقوق الإنسانية.. لقد فقدوا ذلك كله أيضًا.. حسبنا الله! انظر كم تصور الآية من معاناتهم وحزنهم وقهرهم.. والله المستعان.. فلم يبق لهم أمام هذه الحالة من الظلم القامع إلا أن يطلبوا الخروج من تلك القرية الظالم أهلها، وعبر عن هذه المدينة أو الدولة الظالم أهلها بالقرية لأنه أراد اجتماع الظالمين فيها على استضعاف المستضعفين، فالقرية مشتقة من (قري) يَدُلُّ عَلَى جمعٍ وَاجْتِمَاعٍ. مِنْ ذَلِكَ القَرْيَةُ، سُمِّيَتْ قَرْيَةً لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا، وَيَقُولُونَ: قَرَيْتُ المَاءَ فِي المِقْرَاةِ: جَمَعْتُهُ[1]، وانظر لجلال التعبير القرآني المدهش حيث يصور مقدار تواطؤ المؤسسات الإعلامية والتعليمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على ظلم المستضعفين في الأرض حتى أصبحوا لا يرجون أكثر من الهرب منهم.. والآية تعطينا أساسًا عظيمًا من أسس تطبيق خطة أخذ الحذر، وهو عدم تمجيد الأرض التي يفشو فيها الظلم بل إن صنع الانتصار يكمن في البحث عن أرض يقام فيها العدل لتكون منطلق نشر للعدل في الأراضي التي يفشو فيها الظلم، ولذا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة مع أن مكة أقدس بقاع الدنيا، وافتخر عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ بِاقْتِحَامِ خَيْلِ قَوْمِهِ مَكَّةَ يوم الفتح، فقال[2]:

(١) الصحيح من أحاديث السيرة النبوية (ص: ٤٤٧).

(٢) شرح ديوان الحماسة، لأحمد بن محمد الأصفهاني (ص: ١٠٤).

شَهِدْنَ مَعَ النَّبِيءِ مُسَوَّمَاتٍ حُنَيْنًا وَهِيَ دَامِيَةُ الحَوَامِي
وَوَقْعَةَ خَالِدٍ شَهِدَتْ وَحَكَّتْ سَنَابِكَهَا عَلَى البَلَدِ الحَرَامِ

ولاحظ عنونة هذه القضايا لتجد أن الله أشار إلى استراتيجية نصرة المستضعفين، وليس إلى ما تشيعه بعض النظم الحديثة من نصرة الأقليات؛ لأن لفظ: نصرة الأقلية، أفضى به الأمر كثيرًا إلى تدمير الأكثرية، فالأقلية لفظة مبهمة، وقد يكون من معانيها الأقلية المتمردة الخارجة عن القانون.. تصحح لنا الآيات الفهم والمصطلح، فالعبرة بمحاربة الظلم الذي يستضعف الآخرين، سواء أكانوا أكثرية أم أقلية، وهنا يبدو التفوق القرآني واضحًا في نصرة الحقوق البشرية مقارنًا بالنظم الوضعية، وذكر الفئة المستضعفة أقوى من الأقليات؛ إذ المستضعفون فئة تذكر بالعدل لا على طلب الاستقواء.

الأساس السادس:

أهمية القيادة الراشدة في أزمنة الظلم الصعبة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾.

انظر للدعاء الذي يدل على طلبهم لقيادات راشدة تجمع بين الموالاة للمظلومين والنصرة لهم، وقد فهم ابن عباس ﷺ ذلك من الآية فقال: «يُرِيدُونَ اجْعَلْ عَلَيْنَا رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُوَالِينَا وَيَقُومُ بِمَصَالِحِنَا وَيَحْفَظُ عَلَيْنَا دِينَنَا وَشَرْعَنَا» [1]، فالولي يدل على القرب والمحبة، وقد يكون هذا الولي على حبه لهم غير قادرٍ على نصرهم، فلذا طلبوا النصير الذي يكون قادرًا على نصرتهم فقال: ﴿**وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾، وقد يكونان غير مسلمين؛ وقد يجتمع الوصفان، وقد ينفرد كل منهما، فيجد المرء العدالة من غير المسلمين، كما في حالة النجاشي، والواقع

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٤٢).

المعاصر الذي نرى فيه النصرة من غير المسلمين أوسع بفتح بلدانهم، والسماح بالتفاعل الإيجابي مع مجتمعاتهم.

ولكن الجملة القرآنية تعطينا بعدًا أوسع، فهم يطلبون من الله حالة الكمال في النصرة بأن يجعل لهم وليًا محبًا ناصرًا، فإن لم يكن فإنهم يطلبون وجود الولي الذي يبادلهم العاطفة، ولو لم ينصر، ويطلبون النصير الذي يعينهم ولو لم يكن وليًا محبًا.

والآية فيها حثٌ عظيم على مواجهة القوة الظالمة بالقوة الصادقة العادلة، وليس بالاستكانة والذلة.

الأساس السابع:

تحديد أهم أهداف الحل العسكري، وهو القتال في سبيل الله لتحقيق أعظم مصالح الإنسانية، وأقوىٰ إنجازات البشرية بإنقاذ المستضعفين، وتحقيق العدل، والوقوف ضد الطغيان الظالم المجرم، يُبَصِّرُنا به قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فالذي يقاتل للطغيان الفردي أو الجماعي أو السيطرة علىٰ الآخرين أو المتعة فهو في سبيل الشيطان.

لاحظ أن هذه هي المرة الرابعة التي تكررت فيها جملة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ في ثلاث آيات متتابعات: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤)، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٧٥)، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ (النساء: ٧٦).

لماذا تتكرر هذه الجملة بهذه الصورة الواضحة؟

إن الله يريد أن ينقي هذا المفهوم من الأغراض الرديئة التي صورته على أنه محبة في القتال لذاته، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن القتال الحقيقي هو

يكون في الطريق الواضح السهل الذي شرعه الله، وبذا نفهم بأن الأصل في القتال المنع في الإسلام، فمتى يباح؟ إذا كان في سبيل الله لا في سبيل الأهواء الشخصية، ليس في سبيل المجد الشخصي، ليس في سبيل السيطرة على خيرات الآخرين، ليس في سبيل الاستكبار وتكوين امبراطورية كبرى، القتال ليس مشروعًا من أجل إيذاء الآخرين، القتال ليس مشروعا من أجل بيان الاستكبار العالمي، فالقتال مشروع في حالة واحدة وهو أن يكون في سبيل الله فقط، والحل العسكري، لا يجوز أن يلجأ إليه للاستمتاع، ولا للأهواء الشخصية، ولا للانتقام، ولا للإجرام، ولا للاعتداء، ولا للسيطرة على خيرات الآخرين، ولا للعلو، ولا للاستكبار، بل ليكون في سبيل الله.. الإسلام لا يعرف القتال للغنيمة، ولا للسرقة، ولا لبناء المجد الشخصي، وطموحات الاستعلاء في الأرض، ولا لتمجيد جنس على جنسٍ، فـ«لَمَّا بَيَّنَ وُجُوبَ الجِهَادِ، بَيَّنَ أَنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِصُورَةِ الجِهَادِ. بَلِ العِبْرَةُ بِالقَصْدِ، وَالدَّاعِي»[1].

ويمكن بيان القتال الذي يكون في سبيل الله بأنه إنما يكون لصالح بث الحياة الإنسانية؛ إذ له أربعة أهداف:

الهدف الأول: القتال لحماية الديار والأبناء، كما قال تعالى ذكره في قصة بني إسرائيل: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ (البقرة:٢٤٦).

الهدف الثاني: إزالة الفتنة وحماية الكرامة الإنسانية أن تهان، وحماية حق الإنسان في الاختيار، وخاصة حماية المستضعفين، والدفاع عن حقوق الإنسان التي عبر عنها أداء الأمانات إلى أهلها، حيث تنال الأسرة الصغيرة والكبيرة في المجتمع حقوقها، والدفاع عن الحكم بالعدل، وبصرنا بهذا أن الله أمر بأخذ الحذر بعد أن

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٤٢).

قرر جميع المبادئ الفاضلة في سورة النساء، وبين الخطر الذي يتهدد هذا الرشد في إدارة الأمور الإنسانية عندما ذكر لنا التحاكم بالطاغوت، ثم قال بعد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا -إلى أن قال جل مجده- فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ (النساء: ٧١ - ٧٤).

فإنقاذ المستضعفين يعتبر في سبيل الله، سواء كانوا مسلمين أم كفارًا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا ﴾ (النساء:٧٥)، ويدخل ضمن معاني الفتنة: التعذيب الذي يؤدي إلى اختيار عقيدة محددة نتيجة للقهر والضغط الشديد، فبعض المفسرين فسروا كلمة (فتنة) بأنه الشرك، وهذا تفسيرٌ بالنتيجة التي تنتج عن التعذيب، فالتعذيب الموجه للشعوب المستضعفة يجبرهم على اعتناق عقيدة محددة، وهنا لا بد من الحرب الهجومية الوقائية لإزالة قلاع الظلم، ودك معاقل التعذيب والإجرام التي تسوم المستضعفين سوء العذاب، وبذلك يتحقق أن يكون الدين لله، ما معنى ذلك؟

معناه أن يكون الدين بين الإنسان وربه، فلا يُكره أحدٌ على أن يدخل في هذا الدين أو ذاك، فلا يكره على الشرك كما لا يكره على الإيمان، فيختار المرء بينه وبين ربه الدين الذي يظنه صوابًا، ويُبَصِّرُنا بهذا الهدف قوله تعالى ذكره: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الأنفال: ٣٩، ٤٠).

الهدف الثالث: رد الاعتداء، وردع قوى البغي والعدوان، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله جل شأنه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج: ٣٩)، وذكر الله في سورة البقرة ذلك في قوله جل شأنه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠)، ولكن اعتداءهم عليكم لا يحملنكم على الاعتداء عليهم بغير وجه حق، لذلك قال بعدها مباشرة ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

الهدف الرابع: القتال الرادع ضد الأهداف المظنون فيها الاعتداء، وهي التي تسميها الدول المعاصرة اليوم: (الحرب الوقائية، أو حرب الردع)، إلا أن للمعارك العسكرية آدابها العظيمة في المنظور الإسلامي، وأشار الله إلى هذا الهدف في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ (التوبة: ١٢٣).

فالإسلام لا يشرع القتال لتحقيق الأطماع العاجلة والمكاسب المادية الزائلة .. بل إن من أهم أهداف القتال في الإسلام تمكين البشر من نيل حقوقهم الفردية والمادية بعدالة وإنصاف.. ولذا يجب أن ينصر المسلمون المستضعفين في الأرض، ولو كانوا كفارًا.. إنه القتال لتمكين البشرية من التمتع بخيرات الحكم بالشريعة الإسلامية، التي تكفل لكل ذي حق حقه، حتى لو كان كافرًا، أو بهيمة، أو أرضًا..

وهنا تدرك مهيع الرشاد الذي سلكه النبي ﷺ لينفي الأغراض الأنانية للقتال، وبين الغرض الأسمى الذي تطل منه رحمة الله على العباد، فعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ [1].

فمن أراد من المبطئين كفارة عن أفعاله المخذلة، فكفارته الانضمام للقتال، وبيع الحياة الدنيا بالآخرة، وعدم الطعن على من قُتِل، فهو كالذي يغلب له أجر عظيم، فلم يفته شيء، بل هو مقدم عليه في الذكر، وروى مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ إِلاَّ كَانُوا

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٣٦) برقم ٧٤٥٨.

قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ إِلاَّ تَمَّ أُجُورُهُمْ»[١].

على ماذا تدل هذه الآية ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥)؟

تدل على أن القتال غير مشروع لمجرد التمتع بالقتال، ولذلك نحن ننكر إيذاء الحيوانات فكيف بإيذاء أحد من البشرية، فمصارعة الثيران وقتالها لمجرد اللهو حرام عندنا، مع أن بعض الشعوب إلى الآن تفتخر بإجراء هذه المسابقات الوحشية، وتستمع بالتعذيب والقتل الموجه للحيوان.. فمن ينكر ذلك كيف يجيز العبث بحياة بني الإنسان؟ إذا كان الإسلام ينكر ذلك فكيف لا ننكر أن يقتل الإنسان الإنسان، فالأصل في القتال عدم مشروعيته، وإنما مشروعيته لأهداف يتم من خلالها حماية الحياة البشرية وكرامتها، وكما يقول رشيد رضيا ﷺ: «القتال في نفسه أمر قبيح، ولا يمكن أن يجيز العقل السليم ارتكاب القبيح، إلا لإزالة شر أقبح منه، والأمور بمقاصدها وغاياتها»[٢]، فالآية إذًا واضحة ترسل رسائل للعالم وخاصة الكذبة الذين ملأوا الأبواق الإعلامية تنفيرًا من الإسلام، وأن الإسلام دين عنف، ترسل لهم رسالة واضحة بأن الإسلام دين الانتصار للحقوق.. ولذا ينصر المسلمون المستضعفين في الأرض ولو كانوا كفارًا.. القتال في الإسلام لتمكين المستضعفين من التمتع بالخيرات التي هي من حقوقهم، وليس للاستيلاء على خيرات الآخرين.

فأهم علامة تدل على صدق القتال في سبيل الله تعالى أن يكون القتال لنصرة المستضعفين وهذا تبصرنا به هذه الآية ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٥١٥)، برقم ١٩٠٦.

(٢) تفسير المنار(٥/ ٢١١).

﴿ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء:٧٥)، وبذا يتم إحلال العدل محل الظلم، والرحمة مقام القسوة، والصدق مقام الأكاذيب المجرمة التي يقهقه بها مفسدو العالم.. وانتزاع الحقوق للمستضعفين من الظالمين لا يمكن أن يتم بطريقٍ آخر غير القتال في سبيل الله تعالى غالبًا إلا في حالات نادرة، وذلك أن الحقوق التي لا تحميها القوة مهدرة يلعب بها الطواغيت كيفما شاؤوا، ولأن طبيعة المجرم الأثيم تأبى إلا البقاء على حالة الإجرام التي يعتز بها بعد أن طبع على قلبه، فلا يرجى من مفاوضته خيرًا، ولا يفاوض على الحقيقة إلا أن يعلم أن دولة إجرامه إلى أفول.

وتصور هذه الآية عندما نزلت على المسلمين في المدينة تحرضهم على إنقاذ المستضعفين في مكة وما حولها.. وربما كانت هذه الآية أحد أعظم أسباب فتح مكة، فقد كان من بنود صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمَّد ﷺ وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل. فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عقد محمَّد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم. فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهرًا، ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلًا بماء لهم يقال له الوتير قريب من مكة، فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ، وأن عمرو بن سالم ركب إلى رسول الله عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم المدينة إلى رسول الله ﷺ يخبره الخبر، وقد قال أبيات شعر، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشده إياها:

يا ربِّ إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتمو ولْداً، وكنا والدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصرًا عتدا وادعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفًا وجهه تربدا
في فيلقٍ كالبحر يجري مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا فقتلونا ركعًا وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، فما برح حتى مرت عنانة في السماء، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم [1].

ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ بأن الآية تغرس في نفوس المسلمين ألا ينشغلوا بأهمية التجميع والترقيع في الصفوف بقدر ما يشغلهم الكيف، والجوهر، والبناء الإيماني، ولقد رأينا كثيرًا من الجهات المنتسبة للإسلام تنشغل بالتجميع وتستكثر من قوى المجتمع مهما كانت انتماءاتها، فماذا آل إليه الأمر؟ دخل الفساد في نفوس أفرادها عندما غفلت عن تربيتهم، وإصلاحهم، وخدعتها القوى التي زعمت أنها تؤازرها.. وكانت عاقبة جهدها خسرًا في نهاية المعركة.. أعد سماع الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الإيمان أولًا لو كانوا يعلمون.. ولذا تجد مصاصي الدماء العالميين، ومالكي الشركات العابرة للقارات يئنون لو كان هناك حاكم مسلم يظهر التدين في حكمه، ويعبرون عن استنكارهم من تحول أي بلد مسلم

(١) الصحيح من أحاديث السيرة النبوية (ص: ٤٤٧).

إلى بلد ديني.. إنهم يعلمون أهمية الإيمان في صد عدوانهم واستكبارهم، ويعلمون مقدار ضعفهم إذا اتسم من يقابلهم بالإيمان، وإنما وصف الله جل ثناؤه كيد الشيطان بالضعف، لأن أولياءه لا يقاتلون رجاء ثواب، ولا يتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حميّة أو حسدًا للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتل مَن قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله»[1].

فما فائدة الدفاع أو الاستعراض العسكري إذا خلا من الروح العسكرية؟ ما فائدة الأسلحة إذا لم توجد القوة الدافعة التي تحركها؟ ولذا قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ فـ «لَمَّا بَيَّنَ وُجُوبَ الجِهَادِ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِصُورَةِ الجِهَادِ. بَلِ العِبْرَةُ بِالقَصْدِ وَالدَّاعِي»[2]، الحروب تختلط فيها المصالح بالأديان، ولكن الحروب الظالمة كلها أساسها الطغيان، فقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ وصفٌ دقيقٌ لطبيعة الحروب في العالم، فمن حارب لأجل العدل وإنقاذ المظلومين فهو في سبيل الله، ومن قاتل في سبيل المصالح الشخصية، والأطماع السياسية، والأمجاد الدنيوية فهو في سبيل الطاغوت.. والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، لتحقيق كل المناهج الجاهلية ومنع المنهج الإلهي، وإقرار كل الشرائع الجاهلية ومنع الشريعة الإسلامية، وإقامة كل القيم الجاهلية ومنع القيم القرآنية.

الأساس الثامن:

تعتمد المؤسسات والميلشيات الطاغوتية المجرمة علىٰ الكَيْد، وهو السَّعْيُ فِي فَسَادِ الواقع والحَالِ، عَلَىٰ جِهَةِ الخداع والِاحْتِيَالِ. يُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ مجدُه: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٤٧).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ١٤٢).

فأصحاب الكيد بذا يسعون فِي إِيقَاعِ الضَّرَرِ عَلَى جِهَةِ الحِيلَةِ.. إنهم يلجأون إلى إفساد الواقع بطرق فاسدة.. تأمل بشاعة هؤلاء القوم، ولكنهم يحققون بالكيد إنجازات كبيرة كما قيل [١]:

قَـهَـرْتَ الـعِـدَا لَا مُسْتَعِينًا بِعُصْبَةٍ وَلَكِـنْ بِـأَنْـوَاعِ الخَدَائِعِ وَالمَكْرِ

لكن هذا الكيد كله ضعيف مهزوم إن تمسك الطرف الآخر بالأسس التي ذكرناها في مواجهة كيد الشيطان.. لماذا وصف كيد الشيطان بالضعف؟ لأنه لا يملك قوة يقهر بها قالَبًا، ولا يملك حجة يقنع بها قلبًا، فيلجأ إلى الحيلة لإفساد الوضع الصحيح، وقد يحتال القوي في جسد لخوفه من الهزيمة في عقل، فيحتال أكثر، وهنا تعلم لماذا تزداد القوى المستكبرة احتيالًا عبر مؤسساتها المخابراتية القذرة، وعبر المبعوثين الأمميين ليزيدوا قضايا المستضعفين خبالًا، والأصل الحذر منها، كالحذر من الضعيف المحتال .

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، (ص: ٢٩٩).

القسم الثالث

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي (النساء:٧٧-٧٩)

آيات هذا القسم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٧٧-٧٩).

المناسبة والاتصال:

هذا المحور مليءٌ بالمفاجآت لحماية الحقوق البشرية في معرفة ربهم، ومعرفة أنفسهم، والمحافظة على الجنس البشري ليستمر بث الرجال والنساء، وقد بين الله جل جلاله في القسم الأول أن أهم استراتيجيات صنع الأمن والسلام استراتيجية (أخذ الحذر) لتحمي المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية، وذلك

في الآيات (٧١-٧٣)، ثم أوضح في القسم الثاني أن من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الإعداد العسكري العالي لصناعة حالة (توازن الردع)، واستخدام الحل العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين، وذلك في الآيات (٧٤-٧٦)، وحتى لا يفهم ذلك خطأً ويُنسب للإسلام إشاعة القتال ترى القرآن الحكيم المحكَم ينقلك نقلًا منطقيًا إلى أن تعلن للعالم أن الأصل في الإسلام كفُّ اليد عن الآخرين بما أن الكرامة الإنسانية محفوظة، ويمكن للمرء أن يقيم مبادئه الفكرية دون اضطهاد ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، لكن ذلك يعني في الوقت ذاته مواجهة الأشرار الذين يضطهدون الكرامة الإنسانية، ونصرة المستضعفين.. ولكن المواجهة تبقى طارئة، ولها وقتها المناسب، وهنا قد يتخلف جزءٌ من المجتمع المدني عن فقه الأمرين، فيتحمس بعضهم للمواجهة العسكرية وعدم كف اليد في وقتٍ يتمكنون فيه من الحصول على مبادئ الكرامة الإنسانية، أو في وقتٍ غير مناسبٍ لافتعال المواجهة، ويتهرب بعضهم من المواجهة عندما يأتي وقتها المناسب، وخاصة حين تقتضيها حماية المستضعفين، فلننظر إلى البصائر القرآنية الواردة في هذا الموطن، ولنتأملها على أنها قوانين شاملة لاستنقاذ حقوق البشرية، وإظهار القوى الصالحة بمظهر التكيف مع الوقائع المختلفة:

القانون الأول: يجب أن نشاهد الواقع كما تصفه لنا البصائر القرآنية، فالتنوير الإلهي للبصيرة القلبية أوثق مما تراه العينان في الحالات الواقعية وخاصة في ميدان معالجة النفوس الإنسانية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ..﴾.

هذه الجملة القرآنية المبتكرة المتكررة، تغرس فينا بصيرة واضحة: الله في القرآن يلفت نظرك إلى أصناف البشر، وأنواع الخلق، وتصرفاتهم: لتعرف كيف تتعامل معهم، ولتثق أن إعلام الله لك بهم أقوى مما تراه عيناك، فلا تحاول أن تكتفي

بنظر بصرك، وتستغني به عن النظر الذي ينور الله به بصيرتك، فتقع في الضلالة والهوى.. والاستفهام للفت النظر والتعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: تعال لنريك، أو تعال لتنظر شيئًا عجيبًا، أنت غير منتبهٍ له بعينيك، أي: بعيني بصيرتك.. لا أن تحاول أن تبصر بنفسك لتهوي وتسقط في الضلال ويصيبك التيه في التفكير، إنما تعال وانظر سنريك نحن.. ووضعه على سبيل الاستفهام لبيان التحضيض والإزعاج والتشويق من أجل أن يرى الإنسان حقيقة الأمر، فهو يرى هؤلاء الناس﴿أَلَمْ تَرَ﴾.. هم صنف من الناس، ولكنه لا يراهم على حقيقتهم، والقرآن يبصره بحقيقتهم، والتعبير ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يمدك ببصيرة شائقة في التصوير: إنه يخبرك بأن القرآن بصيرتنا.. يخبرك بأنه بصرنا في رؤية الأشخاص والأحداث، والحقائق، والتقدير: ألم تر إلى فريقٍ من الذين قيل لهم: كفوا أيديكم.. انظر إليهم.. شاهد حقيقتهم..

القانون الثاني: الأصل الواجب على المسلم كف اليد، ونشر السلام، فالقتال ليس هو الأصل في الإسلام، بل أذن فيه لاحقًا لقيام مقتضياتٍ له، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾.

﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ من القائل لهم: إن الواجب أن تكفوا أيديكم؟ جاء بهذا الفعل المبني لما لم يُسمَّ فاعله ليحتمل أن يكون القائل الله جل جلاله في كتابه، وليحتمل أيضًا أن يكون القائل الرسول ﷺ في سنته، وليحتمل أن يكون القائل أولو الأمر أهل الحل والعقد من المستنبطين من أهل العلم الذين يقومون الحكم الشرعي ليناسب الحالة الحيوية الراهنة.. واستنباطهم يجعلهم يقولون للمتحمسين: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فأنتم تقدرون على فعل ذلك، ولا تبسطوا أيديكم بقتال أو إيذاء لعدم الحاجة؛ إذ أنتم تعيشون وفق مبادئ الكرامة الإنسانية، ولعدم المناسبة في التوقيت، والآية توضح لك بجلاء أن عددًا من المتحمسين أرادوا

بسط أيديهم ليتناولوا العدو القرشي أو غيره في زمن النبي ﷺ بالقتال، فقيل لهم كفوا أيديكم؛ فبوادر مد الأيادي قد ظهرت منهم خلال كلامهم واستعراضهم، وأراد النبي ﷺ أن يبين لهم أن القتال ليس هو الأصل، بل أذن الله فيه لاحقًا، وأمر به لقيام مقتضياته، ومن المواقف التي رويت لنا تبين هذه الحماسة ما قاله العباس بن عبادة بن نضلة ليلة بيعة العقبة الثانية: (والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا) فقال رسول الله ﷺ مبينًا أن مثل ذلك يحتاج إلى إذنٍ، وأن الغدر ليس من شيمة المسلم، وأنه لا بد من استنفاد الوسائل السلمية: «لم أومر بذلك» [1].

فطُلب من الصحابة أن يتحملوا الأذى؛ ليرسلوا للعالم الرسالة واضحة أن الإسلام هو رسالة الرحمة العالمية، ولا يمكن لها، ولا يليق بها أن تعبر عن أهدافها المنقذة للإنسانية ابتداء ببسط اليد بالسلاح، فقد روى ابن عباس أن جمعًا من الصحابة الكرام، منهم: عبد الرحمن بن عوف أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا»، (فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال، فكفوا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [2]، وأظن القائل (فلما حولنا إلى المدينة) عبد الرحمن بن عوف لأن ابن عباس كان يدارسه القرآن -كما روى البخاري- فليس المراد أن عبد الرحمن هو الذي كف، بل المراد قومٌ كانوا أظهروا الحماسة قبل فرض القتال، فلما فرض إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله.. وإلا فعبد الرحمن أَحَدُ السَّابِقِيْنَ البَدْرِيِّيْنَ وأَحَدُ العَشْرَةِ المبشرين، وَأَحَدُ السِّتَّةِ أَهْلِ الشُّوْرَى، وَهُوَ أَحَدُ الثَّمَانِيَةِ الَّذِيْنَ بَادَرُوا إِلَى الإِسْلاَمِ.

---

(١) أحمد (٣/ ٤٦٠).

(٢) النسائي (٦ / ٢)، وصحح إسناده الألباني.

ومما يؤكد أن الأصل في الإسلام السلم، قول النبي ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا» (١).

وقوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ تبصرنا بضرورة نشر التربية، والوعي، والتواصي بالحق: فهو فِعلٌ لما لم يسمَّ فاعله، فمن القائل؟ يحتمل أن يكون: الله، ويحتمل أن يكون الذي يأمرون بالقسط من الناس، سواء أكانوا من الأنبياء أم من ورثتهم أم من عامة الخلق من العقلاء. يخاطبهم الله جل مجده بأمر هو جزء من دينهم، وكذلك يخاطبهم الصالحون من الأنبياء ومن بعدهم: كفوا أيديكم، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة.. ولكنك تراهم يطالبون ما لم يطلبه منهم ربهم وهو الله الذي له الخلق والأمر.. وأقرب الناس شبهًا بهم ما فعله أصحاب علي بن أبي طالب ﷺ، فقد كانوا لا يأتمرون بأمره ولا ينتهون عما ينهاهم.

إن الحياة التي تكون وفق مراد الله لا تجري على حسب الأهواء بل ينبغي أن تسير على المنهج المستقيم الذي أمر به الله، فهو راحم الأرض والسماء، ففي فترة من الفترات قال الله لهم عن طريق رسوله ﷺ أو عن طريق الصالحين الذي يعلمون القرآن والسنة النبوية: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾، فهو طالبهم بكف اليد لأن ذلك هو الأصل في الإسلام، ولكنهم يطالبونه بشيء آخر، وهو أن يقاتلوا.. فأين تسليمهم لربهم؟.

دعنا نأخذ مثالًا تطبيقيًا يلوح لنا في قصة عمر بن الخطاب ﷺ في صلح الحديبية، فقد أوشك أن ينشب القتال مع المستغلين لسيطرتهم على المسجد الحرام؛ إذ أصروا على أن يمنعوا من قصد البيت الحرام من العمرة، ولكن الله سلم، وتنازل النبي ﷺ فوقع معهم صلح الحديبية، وأمر الله جل مجده المسلمين بكفِّ اليد بناءً على الصلح، لكن عمر بن الخطاب لم يستوعب ذلك، فكيف يعطون الدنية في دينهم، وهو من

(١) البخاري (٤ / ٦٢)، برقم ٢٩٦٦ .

أصدق الصادقين سيِّدٌ من سادة الأمم بعد الأنبياء والمرسلين وبعد أبي بكر الصديق، وكما قال النبي ﷺ له: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»(١)، لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يستطع أن يستوعب توقيع صلح الحديبية، فسأل النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا» فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ فَتْحٌ هُوَ قَالَ: نَعَمْ» (٢). فهذا كف لليد مع أن القوة تميل إلى جهة النبي ﷺ حتى قال ﷺ لرسل قريش: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً» (٣).. فصار كف اليد هو الأصل، ولولا أن المعتدين يلجئون القائمين بالعدل إلى الحرب لما كان قتال في الأرض، وتلك سنة سعر نارها شر ابني آدم عليه السلام.

والذي ذكر عمر بمبدأ كف اليد هو النبي ﷺ ثم أبو بكر الصديق، وتنوع القائل يدل على أن المجتمع كلَّه قائمٌ بأمر الله سبحانه وتعالى، متعاون على ذلك، فبعضهم قائل وبعضهم مستمع، وفي المقابل هناك فائدة أخرى تلوح من بناء الفعل لما لم يسم فاعله وهو بيان الاختلاف وتفاوت القائلين، فإذا كان القائل النبي ﷺ، فلا يملك السامع أمامه إلا أن يكون كما قال الله جل ذكره: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)، لكن إن كان القائل أحد المجتهدين في الساحة العلمية أو الساحة الدعوية فلا بد أن يوضع الاجتهاد في ميزان المناقشة.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٥٣) برقم ٣٢٩٤.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٢٦) برقم ٣١٨٢.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٥٣) برقم٢٧٣١.

إذ مسائل الخوف أو الأمن مسائل سيادية لا ينفرد بها مجتهد أو مسؤول، فلا تؤخذ بصورة فردية، فلا بد فيها من الاجتهاد الجماعي الحقيقي القوي، فلا يقررها فرد نصب نفسه طاغوتًا أو مجموعة سدنة سموا أنفسهم علماء له فهذا من أهم المفاهيم التي تهذب وترشد العمل الإسلامي وخاصة في الواقع المعاصر الذي يتميز بأنه شديد الظلمة، كثير الفتن، فانظر كيف استفدنا ذلك من قوله ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾، ولا تتحقق هذه الفوائد لو كان التعبير: قال الله لهم، أو قال لهم الرسول.

ويُبَصِّرُنا قوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أن نعتصم دائمًا بالصلاة، التي تنزل السكينة بتقديم حقوق الخالق، والزكاة التي تنزل الأمن، بتقديم حقوق الخلق، ولا ينبغي أن نجزع على عدم تقديم ما لا نستطيع، فإن وجدت بيئة آمنة ليقيم الإنسان عباداته، ويأمن في اعتقاداته، فذلك العدل الذي ينشده، فلا يكون إن افتعل عنفًا إلا معتديًا.

القانون الثالث: يجب الحذر من العقلية المبطئة فلها ارتباط بالعقلية المندفعة المتحمسة، إذ كلاهما يتخذ قرارًا في موضعه غير المناسب، وربما رأيتهم يُظْهرون الحماسة العالية في الموضع الخطأ ثم يهربون بعيدًا عندما تدق ساعة الصدق، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾:

فيظهرون أنهم مستعدون للتضحية، وسيقدمون أنفسهم ليكونوا أول الشهداء دفاعًا عن حق الإنسان في اختيار الإيمان أو دفاعًا عن الأوطان وعن الديار والأهل والولدان، ثم ينكصون إذا التقى الجمعان، ويولون الأدبار إذا جاءت ساعة الفرقان، فيخشون الناس كخشية الله «القهار الجبار، الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد»[1].

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧١٢).

وتبصرنا إذا الفجائية في قوله جل ذكره: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بحلول المفاجأة التي لا يتوقعها الناس منهم؛ إذ يخالفون الدعاوى المتحمسة السابقة، فهم يريدون من الإسلام ما خف حمله، ولانت غنيمته، ويُبَصِّرُنا الله بذلك لتكون القيادة العلمية والسياسية على دُرْبةٍ في كيفية التعامل مع هذا الموقف المتناقض.

ويُبَصِّرُنا قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، بضعف أنفسنا، وأننا يجب أن نتوقع أن يحدث ذلك من كلٍ منا إلا النبي المعصوم ﷺ، فذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في المنافقين، والأمر ليس كذلك، فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الذين تحمسوا، وهؤلاء الذين تحمسوا صنفان: فمنهم المؤمنون اعترى الخلل تفكيرهم، ومنهم المنافقون، فكلمة ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من القائلين الطالبين للمواجهة في الوقت الذي قيل لهم ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾، فالله سبحانه وتعالى في قوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ يحدثنا عن طبيعة موجودة في الناس، ولا حل أمامها إلا المجاهدة لدواعيها، وأن تعد القيادة العلمية الإدارية نفسها لوجود ذلك، وتتوقعه حتى منها هي، وهذا يعني ضرورة المؤسسية في قيادة الأعمال الكبيرة، وقوله تعالى ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ هذا أعظم من خوف الناس؛ لأن الخشية هي خوفٌ مقترنٌ بالتعظيم، فمثلًا بعضهم قد يكون من القيادات العلمية والسياسية، وقد يكون بعضهم من الصفوف المختلفة، وألقي في قلبه الخوف والتعظيم للعدو الصائل، ليس الخوف المحض بل الخوف المقترن بالتعظيم الذي هو الخشية، وهو الذي عبر الله عنه في قوله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وتبصرنا كلمة ﴿أَوْ﴾ الدالة على التنويع باختلاف مشارب هؤلاء القوم ومدى اضطرابهم، فالناس يتفاوتون في خشية البشر، فمنهم من يخشى البشر كخشية الله وهذا يمكن أن نقع فيه جميعًا، ومن ذا يبرئ نفسه منه، ومنهم من يخشاهم أعظم من خشيته لله وهذا غالبًا هو المنافق، والمؤمن قد تعتريه هذه الخشية

للناس ثم يتذكر، فإذا هو مبصرٌ للحق منقاد له، والمريض القلب والمنافق ينقادان للهوى، وينبذان موجبات التقوى.

وحتى لا تزيغ أفهامنا فنظنَّ أن كلَّ متحمسٍ ينقلب حماسه تبطيئًا وتخذيلًا تجد الآية تضبط لك هذا الوعي؛ إذ تسمع الله يقول: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ فعبر عن هذا الصنف بقوله: ﴿فَرِيقٌ﴾؛ لأنه ليس كل من رفع شعار الاستعداد نكص عند حضور ساعة الجهاد، ولذلك أراد الله جل مجده أن يرشد لنا الوعي حتى لا نتهم كل متحمسٍ، بل ينبغي أن نتلطف مع من يظهرون الحماسة العالية، ونبين لهم أن الأصل في الإسلام السلم، والصبر على إيذاء الناس، وأن اللجوء إلى غير ذلك يحتاج مبررات متعددة، ولا بد أن يجتهد لها المستنبطون، وهنا تبرز حاجة القيادات السياسية إلى القيادات العلمية الراشدة وليس إلى القيادات العلمية المتلصصة، كما ننجو بهذا التفكير من الوقوع في خطيئة تصنيف كل من تحمس بأنه متهورٌ أو مدعٍ.

القانون الرابع: ضرورة التركيز على اختيار أعضاء المجلس الاستشاري لكل فرد، واختيار أصحاب الأقلام والكلام، فهم حجر الزاوية في اتخاذ القرارات الفاصلة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، فهؤلاء ذموا لتخبطهم واتخاذهم القرارات غير السوية، وربما كانوا ضمن هيئة استشارية، فأربكوا صانع القرار.

فهؤلاء المستشارون ينصبون أنفسهم مشيرين بالحقائق في الأزمات، فينصبون أنفسهم باعتبار أنفسهم أهل استشارة وأهل رأي مع أن حقيقة أمورهم أنهم خائفون على أنفسهم خوفًا عظيمًا، وبعضهم أسوأ من بعض، فإذا تكلموا عن المصلحة فهم

لا يعنون بذلك سوى مصالحهم الخاصة.. خذ مثلًا ما قاله المشيرون على الأحمر الصغير ملك غرناطة فقد غطوا خوفهم بأن عبثوا بفقه الأولويات والموازنات زاعمين أن مصلحة الناس فيما يشيرون به من الاستسلام لفرناندو وإيزابيلا الملكين الصليبيين، وما قولهم وفعالهم إلا لتغطية الخوف الشخصي الذي تملك قلوبهم، فقد حاول القائد الفذ موسى بن أبي غسان أن يبين لهم أن ساعة الصفر قد حانت لما أظهروا البكاء فقال: «اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة، ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة. ذلك هو موت مجيد، فلنمت دفاعًا عن حرياتنا وانتقامًا لمصائب غرناطة، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا الله أن يقال: إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها».

ثم صمت موسى، وساد المجلس سكون الموت، وسرح أبو عبد الله البصر حوله، فإذا اليأس ماثل فى تلك الوجوه التي أضناها الألم، وإذا كل عزم قد غاض في تلك القلوب الكسيرة الدامية. عندئذ صاح « الله أكبر لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله. تالله لقد كتب علىّ أن أكون شقيًا، وأن يذهب الملك على يدى». وصاحت الجماعة على أثره: « الله أكبر ولا راد لقضاء الله»، وكرروا جميعًا أنها إرادة الله ولتكن، وأنه لا مفر من قضائه ولا مهرب، وأن شروط ملك النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه. فلما رأى موسى أن اعتراضه عبث لا يجدى وأن الجماعة قد أخذت فعلا في توقيع صك التسليم، نهض مغضبًا وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم. إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب

بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق. هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة، التي تخشى الآن الموت الشريف. أما أنا فو الله لن أراه»[1].

وأهم علامة تبين فساد العقلية التي يتحرك بها المستشار الخائب خلطه للأوراق وتردده، وظنه السيء بدينه وربه. ويُبَصِّرُنا الله بذلك في قوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (النساء: ٧٧).

انظر لهؤلاء المستشارين السيئين والفريق المبطئ المُبَطئ.. يحاولون أن يخلطوا الأوراق، ويجعلوا الموقف المريب المخطئ صوابًا؛ فبدلًا من الاعتراف بخطئهم أو جبنهم قلبوا الأمر؛ إذ قاموا فقالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (النساء: ٧٧).

وكلمة ﴿رَبَّنَا﴾ تدل على أنهم يناجون ربهم فيما بينهم وبين أنفسهم، ويعتمدون على حلم الله ورحمته، وهذا يرجح لنا أن كلمة ﴿مِّنْهُمْ﴾ في أول الآية يدخل فيها المؤمنون.. يتأخرون عن اتخاذ القرار المناسب في اللحظة المناسبة، ويزعمون أنهم يريدون الاستعداد قبل ذلك، ولذا يقولون ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.. أي: لنكون أشد استعدادًا وأكمل قوة، وغالبًا لا يأتي هذا «القريب» أبدًا، وللأسف فإنهم لا يشعرون أن عدوهم سيخضد قوتهم، ويكسر حدهم كلما تقدم في مواقعه، كما تدل هذه الكلمة على أن هؤلاء أقرب إلى الإيمان منهم إلى النفاق، ولكنهم يضيقون من التشريع الإلهي الذي يعالج أمور الحياة إذا ترتبت عليه التبعات ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ انظر للألم والأسى الذي يعتريهم حتى صرحوا في مناجاتهم السرية أو العلنية لربهم.

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس (٥/ ٢٥٥).

فإن كان هؤلاء مؤمنين فهذا الكلام منهم تحرجٌ، والآية تصف نوعًا من الحرج الذي وجدوه من هذا التشريع الذي فيه حياتهم، فهم مسلمون ويؤمنون بالله لكنهم يريدون أن تكون التكاليف دائمًا غير ذات شوكة شأن بني إسرائيل عندما عصوا موسى في دخول الأرض المقدسة، وإن كانوا منافقين فهذا اعتراضٌ، فشأن المنافق أن يعترض على شرع الله سبحانه.. الطعن في الأحكام التشريعية، لكنك ترى من السياق أن هذا التصرف يمكن أن يصدر من المؤمنين المتقين أيضًا،.. ألا ترى مقدار مناجاتهم لربهم وتضرعهم ورجائهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾.. أترى ذلك يصدر عن منافقين متلاعبين؟ والآية صالحة لتصف حال الفريقين على تفاوتٍ في الشعور النفسي والقناعة بالإسلام.

وبذا تجدهم هنا يقومون بالتغطية على تثاقلهم أو خيانتهم لحقوق المستضعفين وخوَرهم في مواجهة المعتدين بالتماس الأعذار كأن يقولوا: نحن مستعدون للقتال ولكن ليس هذا وقته، وهو ضد المصلحة في هذا التوقيت، فلو يؤخر قليلًا لأننا لم نستعد جيدًا ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، وكلمة ﴿أَخَّرْتَنَآ﴾ إما أن تدل على أنهم يزعمون أن المصلحة في غير هذا القرار، وإما يزعمون أنه ينبغي أن يكونوا أكثر استعدادًا، وهذا هو العذر الدائم المناهض للمجد والحق والعدل.. إنه الكلام الذي يدمر العزائم.. هو التسويف، وادعاء عدم الاستعداد مع أن المواجهة حتمية، فيقولون: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سنكون عندها أقوى وأمضى.. ما أدراهم لربما كانت العافية النسبية التي هم فيها توشك أن يصطلمها العدو، ويحيلها إلى هباء.. انظر إلى الحرية النسبية التي وجدها المسلمون في المدينة حيث تنفسوا الصعداء.. لقد حاول العدو إجهاضها وإنهاء الانجازات التي تحققت خلالها.. وإلا لماذا أصر أبو جهلٍ على الوصول إلى أقرب نقطة للمسلمين في بدر مع علمه أن أبا سفيان قد نجا؟.

وهذه البصيرة رسالة لكل من يريد انتصار العدل في العالم يبينها لنا ابن عباس ﷺ، فيقول: نهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم [١].

القانون الخامس: يجب أن تعالج النفوس المتهربة من تبعات القيام بالواجب بتذكيرهم بأنهم سيجدون النفعية المادية والروحية العظمى والصفقة الرابحة، والتجارة التي لا خسارة فيها كلها في الآخرة مقابل ثمنٍ دنيويٍ يسير، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، هنا تُربي القوة الإيمانية في العقول والقلوب، وتزداد قوة باستحضار حال الدنيا والآخرة والمقارنة بينهما:

هذه الكلمة العذبة ﴿قُلْ﴾ تحوي منهجًا متكاملًا يتضمن الإعلام والتبليغ، والتبيين، والتثقيف، والتربية.. هذه الكلمة تشعرك بالاعتزاز؛ إذ الله يوجهك مباشرة لتعالج الأمور بالطريقة الصحيحة، والمعنى: أعلم هؤلاء والعالم بأن نصر المستضعفين واجب، ولا يتم إنقاذهم من المعتدين الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت من أولياء الشيطان إلا بالمواجهة، والتهرب من تبعات هذه المواجهة حقيقته أن المتهرب يبتغي عيشًا في الدنيا، فلماذا يريد الدنيا؟ ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ومتاع الدنيا كلها من قصورٍ وأنهارٍ وعيشٍ رغيدٍ قليلٌ عند مقارنته بالآخرة، والآخرة هي الدار الحقيقية، أما من حيث زمن التمتع، فالتمتع في الدنيا محدود بعمرك الذي ينقضي كأضغاث أحلام، والتمتع في الآخرة ممتد الزمان لا حدود له.. فأي الدارين تفضل؟

وأما من حيث كمية التمتع فأنت في الدنيا لا تستطيع التمتع أكثر من حدود قوتك لكنك في الآخرة تمتع بجسد يضاعف في كل قواه عما أنت عليه الآن، فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عن أهل الجنة: «عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ» [٢].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٥٠).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٦٠) برقم ٣٣٢٧.

وأما من حيث الإمكانات والشهوات والثروات فإنك تمتع هنا حسب إمكاناتك العمرية والجسدية، وهناك لا تعلم ما أخفي لك من قرة أعين.

والمتاع الشيء المستلذ المنتفع به، وفي المقارنة بين متاع الدنيا والآخرة يقول قيس بن أبي حازم: سمعت مستوردًا أخا بني فهر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع»[1]، وقَرَأَ الحَسَنُ هذه الآية المباركة: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ثم قَالَ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا صَحِبَهَا عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا إِلَّا كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَةً، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ بَعْضَ مَا يُحِبُّ، ثُمَّ انْتَبَهَ».

وقد قال شيخ الإسلام إسماعيل المقري:

إلى كم تَمَادَى في غُرُوْرٍ وَغَفْلَةٍ ... وكم هكذا نَومٌ إلى غير يَقْظَةِ
لقد ضَاعَ عُمْرٌ سَاعَةٌ منه تُشْترى ... بِمِلءِ السَّمَا وَالأَرْضِ أَيةَ ضَيْعَةِ
أَيُنْفَقُ هَذا في هَوَى هَذِه التي ... أَبَى اللهُ أَنْ تُسْوى جَنَاحَ بَعُوضَةِ
أَتَرْضَي من العَيْشِ الرَّغِيْدِ وَعِيْشَةٍ ... مَعْ المَلأ الأَعْلَى بِعَيْشِ البَهِيْمَةِ
أَفَانٍ بِبَاقٍ تَشْتَرِيْهِ سَفَاهَةً ... وَسُخْطًا بِرضْوَانٍ وَنَارًا بِجَنَّةِ
أَأَنْتَ صَدِيقٌ أم عَدُوٌّ لِنَفْسِهِ ... فَإِنَّكَ تَرْمِيْهَا بِكُلِّ مُصِيْبَةِ
لَقَد بِعْتَهَا هَوْنًا عليك رَخِيْصَةً ... وكانت بهذا منكَ غير حَقِيْقَةِ

وكان الصالحون يُنْشِدُون:

وَلَا خَيْرَ فِي الدنيا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ... مِنَ اللهِ فِي دَارِ المُقَامِ نَصيبُ
فَإِنْ تُعْجب الدُّنْيَا رجَالًا؛ فَإِنْهَا ... مَتَاع قَلِيلٌ والزّوَال قَرِيبُ [2]

(١) سنن الترمذي (٤ / ٥٦١)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠).

وقوله ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يذكرك بأن الله يحكم بالقسط ولا يغفل شيئًا في الحساب، فاطمئن لن تظلم شيئًا لا من رزقك وأجلك في الدنيا ولا من عاقبة عملك في الآخرة إلا أن الله يعاملك بالفضل لا بالعدل في الحسنات، وبالإحسان لا بالميزان في الأعمال الصالحات:

فالجزاء في الدنيا والآخرة من جنس العمل فلا تظلمون شيئًا من أعمالكم، وآجالكم.. ولا من أرزاقكم.. مالكم؟ أتخافون لو واجهتم عدوكم من نقص رزقكم أم من نقص أجلكم؟ اطمئنوا فلا تظلمون ولو بمقدار فتيل، والفَتيلُ: حَبْلٌ دقيقٌ من ليفٍ، وقد يُشَدُّ على الحَلْقَةِ التي عندَ مُلْتَقَى الدُّجْرَيْنِ فهذا معنى، والفتيل هو السَّحاةُ التي في شَقِّ النَّواةِ فهذا معنى ثانٍ، والفتيل هو ما فَتَلْتَه بين أصابِعِكَ من الوَسَخِ كالفَتيلَةِ فهذا معنى ثالث[1]، والمعاني الثلاثة تدل على تحقير الدنيا من جهة، وعلى قيام الله بالقسط في محاسبة العباد سواء أكان الحساب نتيجة للمقدمات الدنيوية في الأعمال، أم كان جزاء في الآخرة على ما سبق في الدنيا من تحركات، فلا يمكن أن تظلموا فتيلًا أي ولو كان شيئًا يسيرًا ولو كان صغيرًا يساوي ما يفتل بين أصبعين من الوسخ المجتمع.. لا تتوقعوا أن يبخسكم الله حقكم، ولكن توقعوا في المقابل أن الله سيحاسبكم على السيئات مهما صغرت كما يحاسبكم على الحسنات مهما قلت.

وتدل هذه الكلمة على أنه لا يمكن أن تنقص آجالكم وأرزاقكم بمقدار الفتيل سواء أشاركتم في تحرير المستضعفين أم لم تشاركوا، وكذلك لا تظلمون فتيلًا إن تقاعستم عن القتال في مواطنه، وستكون نتيجة تقاعسكم مزيدًا من الهزائم وتضييع الحقوق، وتنقلنا الآية نقلًا مدهشًا رائعًا إلى مشهدين بناءً على القراءتين الواردتين في قوله ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، فقد قرأ حمزة والكسائي وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَرَوْحٌ عَنْ يَعْقُوبَ،

(١) القاموس المحيط (ص١٠٤١).

وَخَلَفٌ بالياء ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، وهذه القراءة تبين لنا أن الله خاطبهم أولًا فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ثم قال لرسوله ﷺ: ولا يظلمون في واقعهم ولا في حسابهم فتيلًا ، وأما قراءة الجمهور بالتاء ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فالخطاب ينتقل من كلام الله مع الرسول ﷺ حولهم ليصور انتقال المشهد إلى كلام الرسول ﷺ أو المؤمنين معهم. أي: أنتم لا تظلمون فتيلًا لا في آجالكم ولا في أرزاقكم ولا أموالكم عندما تواجهون أو حتى عندما لا تواجهون، فَمِمَ تخافون إذن؟

ولكن الله يعاملك في الآخرة بالفضل لا بالعدل في الحسنات، وبالإحسان لا بالميزان في الأعمال الصالحات، فعن أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَاصُ الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا» [1]، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

القانون السادس: تعالج عقدة الخوف من الموت، بأن نذكر أنه آتٍ بغض النظر عن سببه، فلنحرص على أن يكون سببه أربح في التجارة وليكن التخطيط للمستقبل بعده أجود، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، فيُبَصِّرُنا هذا التذكير بكيفية المعالجة العقلية لعقدة الخوف من الموت؟ فالموت المكتوب سيأتيكم في المكان الذي أنتم فيه ولو كنتم في بروجٍ مشيدة، فالموت «بإزائكم أين كنتم، وواصلٌ إلى أنفسكم حيث كنتم، ولو تحصَّنتم منه بالحصون المنيعة» [2].

---

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٧) برقم ٤١.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٥٢).

وبما أن الموت لا بد منه فلنحرص على الإعداد الجيد والواعي لما بعده لتكون تجارتنا وتخطيطنا المستقبلي أكثر وعيًا، وأعظم ربحًا، والبروج هي القصور المحصنة المنيعة المرتفعة، وسميت بروجًا لظهورها وبروزها للناظرين، ومن ذلك بروج السماء في قوله تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ (الفرْقَان: ٦١)، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ (البُرُوجِ: ١)، فيُقَالُ: تَبَرَّجَتِ المَرْأَةُ، إِذَا أَظْهَرَتْ مَحَاسِنَهَا، ووصف هذه البروج بأنها مشيدة، ومُشَيَّدة كلمة لها بريقها في وصف البروج، فإما أن تكون من الشِّيد بالكسر، وهو المطلي بالجص، أو المِلاط وبالفتح المصدر. تقول: شاده يشيده شيدًا: جصصه. والمشيد: المعمول بالشِيدِ. والمُشَيَّدُ، بالتشديد: المُطَوَّلُ[1]، وشاده شَيدًا بالفتح، أي: أحكمه، فكل ما أُحْكِمَ من البناءِ، فقد شُيِّدَ، وتَشْييدُ البناء: إِحكامُه ورَفْعُه.

فانظر كيف جمعت هاتان الكلمتان: (بروج مشيدة) أوصافًا مدهشة تبرز معانيها من ورائها، فالبروج القصور والمنازل المحصنة الرفيعة، وهي مشيدة، أي: مطلية بالشِيد لتكون مشيَّدة، أي: محكمةً متراصةً من جهةٍ، ولتبدو مزينة مزخرفة من جهة أخرى، ولتكون مشيدة، أي: متطاولة، دلالة على رفاهية أصحابها، وعلى الرغم من أنك ترى الارتفاع الذي تنقطع الأنفاس في كلمة بروج إلا أن كلمة مشيدة في أحد معانيها أكسبتها ارتفاعًا جديدًا، فصارت مرتفعة ارتفاعًا مضاعفًا.

والمعنى: أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم مختبئين أو لاجئين أو مقيمين في بروجٍ عالية مرتفعة ارتفاعًا مضاعفًا تزينت للناظرين وأحكم بناؤها فلا يستطيع أحدٌ خرقَها أو كسرَها، أو زحزحتها.. لم ينقض سيل المعاني المدرار بعدُ، فلو تناولت

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٤٩٥)، وانظر: تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٥٤)، ويسند الطبري هنا عن السدي تفسيرًا فريدًا في معنى البروج، فهي عنده قصور بيض في سماء الدنيا، مبنية، كما ينقل عن بعض أهل البصرة أن «المشيدة» بالتثقيل الطويلة، وأما «المشِيدُ»، بالتخفيف، فإنه المزيَّن.

هذه العبارة كاملةً ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ لوجدت تكملةً للصورة؛ إذ تضيف لك معنى آخر عند النظر إلى الجمع في قوله ﴿بُرُوجٍ﴾؛ فتبصرك بمعنيين يستتران خلفها:

فإما أن يكون المعنى: هناك بروجٌ متعددة تحمي واحدًا أو مجموعةً، وإما أن تدل على برجٍ يحمي كل واحدٍ، وهي تفتح عينيك على الغرور الذي يغشى أعين الغافلين من بني الإنسان عندما يهرب الأغنياء والأقوياء منهم يريدون الخلود في الحياة الدنيا، فإما أن يختبئ الواحد أو المجموعة منهم خلف بروجٍ مشيدة، أي: أنه يحتمي ببرجٍ وراء برجٍ وراء برج، ومؤسسةٍ محليةٍ وراء مؤسسة إقليمية، وراء مؤسسةٍ دولية، ويلوذ بمؤسساته المخابراتية وراء مؤسساته المالية وراء مؤسساته العسكرية وراء مؤسساته المعلوماتية وراء مؤسساته التشريعية القضائية الدولية.. إنها حصونٌ متعددةٌ متنوعةٌ يحتمي بها تدفعه إلى الغرور وإلى الزور وراء الغرور.. أيظن أنه محميٌّ من الموت -بعد كل هذه الحمايات المتعددة-؟

وكذلك يدل الجمع في قوله جل ذكره ﴿بُرُوجٍ﴾ على جمعٍ من الأقوياء الأغنياء قد اختبأ كلٌّ منهم في برجه.. أفيظنون أن تعدد الأبراج تتعب ملك الموت أن يأتي كل واحدٍ منهم في مكمنه أو حصنه أو مأمنه.. فإن كانوا يتيقنون بالموت فما الذي يجعلهم يأبون المواجهة في موضعها؟ ما الذي يجعلهم لا يطبقون استراتيجية أخذ الحذر التي تقتضي الاشتباك في وقته المناسب؟ لأن ذلك يؤدي إلى الموت، فأينما يكونون يدركهم الموت ولو كانوا في بروجٍ مشيدة قد تنوعت إلى حمايات متعددة، وبما أن الموت لا بد منه فلينظر المرء أي الحياتين أبقى وأرقى وأصفى وأنقى، كما يقول المتنبي في قصيدته الراشدة التي يكاد يفصل فيها هذه الآية:

صَحِبَ النّاسُ قَبلَنا ذا الزّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِن شأنِهِ مَا عَنَانَا

وَتَـــوَلّـوْا بِـغُـــصّـةٍ كُـلّـهُـمْ مِـنْـ ـهُ وَإِنْ سَـــرّ بَـعْـضَـهُـمْ أَحْـيَـانَـا
رُبّـمَـا تُـحـسِـنُ الـصّـنـيـعَ لَـيَـالِـيـ ـهِ وَلَـكِـــنْ تُـكَـــدّرُ الإِحْـسَـانَـا
غَـيـرَ أنّ الـفَـتـى يُـلاقـي الـمَـنَـايَـا كـالِـحَـاتٍ، وَلا يُـلاقي الـهَـوَانَـا
وَلَـــو أنّ الـحَـيَـــاةَ تَـبْـقَـى لِـحَـيٍّ لَـعَـــدَدْنَـا أَضَـــلّـنَـا الـشّـجْـعَـانَـا
وَإذا لـم يَـكُـــنْ مِـنَ الـمَـــوْتِ بُـدّ فَمِنَ العَجْزِ أنْ تموت جَبَانَا[1]

وها هو خالد بن الوليد ﷺ يجسد هذا المعنى الذي غفل عنه الناس؛ إذ بكى لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، وَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا زَحْفًا، وَمَا فِي جَسَدِي شِبْرٌ إِلَّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ أَوْ طَعْنَةٌ بِرُمْحٍ ؛ فَهَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ العِيرُ؛ فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الجُبَنَاءِ، ولما دخل على عثمان جعل يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْمَعْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَرَى الموتَ لَا يُبقي عَزيزا وَلَـمْ يَدَعْ لِـعَـادٍ مـلاذًا فِـي الـبِـلَادِ ومَرْبَعـا

يُبَيِّتُ أهلُ الحِصْن والحصنُ مغلقٌ... وَيَأْتِي الجبالَ فِي شَماريخها مَعَا[2] وقد قيل من قبل: في أحد ملوك العراق بنى قصرًا سماه الحضر:

وأخـو الـحَـضْـرِ إذ بـنـاهُ وإِذْ دجلةُ تُـــجْـــبَـــى إلـيـــه والـــخـــابُـــورُ
شـــادَهُ مَـــرْمَـــرًا وجـلّـلـهُ كِـلْـسًـا فَـلِـلـطـيـرِ في ذُرَاهُ وُكُـــورُ
لـــمْ تهـبْـهُ ريـــبُ الـمـنـونِ فـبـادَ الـمـلـكُ عـنـهُ فـبـابُـهُ مـهـجُـورُ
أيـــن كـسـرى كـسـرى الـمـلـوك أنـوشـروان أمْ أيـن قـبـلـهُ شـابُـورُ
وبـنـوا الأصـفـرِ الـكـرامُ مـلـوكُ الـــرّومِ لـمْ يَـبْـقَ مـنـهـمُ مَـذْكُـورُ
أيـهـا الـشـامِـتُ الـمـعـيِّـرُ بـالـدّهْـرِ أأنـــت الـــمـــبرَّأُ الـمـوفُـورُ

(١) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لمصطفى سبتي (٢/ ٢٣٧) .
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١).

أمْ لـديـك الـعَـهْـدُ الـوثـيـقُ مـنَ الأيّـام بـلْ أنـتَ جـاهـلٌ مـغـرورُ
أم رأيـت الـمـنـون أبـقـيـن أمْ مـنْ ذا عليه مِـنْ أنْ يُـضَـامَ خَفِيرُ
ثـم بـعـد الـفـلاح والـخـير والأمّـة وارتهُـمُ هـنـاك الـقـبُـورُ
ثـم صـاروا كـأنهـم ورق جـفّ وألـوت بهـا الـصّـبـا والـدَّبُـورُ[1]

وهذا الوصف للبروج المشيدة يذكر بما يجتهد طواغيت الدنيا في تشييده ثم ما يلبثون إلا يسيرًا، فما هو إلا أن تمضي مدتهم، فيردون إلى الله مولاهم الحق، ويتركون ما شيدوه وراء ظهورهم، فما أغنت عنهم بروجهم وعروشهم شيئًا، وإذا كان الأمر كذلك: فما الفرق بين الموت عند المواجهة والموت في البروج المشيدة؟

فـ «لا تجزعوا من الموت، ولا تهربوا من القتال، وتضعفوا عن لقاء عدوكم، حذرًا على أنفسكم من القتل والموت»[2]، وكأن المتنبي التقط ذلك فقال:

إذا غـامَـرْتَ فـي شَـرَفٍ مَـرُومِ فَـلا تَـقـنَـعْ بـمـا دونَ الـنّـجـومِ
فـطَـعْـمُ الـمَـوْتِ في أمْـرٍ حَـقِـيرٍ كـطَـعْـمِ الـمَـوْتِ في أمْـرٍ عَـظيمِ
يـرَى الـجُـبَـنـاءُ أنّ الـعَـجـزَ عَـقْـلٌ وتِـلـكَ خَـديـعَـةُ الـطّـبـعِ اللّئيمِ
وكـلّ شَـجـاعَـةٍ في الـمَـرْءِ تُغني ولا مِثلَ الشّجاعَةِ في الحَكيمِ[3]

ولأهمية هذه الحقيقة وكثرة غفلة المخططين لمستقبلهم عنها ترى القرآن مليئًا بتكرار هذه الحقيقة التي تضعف النفس عن تذكرها واستيعابها.. أليس الله يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرَّحْمَنِ: ٢٦، ٢٧) ويقول جل ذكره ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥) ويقول تَعَالَى شأنه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

(١) البدء والتاريخ (٣/ ٢٠١).
(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٥١).
(٣) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لمصطفى سبتي (١/ ٢٧٣).

لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ (الأَنْبِيَاءِ: ٣٤) ويقول جل مجده: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأَحْزَابِ: ١٦).

وحكماء العرب في الجاهلية قبل الإسلام تمتعوا بأنفةٍ لا تراها في مسلمي اليوم وهم يزعمون أنهم مسلمون فها هو زهير يقول:

وَمَـن خَـاف أسـبـابَ المَنيّة يَلْقَهَا وَلَـوْ رَامَ أسـبـابَ السَّـمَـاءِ بسُلَّم[1]

وها هو عمرو بن كلثوم من أعظم شجعان العرب يردد:

وإنا سوف تـدركنا المنـايا مقـدرة لنـا ومقدرينا[2]

وقال طرفة بن العبد:

أَلا أَيُّـهـذَا الّلائمِي أَحْـضُـرُ الـوَغَى وَأَنْ أَشْهَدَ الّلذَّاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي؟

فـإن كُـنْـتَ لاَ تَسْطِيعُ دَفْـعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أُبَـادِرْهَا بِمَا مَـلَكَتْ يَـدِي[3]

القانون السابع: تغير الحوادث الدنيوية بين السيئة والحسنة لا يعني الشك في المنهج الذي تأمر به القيادة النبوية سواء أكان كفًّا لليد أم مواجهة للرد والصد، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾، فالنظر الصحيح في أحداث العالم يُبَصِّرُنا به قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فيجب اتباع المنهج بغض النظر عن الآثار المترتبة، وعدم الجمع بين القدر والسبب يدل على ضعف فهم ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

قد تأمر القيادة النبوية بكف اليد، وقد تأمر بالمواجهة، وحينها يشعر بعض الموجودين بأن كف اليد حسنة، والمواجهة سيئة، وربما ترى أنه ترتب ما يحسن حدوثه

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، (ص: ٧٠).

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق إيميل يعقوب، (ص: ٦٦).

(٣) ديوان طرفة بن العبد، (ص: ٣٣).

على أحد الأمرين، وترتب ما يسوء حدوثه على الآخر، وعندها يضطرب بعضهم في الحكم على الأحداث، فينسبون الحسنة إلى الله، وينسبون السيئة إلى القيادة النبوية، أو إلى القيادة المستنبطة، وقد يكون هؤلاء مؤمنين، وقد يكونون مرضى قلوب.. قد يكونون منافقين؛ وهنا تبصرنا الآية بالخلل العام الذي يعتري هؤلاء القوم في تفكيرهم، وتعالج عقدةَ الاضطراب العقلي والنفسي عند هؤلاء الخائفين المترددين المؤثرين للسلامة، فهذه العقدة نبعت من عبادتهم لله على حرفٍ وهم لا يشعرون، حيث يرفعون عقيرتهم بشكر الله حال نزول الحسنة من الرزق والغيث والفرج والتوفيق، ولكنهم ينسبون كل هزيمة إلى وجود الذين يأمرون بالقسط من الناس، وربما نسبوا لهم السيئات، وزعموا أن وقوع المصائب كان بسبب استعجال الصالحين والمدافعين عن حقوق المستضعفين ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾، والحسنة والسيئة في القرآن يطلقان: إما على الأعمال الصالحة والسيئة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هُودٍ: ١١٤)، وإما على ما يجد الإنسان من خير أو شر ضمن الأقدار الكونية: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأَعْرَافِ: ١٦٨)

ويظهر أن المراد بالحسنة هنا: الحادثة الملائمة مثل المنفعة وكثرة الرزق، ورغد العيش، ونجابة الأولاد، وأمن المكان، وكل خير وبركة ورخاء اقتصادي، ونعيم، ومن ذلك الانتصار في المعارك الحيوية السياسية والعسكرية، ويراد بالسيئة الحادثة البغيضة مثل: المكروه والمصيبة، والهزيمة والبلاء في المواجهات العسكرية أو السياسية، فيخلطون بين نقد إدارة الصالحين للأمور، وبين عدم النظر في أمور القضاء والقدر، ويدخل تبعًا في الحسنة الطاعة، وفي السيئة المعصية.

فالمؤمن ينظر إليها من حيث التسبب فيرى أن له دورًا في ذلك، لكنه أيضًا

ينظر لها من حيث الخلق والصنع الأصلي فيعلم أنها من عند الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ وبذا يتم معالجة النقص الحاد لفهم الأمور الدقيقة، فالفقه فهم الأخفى من الكلام: بـ«التَّوَصُّل إِلَى عِلْمٍ غَائِبٍ بِعِلْمٍ شَاهِدٍ» كما قَالَ الرَّاغِبُ، وترى هنا أنه جل في علاه ذمهم ذمًا شديدًا على بلادة عقولهم، ولم يصفهم بأنهم لا يفقهون حديثًا، بل لا يكادون يفقهون حديثًا، وهذا التعبير يكتنز إظهار صنفين منهم ليعلمنا أن نتعامل مع كل صنفٍ على حدة:

فيحتمل أن هذا التعبير يدل على سوء تفكيرهم حتى أنهم يكادون ألا يفقهوا حديثًا، وهذا أشد ذمًا من أن يقال: لا يفقهون حديثًا والمعنى لا يقربون أن يفقهوا حديثًا، وتكون كلمة ﴿لَا﴾ مقدمة، وهذا صنفٌ من الناس أعماه العناد عن أن يفقه الواضح من الرأي أو الإرشاد، ويحتمل أن يكون معنى قوله جل جلاله: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ قربوا ألا يفقهوا لكنهم فقهوا أخيرًا، وهذا صنفٌ ثانٍ يعاندون فتعمى عقولهم عن رؤية الأحداث، ومع الصبر يظهر لهم وجه الحق.

فما الذي لا يكادون يفقهونه في سياق الآيات؟

إنه قضية القدر!

أي: ما لهم لا يدركون كيف يجمعون بين حقيقة ملك الله للكون وبين حرية التصرف الإنساني، فالإرادة الإلهية تدير الكون، وكما أن لله الخلق للمخلوقات فله الأمر الذي يدير حركتهن، والأمر واضحٌ جدًا، وهم لا يكادون يفقهون هذا الموضوع ولا يكادون يفقهون حديثًا أي حديثٍ كان يخاطبهم به غيرهم، والجمع بين خلق الله للكون وبين الحرية الإنسانية في العمل واضحٌ.. أفيتعامون عنه؟

فالله خلق الكون، وخلق سننه العامة التي تسيره، وجعل الكواكب والمجرات

والذرات في فلك يسبحون، وخلق الأسباب، وجعل لها تأثيرًا، وداول بين السراء والضراء في حياة المخلوقات، وفي الوقت ذاته خلق الإنسان وهداه السبيل ليختار إما شاكرًا وإما كفورًا، ورتب على اختياره النتائج المستحقة، فإن جاءت النتائج حسنةً أو سيئة فكل من عند الله الذي رتب على الاختيار النتائج المستقرة غير المتغيرة، فالحسنة والسيئة كل من عند الله، والذي لا يفقه الحديث جاهل لا يستحق التصدر للكلام؛ إذ لا يحسن فهم الأمور.. فما لهذا الاعوجاج في تصوير الأحداث، دون الرجوع إلى المبادئ الإيمانية العقدية الراسخة في تفسير أحداث الكون؟ ما لهم لا يفقهون أن الله يقلب حالات الضراء والسراء على المجتمعات؟ ما لهم لا يفقهون فيجعلون التفسير المادي المحض الذي يعتمده السياسيون هو المسيطر؟.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هل يمكن أن تأتي سيئة من الله؟

كلا! بل المراد أنها سيئة بالنسبة لتفكيركم ونظركم، فالخير كله من الله، وتأمل في المسألة أكثر، واضرب لهم مثلًا بطالب مهمل نال جزاءه العادل فرسب في الامتحان.. إنه يظن أن هذه سيئةٌ أصابته.. نعم! فالإخفاق سيئة لكنها سيئة بالنسبة له، غير أنها حسنةٌ بالنسبة للعالم.. إن المعلم الأمين الذي حكم على الطالب بالرسوب حرس العالمَ من أن يفعلوا مثل هذا الطالب أو أن تمسهم جرائمه لو نجح دون استحقاق حتى صار من صانعي القرار.. ويسهل عليك أن تتصور مقدار الجريمة عندما يدخل بعض الطلبة الفاشلين كلية الطب مع أنهم لا يستحقون الدخول؛ إذ مستواهم العقلي والعملي لا يؤهلهم لذلك.. كيف سيصنعون بالمجتمع لو صارت أبدان الناس بين أيديهم يومًا؟

ثم إنها سيئة بالنسبة له في تلك اللحظة، فلو أنها أيقظت قلبه، وحركت مشاعره،

وجعلته يعود طلبًا لتحقيق الفوز والانتصار عبر المثابرة وبذل الجهد في الليل والنهار لكانت حسنة تامة في حقيقتها.

القانون الثامن: الجمع بين القدر والسبب يظهر سر التقلبات الكونية والعلاقة بين الخلق الإلهي والاختيار الإنساني، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، فالحسنات من عند الله خلقًا، وإنشاء، واستمرارًا، ولكن انقلاب الحسنة سيئة يكون من نفس الإنسان تسببًا، ومن الله عقوبة، فلا يناقض هذا قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

فإن الله أراد بالعالم الرحمة، فأنشأ له كل حسنة.. يراها الإنسان خيرًا في الصحة والنفس والمال والحال وغير ذلك، وذلك من الله، وإلا قل لي: من أين جاءك هذا الخلق المستقيم، وهذا الهواء العظيم الذي تحتاجه مع كل نفس؟.. بأي استحقاق حصلت على هذا الجسد القويم، والأرض المسخرة؟

أما إن رأى الإنسان سوءًا طارئًا فهو بسبب ذنوبه التي اقترفتها نفسه، فاستمرار الحسنة بلطف الله وفضله، وانقلاب الحسنة سيئة سببه تلاعب النفوس البشرية، وبذا نفهم معنى ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، فوجود الابتلاء القدري المحض بالسراء والضراء لا يعني عدم النظر إلى الأسباب؛ فإن الضراء لا تصيب الإنسان إلا بسبب شيءٍ من عند نفسه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

ولا تناقض بين قوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وقوله ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾؛ إذ الآية الأولى تذكر أن الحسنة من الله إيجادًا وفضلًا واستمرارًا، وهي الأصل والسيئة تأتي لعمل الإنسان بالشر في الحسنة فتنقلب الحسنة إلى ضدها،

وذلك من نفس الإنسان تسببًا، وإلا فهي من الله عقوبة.

ولا تقع السيئة والشر إلا بسوء استعماله للخير كما بين النبي ﷺ ذلك بيانًا وافيًا، فعن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رضي الله عنه، يُحَدِّثُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى المِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَقَالَ: «إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ تُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَلاَ يُكَلِّمُكَ؟ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ، فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ، فَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لاَ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ، أَوْ يُلِمُّ، إِلاَّ آكِلَةَ الخَضْرَاءِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ وَرَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ وَاليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ، وَلاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

«فَاللَّهُ قَدَّرَ المَنَافِعَ وَالمَضَارَّ بِعِلْمِهِ وَقَدَرِهِ وَخَلَقَ مُؤَثِّرَاتِهَا وَأَسْبَابَهَا، فَهَذَا الجُزْءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لِقَوْلِهِ: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»(٢).

والله خلق المخلوقات برحمته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: ٢، ٣)، ودفع عنها الآلام، وجهز لها الأجهزة التي تدفع عنها الأسقام، وتمكنها من الالتذاذ بكل ما حولها، فهذا كله من عند الله، ثم إن الأمر السيء يأتي المكلف بفقدان إحدى الحسنات التي قدرها الله له لأحد سببين لا ثالث لهما: إما ابتلاء وإما عقوبة، فهذا معنى ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فإن فعل سبب السيئة منعه الله من استمرار

(١) البخاري (٢ / ١٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٣١).

أحد الحسنات أو كلها فتكون السيئة عند ذلك من الله، كما قال قتادة: «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك»، عقوبة، يا ابن آدم بذنبك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب رجلا خَدْش عود، ولا عَثرة قدم، ولا اختلاج عِرْق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» (١)، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ أَذًى، وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (٢)، وعَنْ مُطَرِّف بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: مَا تُرِيدُونَ مِنَ القَدَرِ، أَمَا تَكْفِيكُمُ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أَيْ: مِنْ نَفْسِكَ، وَاللَّهِ مَا وُكِلُوا إِلَى القَدَرِ وَقَدْ أُمِروا وَإِلَيْهِ يَصِيرُونَ (٣).

وقد قال -تعالى مجدُه-: ﴿قُلْ إِنِ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ (سبأ: ٥٠)، فـ«لا تعلق للقدرية بهذه الآية، لأن الحسنة والسيئة المذكورتين ههنا لا ترجعان إلى الطاعة والمعصية، واكتساب العباد بحال، لأن الحسنة التي يراد بها الخير والطاعة لا يقال فيها: أصابتني. إنما يقال: أصبتها. وليس في كلام العرب: أصابت فلانا حسنة، على معنى: عمل خيرا، وكذلك: أصابته سيئة، على معنى: عمل معصية، غير موجود في كلامهم، إنما يقولون: أصاب سيئة إذا عملها واكتسبها» (٤).

«قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الجُبَّائِيُّ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ لَفْظَ السَّيِّئَةِ تَارَةً يَقَعُ عَلَى البَلِيَّةِ وَالمِحْنَةِ، وَتَارَةً يَقَعُ عَلَى الذَّنْبِ وَالمَعْصِيَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَضَافَ السَّيِّئَةَ إِلَى نَفْسِهِ فِي الآيَةِ الأُولَى بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨) وَأَضَافَهَا فِي هَذِهِ الآيَةِ إِلَى العَبْدِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٥٨).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧/ ١٤٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٣).

(٤) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٨٤).

أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فَلَا بُدَّ مِنَ التَّوْفِيقِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وَإِزَالَةِ التَّنَاقُضِ عَنْهُمَا، وَلَمَّا كَانَتِ السَّيِّئَةُ بِمَعْنَى البَلَاءِ وَالشِّدَّةِ مُضَافَةً إِلَى اللَّه وَجَبَ أَنْ تَكُونَ السَّيِّئَةُ بِمَعْنَى المَعْصِيَةِ مُضَافَةً إِلَى العَبْدِ حَتَّى يَزُولَ التَّنَاقُضُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ المُتَجَاوِرَتَيْنِ، قَالَ: وَقَدْ حَمَلَ المُخَالِفُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى تَغْيِيرِ الآيَةِ وقرءوا: (فَمِنْ تَعْسِكَ) فَغَيَّرُوا القُرْآنَ وَسَلَكُوا مِثْلَ طَرِيقَةِ الرَّافِضَةِ مِنَ ادِّعَاءِ التَّغْيِيرِ فِي القُرْآنِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَاذَا فَصَلَ تَعَالَى بَيْنَ الحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ فِي هَذِهِ الآيَةِ فَأَضَافَ الحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ الطَّاعَةُ إِلَى نَفْسِهِ دُونَ السَّيِّئَةِ وَكِلَاهُمَا فِعْلُ العَبْدِ عِنْدَكُمْ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ الحَسَنَةَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فِعْلِ العَبْدِ فَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْهَا بِتَسْهِيلِهِ تَعَالَى وَأَلْطَافِهِ فَصَحَّتِ الإِضَافَةُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا السَّيِّئَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ فِعْلِ العَبْدِ فَهِيَ غَيْرُ مُضَافَةٍ إِلَى اللَّه تَعَالَى لَا بِأَنَّهُ تَعَالَى فَعَلَهَا ، بل أرادها الله بمقتضى إرادتها الكونية لا الشرعية وإلا فإن مآل القول بذاك أن العبد قد يفعل ويحدث ما لا يريده الله تقديرا وأزلا، وَلَا بِأَنَّهُ أَمَرَ بِهَا، وَلَا بِأَنَّهُ رَغِبَ فِيهَا، فَلَا جَرَمَ انْقَطَعَتْ إِضَافَةُ هَذِهِ السَّيِّئَةِ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ إِلَى اللَّه تَعَالَى»[1].

ويدخل في الصور الواردة في الآية ما ورد عَنْ جَابِرٍ، رضي الله عنه، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فَبَايَعَهُ عَلَى الإِسْلاَمِ فَجَاءَ مِنَ الغَدِ مَحْمُومًا فَقَالَ أَقِلْنِي فَأَبَى ثَلاَثَ مِرَارٍ فَقَالَ المَدِينَةُ كَالكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا[2].

القانون التاسع: دور الرسول ﷺ تبليغ الرسالة، ولا يملك الرسول تغيير الحوادث، بل ذلك إلى الله الذي وضع أنظمتهن وسننهن، وصار شاهدًا على الرسول المبلغ، وعلى رد فعل المبلَّغ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٤٧).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣/ ٢٩).

شَهِيدًا ﴾ (النساء:٧٩) ويرتبط بالتغيرات الكونية أن نتذكر طبيعة الوظيفة النبوية، فدور الرسول تبليغ الرسالة، أما تغير حوادث الكون فلا يعود إلى الرسول، بل إلى الله الذي وضع أنظمتهن وسننهن، وصار شاهدًا على الرسول المبلغ، وعلى رد فعل المبلَّغ ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (النساء:٧٩).

فالنبي ﷺ مرسل إلى الناس ليكون مبلغًا، ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ يسمعون منك كلام من بالرسالة حباك فأعلاك، يرتشفون الشهد من سناك، ويهتدون بهداك ويتبعون خطاك، وتنعكس عليهم أنوار النبوة عند مرآك، ويظهر على أخلاقهم ما رأوه في سنتك من تقاك، ويبين الطاهر ﷺ هنا أن المُرَاد بِالرَّسُولِ مَعْنَاهُ الشَّرْعِيُّ المَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ الأَدْيَانِ: وَهُوَ النَّبِيءُ المُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ لفظ لقبي دَالٌّ عَلَى هَذَا المَعْنَى، وَلَيْسَ المُرَادُ بِهِ اسْمَ المَفْعُولِ بِالمَعْنَى اللُّغَوِيِّ»[1]، فكأن الله يقول له: أرسلناك للناس رسولًا ولم نرسلك لتؤثر في إيجاد حوادث أو إعدامها، ولا تدل الحوادث المفرحة على صدق الرسالة، ولا الحوادث المؤلمة على عدم صدقها، ووجه الخطاب للنبي ﷺ كأنه يقول له: يكفي أن تتيقن أنت برسالتك أمام شبهاتهم وحسبك شهادة ربك أمام كفرهم.



(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٤).

القسم الرابع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقًا، والاستنباط من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي (النساء: ٨٠-٨٧)

آيات هذا القسم:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا ٨٥ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ (النساء: ٨٠-٨٧).

المناسبة والاتصال:

بين الله في القسم الثالث أن من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي،

والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، ولكن السلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي، وهنا يبين مجموعة من قوانين سياسة (توازن الردع)، وهي سياسةٌ تحقق الأمن الداخلي والسلام والخارجي، تبدأ بإظهار الصلابة الإيمانية الفكرية من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقًا، والاستنباط من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي، فطاعة القيادة النبوية ﷺ من أهم مبادئ الأمن الفردي والجماعي، وهي ركيزة حقيقية في إحلال السلام العالمي، تجعل المخربين في الداخل والعدو في الخارج يخافون أن يعملوا ضد أمن المجتمع بالتخريب الفكري أو العملي، فيفصل الله -تعالى مجدُه- في هذا القسم موضوع طاعة القيادة النبوية، ويذكر حال العناصر المخربة على الناس عندما يموهون تلاعبهم بادعاء الطاعة والاتباع، وكيف ينشرون الشائعات في مجالي الأمن أو الخوف لزعزعة الاستقرار، ويحاولون إيقاع بعض الصالحين في شباكهم، ويبين كيفية التعامل معهم، كما يذكر مجموعة من القوانين الاستراتيجية التي توصل إلى حالة توازن الردع لتحقق تبادل التحية مع الأطراف المختلفة، وبذا ينشأ الاستقرار، ويُصاغُ ذلك على هيئة قوانين تعين على ضبط الأحوال، وهذه القوانين هي الآتية:

القانون الأول: طاعة القيادة النبوية من أهم أركان الأمن الداخلي والسلام الخارجي، ولا تصح دعوى الإيمان بالقرآن دون الإيمان بفهم النبي ﷺ وتطبيقه له، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).

تبصرنا هذه الجملة بالارتباط الشديد بين طاعته جل شأنه وطاعة رسوله ﷺ؛ فالله يطاع لذاته فهو رب العالمين، والرسول ﷺ يطاع لأنه المبلغ عنه، وقد قرر الله تعالى جده ذلك فيما سبق من قوانين الآيات، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ (النساء: ٦٤).

فما الطاعة؟

الطاعة إجابة إلى مطلوب باللسان أو ما يقوم مقامه بتنفيذ ما يقول فعلًا أو تركًا.. والتعبير القرآني عن طاعة الرسول يأتي على ثلاثة أنحاء:

النحو الأول:

أن يتم التعبير عن طاعة الله ورسوله بتوحيد فعل الطاعة مثل قوله -تعالى مجدُه-: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢)، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٢)، وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢٠)، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وهنا يكون الأمر كله من الله إجمالًا وتفصيلًا، والرسول مبلغ عن ربه في ذلك.. كذا قيل، وأظن للسياق أثرًا في بيان سر هذه الصياغة.

النحو الثاني:

تكرار الأمر بالطاعة مثل قوله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء: ٥٩)، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ (المائدة: ٩٢)، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ (النور: ٥٤)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ (محمد: ٣٣)، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (التغابن: ١٢).

وهنا يكون الأمر مجملًا من الله كالصلاة، ويفصله النبي ﷺ.

النحو الثالث:

أن يفرد الرسول بذكر وجوب طاعته مثل قوله تعالى ذكره: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، ومثل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر: ٧)، وهنا يكون الأمر مجملًا ومفصلًا من النبي ﷺ إما بتوقيف من الله، والنبي ﷺ عبر عن ذلك بكلامه، وإما بتوفيقٍ منه، فقد فوض الله رسوله ﷺ ليجتهد في الصياغة أو ليجتهد في المعنى والصياغة،

ومثال ذلك: النصوص الدستورية حاكمة على كل القوانين، ولكنك تجد نصًا دستوريًا يعطي تفويضًا بتشكيل لجان لوضع قوانين تفصيلية، أو تكتب المذكرات التفسيرية لهذه القوانين، وهذا حال النبي ﷺ المبلغ عن الله جل جلاله، وهذا كله يدفعك إلى أن تبحث في كل جزئية في حياة النبي ﷺ، وتبذل الجهود العظيمة للتأكد من صدورها عنه أي التأكد من صحتها، ولا تقنع بمجرد هوى عارض منك أو من غيرك في قبولها أو ردها.

ثم إنك ترى قومًا من قومنا يصرون على الرد للسنة بمحض الرأي والصد عن الرسول لعارض هوى يزعمون بذلك إن أرادوا إلا إحسانًا إلى الأمة والإسلام وتوفيقًا للقرآن مع معترك الأيام فما أرادوا بذلك على المدى البعيد إلا العبث بالقرآن، وإثبات آرائهم وأهوائهم ونسبتها إلى كتاب ربهم، وهنا يأتي التحذير النبوي الذي أرسله النبي ﷺ معجزة خبرية تتجاوز الدهور، وتعبر العصور، وهو الذي رواه المِقْدَام بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا القُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ

أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ» (١).

وهذه الآية تبين أهم أسس الأمن القومي بعد كتاب الله تعالى ذكره، وذلك يعني أن تجعل الأمة للسنة النبوية المكانة الأسمى، وتحذر أشد الحذر ممن يطعن فيها أو في حملتها ونقلتها وهم الصحابة الكرام ﷺ.. قد يقول قائل: هل الصحابة معصومون من الخطأ؟ نقول: لا ولكن الله قال في القرآن عنهم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، فالله سبحانه وتعالى لم يبين عصمة تتعلق بهم، ولكنه بين رضاه عنهم من خلال غلبة حسناتهم الزاخرة الكثيرة على أخطائهم إن وقعوا فيها، ويكفي أن نفهم من الآية أن طاعة الرسول تعني أن السنة هي المفسرة للقرآن..

وهنا ترى الاتصال القرآني في أوج صوره، وترى تكامل المفاهيم في الشريعة الإسلامية في أبهى أشكالها، فهذه الآية «كَالتَّكْمِلَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ (النِّسَاء: ٧٩) بِاعْتِبَارِ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ رَدِّ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الرَّسُولَ مَصْدَرُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تُصِيبُهُمْ، ثُمَّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النِّسَاء: ٧٩) إِلَخْ، المُؤْذِنُ بِأَنَّ بَيْنَ الخَالِقِ وَبَيْنَ المَخْلُوقِ فَرْقًا فِي التَّأْثِيرِ وَأَنَّ الرِّسَالَةَ مَعْنًى آخَرَ فَاحْتَرَسَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ عَنْ تَوَهُّمِ السَّامِعِينَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي أُمُورِ التَّشْرِيعِ، فَأَثْبَتَ أَنَّ الرَّسُولَ فِي تَبْلِيغِهِ إِنَّمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ، فَأَمْرُهُ أَمْرُ اللَّهِ، وَنَهْيُهُ نَهْيُ اللَّهِ، وَطَاعَتُهُ طَاعَةُ اللَّهِ» (٢).

والمراد أنه لا بد من اتباع سنة رسول الله ﷺ في جميع الأمور التعبدية والعقدية

(١) أبو داود (٤ / ٣٢٨) برقم ٤٦٠٦، وصححه الألباني، ورواه أحمد بن حنبل (٤ / ١٣٠) برقم ١٧٢١٣، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عروف الجرشي فمن رجال أبي داود والنسائي وهو ثقة.

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٥).

والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وقد لخص السيوطي معنى السنة بقوله:

قَوْلُ النَّبِي وَالفِعْلُ وَالتَّقْرِيْرُ سُنَّتُهُ وَهَمُّهُ المَذْكُوْرُ

ومن فوائد مجيء هذه الآية بعد السابق: الرد على من يكتفي في الاستدلال بالقرآن دون البحث في تفسير النبي ﷺ القولي والعملي له.

وينقل النبي ﷺ هذه الحقيقة القرآنية وهو يربي أمته فيقول: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»[1]. والتقييد بالأمير الذي أمره النبي ﷺ واضح، فقوله (أميري) يراد به من أمره النبي ﷺ أو من نال الإمرة وفق المبادئ النبوية حيازة للمنصب، وقيامًا بمقتضياته، فليس كل عابث فاسق اغتصب الإمرة ينزل عليه هذا الحديث، فالأمير المشار إليه أي على مختلف الزمان والمكان الذي التزم بالإمرة من خلال ما شرعته في كيفية التأمر والتزم بما أمره به النبي ﷺ، وليس في كل أمير أمر نفسه، وقَوْلُهُ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ مِنْ أَقْوَى الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِي جَمِيعِ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَفِي كُلِّ مَا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللَّه، لِأَنَّهُ لَوْ أَخْطَأَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لَمْ تَكُنْ طَاعَتُهُ طَاعَةَ اللَّه وَأَيْضًا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِمُتَابَعَتِهِ فِي قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وَالمُتَابَعَةُ عِبَارَةٌ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِ فِعْلِ الغَيْرِ لِأَجْلِ أَنَّهُ فِعْلُ ذَلِكَ الغَيْرِ، ففعل النبي ﷺ إما أن يكون توقيفيًا أو توفيقيًا فَكَانَ الآتِي بِمِثْلِ ذَلِكَ الفِعْلِ مُطِيعًا للَّه فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ فَثَبَتَ أَنَّ الِانْقِيَادَ لَهُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَفِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ، إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ، طَاعَةٌ للَّه وَانْقِيَادٌ لِحُكْمِ اللَّه»[2]، وهنا لا بد أن نميز بين ما يصدر عن النبي ﷺ من الأقوال والأفعال:

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٧٧).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ١٤٩).

النوع الأول: تصرفات تشريعية: وهي ما صدر عن رسول الله ﷺ مما هو للاتباع والاقتداء. وهي إما أن تكون:

تصرفاتٍ للتشريع العام: وهي تتوجه إلى جميع الأمة إلى يوم القيامة. وتكون بالتبليغ، أو بالفتيا.

وإما أن تكون تصرفاتٍ للتشريع الخاص: وهي مرتبطة بزمان أو مكان أو أحوال أو أفراد معينين، ولا تتوجه إلى الأمة كافة، وسماها بعض العلماء التصرفات الجزئية أو الخطاب الجزئي. ويندرج تحتها التصرفات بالقضاء، والتصرفات بالإمامة، والتصرفات الخاصة.

فمعظم ما يبلغه الرسول بقوله وفعله إما أن يكون توقيفيًا وإما أن يكون توفيقيًا، وكلاهما تبليغ عن الله باعتباره ﷺ رسولًا؛ فالوحي لا يقره على اجتهادٍ ربما كان الأصوب في غيره، وبذا وجبت طاعته في الأمرين معًا من حيث إنه رسول، ويحدث الله عنه قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الأنعام: ٥٠)، بل عد السَّرَخْسِي الحنفي ذلك جزءًا من البيان القرآني فقال: «وَقد كَانَ رَسُول الله ﷺ مَأْمُورا بِالبَيَانِ للنَّاس قَالَ تَعَالَى ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ وَقد علمنَا أَنه بَين للْكُلّ، وَمن وَقع لَهُ العلم ببيانه أقرّ، وَمن لم يَقع لَهُ العلم أصر»، ويبين لنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ذلك فيقول: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: أنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق» [1]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا

(١) أحمد (٢ / ١٦٢)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير الوليد بن عبدالله.

رسول الله إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقًّا» (١).

النوع الثاني: تصرفات غير تشريعية: وهي تصرفات لا يقصد بها الاقتداء والاتباع، لا من عموم الأمة، ولا من خصوصهم، مثل التصرفات الجبلية، والتصرفات العادية، والتصرفات الدنيوية التي لا تظهر قرينة على الاقتداء بها، والتصرفات الخاصة بالنبي ﷺ، ويدخل في التصرفات غير التشريعية ما يقوله النبي ﷺ من أمور الدنيا التي تعتمد على التجربة والخبرة ومن أبرز الأدلة التي تبين بناء المنهج التجريبي في عهد النبي ﷺ ما جاء عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلاَءِ». فَقَالُوا يُلَقِّحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنْثَى فَيَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِى ذَلِكَ شَيْئًا». فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فإني إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلاَ تؤاخذوني بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فإني لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ» (٢).

وعن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ: قَدِمَ نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ يَقُولُونَ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ». قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا». فَتَرَكُوهُ فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَىْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَىْءٍ مِنْ رَأْيٍ؛ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» (٣).. وتصريح هاتين الروايتين بأن نهيه ﷺ قائم على الظن يظهر شذوذ الجزم الوارد في رواية

(١) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر (٤ / ٣٥٧)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) صحيح مسلم (٧ / ٩٥) برقم ٢٣٦١.

(٣) صحيح مسلم (٧ / ٩٥)، برقم ٢٣٦٢.

حَمَّاد بْن سَلَمَةَ عَنْ هِشَام بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ». قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا. فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟». قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» (١).

فالمراد بوضوح ما يرجع إلى اكتشاف السنن وفق المنهج التجريبي لا أن الدنيا منفصلة عن الدين، فهو كلام عن الدنيا بالمعنى الخاص الذي طلب فيه السير في الأرض والاكتشاف، وقريب من هذا الحديث حديث أبي قتادة بحديث طويل في نومهم عن صلاة الفجر وفيه: « فقال بعضهم لبعض: فرطنا في صلاتنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون؟ إن كان شيء من أمر دنياكم فشأنكم به، وإن كان شيء من أمر دينكم فإلَيَّ»، قلنا: يا رسول الله، فرطنا في صلاتنا. فقال: «إنه لا تفريط في النوم وإنما التفريط في اليقظة، وإذا سها أحدكم عن صلاته فليصلها حين يذكرها» (٢).

القانون الثاني: للإنسان حرية الاختيار لطاعة الرسول ﷺ إن كان كافرًا، وأما إن كان مسلمًا فإن عدم طاعة الرسول يناقض الإيمان، فليتذكر التبعات الأخروية الرهيبة إن اختار عدم طاعة الرسول ﷺ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (النساء: ٨٠)، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ يعني: انصرف-، ولم يستقم على الطاعة النبوية، فلا يصيبك الحزن منه، أو عليه؛ فلست عليهم بمسيطر، ولا إكراه في الدين؛ إذ لم ترسل حفيظًا عليهم، أي: فلست مسؤولًا عن توليهم، ولا مطالبًا بمحاسبتهم.

التولي يعني الانصراف والإدبار، ويطلق على النقض وعدم الاستقامة، وهذه الجملة تبصرنا بأن قانون طاعة الرسول ﷺ قانون أساسي في استراتيجية أخذ

(١) صحيح مسلم (٧/ ٩٥)، برقم ٢٣٦٣ .

(٢) ابن خزيمة، (١/ ٢١٣) برقم ٤١٠ .

الحذر فمن تولى عنه فلا يصيبك الحزن منه أو عليه؛ فلست عليهم بمسيطر، ولا إكراه في الدين، إذ لم ترسل حفيظًا عليهم، وهذه البصيرة محكمة، فلم تُنسخ بآيات الجهاد ولا غيرها، ومعناها متكرر في القرآن الكريم.

والآن لاحظ أن الله جل شأنه وصف نفسه بأنه (حفيظ) ولم يقل (رقيب) فما سبب ذلك؟

﴿حَفِيظٌ﴾ على وزن فعيل، بمعنى فاعل، أي: حافظ، وهو الحارس الأمين الحافظ، وإذا كان كذلك فهو سيمنعهم من الوقوع في الخطأ قهرًا؛ إذ هو حارس عليهم ولكن الله منحهم حرية الإرادة، ومشيئة الاختيار، ويترتب على ذلك أنك لست الذي تحفظهم أو تحفظ عليهم خواطرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وأفكارهم، ولست عليهم حفيظًا في إجبارهم على الإسلام، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) فمهمتك البلاغ وليس الإلزام بالدخول في الطاعة والإسلام، وقال تعالى ذكره ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠) فما أرسلناك للناس جبارًا ولا عليهم مسيطرًا، فلست تجبر الناس على الإسلام، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥)، وفي حال أسلم أحدهم، فلست حفيظًا عليهم، أي: في مشاعرهم وخواطرهم، وإنما أنت مذكر لهم، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢) فأنت تذكرهم ولست عليهم حفيظًا ولكنك تراقب أعمالهم وتصرفاتهم الظاهرة العلنية ليتم التواصي بالحق والتواصي بالصبر، فالرقابة تؤدي إلى التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

ونجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ...﴾

(المائدة:٤٩) وأمثالها من الآيات بأن الواجب على الرسول البلاغ، ثم الحكم بين المؤمنين بمقتضى إيمانهم، أما مع العالمين، فيجب عليه البلاغ فقط، فالمراد عدم الإلزام بأصل الإيمان، بينما يجب الحكم بين المؤمنين وفق مقتضيات الإيمان.

أما حديث الدنيا فالمراد ما قاله النبي ﷺ على سبيل الظن مما يخضع للمنهج التجريبي، ولم يأت على سبيل الأمر الشرعي؛ إذ مرده إلى الخبرة والتجرِبة الإنسانية؛ ألا ترى أن النووي في شرحه على صحيح مسلم بوب لهذا الحديث، فقال: «باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي»[١].

وأما ما ذكرناه من أن قوله تعالى ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (النساء: ٨٠) يجمع تخييرًا وتهديدًا رهيبًا من التبعات الدنيوية سواء للمؤمنين أو للعالمين.. هذا لا يعني إلزام العالم بطاعة الرسول بل يكفي أن تنظر إلى بؤس العالم عندما لم يسمع كلام الرسالة في الربا والخمر.. وهذان مثلان فقط، وإلا فكل ما جاء في الرسالة الإلهية فيه مصلحة للإنسانية أدركت ذلك أو لم تدركه، «وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه!»[٢] وأما المؤمنون فإنه لا يمكنهم تحصيل المجد الدنيوي دون طاعة الرسول مهما قلبوا وجوههم في اتباع أهواء أهل الكتاب.. وأما تبعات الآخرة فهي الهول العظيم الذي ينتظر المعرضين عن الحق.. فلا ينافي إلزام الناس بحكم الله؛ إذ المراد عدم الإلزام بأصل الإيمان، بينما يجب الحكم بين المؤمنين وفق مقتضيات الإيمان، وتبقى تربيتهم على المراقبة الذاتية، واستشعار معية الله في الأمور الخفية التي لا يطلع عليها الرسول ﷺ ولا غيره من البشر، وبذا فإن

(١) أصول السرخسي (٢/ ٢٧).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٢٣).

ولاة الأمر في الأمة المسلمة ينبغي أن يسيروا في اتجاهين: تطبيق الشرع في الواقع، وغرس التربية الذاتية في نفوس الناس فيما لا سبيل إلى السيطرة الظاهرية عليه كما يقول ابن خلدون: «فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجنبي، وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي. ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم، والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب» [1].

القانون الثالث: يجب تقديم الاستعداد القولي للالتزام بطاعة القيادة النبوية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ (النساء:٨١) ويجب الحذر من المتآمرين الذين يعملون ضد كلام القيادة النبوية، فادعاء الطاعة والاتباع، ليس دليلًا على التنفيذ والاستقامة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

فبصرتنا بوجوب إظهار الطاعة باللسان، وفي الوقت ذاته كشفت بصورةٍ عجيبةٍ طبيعة النفسية الخوانة المتلاعبة من المتهربين من تبعات الواجب في حماية الديار والأوطان، وحراسة حقوق المستضعفين، فربما تعجب أناس، فسألوا: كيف يمكن لأمثالهم أن يتولوا القيادة والتوجيه؟ فيأتي الجواب بأنهم كثيرًا ما يتباهون بأنهم أكثر الناس استقامة، وأعزمهم أمانة.. إنها دعاوى اللسان فقط، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يقولون لك: طاعتنا لك ثابتة، وشأننا كله طاعة لك، أي: أَمْرُكَ مُطَاعٌ، فكلمة ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ لخبر محذوف فَجَعَلَ المَصْدَرَ فِي مَكَانِ اسْمِ المَفْعُولِ لِلْمُبَالَغَةِ، وأتى بكلمة ﴿طَاعَةٌ﴾ مرفوعة ليبين شدة مبالغتهم وجهودهم في زعم أن طاعتهم

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٦١).

لله ولرسوله ﷺ ثابتة لا تتغير ولا تتضاءل، بخلاف ما لو ذكرها منصوبة: طاعة لأنها تدل على وقوع الفعل. ولم يأت بها منصوبة لأنها لو كانت كذلك لكانت طاعة مرة واحدة، تتحقق مرة واحدة، أو تذهب وتعود من غير ثبات، فلما جاء بها مرفوعة دلت على الثبات، أي: طاعتنا ثابتة وراسخة، فتكشف هذه الآية أنه ينبغي تقديم الاستعداد للطاعة ممن ينتسب إلى الإسلام، وتكشف في الوقت ذاته حقيقة هذه الطاعة، فهي عبارة عن دعاوى باللسان يرمونها أمام الناس، وهي تكشف طبيعة هذه النفسية العجيبة الخوانة المتلاعبة بعقول الناس، وهذه البصيرة القرآنية تكشف بصورةٍ عجيبةٍ طبيعة هذه النفسية الخوانة المتلاعبة بعقول الناس؛ إذ يلجأ المتهربون من فريضة الدفاع عن المستضعفين إلى حيلة يلعبون بها على الناس ويتلاعبون بها بالشرع، فيزعمون التزامهم بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وعدم انحرافهم عنها في المجالات المختلفة، ثم هم يرمون بكل ذلك عرض الحائط سواء أكان ذلك في المجالات الاقتصادية أو السياسية أو الشخصية، وهؤلاء ليسوا من المنافقين وهذا هو الأمر العجيب فإن الكلام عن فئة من المؤمنين.

فيجب على الذين دخلوا في الإسلام أن يظهروا الطاعة والاستسلام، وهذا الذي ظهر من قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ وينبهنا الله ضمن استراتيجية أخذ الحذر من الذين يزعمون الطاعة ثم يفعلون ما يناقضها، فيقول: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: خرجوا إلى البَرازِ بالفتح وَهُوَ الفَضَاءُ مِنَ الأَرْضِ، حيث يطمئنون أنه لا يسمعهم أحدٌ من الصادقين أو من الرأي العام، فتتشوه صورتهم أمامه، أو ربما سمع تآمرهم، وأفشى لخيانتهم، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أعملت طائفة منهم فكرها في تغيير الذي تقول، وعبَّر عن جهدهم المنظم لتغيير كلام القيادة النبوية بقوله ﴿بَيَّتَ﴾ فكل ما تم فيه إعمال فكر يقال فيه: بيت، وبيت تدل على جمال

اللغة القرآنية، فهي تشير إلى الخلوة والاختلاء والبعد عن ضجيج الناس، ومن ذلك البيت حيث يختلي المرء بنفسه أو بأهله، ويأوي إلى أهله ليفعل ما لا يستطيعه بمحضر من الناس، وتشير هذه الكلمة ثانيًا إلى تفرغ الفكر ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ (المزمل: ٦، ٧)، فإذا كان في الليل فكره أقوم وأقوى وذلك لأن أنسب الأوقات لإعمال الفكر هو الليل، ففيه يتم تنظيم الأمور في الخير، أو التآمر على إيقاع السوء كما قال عبيدة بن همام:

أَتَوْنِي فَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّتُوا، وَكَانُوا أَتَوْنِي بِشَيْءٍ نُكُرْ
لأَنْكِحَ أَيِّمَهُمْ مُنْذِرًا، وَهَلْ يُنْكِحَ العَبْدَ حُرٌّ لِحُرْ؟[1]

وقَالَ الآخر:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ[2]

والبراز والتبييت الذي يدل على الخلوة بالليل يشيران إلى التآمر.

القانون الرابع: يجب اللجوء إلى الله -جل في علاه- عند المعالجة السياسية للتعامل مع الأدعياء والمتثاقلين عن الطاعة النبوية، فأخذ الحذر منهم لا يعني القدرة على الإحاطة بمؤامراتهم، كما يجب أن يتم الإعراض عنهم بعدم إسناد المناصب الحساسة لهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

ففي هذا حث شديد للقيادات المجتمعية سواء أكانوا في أعلى المستويات أم كانوا من القائمين على المهمات التنفيذية، أم كانوا من القيادات الشعبية أن يلجأوا إلى الله ليوفقهم لحماية الأمن العام من الفئات المتلاعبة التي تتآمر في الليالي المظلمة

(١) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (٣/ ٢٤).

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبي بكر الأنباري (ص ٤٥٢).

والزوايا المعتمة، فأخذ الحذر منهم لا يعني القدرة على الإحاطة بمؤامراتهم، فمن الذي يحيط بمؤامراتهم؟ إنه الله عزَّ وجلَّ، وقوله ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ تتضمن طمأنة المؤمنين الذين يلجأون إلى رب العالمين، وتهديد المتآمرين على تغيير كلام القيادة النبوية، فالله يعلم ما يضمرون ويحيط بما عليه يجتمعون ويتآمرون، وهذه الجملة العجيبة تحتم على المؤمنين الحذر، كما تدلهم على ضرورة عدم الغفلة من الرجوع إلى الله، واللجوء إليه لإحباط مؤامرات المتآمرين.

ومع اللجوء إلى الله انظر الأمر بعدها ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾، وهذا الأمر ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ يعطي مجالًا واسعًا للتعامل مع الفئات المختلفة منهم، كفئة المنافقين مثلًا، فتعني عدم إتاحة الفرصة لهم لتسويق ترهاتهم، وعدم إتاحة الفرصة لهم ليكونوا في المناصب الحساسة، وخاصة المناصب التوجيهية، فإياك أن توليهم المناصب التعليمية، المناصب التثقيفية، المناصب الإعلامية، فمعنى أعرض عنهم هنا: هي حرمانهم من المناصب، وبعض هذه الفئات قد يكونون من ضعفاء المسلمين فلا بد من الإعراض عنهم بسترهم وعدم فضحهم؛ إذ ذلك طريقٌ لاستدرار توبتها ورجوعها إلى ربها، ومعنى ذلك ألا يلجأ إلى عقوبتهم أو تعزيرهم إلا عند ظهور إفسادهم العلني الواضح، وكذلك فإن كلمة ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ تبصرنا في الوقت ذاته بعدم إتاحة الفرصة لهم لنشر ترهاتهم في الوسائل الإعلامية أو التعليمية أو الثقافية، ولا تقام عليهم الأحكام القضائية إلا عند وجود ما يقابل الخيانة العظمى البينة.

ويُبَصِّرُنا قوله تعالى ذكره: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ بضرورة الاتصال الدائم بالله خاصة في معالجة الأمور السياسية والإدارية؛ لأن من أساليب المنافقين الحذقة أن يحاولوا إظهار أنهم متعاطفون مع قضايانا الإنسانية، فيتساهل المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية بغية تألفهم.

وهنا يمكنك أن تسجل أن استحواذ فكرة النسخ على بعض علمائنا -رحمهم الله- جعلهم يزعمون أن هذه الجملة المحكمة نسخت بالأمر بجهاد المنافقين، وفوق ذلك حاول الفخر الرازي -رحمه الله- الرد، فرد ردًا زاد من وهج قول القائلين بالنسخ فقال: «قَالَ المُفَسِّرُونَ: كَانَ الأَمْرُ بِالإِعْرَاضِ عَنِ المُنَافِقِينَ فِي ابْتِدَاءِ الإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ (التوبة: ٧٣، التحريم: ٩) وَهَذَا الكَلَامُ فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الأَمْرَ بِالصَّفْحِ مُطْلَقٌ فَلَا يُفِيدُ إِلَّا المَرَّةَ الوَاحِدَةَ، فَوُرُودُ الأَمْرِ بَعْدَ ذَلِكَ بِالجِهَادِ لَا يَكُونُ نَاسِخًا له»... وأنت ترى أن النسخ هنا بمعناه الأصولي غير وارد، وأما بمعناه العربي الذي فهمه الصحابة ﷺ فنعم، إذ آية جهاد المنافقين مكملة لآية الإعراض عنهم، بل موضحة لها.

القانون الخامس: تدبر القرآن المجيد من أهم أركان الأمن الداخلي والسلام الخارجي. فيجب تدبره على المستوى الفردي والمؤسسي؛ للوصول إلى إدراك إعجازه، ولاستخلاص كيفية التعامل مع قضايا العالم الصغيرة والكبيرة، وخاصة ما يتعلق بالسياسات الإصلاحية والأمنية التي تعين على تحقيق المفهوم الصحيح للسلام، وللنظر في البيان القرآني لمرجعية السنة النبوية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

هنا الخطاب للجميع المؤمن والكافر، ولكن سياق الآية يدل على أنه للمؤمنين ليكون التدبر ضمن استراتيجية إحلال السلام ومرجعًا للاستراتيجيات الأمنية والعسكرية، والقرآن يدمج في خطابه عددًا من الأصناف، وهذا من أساليب القرآن التي ينبغي الانتباه لها، فمثلا الواو في قوله ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ واو الجماعة تدمج في ثناياها عددًا من الفئات كلٌّ بحسب حاله، فالمسلم مطالب بأن يتدبر القرآن ليستخرج كنوزه، وغير المؤمن يتدبر القرآن ليتم الكشف المنطقي حول أي الفرق أهدى سبيلًا، وهل القرآن

حق أم لا، فلا يحكم غيابيًا، والقرآن يتسم بشيء مميز فهو يحمل في ثناياه الدليل على صدقه، وهذه الآية تدل على وجوب التدبر على جميع المسلمين، وأن التدبر فرض عين وليس فرض كفاية، وفرق بين التدبر وتقرير العلم المراد، فتقرير العلم المراد يعود للمفسرين الذين قال الله عنهم ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، وقال عنهم ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ (النساء: ٨٣).

والقرآن لابد أن يؤخذ جميعًا، فالذي مثلا يريد أن يحاكمه فلابد أن يأخذ جميع آياته، إذا أردت أن تقول هذا حق أو هذا باطل، فلا تقرأ هذه الآية وتترك تلك الآية، كما تبصرنا هذه الآية بأن من وسائل التعامل مع المتلاعبين بالطاعة النبوية عرض القرآن عليهم ليجدوا فيه الأدلة البرهانية على صحة الرسالة، وهذا نوعٌ من الخطاب الذي يعيدهم إلى العقل والفكر، فيرجع غير المعاندين منهم عن غيهم، والآية تحثهم على تدبر القرآن الكريم لاستخلاص كيفية التعامل مع قضايا العالم الصغيرة والكبيرة، وانظر للفظ الآية كيف يهيج التفكير عند المسلمين المسؤولين بإظهار المعجزة القرآنية، كما يثير التفكير عند تلك الطوائف المتخلخلة الشاكَّة، فالفَاءُ تَفْرِيعٌ عَلَى الكَلَامِ على قوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (النِّسَاء: ٨٠)، أي: أفلا يتدبر المسلمون القرآن فيزدادوا يقينًا بالله؟.. أفلا يتدبر الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة القرآن، فيتبعون ما يجب عليهم حسب ما تقتضيه المرحلة؟.. أفلا يتدبرون القرآن فيتبعون ما يجب عليهم عندما يكتب عليهم القيام بنصرة المستضعفين؟ أفلا يتدبرون الذين يزعمون أن الحسنة من عند الله وأن السيئة من النبي ﷺ، أو من الذين يأمرون بالقسط من الناس القرآن، ليعلموا أن كلًا من عند الله من حيث الإنشاء؟ أفلا يتدبر الناس القرآن ليعلموا أن الله هو مالك الخلق والتغيرات الكونية؟ أفلا يتدبرون القرآن ليعلموا أنهم لا بد أن يطيعوا النبي ﷺ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)؟ أفلا يتدبرون القرآن ليعلموا أن تذبذبهم في الطاعة يؤدي إلى خسارتهم الدنيوية والأخروية،

فالنبي ﷺ لن يجبرهم على الاختيار الإيماني ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (النساء: ٨٠)؟ أفلا يتدبر القائمون على الأمن القرآن ليبين لهم استراتيجيات الأمن القومي الذي به يحفظون أمن مجتمعاتهم؟ فالقرآن خطاب للجميع، والله سبحانه وتعالى يأمر ويحض على تدبر القرآن.

أفلا يتدبر القرآنَ هؤلاء الذين يقولون ﴿طَاعَةٌ﴾ بألسنتهم ثُمَّ يبيتون العصيان إما إصرارًا على نصرة الفسق أو لتعمق الشك في قلوبهم في صدق رسالة النبي ﷺ؟ ويزجرهم الله عن هذا العناد، وذلك الشك بالاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ إذ ما بعد الاستفهام واقع، وفاعله ملوم، فهم لا يتدبرون القرآن، وتلك علامة تدل على ضعف عقولهم..

والتدبر مشتق من الدبر وهو الظهر، فتدبر الأمر، أي: نظر في عاقبته ومآلاته وما يقف خلفه من نتائج، ولذا يقولون: لا تَدَبَّرُوا أَعْجَازَ أُمُورٍ قَدْ وَلَّتْ صُدُورُهَا، وقول النبي ﷺ: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، أَيْ لَوْ عَرَفْتُ فِي صَدْرِ أَمْرِي مَا عَرَفْتُ مِنْ عَاقِبَتِهِ»، فقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ حثٌّ على إعمال الفكر في معرفة المعاني التي تختبئ خلف كلمات القرآن دون تحريف أو تلاعب، ودلالة مفردات كلماته وجمله ومجموعه على أنه من عند الله ليزول شك الشاكين، ويزداد المؤمنون إيمانًا.. ومن أهم الدلائل القرآنية على صدق نبوة النبي مُحَمَّدٍ ﷺ أربعة أوجه:

أحدها: فَصَاحَتُهُ، فلا يمكن أن يصل إلى تلك الفصاحة الآسرة ما قاله امرؤ القَيْسِ إِذَا رَكِبَ، وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ، وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ.

وَثَانِيهَا: اشْتِمَالُهُ عَلَى الإِخْبَارِ عَنِ الغُيُوبِ الماضية والحاضرة والمستقبَلة.

وثالثها: نظمه المدهش المتوازن الحاوي لعلوم الهداية التربوية والسلوكية والمعرفية حول التعريف بالله، وبالإنسان، وحقيقة الكون، ومصيره.

وَالرابع: سَلَامَتُهُ عَنِ الِاخْتِلَافِ [١]، فمن أعظم ما يستدل به على أنه من عند الله مجموعه لذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي لو كان من بشر لوجدوا فيه اختلافًا باضطراب المعاني الواردة فيه، واختلافًا بين الغيوب التي أخبر بها عن الماضي والحاضر والمستقبل وبين واقع تلك الغيوب، وعن خلجات النفوس ومخبآت الضمائر واختلافًا لما يصف مع واقع قلوبهم وأحوالهم، وهو الذي يصف ما في قلوبهم وصف المطلع عليها، والتقدير امتنع أن يوجد فيه اختلاف من أصله فضلًا عن الاختلاف الكثير، فهو من عند الله، ويلخص الطبري ذلك فيقول: «أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم، يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لاتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض» [٢]، ولاحظ أن الاختلاف المنفي هنا مطلق فيقيد بالحقيقة العرفية أي اختلاف التناقض لا اختلاف التنوع «لَا يَدْخُلُ فِي هَذَا اخْتِلَافُ أَلْفَاظِ القِرَاءَاتِ وَأَلْفَاظِ الأَمْثَالِ وَالدَّلَالَاتِ وَمَقَادِيرِ السُّوَرِ وَالآيَاتِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِلَافَ التَّنَاقُضِ وَالتَّفَاوُتِ [٣]، فاختلاف التنوع منقبة يُتمدح بوجودها، وليست مثلبة.

ومن أعظم حقائق ذلك أنه الدستور الذي تحتاجه البشرية دائمًا لينظم أحوالها.. ولا يمكن أن يختلف ما يصفه عن الواقع الذي تحتاجه، فلا تستطيع البشرية مهما بذلت أن تأتي فِي بَيَانِ أُصُولِ العَقَائِدِ، وأنظمة الحياة، وَقَوَاعِدِ الشَّرَائِعِ، وأسس الأخلاق، وإدارة الشعوب، وسياسة الناس، وقوانين الاجتماع، وسنن العمران،

(١) وانظر: تفسير الرازي (١٠/ ١٥١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٦٧).

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠).

والأمثال المحكمة الحاكمة، وفنون القول في الخلق والتكوين، وبناء الكون، وأنظمة الطبيعة في البحار والنباتات والجبال والحيوان والجماد «مَعَ اتِّفَاقِ جَمِيعِ الأُصُولِ، وَعَدَمِ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَاوُتِ فِي شَيْءٍ مِنَ الفُرُوعِ» (١)، ويكفي أن تسأل الإدارات المتعاقبة المتناقضة في أعظم امبراطورية حاضرة حول كيفية حل مشكلة متطاولة هي المشكلة العنصرية مثلًا.. في حين لا تعرف بلاد الإسلام هذه المشكلة إلا عندما تزيح الإسلام من منصة الحكم.

وتدبر القرآن فرضٌ غاب عن ساحة المسلمين، وعبادةٌ ضاعت وتم التفريط فيها، فضاع مجدهم وذهب مع ذهابها، فقد استنبط محمد رشيد رضا ذلك، فقال: «وَفِيهِ أَنَّ تَدَبُّرَ القُرْآنِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ لَا خَاصٌّ بِنَفَرٍ يُسَمَّوْنَ المُجْتَهِدِينَ» (٢).

وتدبر القرآن ينمو كلما أدمن المرء تلاوة آياته، والنظر فيها، نعم ليست الكثرة التي تأتي بهذرمة أي بسرعة قراءة غير مفهمة، ولكن الكثرة التي تأتي عن قراءة واعية، وقد تعجب من بعض الناس يخصصون لبرامجهم المفضلة ساعة أو ساعتين، فكم يعطي للقرآن في حياته.. فكم قست قلوب لبعدها عن كلام ربها.

ولكن التدبر ينبغي أن يخضع لسؤال المستنبطين وأهل العلم والذكر، فذاك أمرٌ واجب خشية الوقوع في الجهل، أو مفاجأة سوء الفهم، وهذا يقتضي إنشاء المؤسسات العلمية المختصة بالدراسات القرآنية التي تشكل مراكز لمراجعة القرارات الاستراتيجية في المجتمعات، فسبب مجيء هذا الأمر في هذه الآية المباركة: حث هذا الصنف من المؤمنين على عدم تحويل القرآن إلى مجرد رسوم

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٣٤).

(٢) تفسير المنار (٥/ ٢٤٠)، وذهب الرازي في تفسيره (١٠/ ١٥٢) إلى أن الآيَة دلت عَلَى وُجُوبِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَعَلَى القَوْلِ بِفَسَادِ التَّقْلِيد.

تقرأ دون فكر أو تدبر أو إعمال للآيات في الواقع المعاش، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه تناقضات واختلافات عظيمة في المعاني الواردة فيه، وهذا ينتج ضرورة إنشاء المراكز والجامعات والمعاهد التي تنشر القرآن الكريم، وتستخلص كيفية معالجاته المختلفة للواقع البشري الذي تستجد فيه القضايا، ويقرر النبي ﷺ ذلك، فيقول: «مهلًا يا قوم. بهذا أُهلكت الأمم من قبلكم: باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعضٍ: إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا. بل يصدق بعضه بعضًا. فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه» (١)، وفي رواية عن عبد الله بن عمرو قَالَ هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا -قَالَ- فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الغَضَبُ فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلاَفِهِمْ فِي الكِتَابِ» (٢).

فيزجرهم الله عن الإعراض عن القرآن بالاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ إذ ما بعد الاستفهام واقع، وفاعله ملوم، فهم لا يتدبرون القرآن، وتلك علامة تدل على ضعف عقولهم، والتدبر مشتق من الدبر، وهو الظهر، فتدبر الأمر، أي: نظر في عاقبته ومآلاته، أي: أعملوا الفكر في معرفة المعاني التي تختبئ خلف كلمات القرآن، دون تحريف، أو تلاعب، ومن أعظم ما يستدل به على أنه من عند الله مجموعه؛ لذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

القانون السادس: يجب الحذر من نشر الشائعات في القضايا المركزية الكبرى مما يتعلق بمجالي الأمن أو الخوف، فذلك يساعد على خلخلة الأمن الداخلي، والسلام العالمي، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾.

(١) أحمد(٢ / ١٨١)، وقال الأرناؤوط: صحيح وهذا إسناد حس.

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٥٧)، برقم ٢٦٦٦.

ففي إطار استراتيجية صنع السلام تفعل الاستراتيجيات الأمنية اللازمة للحفاظ على حالة الأمن المجتمعي والسلام والعالمي، وما يدخل في إطار السياسات الأمنية الضرورية لأخذ الحذر منع سريان الشائعات المدمرة؛ إذ يذكر الله حال بعض الفئات التي تنشر الشائعات فتحدث الخلل والإرباك في المجتمع، ولا تجيد التصرف مع مسائل الأمن والخوف ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي وإذا جاءهم خبر أمرٍ من أمور الأمن أو الخوف أذاعوا به، فتستعجل هذه الفئات في نشر الأخبار دون الرجوع إلى المؤسسات أو الخبراء، فربما سارع المجرمون والجاهلون إلى نشر الشائعات المخلخلة للمجتمع، اعتمادًا على خبرٍ مضى، أو على أمرٍ حدث، وتكون متعلقة بالقضايا السيادية، في مجالي الأمن والخوف، ويترتب عليها إما الاستقرار التام وإما الاضطراب، وحدوث الاختراقات في المجتمع، والاهتزازات في مجال الأمن، وعدم استقرار التنمية، بل ربما أن ينزلق المجتمع إلى نفقٍ مظلمٍ مخيفٍ، وربما انساق لهم بعض الصالحين دون الرجوع إلى المؤسسات أو الخبراء.

والضمير في قوله ﴿جَآءَهُمْ﴾ قد يعود إلى السابقين المتكلم عنهم الذين يحاولون اختراق استراتيجية الأمن المجتمعي والسلام العالمي وأخذ الحذر، فيدخل فيهم الذين قال الله عنهم ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ (النساء: ٧٢).

ويدخل فيهم من قال الله عنهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (النساء: ٧٧)، ويدخل فيهم من قال الله عنهم: ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء: ٨٠) ويدخل فيهم ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ (النساء: ٨١).

ويدخل فيهم كل من يعمل على زعزعة الأمن المجتمعي من خلال نشر

الشائعات، فهذه الآية تصنع أمنًا حقيقيًا قويًا بحماية المجتمع من انتشار الشائعات المزلزلة، ولاحظ الأسلوب الجميل للقرآن، فالله لم يقل وإذا جاء جهةً بعينها بل قال ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ ﴾، لأن الثقافة المجتمعية يجب أن تكون حاضرة للتعاون ضد الآثار الضارة الناتجة عن انتشار الشائعات، كما يجب وضع النظم والقوانين التي تمنع العبث بأمن المجتمع عن طريق الدعايات والشائعات، وقد يكون هؤلاء الناشرون من المؤمنين الذين اعتراهم طيفٌ من الشيطان، وقد يكونون من المنافقين، وقد يكونون من مرضى القلوب وضعفة الإيمان ممن قلَّت تجربته أو غابت عنه حنكته وذهب حزمه، والمطلوب من المجتمع أن يأخذ على أيديهم، ليبين لهم الطريقة الصحيحة في كيفية التعامل مع الأمور الكبرى، وهذه من فوائد الضمير، حتى لا يحصر في فئة معينة دون فئة، وقوله: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾، هذه كلمة معجزة حقًا، تبين لك الإعجاز القرآني في معالجة واقع الناس بصورة مدهشة، إذ حوت ثلاثة معانٍ في وقتٍ واحد:

أولاها: أذاعوه أي نشروه على أوسع نطاق كما قال أبو الأسود:

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّهُ بِعَلْيَاءَ نَارٌ أُوقِدَتْ بِثَقُوبِ

وثانيها: سعوا به من تعدية الفعل بالباء إذ أكسبها ذلك معنى آخر: هو السعي به، فكأنهم احتملوه فوق ظهورهم ليسعوا به هنا وهناك، ولمس ابن عباس هذا المعنى فقال: أفشوه وسعَوْا به [1]، فكأنه قال: أفشوه نشروه، وسعوا به ليسبب الوهن والضعف في المجتمع، وينشر الخلل بين الناس، وهذا يُتصور من كل تلك الفئات إما ضعفًا وسوء فهم، وإما طلبًا لتدمير الحياة المستقرة.

وهناك معنى ثالث لقوله: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾، أي هم أذاعوا بسببه فاكتسبوا الشهرة لأنفسهم، لأنهم عندما يسعون بهذا الخبر يحدثون خلخلة داخل المجتمع، ويتسببون

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٦٩).

في الإرجاف، وبدلا من أن يساعدوا في الاستقرار الأمني يجعلونه مشكوكا فيه، ويشتهرون بسببه، وبعض هؤلاء الناشرين للإشاعات المغرضة يهدفون إلى التصدر؛ لأنهم مصابون بعقدة العظمة، ومحبة التصدر في المجامع، والظهور الإعلامي، وبعضهم يقومون بتغطية عوارهم في مسائل المواجهة الحقيقية، فيظهر منهم عدم الاتزان وضياع سلوك السبيل الصحيح في معالجة ما يرد على الصف المسلم من المسائل والقضايا والمستجدات، فما وجدوا من خبرٍ أذاعوا به مما يتوهمون أنه يبني لهم مكانة، فلا يرجعون إلى المؤسسات المعنية، ولا الأجهزة الشورية المناسبة، ولا إلى الخبراء المختصين.

وكلمة ﴿أَمۡرٌ﴾ في قوله ﴿أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾ نكرة فيدخل فيها جميع الأمور، التي يصح أن نطلق عليها أمرًا فهي قريبة من كلمة شيء، ولكنه قيد هذه الأمور بما يرتبط بمسائل الأمن والخوف، وليس ما يتعلق بالأمور الخاصة، واضرب لذلك مثلًا في العهد النبوي عن اتباع النبي ﷺ استراتيجية أخذ الحذر في مجال الأمن القومي للمجتمع في الوضع الداخلي والخارجي بما حدث من محاولة بعض الصالحين من أصحابه إفشاء ما يتعلق بالأسرار العليا حيث يحكي عَلِيٌّ رضي الله عنه فيقول: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ قَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ. فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ. فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ، أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا -جمع عقيصة وهي ضفائر الشعر-، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَءًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ

يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا، وَلاَ ارْتِدَادًا، وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ صَدَقَكُمْ» قَالَ: عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ -يعني لأنه ارتكب خيانة عظمى- فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[١].

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كانت إدارته من أعظم الإدارات نجاحًا في التاريخ، نقل إليه أن رجلًا في الحج يزعم بأنه لو مات عمر لبايعت فلانًا، أي لاخترت أن يكون الحاكم فلان، فأراد عمر أن يبين أن مسألة البيعة مسألة سيادية تتعلق بالأمة كلها، وتحويلها إلى لعب فردي سيؤدي إلى حروب طاحنة بين كل فئة تميل إلى صاحب لها، فأراد أن يخطب منبهًا على خطأ التكلم في الأمر العام بالهوى الخاص، فقَالَ: إِنِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَقَائِمٌ العَشِيَّةَ فِي النَّاسِ فَمُحَذِّرُهُمْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ أُمُورَهُمْ. فنبهه عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن عوف إلى بعدٍ خطيرٍ يتعلق باختلاف أفهام السامعين، فقال: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لاَ تَفْعَلْ فَإِنَّ المَوْسِمَ يَجْمَعُ رَعَاعَ النَّاسِ وَغَوْغَاءَهُمْ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَغْلِبُونَ عَلَى قُرْبِكَ حِينَ تَقُومُ فِي النَّاسِ وَأَنَا أَخْشَى أَنْ تَقُومَ فَتَقُولَ مَقَالَةً يُطَيِّرُهَا عَنْكَ كُلُّ مُطَيِّرٍ، وَأَنْ لاَ يَعُوهَا، وَأَنْ لاَ يَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا فَأَمْهِلْ حَتَّى تَقْدَمَ المَدِينَةَ فَإِنَّهَا دَارُ الهِجْرَةِ وَالسُّنَّةِ فَتَخْلُصَ بِأَهْلِ الفِقْهِ وَأَشْرَافِ النَّاسِ فَتَقُولَ مَا قُلْتَ مُتَمَكِّنًا فَيَعِي أَهْلُ العِلْمِ مَقَالَتَكَ وَيَضَعُونَهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لأَقُومَنَّ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالمَدِينَةِ[٢].

فلا ينبغي للإنسان التحدث في شيء لا يتقنه مما يؤثر على المصلحة العامة.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٧٢) برقم ٣٠٠٧.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ٢٠٨) برقم ٦٨٣٠.

وهذه الجملة المباركة ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ تبصرنا بضرورة التعود على ضبط النفس في موضوع الكلام، وألا يخوض المرء في المسائل العامة وهو لا يعرف أبعادها، فلا ينبغي لأفراد المجتمع أن يطلقوا لأنفسهم العِنان، فيتكلموا في كل أمر.

ويؤكد رَسُول اللَّهِ ﷺ ذلك فيقول: «كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» (١).

وعن عبد الله بن عامر قال: يا أبا مسعود ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في زعموا؟ قال سمعته: يقول: «بئس مطية الرجل»، وسمعته يقول: «لعن المؤمن كقتله» (٢)، وَكَانَ ﷺ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ المَالِ وَمَنْعٍ وَهَاتِ وَعُقُوقِ الأُمَّهَاتِ وَوَأْدِ البَنَاتِ (٣).

ومن هنا لام بعض أهل العلم العلماء الذين رووا بعض الأخبار الواهية، ذاكرين إسنادها دون بيان ضعفها، كالذي تجده في تاريخ الطبري ﷺ وإن برئ من العهدة بسبب ذكره للسند، لكن الكتاب معرض لأن يقرأه المتخصص وغيره.

القانون السابع: أهم الحلول لمواجهة فوضى الإشاعات المخلخلة للسلام العام الرجوع إلى الميراث النبوي في التعامل مع القضايا الأمنية.

وذلك يعني خدمة السنة النبوية الخدمة المثلى سندًا ومتنًا لاستخراج كنوزها وذخائرها، وتكوين فئة أولي الأمر المستنبطين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾؛ وهذا يقتضي تشكيل

(١) في مقدمة صحيح مسلم (١ / ٨)، وخرجه أبو داود (٢ / ٧١٦) عن أبي هريرة، وصححه الألباني.

(٢) الأدب المفرد بأحكام الألباني (١ / ٢٦٨)، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٢٤).

لجان الخبراء في المجالات المختلفة، ليمدوا المستنبطين بما يعينهم على التكييف المناسب للحوادث النازلة، فيصير المستنبطون أهم مركزٍ في مفهوم ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ ويمدون الأمة بالرأي الصحيح في القضايا الاستراتيجية، اعتمادًا على فهم النص الشرعي، ودراسة للميراث النبوي، ووضعًا للوصف الدقيق للواقع:

فهذه الجملة تبصرنا بأهم الحلول لضبط الأمن الفكري في المجتمع، ولمواجهة فوضى الإشاعات التي يراد بها زلزلة المجتمع المسلم، بأن ترد المسائل العامة إلى الرسول وإلى أولي الأمر الذين يكون العلماء في مقدمتهم ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ ولماذا ذكر الرد إلى الرسول ﷺ دون أن يذكر اسم الله أو أن يذكر القرآن هنا؟

لأن الفهم الصافي والتطبيق العملي للقرآن لا يجده المرء إلا في الهدي النبوي، وبالتطبيق النبوي تضبط إيقاعات الفهم للقرآن المجيد، وهنا تدرك لماذا هذه الحرب الشعواء على السنة النبوية.

وقد يحتاج المستنبطون إلى لجان من الخبراء ليتمكنوا من تقديم الرأي المناسب في الحادثة؛ وبناء على ذلك يتم اتخاذ القرارات المناسبة، وبذا تؤدى الأمانة إلى أهلها، فترد كل قضايا الأمن أو الخوف إلى كيفية التعامل النبوي معها من خلال السنة والسيرة على صاحبها الصلاة والسلام.

وقد جعل الله تعالى ذكره طريقة التعامل مع قضايا الأمن والخوف خاصًا بأولي الأمر الذين يطلبون من لجان الخبراء المستنبطين أن يقدموا الرؤية الصحيحة للتعامل مع تلك القضايا، فيمدون أولي الأمر بالرأي المناسب في النازلة المعينة، وفي مقدمتهم العلماء القادرون على الاستنباط، ثم يقوم المتخصصون باستنباط الحلول المناسبة وتحويلها مع الخبراء إلى قرارات عملية، والآية تبصرنا إلى صفتين

عظيمتين يجب أن تشترطا في أولي الأمر هما: العقل الذي يحزم في الأمور، والرجوع إلى الدين في جميع المسائل وخاصة مسائل الأمن والخوف، ومن المؤسف أن الدول لا تعرض مسائل الأمن والخوف على المختصين فيها، فعن ابن جريج: «وإلى أولي الأمر منهم»، الفقه في الدين والعقل، وقال ابن زيد عنهم: الولاة الذين يَلُون في الحرب عليهم الذين يتفكرون فينظرون لما جاءهم من الخبر: أصدق، أم كذب؟ أباطل فيبطلونه، أو حق فيحقونه؟ (١).

وهذه الآية لها علاقة بما سبق في قوله تعالى ذكره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (النساء: ٨٢)، فلو ظهر لأحدهم معنى في الآية وهو ليس من أهل العلم، فلا ينشر هذا المعنى أو تلك المعلومة حتى يعيده إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، ومثال ذلك ما نسمعه هذه الأيام من أن القرآن يفسر بالآرامية أو السريانية، ويقول العابث الذي يروج هذه الفكرة التي يظنها عبقرية ويتعجب كيف لم تخطر على بال من قبله: معنى كلمة ﴿طه﴾ يا رجل باللغة الآرامية أو السريانية، وهذا الذي يقوله هذا العابث نجده قولًا مهجورًا معروفًا في التفسير لكنهم أهملوه لأنه يصادم الأصول، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، فكيف تجعله أنت بلسان أعجمي مبين؟.

والاستنباط ينبغي أن يكون صادرًا من أهله في محله، وليس صادرًا من أهله في غير محله، أو صادرًا من غير أهله في محله، أو في غير محله.

وقوله تعالى جده: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ يوجب العمل على تربية أجيال المستنبطين من العلماء والخبراء ليُكَوِّنوا أهم غرفة في الأمة تمد أولي الأمر بالرأي الصحيح في القضايا الاستراتيجية، كما أن الآية تدل على عدم مقدرة كل العلماء على استنباط الحلول في كل نازلة، بل القادرون منهم فئة مخصصة.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٧٣).

فقوله: ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُۥ﴾ تدل على أهمية هذه الفئة من الخبراء، وخطورة وظيفتها؛ إذ معناها كما يقول الطبري: يستخرجونه، فكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب، فهو له «مستنبط»، فأصل الاستنباط: استخراج النَبَط، وهو الماء المخفي عن العين المدفون في الأرض الَّذِي يُنْبَطُ من قَعر البِئْر إِذا حُفرت كما قال الشاعر:

قَـرِيـبٌ ثَـــرَاهُ، مـا يَـنَـالُ عَـــدُوُّه لَـهُ نَبَطًا، آبِـي الـهَـوَانِ قَـطُـوبُ [١]

وعرفه النووي بأنه: استخراج ما خفي المرادُ به، من اللفظ، وقال الجرجاني (ت ٨١٦ هـ): استخراج المعاني من النصوص، بِفَرْطِ الذهن، وقوة القريحة [٢].

كما تبصرنا هذه الآية بأن مجالات الأمن أو الخوف في الأمة تشمل ما يتعلق بأحوال القيادة النبوية؛ إذ سياق الآيات في الكلام عن طاعة الرسول ﷺ، وهو ما يؤكد أهمية السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ومما يدل على ذلك حديث عُمَر بْن الخَطَّابِ قَالَ لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ - قَالَ - دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالحَصَى وَيَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالحِجَابِ فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ لأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ اليَوْمَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى

(١) انظر: تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٧١)، مقاييس اللغة (٥/ ٣٨١)، تهذيب اللغة (١٣/ ٢٤٩)، وفي تهذيب اللغة (١٣/ ٢٥٠) يقال: حَفَر فأثلجَ إذا بلغ الطين، فَإِذا بلغ المَاء قيل: أنبط، فَإِذا كَثُر الماءُ قيل: أماهَ وأمْهَى، فَإِذا بلغ الرّملَ قيل: أسْهب، يُقَال فلانٌ لَا يُنالُ نَبَطُه، إِذا وُصف بالعِزّ والمَنَعة حَتَّى لَا يجد عدوّه سَبِيلا إِلَى أَن يَتهَضّمه فِيمَا تَحت يَده، ويُقَال للرجل: إِذا كَانَ يَعِدُ وَلَا يُنْجِزُ: فلانٌ قريبُ الثّرَى، بعيدُ النَّبَط، وقال شاكر في بيان البيت في حاشيته على الطبري: «وقوله: «قريب الثرى»، يريدون كرمه وخيره. و«الثرى»: التراب الندي، كأنه خصيب الجناب. وقوله: «ما ينال عدوه له نبطًا»، أي لا يرد ماءه عدو، من عزه ومنعته، / إذا حمى أرضًا رهب عدوه بأسه.«آبى الهوان» لا يقيم على ذل. و«قطوب»: عبوس عند الشر».

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٤/ ١٥٨، التعريفات ص٢٢.

عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا بِنْتَ أَبِى بَكْرٍ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ. قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهَا يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لاَ يُحِبُّكِ. وَلَوْلاَ أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَبَكَتْ أَشَدَّ البُكَاءِ فَقُلْتُ لَهَا أَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ هُوَ فِي خِزَانَتِهِ فِي المَشْرُبَةِ. فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلاَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاعِدًا عَلَى أُسْكُفَّةِ المَشْرُبَةِ مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيَنْحَدِرُ فَنَادَيْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَىَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَىَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِى عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنِّى أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ظَنَّ أَنِّى جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا. وَرَفَعْتُ صَوْتِي فَأَوْمَأَ إِلَىَّ أَنِ ارْقَهْ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِى فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ - قَالَ - فَابْتَدَرَتْ عَيْنَاىَ قَالَ «مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ».

قُلْتُ يَا نَبِىَّ اللَّهِ وَمَا لِي لاَ أَبْكِي وَهَذَا الحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لاَ أَرَى فِيهَا إِلاَّ مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ.

فَقَالَ «يَا ابْنَ الخَطَّابِ أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا». قُلْتُ بَلَى - قَالَ - وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الغَضَبَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ

مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالمُؤْمِنُونَ مَعَكَ وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللَّهَ بِكَلاَمٍ إِلاَّ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ «لاَ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ المَسْجِدَ وَالمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالحَصَى يَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ قَالَ «نَعَمْ إِنْ شِئْتَ». فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلْتُ فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالجِذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ فِي الغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ. قَالَ «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ». فَقُمْتُ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الأَمْرَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ (١).

ويُبَصِّرُنا قوله تعالى جده: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء:٨٣) بأن الإشاعات الباطلة من أهم أدوات الشيطان، التي يبثها جنوده من الجن والإنس؛ لتحويل البشرية إلى أتباعٍ أذلاء له دون أن يشعروا، والاستثناء يُبَصِّرُنا بخطورة الخطة الشيطانية في الإضلال؛ إذ يعود إلى الاتِّباع وإلى المتبعين والمعنى: لاتبعتم الشيطان في أموركم إلا قليلًا منها وإلا قليلًا منكم.

(١) صحيح مسلم (٤ / ١٨٨) برقم ١٤٧٩.

فالحياة معركة مع الشيطان مهما حاول أتباعه أن يبعدوا عنا هذه الحقيقة، وإذا أدركنا أننا في حالة عداوة مع عدو لا نراه لجأنا إلى فضل الله ورحمته لنستمد منهما الثبات، وامتلأت نفوسنا بضرورة الاستقامة على المنهج القرآني للفوز في هذه المعركة، ومما يفتح لنا فضل الله ورحمته تطبيق البصائر القرآنية في استراتيجية أخذ الحذر، فهي الكفيلة بحماية الأمن الشخصي والقومي للمسلمين، وتأمل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣)، فالفضل الزيادة على جوهر الشيء، فالله أنزل علينا القرآن، وزادنا فعصمنا بالتمسك به، والرحمة تدل على الإنعام. والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] يدلك على خطورة الخطة الشيطانية التي يمارسها لإضلال العالم، وقد جاء هذا الاستثناء متأخرًا، فبصَّر المفسرين بمعانٍ متعددةٍ له لا يمكن أن تظهر إلا إذا وضع الاستثناء في ذلك الموضع؛ إذ يمكن أن يرجع إلى عددٍ من الكلمات قبله:

فالمعنى الأول: الاستثناء يرجع إلى قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ أي إِلَّا قَلِيلًا، فَأَخْرَجَ الله تَعَالَى الأفراد المؤمنين الراشدين الذين يعيشون في المجتمع من أن يتبعوا خطوات الشيطان فيذيعوا ما يتعلق بالأمن أو الخوف، وبين أن عقولهم أكبر من أن يتكلموا فيما لا يعلمون أو فيما لا يفهمون أو فيما قد يسبب المشاكل لهم أو لمجتمعهم.

والمعنى الثاني: الِاسْتِثْنَاءُ عَائِدٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي إِلَّا قَلِيلًا.. والكلام واضحٌ وصحيح ويبصر المسلمين بأنه ليس كل عالمٍ أو خبيرٍ مستنبط لا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٧٧)، وبين شاكر أن قوله «يدي» (بضم الياء وكسر الدال، والياء المشددة) أو (بفتح الياء وكسر الدال وتشديد الياء)، جمع «يد» الأول جمعها على وزن «فعول»، مثل فلس وفلوس، والثاني جمعها على وزن «فعيل» مثل عبد وعبيد. كأنه قال: كثير أيدي النوال.

بد أن يستنبط في كل شيء بل قد يغفل في مسألة من المسائل ويستنبط في أخرى.. وهذا الفهم الرائع للآية يقتضي أن يحاول المسلمون إعمال الفكر الجماعي، وألا يقتصروا على الأفراد في الاستنباط مهما بلغ إنسان من سابقة العلم أو الرسوخ في البلاء الدعوي.

والمعنى الثالث: الاستثناء مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إلا قليلًا، والفضل بعثة النبي ﷺ، والرحمة القرآن، فلفظ الفضل والرحمة عامان ويراد بهما هذان الأمران المخصوصان، والمعنى: ولولا بعثة النبي ﷺ وبصائر القرآن المجيد إلا قليلًا ممن منَّ الله عليهم بالعقل الصادق، والبقاء على الفطرة السليمة فثبتوا على الحنيفية الإبراهيمية قبل بعثة النبي ﷺ مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة وبقايا من أهل الكتاب، وذكر الله تعالى ذلك في الحديث القدسي في قول النبي ﷺ: «أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ»[1]، فالفضل هنا هو التشريع العظيم الذي ينقذ المسلمين من الضلال، ويحمي جماعتهم من اتخاذ قرارات الوبال والخبال.

المعنى الرابع: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالاستثناء يرجع إلى أقرب مذكور، وهو المفهوم من قوله ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ﴾ فإما أن يراد به الاستثناء من الأَتْباع وإما أن يُراد به الاستثناء من الاتِّباع أي من الأمور المتبعة، ويكون المعنى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان جميعًا إلا قليلًا منكم فإنهم لا يتبعونه لما وضع الله في قلوبهم من النور، ولمجاهدتهم أنفسهم، فلا ينشرون الشائعات

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٥٨)، برقم ٢٨٦٥.

المتعلقة بمجالي الأمن والخوف، فهذا المعنى الرابع، وهو يُبَصِّرُنا بقلة الذين لا يتبعون الشيطان، فلا يغتر المرء بكثرة من حوله ممن ينتسب إلى الإيمان.

والمعنى الخامس: أن يكون الاستثناء من الاتباع أي من الأمور المتَّبعة ويكون المعنى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ في أموركم كلها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من هذه الأمور تقاومون فيها الشيطان، وهذا المعنى يُبَصِّرُنا بقدرة الشيطان على إغواء المؤمنين فضلًا عن غيرهم في كثيرٍ من الأمور الحيوية، فلا يغتر المرء بقدرته على مجاهدة الشيطان مثلًا في أداء الصلوات المفروضة فإنه ربما أغواه في إقامتها، ولا يغتر بمحافظته على الصيام والزكاة فإنه ربما أغواه فيما يتعلق بمجالي الأمن والخوف.

ولا يعني هذا أن الله يعطل الكيد الشيطاني؛ إذ ما زال الشيطان يُعمِل أدواته البشرية في إضلالكم لكن الله يفضح لكم كيده، ويكشف لكم أدواته، ويقذف في قلوبكم من نور الإيمان.. وذلك ينبهكم إلى الكيد الشيطاني، فتأخذوا حذركم من اتباعه. ثم عد ثانية إلى السياق الذي وردت فيه هذه الآيات المباركات وعمم الاستثناء ليدخل فيه جميعًا لتجد من المعاني المنصبة عليك:

ولولا فَضْل اللَّه عليكم بحصول النصر، ورحمته بتقوية عزائمكم لتتمكنوا من عدوكم في بعض دول الأيام لكنتم استجبتم للمبطئين الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ (النساء: ٧٢)، ولكنتم استجبتم للخائفين الذين ذكرهم في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء: ٧٧)، ولكنتم استجبتم للذين يبيتون غير الذي يقول النبي ﷺ، ولكنتم من الذين يذيعون الأمر من الخوف أو الأمن مما يزلزل المسلمين.. لولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم اتبعتم الشيطان، وأطعتم أتباعه، وأنتم ترون كثرتهم وقلتكم، وتمكنهم وضعفكم، وتقلبهم في البلاد وخوفكم.. لكن الله مَنَّ عليكم بفضله ورحمته، فثبتكم على دينكم الذي علمتم أنه لا يجب أن تكون له الدولة

والصولة ليكون حقًا.. ولولا فضل الله عليكم ورحمته بالثبيت لكم أحيانًا وبظفركم عليكم أحيانًا أخرى لاتبعتم الشيطان إلا قليلًا ممن استنارت قلوبهم ابتداء بمعرفة الحق من غير نظر إلى تمكن المؤمنين أو الكافرين[1].

ولولا فضل الله بزيادة إمدادكم بالثبات، ورحمته بالإنعام عليكم بالاستقامة على الحق لاتبعتم الشيطان إلا قليلًا كالراشدين الأربعة، فهنا فسرنا الفضل والرحمة بما هو الزيادة على أصل الإنعام بالهداية، وبذا نجمع بين هذه الآية التي فيها استثناء وبين قوله تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (النور: ٢١)، أي بفضل الله ورحمته في أصل الإيمان، وهنا ولولا فضل الله عليكم ورحمته بالزيادة على أصل الإيمان، فهنا نستثني لأن الزيادة على أصل الإيمان يمد الله به من يشاء، وأما أصل الإيمان فهو أعطاكموه، أي أنه بعث لكم النبي ﷺ وأعطاكم القرآن.

القانون الثامن: يجب الاستفادة من الاستراتيجية النبوية في صنع السلام، فمن

---

(١) ونحو هذا المعنى قرره أبو مسلم الأصفهاني، ونقله عن الرازي في تفسيره معجبًا به (١٠/ ١٥٦)، وأنت ترى أنني ملت إلى الجمع بين المعاني، ونقل الطبري -رحمه الله- معنى استبعده هو أن الاستثناء ليس على ظاهره، فكل من لم يتبع الشيطان فإنما اجتنبه بفضل الله ورحمته، والاستثناء دليل على الملك والقوة والإحاطة، وأنه لولا فضل الله عليهم ورحمته لم ينج أحدٌ من الضلالة، واستشهدوا على ذلك بقول الطرِمّاح بن حكيم، في مدح يزيد بن المهلب:

أَشَمُّ كَثِيرٌ يُدِيِّ النَّوَالِ قَلِيلُ المَثَالِبِ وَالقَادِحَهْ

قالوا: فظاهر هذا القول وصف الممدوح بأن فيه المثالب والمعايب، ومعلوم أن معناه أنه لا مثالب فيه ولا معايب. لأن من وصف رجلًا بأنّ فيه معايب، وإن وصف الذي فيه من المعايب بالقلة، فإنما ذمَّه ولم يمدحه. ولكن ذلك على ما وصفنا من نفي جميع المعايب عنه. قالوا: فكذلك قوله: «لاتبعتم الشيطان إلا قليلًا»، إنما معناه: لاتبعتم جميعكم الشيطان وربط محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٥/ ٢٤٦) بين هذا المعنى وبين قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى: ٦، ٧) قال: « فَالِاسْتِثْنَاءُ دَلِيلُ الإِحَاطَةِ، أَقُولُ: أَوْ كَمَا يَقُولُ الأُصُولِيُّونَ: مِعْيَارُ العُمُومِ، أَيْ: فَهُوَ لِتَأْكِيدِ مَا قَبْلَهُ.

ولكن الطبري عقب على هذا الرأي بعد نقله بقول: «وغير جائز أن نحمل معاني كتاب الله على غير الأغلب المفهوم بالظاهر من الخطاب في كلام العرب»

مبادئها إيجاد حالة توازن الردع بالجمع بين التكليف العسكري لكل فردٍ قادرٍ، والتعبئة القتالية وإظهار الرغبة في السلام في الوقت ذاته. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ (النساء:٨٤)، فتخلف الآخرين لا يعني سقوط الواجب عن القادر حسب طاقته، وهنا تظهر استراتيجية الردع بصورة فعالة؛ إذ سيشعر العدو بالرعب عند علمه بأن كلَّ فردٍ موجودٍ سيظل يقاوم مهما اقتضت التضحيات، وبذا ينزل التوفيق الإلهي لكف بأس المعتدين، وانتزاع حقوق المستضعفين.

لا بد أن نشير إلى المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها؛ إذ الفاء في قوله ﴿فَقَٰتِلۡ﴾ تشير إلى ارتباط جاد، مع أن المرء ربما استبعد الارتباط بسبب فحوى الآية:

بين الله جل جلاله فيما سبق ضرورة الحفاظ على الأمن من خلال استراتيجية أخذ الحذر من انتشار الدعايات الإعلامية المضللة، والشائعات السيئة في مجالي الأمن والخوف، وحذر من التلاعب بالقوانين والنظم، بالموافقة عليها ظاهرًا ومخالفتها واقعًا، ونبه إلى العناصر التي تحرف كلام القيادة النبوية، ولإشغال المجتمع عن انتشار الدعاية المضللة الخارجية والداخلية، ولإبعاد الأفراد عن التربية الغالية والمنحرفة يبين الله ضرورة التربية على الأمرين معًا: الاستعداد العسكري، والتعبئة العامة، وإظهار الرغبة في السلام في الوقت ذاته؛ لأن إشاعة السلام مقصودٌ أصليٌّ من مقاصد الإسلام؛ ولعل هذا أوضح درجات الاتصال بين آية التعبئة القتالية: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ (النساء: ٨٤) وآية الشفاعة ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾ (النساء: ٨٥)، وكذلك آية مقابلة التحية بمثلها ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ (النساء: ٨٦)، بل إنك من خلال هذا الفهم تدرك سبب ما قد تظنه إقحامًا لهاتين الآيتين في هذا الموضع، فلم

يُذكرا مثلًا في سورة الحجرات، أو في أواخر سورة الفرقان، والإقحام قد يقول به المرء مندهشًا؛ إذ ما قبلهما في التعبئة القتالية وما بعدهما في ظروفٍ مماثلة وهو قوله تعالى جده: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ (النساء: ٨٨)، وأما آية التوحيد والمحاسبة وهي قوله تعالى ذكره: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۦۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ (النساء: ٨٧) فلا يستغرب مجيئها عند ذكر أي جانبٍ من جوانب التشريع الإيمانية أو الشعائرية أو التجارية الاقتصادية أو التعاملية أو الاجتماعية أو السياسية أو الجنائية؛ إذ هي تحكم ذلك كله.

ويزيد الأمر وضوحًا التشوف الشديد للبحث عن السلام مع الأطراف الأخرى مما سيرد في القسم الآتي مباشرة حيث يقول الله جل مجده: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ (النساء: ٩٠).

فقوله تعالى جده: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خطاب لك أيها القارئ، وأول قارئ يخاطب بهذا القيادة النبوية، وتطبيق ذلك من أعظم وسائل إنجاح استراتيجية أخذ الحذر؛ إذ إن ذلك يؤدي إلى إقامة حالة الردع للعدو المتربص داخليًا وخارجيًا، فهو يشعر بأن القائد قد بلغ أقصى درجات الحذر والجدية، وأن كل فردٍ يقرأ القرآن يحافظ على أمن المجتمع ويشعر بأنه مخاطبٌ بذلك الواجب بغض النظر عن تثاقل الآخرين، وجمعت هذه البصيرة القرآنية بين التكليف الفردي مهما تثاقل الآخرون وبين التعبئة العامة،

والفاء توضح الارتباط التام بين هذه الآية وما قبلها، والتقدير:

قد أوجب الله عليكم أن تطبقوا استراتيجية أخذ الحذر﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ وذلك يقتضي التربية العسكرية الكاملة التي تعني تقسيم الجيوش

إلى مجموعات، وعند تحتم المواجهة قد يكون النفير على هيئة مجموعات، وقد يكون حشدًا لجميع الجيش، واستنفارًا لكل العناصر ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ (النساء: ٧١)،

وتطبيق استراتيجية أخذ الحذر يقتضي القدرة على المواجهة مهما كانت النتائج ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤)

واستراتيجية أخذ الحذر تقتضي الدفاع عن القضايا العادلة في كل مكان، وإنقاذ المستضعفين من أيدي المضطهدين ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥)

والفارق بين قتالكم وقتال المجرمين أنكم تقاتلون في سبيل الله لإنقاذ الإنسانية بينما يقاتل المجرمون لزيادة الطغيان، وإشباع أنفسهم المريضة الأنانية، وإرضاء الشيطان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦)

والقتال ليس حياة المسلمين بل يجب أن يكف المسلمون أيديهم ويعلموا العالم بمحبتهم للسلام ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النساء: ٧٧)، ولكنه يحرم التخلف عن القتال وقت تحتمه، وساعة وجوبه ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (النساء: ٧٧)

فإذا طبقتم هذه الاستراتيجية واتبعتم تلك التكاليف فترقبوا النتيجة العاجلة أو الآجلة: إنها الردع والدفع والرفع، ويُبَصِّرُنا الله بها بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فخيار حماية المستضعفين ورد العدوان لا يسقط بأي حال ما دامت مقتضياته موجودة مهما قل الأنصار؛ إذ هو الأساس لاستجلاب نصر الله تعالى بكف أذى المعتدين، فليس على الرسول ﷺ ذنب إذا بلغ وحرض ثم لم يطعه أحد، وهذه الآية من أقوى الآيات في وجوب نصرة المستضعفين، ولو لم يترتب على تلك النتائج خلافًا لما قرره الرازي ﷺ من «أَنَّ الجِهَادَ فِي حَقِّ غَيْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ فُرُوضِ الكِفَايَاتِ، فَمَا لَمْ يَغْلِبْ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ يُفِيدُ لَمْ يَجِبْ، بِخِلَافِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ عَلَى ثِقَةٍ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ» [١] فهذا فهم غريب بعيدٌ عن السياق، وحرر ابن عطية المسألة فقال: «هذا أمرٌ في ظاهر اللفظ للنبي ﷺ وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة مدة ما، المعنى- والله أعلم- أنه خطاب للنبي ﷺ اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه، أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر أن يجاهد ولو وحده» [٢].

فهل ذلك يعني أن الإنسان لو بقي وحيدًا فيجب عليه أن يندفع وسط المعتدين، وقد يؤدي بنفسه إلى الهلكة؟

الإجابة على هذا تجبرنا على التفصيل وفق الأدلة المختلفة؛ فإذا أراد العدو أن يجتاح المؤمنين لا محالة، وهرب مجموعة من المؤمنين دون أن يتحيزوا إلى فئة، وإنما هو هروب يتبعه هروب، كل ما دخلوا مكانًا دخل العدو فيه، فهذا ليس تحيزًا إلى فئة، بل هو تولية للأدبار، ففي هذه الحالة يحرم الفرار من الزحف، وبقاء المرء وحيدًا في المعركة من أعظم العبادات التي يباهى بها يوم القيامة كما بين النبي ﷺ ذلك في:

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٥٧)، وهو رأي نسبه القرطبي إلى الزجاج.

(٢) تفسير ابن عطية (٢/ ٨٦).

«ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يشنؤهم الله عزَّ وجلَّ -فذكر فيهم- الرجل يلقى العدو في الفئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه» وفي رواية الترمذي: «ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا وأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له»[1]، وهالك معذور خير من ناجٍ فرور.

فهنا لا مجال للانسحاب ولو بقي المرء وحيدًا؛ إذ لا يوجد مجال لتطبيق الأمرين المذكورين في جواز الانسحاب في قوله تعالى ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (الأنفال: ١٥، ١٦).

وأبرز مثالٍ على ذلك أدى إلى نتائج كارثية عندما هجم التتار على المسلمين، فكان المسلمون يهربون فيجتاح التتار، ويتقدمون حتى دمروا نصف العالم.. فليتفكر القوم فالحال كما قال الله جل جلاله: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ (هود: ٨٩) يهربون، فيجتاح العدو المدينة، فيهرب هؤلاء يزعمون أن الحكمة تقتضي الهرب، ثم يهربون فيجتاح العدو التي بعدها ثم يهربون، حتى ينتهي البلد بأسره.. ولابتعاد الناس عن المنهج القرآني، والتطبيق النبوي في فهم كيفية بسط أنوار السلام في أزمنة الحرب ترى العدو ينصر بالرعب مع أن هذا إنما كان من خصائص هذه الأمة.

وإنما يجوز الانسحاب عندما يكون الانسحاب حقًا انسحابًا تكتيكيًا كما فعل خالد بن الوليد عندما انسحب في معركة مؤتة وخرج بخسائر غير متوقعة للجيش

(١) أحمد(٥ / ١٥١) برقم ٢١٣٧٨ وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف، سنن الترمذي (٤ / ٦٩٨) برقم ٢٥٦٨، ورواية الحاكم ذكرها الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦ / ٢٣) برقم ٣٤٧٨.

عند الطرفين، حتى قيل بأنه لم يقتل من المسلمين إلا ثمانية أو اثنى عشر رجلًا من مجموع ثلاثة آلاف قابلوا عدداً ضخماً من العدو، فقيل مائة ألف مقاتل وقيل أكثر من ذلك، فالانسحاب التكتيكي يؤدي إلى الالتفاف على العدو بإيهام العدو بالانسحاب ثم إيقاعه في مصيدة مباشرة أو غير مباشرة، فإن كان الجيش باسطًا سيطرته على عشر مدن فانسحب من المدينة الأولى بزعم أنه انسحاب تكتيكي إلى المدينة الثانية، ثم جاء العدو إلى المدينة الثانية فتم الانسحاب إلى المدينة الثالثة وهكذا حتى فقد كل ما عنده.. فالانسحاب الأول لم يكن إلا فرارًا من الزحف لا انسحابًا تكتيكيًا، والبلاء بعد ذلك سيكون عظيمًا، وهذا ما حصل عندما اجتاح التتار بلاد سمرقند، ثم أفغانستان ثم خراسان، وهكذا حتى وصلوا إلى العراق، والناس الذين يقدرون على القتال ينسحبون، والبقية يبقون تحت رحمة عدو متوحش يُعمل فيهم القتل والسبي، فهناك فرق بين الانسحاب التكتيكي الذي ذكره الله في سورة الأنفال، وبين الانسحاب التام الذي يعني الهزيمة الأسوأ، وهنا تأتي هذه الآية ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، وفهم ذلك البراء بن عازب فعن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا! لأن الله عزَّ وجلَّ بعث رسوله ﷺ فقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ إنما ذاك في النفقة [1]، وقد فرض الله القتال على المؤمنين جميعًا بقوله: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ (النساء: ٧٤).

وقد بين النبي ﷺ أن الحرب ليست ضمن أهدافه، بل هدفه السلام، لكن هذا لا يعني عدم الاستعداد العسكري أمام العدوان المجرم، فقال لرسل قريش: «وَإِنَّ قُرَيْشًا

(١) أحمد (٤ / ٢٨١).

قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاؤوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلاَّ فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا؛ حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ»[1] ومعنى (جموا) أي قووا، والسالفة صفحة العنق، ويحتمل أن يكون أراد أنه يقاتل حتى ينفرد وحده في مقاتلتهم.

والخطاب للنبي ﷺ ابتداء هنا لبيان أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ، فليس بمسيطر على تصرفات أتباعه، وأن واجب القائد باعتباره قائدًا لا يسقط إن لم يستجب له، وأنه يجب إظهار المؤمنين لأنفسهم بمظهر القوة الحقيقية وعدم التنازل عن المبادئ مهما ضعفت الاستجابة لهم في وسط المجتمع، ويظهر الاتصال بينًا بقوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (النساء: ٨٠)؛ إذ الكلام عن طاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستمرٌّ، وأنها أساس في الأمن القومي للمسلمين، فإن لم يطعه أحد فيجب عليه أن يؤدي ما عليه، ولو لم يبق إلا وحده.

وتعال بنا لننظر الجمال البياني في كلمة ﴿حَرِّضِ﴾، فهي مشتقةٌ من حَرَضَ يَحْرُضُ أو حَرِضَ يَحْرَضُ إذا اهتم بشيء واندفع لتحقيقه بقوة بكل مشاعره، فينفعل ويهتاج للوصول إلى ذلك، ومن ذلك ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ (يوسف: ٨٥)، فقالوا في (الحَرَض) هو الذي أذابه الحزن والمشاعر، وأَحْرَضَهُ الحب أي أفسده، كما قال العرجي:

إني امـرؤ نـابـني هـم فـأحرضـني حتى بليت وحتى شفني السقم

فيكون التَّحْريضُ على القتال: الحثُّ والإحماءُ عليه بشدةٍ وحرصٍ، وتزيينٍ

(١) البخاري (٣ / ٢٥٣)، وفي مقدمة الفتح (١ / ٩٧): «جموا بالفتح وتشديد الميم، أي: استراحوا، ومنه قوله: مجمة للمريض بكسر الجيم وفتحها وفتح الميم، فإن ضممتها كسرت الجيم، أي: مريحة».

وتسهيل الخطب فيه، وكأنهم إذا خَالَفُوهُ أحرضوا ففسدوا وأُهْلِكُوا[١].

ومن التحضيض بيان الأجور المدهشة التي تنتظر المجاهد في سبيل الله حيث كان النبي ﷺ يحرض على الجهاد فيقول: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[٢].

ومن التحضيض ما ورد عنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِىَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ». فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَىَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا العَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». قَالَ: وَمَا هِىَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٣].

وكان النبي ﷺ يحرض، فيقوم بالتعبئة العامة محافظة على أمن المجتمع، وإبقاء لجانب القوة مشتعلًا في حياة الناس، ولكن الجهات الخاطئة تستخدم هذه النصوص للتغرير بشباب المسلمين، وللإفساد في الأرض، وكم تدخلت المؤسسات المخابراتية التي تستخدم الأساليب القذرة لإيقاع بعض الشباب في الغلو، ثم استخدام مثل ذلك ذريعة لتكوين (الإسلامفوبيا)، وقد وجب أن يحذر المسلمون

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٤١).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٩) رقم ٢٧٩٠ .

(٣) صحيح مسلم (٦ / ٣٧) رقم ١٨٨٤ .

من الغلو كما يحذرون من الفسق والجفاء، وأن يحذروا من التلاعب بالنصوص، فبعضهم يأخذ مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) ليحل ما حرم الله ويبيحه، ويسوغ الفسق، وبعضهم يستخدمون هذه النصوص التي تحض المسلمين على الجهاد في سبيل الله، لاستخدامها في غير مواضعها، وحسبك أن تفهم النص القرآني وفق الذي حدده النص نفسه، وطبقه الرسول ﷺ، وليس حسب الأهواء.

وختم الله هذا القانون بتبصيرنا بالاعتماد على بأس الله وتنكيله بعد تمام الاستعداد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

فالتحريض، والتعبئة العامة يؤديان إلى اختيار الأفراد الذين يستجيبون للقيام بمتطلبات الأمن العام طواعية لا جبرًا، وبذا يبقى الصادقون قائمين بعبء الحماية دون خوفٍ من اختراق، وهنا تأتي النتيجة المتوقعة للقيام بالواجب ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وعسى من الله تدل على تحقق ما بعدها في الواقع، ولكنه تحقيقٌ مبنيٌّ على تعليق أي: لا بد من ضرورة الإعداد، وحتى لا تحجبك الأسباب المادية والبشرية عن المسبب يختم الله ذلك بقوله ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ ليبين ضرورة الاعتزاز بالله وانتظار مدده بعد بذل الأسباب، فالله أشد بأسًا أي قوة من مكر عدوك، ومن قوة صديقك، وهو أشد تنكيلًا، أي: منعًا لإفساد المفسدين، ولكنه يختبركم لتكونوا أدوات هذا المنع، فقد قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ (التوبة: ١٤)، و(التنكيل) من قولهم: نَكَّلْتُ بِهِ تَنْكِيلًا، ونَكَالًا فعلت به مَا يَمْنَعُهُ مِنَ المُعَاوَدَةِ وَيَمْنَعُ غَيْرَهُ مِنْ إِتْيَانِ مِثْلِ صَنِيعِهِ، كأن عَاقَبْتَهُ فِي جُرْمٍ أَجْرَمَهُ عُقُوبَةً تُنَكِّلُ غَيْرَه، فنَكَلَ عَن الأَمْرِ يَنْكُلُ عَنْهُ نُكُولًا: إِذا جَبُنَ عَنْه وامتنع، و«نكلت

بفلان، فأنا أنكّل به تنكيلا»، إذا أوجعته عقوبة؛ لينكلَ غيرُه عن الشيء، أي: ليمتنع ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ (النساء: ٨٤) يعني عقوبة تمنع الناظرين لها أو السامعين عنها من أن يعاودوا إلى ارتكاب جرائم مماثلة لجرائم من قبلهم.

وموضع هذا التذييل للآية عجيب وعظيم؛ لاحظ قوله تعالى ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ينبغي أن تجتهد فيما يجب عليك أثناء المعركة ولا تلتفت لمن يتخلف عنك ممن حولك ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فإن كثيرًا من أصحاب الموازنات الخاطئة يحسبون الحسابات المخيفة عندما ينظرون إلى واقعهم مقارنين ذلك بواقع غيرهم غير عابئين بمقتضى العقيدة الإيمانية من نصرة الله وتوفيقه، وقوته، وتكون هذه الحسابات مدمرة لوجودهم الحقيقي، فيذكرهم الله بصيغة التفضيل بأنه أشد بأسًا ممن يخافون، هل يعني هذا أن البشر لهم شدة؟ نعم لهم شدة لكنها لا شيء.. ليست حقيقية أمام شدة الله عزَّ وجلَّ، وهو أشد تنكيلًا ممن يرتعدون من قواهم، مع أن صيغة التفضيل هنا لا حقيقة لها؛ إذ لا موازنة بين قوة الخالق، وقوة المخلوق.

لماذا هذه التعبئة العظيمة للقتال في سبيل الله؟

للحفاظ على الأرض لئلا يتم الإفساد فيها أو تسفك فيها الدماء، وللحفاظ على الجنس البشري ليتكاثر ويعمر الأرض، ولانتزاع حقوق المستضعفين من كبار مجرمي العالم، ومستكبريه، ولإحلال السلام، فأعظم سبل ترك القتال الاستعداد للقتال، وهو الذي يسمى توازن الردع، وفي أيامنا ترى توازن الردع مباحًا لجميع أهل الأرض إلا للمسلمين، وتسمع توازن الرعب النووي، لماذا لا يكون هذا لجميع شعوب أهل الأرض؟ لماذا يكون لكيانات وأنظمة محددة وهي الأكثر جنونًا في العالم، وفق ما نراه في أيلولة الحضارة المعاصرة وواقعها.

وتعال إلى صفحات النور لترى التطبيق النبوي العملي لهذه الآية التي تنقلك لتعيش في رحاب رسول الله ﷺ:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ أُحُدٍ وَبَلَغُوا الرَّوْحَاءَ، قَالُوا: لاَ مُحَمَّدًا قَتَلْتُمُوهُ، وَلاَ الكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ، وَبِئْسَ مَا صَنَعْتُمُ ارْجِعُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَنَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الأَسْدِ وَبِئْرَ أَبِي عِنَبَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ (آل عمران: ١٧٢) وَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا، فَأَمَّا الجَبَانُ فَرَجَعَ، وَأَمَّا الشُّجَاعُ فَأَخَذَ أَهْبَةَ القِتَالِ وَالتِّجَارَةِ، فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ أَحَدًا وَتَسَوَّقُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[١].

وعن عَائِشَة رضي الله عنها ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قَالَتْ لِعُرْوَة: يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ، وَأَبُو بَكْرٍ لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، قَالَ: مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا قَالَ كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَالزُّبَيْرُ[٢].

ويحكي الواقدي كيف كانت القيادة النبوية في مقدمة الصفوف على الرغم من الجراحات الخطيرة التي أصابت النبي ﷺ وكيف حرض النبي ﷺ المؤمنين على القتال، فلَمّا صَلّى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصّبْحَ يَوْمَ الأَحَدِ وَمَعَهُ وُجُوهُ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَكَانُوا بَاتُوا فِي المَسْجِدِ عَلَى بَابِهِ- سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَحُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَأَوْسُ بْنُ خَوْلِيّ، وَقَتَادَةُ بْنُ النّعْمَانِ، وَعُبَيْدُ بْنُ أَوْسٍ فِي عِدّةٍ مِنْهُمْ. فَلَمّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الصّبْحِ أَمَرَ بلالا أن يُنَادِي: إنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ

(١) السنن الكبرى للنسائي (١٠ / ٥٥) برقم ١١٠١٧.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ١٣٠) برقم ٤٠٧٧.

بِطَلَبِ عَدُوِّكُمْ، وَلَا يَخْرُجُ مَعَنَا إِلّا مَنْ شَهِدَ القِتَالَ بِالأَمْسِ. قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَاجِعًا إِلَى دَارِهِ يَأْمُرُ قَوْمَهُ بِالمَسِيرِ. قَالَ: فَلَمّا نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ وَالجِرَاحُ فِيهِمْ فَاشِيَةٌ قَالَ: اللهُمّ ارْحَمْ بَنِي سَلِمَةَ!

هذا التطبيق النبوي للأمر الإلهي ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قلب الموازين فاستحالت الهزيمة في أحد فوزًا عظيمًا.

القانون التاسع: يجب أخذ زمام المبادرة إلى نصرة أصحاب القضايا العادلة، ببذل الشفاعة لهم، وهي تعني القيام بكل ما يُستطاع؛ لإنجاح الأعمال بدعم القيادات الراشدة، وشفعها بالعاملين، أو الشفاعة لقضاء حاجة المحتاجين، إذ هي من الشفع الذي يعني جعل الفرد شفعًا. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾ (النساء:٨٥).

فالشَّفع يدل عَلَى اقتران شَّيْئَيْنِ، ولذا يقال للزوجي من العدَد: شفع، فيقال:كَانَ وِترًا فشفعته بآخر، فالشافع الذي انضم لغيره ليعضده ويساعده في تحقيق المطلوب كما قَالَ الأَعْشَى:

واستشفعتْ من سَراة الحيّ ذَا شرفٍ فقد عَصاها أَبوهَا وَالَّـذِي شَفَعا[1]

فحقيقة الشفاعة أن تنصر غيرك، وتشفع فرديته، والكلام هنا عن النصر في القتال، لكنه يشمل كل نصر حتى في القيام بالشفاعات لقضاء الحاجات، وَيمكن أن تكون الشفاعة بالعكس بمساعدة المعادين، فقد حُكِيَ: إِنَّ فُلَانًا يَشْفَعُ (لِي) بِالعَدَاوَةِ، فالشَّفَاعَةُ: الوَسَاطَةُ فِي إِيصَالِ خَيْرٍ، أَوْ دَفْعِ شَرٍّ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِطَلَبٍ مِنَ

(١) ديوان الاعشى (٣١/ ١).

المنْتَفِعِ أَمْ لَا[1]، فإما أن تكون الشفاعة لتنمية المجتمع، إن كانت في مكانها، وإما أن تكون لتدمير الإنجازات، إذا كانت فاسدة، والشَّفَاعَةُ بذلك أن تصير غيرك شفعًا بعد أن كان وترًا فردًا لا أنيس له مع احتياجه، فيشمل ذلك أن تنصره بنفسك، أو أن تشفع له أي تكون واسطة في إِيصَالِ خَيْرٍ له أَوْ دَفْعِ شَرٍّ عنه ليستطيع إنجاز أهدافه، سَوَاءٌ كَانَتْ بِطَلَبٍ مِنَ المُنْتَفِعِ أَمْ لَا، وسواء أكانت بحقٍّ أم بباطل.

والشفاعة تدل على القيام بكل ما يستطاع؛ لإنجاح الأعمال بدعم القيادات الراشدة، وشفعها بالعاملين، أو الشفاعة للمحتاجين لإيصالهم إلى المكان المناسب لهم، فهذه تدخل في التحريض، فالله -تعالى مجدُه- كما أمرك أن تستقيم بما قمت بالتحريض عليه ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء: ٨٤) يحض الله جل عزه المستمعين أن يقوم بعضهم ليؤيدك، فإن قام بعضهم لتأييدك فشفعك في عملك فيتحمس الآخرون لفعل الأمر ذاته، وهذا ما حصل عندما حرض النبي ﷺ على الصدقة، فلم يتقدم أحدٌ حتى تغير وجه النبي ﷺ، فعزز الله نبيه بواحد من الأنصار شفع بتحركه حيث جاء بصرة من ذهب، فانثال الناس من كل حدب وصوب؛ لأجل التقديم والإعانة بالصدقات حتى تهلل وجه النبي ﷺ فعن جرير رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قال: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ -يلبسون النمار: جمع نمرة وهى كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب- أَوِ العَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الفَاقَةِ فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلاَلًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، وَالآيَةَ الَّتِي فِي الحَشْرِ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر: ١٨). تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٣).

دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ (وهو الشيء المموه بالذهب) ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1].

وذكر الشَّفَاعَةَ في هَذَا السِّيَاقِ؛ لِأَنَّ الشفاعة قد تؤثر إيجابًا وسلبًا في نجاح القيادة النبوية وكل قيادة في التعبئة العامة التي قال الله ﷻ عنها من قبل: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النساء: ٨٤)؛ فإن كانت الشفاعة حسنة أدَّت إلى النجاح وإذا كانت شفاعةً سيئةً، فقد تبعد الناس عن واجباتهم، وتزين السوء وتؤدي إلى الفشل في الإدارات إذا كانت شفاعة سيئة، إذ قد تتم الشفاعة للإعانة على القيام بالواجبات سواء أكان ذلك في القتال كما في سياق الآيات، أم في غيره، وقد تؤثر بالعكس فيشفع الشافع لإبعاد الناس عن واجباتهم، وتزيين السوء والفشل في الإدارات.

فالفرق بين الشفاعتين:

أن الشفاعة الحسنة أَنْ يَشْفَعَ الشَّافِعُ ليصنع النجاح في الخير، ويزيل الضرر عن الغير كَإِزَالَةِ ضَرَرٍ أَوَ رَفْعِ مَظْلَمَةٍ أو تنمية مصلحة إنسانية، أو القيام بمَنْفَعَةٍ إِلَى مُسْتَحِقٍّ لا يترتب عليها ضَرَرٌ وَلَا ضِرَارٌ، أو نصرة الجدير بالنصر، ومن ذلك نصرة القائد الذي يحرض المؤمنين ولم يجد مستجيبًا له، وَالشفاعة السَّيِّئَةُ الشفع فيما يؤدي إلى تكريس الفشل، وإيقاع الضرر على الآخرين، كَأَنْ يَشْفَعَ في إِسْقَاطِ حَدٍّ، أَوْ هَضْمِ حَقٍّ، أَوْ

(١) أخرجه مسلم (٣ / ٨٧) برقم (٢٣٩٨) .

إِعْطَائِهِ لِغَيْرِ مُسْتَحَقٍّ، أَوْ مُحَابَاةٍ فِي عَمَلٍ، بِمَا يَجُرُّ إِلَى الخَلَلِ وَالزَّلَلِ[١]، ويحث الله على التشفيع للآخرين في الأمور الحسنة فيقول: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ فوعد الله بنصيبٍ من الأجر مماثل لكل واحدٍ شفع فيه، بل روى الطبري عن الحسن رحمه الله قال: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ كتب له أجرها ما جَرَت منفعتها[٢].

والآية تصنع وعيك لتكون في أعلى درجة من الإيجابية، بأن تشفع غيرك شفاعة حسنة لتكون النتائج الإيجابية مبهرة، وذلك يتحقق بأن ينضم إلى هذا الذي لا يكلفه الله إلا نفسه، أو يدعو إلى انضمام الناس أثناء التحريض على الخير، فيشفعه بنفسه وبغيره كما فعل صاحبا موسى عليه السلام ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣) فعن أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ»[٣].

وهذه الشفاعة الحسنة قد تسبب نتائج رائعة، فتؤدي إلى تقديم الشخصيات المؤهلة لأمكنتها اللائقة في الصف المسلم بشفاعةٍ حسنةٍ من المقربين من أولي الأمر، مع أن الشافع قد لا يمتلك مؤهلات المشفوع له بقوته واقتداره؛ لكنه ينبغي أن يذكر أن وصول المشفوع له إلى ما وصل إليه إنما كان بسببه، فكل خيرٍ يجري على يديه يكون له نصيب منه، ومثل أجره.

وفي المقابل ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ فمن ينهزم أو يرتكب ما يزيد الأمر سوءًا، فيقوم بالتخذيل والتبطئة عن الصالحات، يكون قد شفع نفسه أو شفع غيره فانضموا لصفوف الخاذلين المخذلين؛ فيكون له كفل من هذه الشفاعة

(١) انظر: تفسير المنار (٥/ ٢٥١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٨٢).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٤٠) برقم (١٤٣٢).

السيئة، و«الكِفْلُ» هو النصيب والحظ من الجريمة والوزر والإثم، وأصل الكلمة تدل عَلَى تَضَمُّنِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومِنْ ذَلِكَ الكِفْلُ كِسَاءٌ يُدَارُ حَوْلَ سَنَامِ البَعِيرِ، وَيُقَالُ هُوَ كِسَاءٌ يُعْقَدُ طَرَفَاهُ عَلَى عَجُزِ البَعِيرِ لِيَرْكَبَهُ الرَّدِيفُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ يَدُورُ عَلَى السَّنَامِ أَوِ العَجُزِ، فَكَأَنَّهُ قَدْ ضُمِّنَهُ، ومن ذلك الكَفِيلُ، وَهُوَ الضَّامِنُ، تَقُولُ: كَفَلَ بِهِ يَكْفُلُ كَفَالَةً. وَالكَافِلُ: الَّذِي يَكْفُلُ إِنْسَانًا يَعُولُهُ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران: ٣٧)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ (الحَدِيدِ: ٢٨) [١]، فالكفل هو الحظ المضمون، والنصيب الثابت المكفول الذي يكون ذخرًا للإنسان يكفله، فبئس كفالة السوء يدخرها الإنسان لنفسه، وذلك لأن «الشَّفَاعَةَ المُؤَدِّيَةَ إِلَى سُقُوطِ الحَقِّ وَقُوَّةِ البَاطِلِ تَكُونُ عَظِيمَةَ العِقَابِ عِنْدَ اللَّه تَعَالَى»[٢]، كما أن كلمة ﴿كِفْلٌ﴾ تدل على أنه متكفلٌ بجرائرها -كما يقول سيد قطب ﷺ : [٣]«فالآية تشير إلى الشفاعة في القتال أو إلى الشفاعة في التخذيل وتبييت غير الذي تقتضيه الأوامر النبوية، وتعم كل شافع بخير أو شر»[٤].

ما سبب ذكر كلمة ﴿نَصِيبٌ﴾للشفاعة الحسنة وكلمة﴿كِفْلٌ﴾ للشفاعة السيئة؟

النصيب القدر المحدد من نَصب الشيءِ: أقامه ووَضعُهُ وضعًا ناتئًا كنَصْبِ الرُّمْحِ والبِنَاء والحَجَرِ، قال النابغة الذُّبياني:

ظَلَّت أَقاطِيع أَنْعامٍ مُؤبَّلة لَدَى صليبٍ على الزَوْراءِ مَنْصُوب[٥]

فكلمة (نصب) تدُلُّ عَلَى إِقَامَةِ شَيْءٍ وَإِهْدَافٍ فِي اسْتِوَاءٍ، ولأن الشيء المنصوب

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٨٧).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ١٦٠).

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٧٢٥).

(٤) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٨١).

(٥) ديوان النابغة الذبياني (ص: ٤)٩٢).

يظل على حاله لا يتغير في إقامته يتخيل المرء معه لو كان الإنسان مكانه التعب والعناء، ولذا قالوا: النُّصْبُ والنَّصَبُ: التَّعَبُ: العَنَاءُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَزَالُ مُنْتَصِبًا حَتَّى يعْيا، وقرئ: ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص : ٤١)، والنَّصِيبُ: الحَظُّ المَنْصُوبُ أي: المُعَيَّنُ المحدد الذي صار في حكم المرصود لشخص فلا يمنع منه، ولا يحوزه غيره[1]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ (النساء : ٥٣) ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (آل عمران : ٢٣)، وهذَا نَصِيبِي، أَيْ حَظِّي. وَهُوَ مِنْ هَذَا، كَأَنَّهُ الشَّيْءُ الَّذِي رُفِعَ لَكَ وَأَهْدَفَ. فاختيار التعبير بالنصيب هنا:

أولًا: يتناسب مع الأنصبة التي قسمها الله في الحقوق التي جعلها للرجال والنساء من الإرث وغيره بداية من قوله جل ذكره: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ (النساء: ٧).

ثانيًا: يدل على أن الخير والأجور المترتبة على الشفاعة الحسنة ستكون كالشيء المنصوب الظاهر الذي يعود للشافع؛ إذ قد يترتب على شفاعته الأضعاف المضاعفة من الخير بسبب المشفوع له.

ثالثًا: يدل على أن الشفاعة الحسنة قد يقترن بها النصب أي: التعب والإعياء؛ لتحقق أهدافها، فلا يحجزه النصب عن رؤية الفجر في النصيب الذي سيحصل له من الخير ورفعة المكانة عند الله جل في علاه.

وأما التعبير بكلمة ﴿كِفْلٌ﴾ في الشفاعة السيئة: فالكفل أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَضَمُّنِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، والكَفَالَةُ: الضّمان، تقول: تَكَفَّلَتْ بكذا، وكَفَّلْتُهُ فلانـًا، والكَفَل -محركة- العَجُز، ومِنْ ذَلِكَ الكِفْلُ: كِسَاءٌ يُدَارُ حَوْلَ سَنَامِ البَعِيرِ، وَيُقَالُ هُوَ كِسَاءٌ يُعْقَدُ طَرَفَاهُ عَلَى عَجُزِ البَعِيرِ لِيَرْكَبَهُ الرَّدِيفُ كأنه يضمن للراكب الثبات، وللبعير

(١) انظر: تفسير المنار (٥/ ٢٤٩).

الإمكانية المريحة لحمل راكبه، ونتج من إطلاق الكفل على الكساء أو على عجز الدابة أن يقولوا لِلرَّجُلِ الجَبَانِ كِفْلٌ، فهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي آخِرِ الحَرْبِ إِنَّمَا هِمَّتُهُ الإِحْجَامُ فيكون في مؤخّر الحرب بغية التأخر والفرار فَهَذَا إِنَّمَا شَبَّهَ بِالكِفْلِ؛ لأَنَّهُ مَحْمُولٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَشْيٍ وَلَا حَرَكَةٍ، شَبَّهُوهُ بِالكِفْلِ[1]، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَعْيَا فَنُطْنَاهُ مَنَاطَ الجَرِّ ثُمَّ شَدَدْنَا فَوْقَهُ بِمَرِّ[2]

وكأنه يحتاج إلى من يقوم به، ويهتم به كما يحتاج الكفل الذي على البعير إلى من يربطه، ويقيمه ليعين الآخرين. وبذا يكون اختيار التعبير بالكفل في الشفاعة السيئة هنا في قوله ﷻ: ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَا﴾:

أولًا: يتناسب مع حجم الضمان الذي سيتحمله الشافع، فالفساد الذي أوقعته شفاعته بتقديم المشفوع له على غيره يتفاوت من شخص إلى آخر، فهناك الفساد الذي سيحدثه المشفوع له، وهناك الفساد الذي سيحدثه سيطرة المشفوع له على مكانٍ لا يستحقه بدلًا من الصلاح الذي كان سيحدثه من يستحق الشفاعة الحسنة.. الشافع ضامن في ذلك كله.

فالكفل هو النصيب المحدد من الوزر الذي سيكتسبه، وهو مكفول مضمون لا يظن أنه يفوته، ولذلك قالوا: إن الشفاعة السوء تبدأ من طلب الشيء لمن لا يستحق وتصل إلى إعانة الجماعة المخذولة المخذلة المبطئة التي تبيت غير ما جاء في التوجيهات النبوية، وتشمل أداء الأمانات إلى غير أهلها، وتولية المسؤوليات لمن لا يقوم بحقها، والشفاعة التي يبطل به حق، ويحق بها باطل من أعظم مدمرات المجتمع.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص: ٧١٨).

(٢) انظر: لسان العرب ط دار المعارف (٦/ ٤١٧٦).

ثانيًا: يتناسب التعبير بالكِفْلِ مع المعنى السيء للكفل، فهو العجز أو الشيء الرّديء، بسبب أنّ الكفل لمّا كان مركبا ينبو براكبه صار متعارفا في كلّ شدّة، كالسّيساء، وهو العظم النّاتئ من ظهر الحمار، ويقال: لأحملنّك على الكفل، وعلى السّيساء، فيكون معنى الآية: من ينضمّ إلى غيره معينا له في فعلة حسنة يكون له منها نصيب، ومن ينضمّ إلى غيره معينا له في فعلة سيئة يناله منها شدّة[١].

ثالثًا: وقيل: الكِفْلُ الكَفِيلُ، ونبّه أنّ من تحرّى شرّا فله من فعله كفيل يسأله، كما قيل: من ظلم فقد أقام كفيلا بظلمه، تنبيهًا أنه لا يمكنه التّخلّص من عقوبته[٢].

رابعًا: أما قوله ﷻ في سورة الحديد: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ (الحديد: ٢٨) أي: كفيلين من نعمته في الدّنيا والآخرة، وهما المرغوب إلى الله تعالى فيهما بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (البقرة: ٢٠١) وقيل: لم يعن بقوله: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ أي: نعمتين اثنتين بل أراد النّعمة المتوالية المتكفّلة بكفايته، ويكون تثنيته على حدّ ما ذكرنا في قولهم: (لبّيك وسعديك)[٣].

ويرى الدكتور حسن جبل ﷺ أن المعنى المحوري يدور حول الادّعام على الشطر الخلفي من الشيء كالعَجُز للدابة والإنسان، ولُحِظ في الكساء المذكور أنه يدعَم الراكبَ على مؤخَّر ظهر البعير، أي يثبتّه[٤].

والظاهر عندي أنه لوحظ في التعبير عن الأجور في آية الحديد أن الله يحبو المؤمنين بكفلين من رحمته تثبتهم من الأمام والخلف أو عن أيمانهم وبين أيديهم

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص: ٧١٨).

(٢) السابق(ص: ٧١٨).

(٣) السابق (ص: ٧١٧).

(٤) المعجم الاشتقاقي المؤصل، دمحمد حسن جبل (٤/ ٩٠٩).

كما في نور الصراط يوم القيامة، والتعبير بالكفل هنا أقوى من التعبير بالنصيب، حيث يتصور المرء أنه أمر خارجي حيث تتضمن الشفاعة السيئة عون من لا يستحق لينال ما لا يحق، وذلك دعم له فكوفئ الشافع من جنس فعله؛ إذ يحمل وزره وأوزارًا متراكمة بسبب فساده، وإيصاله فاسدًا إلى مكان يفسد فيه بسبب شفاعته.

خامسًا: وكلمة نصيب في سورة النساء بنيت على الفرحة، وتنبئ عن عطاء، أما كلمة كفل فقد تدل على فرحة كما في سورة الحديد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ (الحديد: ٢٨)، أو على الحزن كما هنا، فكلمة ﴿كِفۡلُ﴾ تدل على ثقل شديد مضمون وعلى مسؤولية حقيقية، كما أن الكفل هو الكساء الذي يغطي سنام البعير، والكفيل يضمن غيره، فهو تنبيهٌ إلى مدى مسؤوليته عن نتائج هذه الشفاعة السيئة التي بها بطَّأ عن الخير، أو أسهم في زيادة الشر والأشرار.

و «الحُكُومَةَ الَّتِي تَرُوجُ فِيهَا الشَّفَاعَاتُ يَعْتَمِدُ التَّابِعُونَ لَهَا عَلَى الشَّفَاعَةِ فِي كُلِّ مَا يَطْلُبُونَ مِنْهَا لَا عَلَى الحَقِّ وَالعَدْلِ، فَتَضِيعُ فِيهَا الحُقُوقُ، وَيَحُلُّ الظُّلْمُ مَحَلَّ العَدْلِ، وَيَسْرِي ذَلِكَ مِنَ الدَّوْلَةِ إِلَى الأُمَّةِ فَيَكُونُ الفَسَادُ عَامًّا»[1].

والآية تحذر من الفساد الكبير الذي يحل بالمؤسسات والمجموعات الإسلامية من جراء الشفاعات السيئة التي يتم بها تولية المناصب، وتوزيع الأدوار على غير المتأهلين، مما ينتج عنها البوار والخسار والدمار، وهنا يبتعد من الصف المسلم المستنبطون الحقيقيون عندما توجد الشفاعة السيئة؛ إذ يصل بها من لا يستحق إلى منصب أولي الأمر المستنبطين فيدمرون الصف المسلم؛ إذ لا يستطيع أولئك اتخاذ القرارات المناسبة في اللحظات المناسبة. وبذا فإن الشفاعة قد تسبب أحسن النتائج إذا كانت حسنة، وتسبب أسوأ النتائج إذا كانت سيئة.

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٥١).

ولخطورة موضوع الشفاعة وإسهامها في صنع النجاحات أو تراكم الإخفاقات ختم الله بالتذكير بأخذ الحذر من رب البشر، الذي يحصي الأوقات والأعمال، فقال تعالى ذكره: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا﴾ (النساء: ٨٥).

فالمقيت القدير الذي يقوت الناس أي يمنحهم ما يقوتهم، ويقيم قواتهم ويمسكها لهم على قدر حاجتهم محصيًا لها، من (قوت) التي تدُلُّ عَلَى إِمْسَاكٍ، وَحِفْظٍ، وَقُدْرَةٍ عَلَى الشَّيْءِ، ومنه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ (فصلت: ١٠)، وَأَنا أقُوتُه، أَي: أَعُولُه برِزْق قَلِيل، وحَلَفَ العُقَيْلِيّ يَوْمًا فَقَالَ: (لَا وقائتِ نَفَسِي القَصير) ومِنه قَوْله: يَقْتاتُ فضْلَ سَنامها الرَّحْلُ أي يأخذُ الرَّحْلُ شَحْمَ سَنامِ هَذِه الناقةَ قَلِيلا قَلِيلا حَتَّى لَا يَبقَى مِنْهُ شيءٌ؛ لِأَنَّهُ يُنْضِيها، فمعنى المقِيت: الحَفيظ الَّذِي يُعطِي الشيءَ قَدْرَ الحَاجة مِن الحِفْظ[1]، وهذا يقتضي أن يكون شاهدًا على كل شيء يحفظه بما يعطيه من قوت فيقيته به، ويقال ما له قوت ليلة وقيت ليلة، كما يقتضي أن يكون حسيبًا على مقدار هذا القوت، ورجح الطبري ﷺ أن يكون معنى «المقيت»، القدير، واعتضد بقول للزبير بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءتِهِ مُقِيتَا[2]

أي: قادرًا. والمختار عندي أن قول الإمام الطبري لا يتناول كل معاني الاسم، فالمقيت أيضا الشاهد على كل شيء، يحفظه بما يعطيه في كل نفس يقتات فيه، ومن ذلك إحصاؤه لما يبيت، وما يظهر من تعضيد الناس في الخير، والدفاع عن حقوق المستضعفين، أو التعاون على الشر. وبناء على أوضحناه يكون معنى وكنت على مساءته مقيتا أي حفيظا شاهدا حسيبا أحسب أنفاسه لقوتي وبأسي كما يحسب

(١) تهذيب اللغة (٩/ ١٩٧).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٨٤).

المقيت حساب من يقوته، ومن ذلك قول السموأل بن عاديا فيما صحح روايته أبو سعيد السِّيرَافِيِّ:

رُبَّ شَتْمٍ سَمِعْتُهُ وَتَصَامَمْـ ـتُ وَغَيٍّ تَرَكْتُهُ فَكُفِيتُ
لَيْتَ شِعْرِي وَأَشْعُرَنَّ إِذَا مَا قَرَّبُوهَا مَنْشُورَةً وَدُعِيتُ
أَلِيَ الفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُو سِبْتُ. رَبِّي عَلَى الحِسَابِ مُقِيتُ[1]

أَيْ: أنني سأوقف على الحساب فيحصى ربي علي كما تحصى حاجة المرء لما يقتاته. وذكر القفال في مناسبة ختم الآية بهذا الاسم المبارك من أسماء الله عزَّ وجلَّ أنه تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِيصَالِ النَّصِيبِ وَالكِفْلِ مِنَ الجَزَاءِ إِلَى الشَّافِعِ مِثْلَ مَا يُوصِلُهُ إِلَى المَشْفُوعِ فِيهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلَا يَنْتَقِصُ بِسَبَبِ مَا يَصِلُ إِلَى الشَّافِعِ شَيْءٌ مِنْ جَزَاءِ المَشْفُوعِ، أو هو تَعَالَى حَافِظُ الأَشْيَاءِ شَاهِدٌ عَلَيْهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ[2].

والذي يظهر -مع هذا المعنى- أنه تعالى أراد أن يبين أنه يحصي الأشياء بدقة متناهية كما يحصى القوت الذي يأتي على مقدار الحاجة، ومن ذلك إحصاؤه لما يُبَيت وما يظهر من تعضيد الناس في الخير والدفاع عن حقوق المستضعفين، أو من مساعدة الناس في الشر.

القانون العاشر: مبادلة التحية في التعامل مع الناس أجمعين في السلم والحرب، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ (النساء:٨٦).

التَّحِيَّةُ تَفْعِلَةٌ مِنْ حَيَّيْتُ، أي: ناديت ببقاء الحياة، فالأَصْلُ تَحْيِيَةٌ مِثْلَ تَرْضِيَةٍ

(١) ديوان السموأل (ص / ٦).
(٢) تفسير الرازي (١٠/ ١٦٠).

وَتَسْمِيَةٍ، فَأَدْغَمُوا اليَاءَ فِي اليَاءِ، وَقَالَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ:

تُحَيِّيهِمْ بِيضُ الوَلَائِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَةُ الإِضْرِيجِ فَوْقَ المَشَاجِبِ [١]

وعَادَةَ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ أَنَّهُ إِذَا لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَالُوا: حَيَّاكَ اللَّه، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الحَيَاةِ كَأَنَّهُ يَدْعُو لَهُ بِالحَيَاةِ.. بِذَلِكَ، قَالَ عَنْتَرَةُ:

حَيِّيَت مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ[٢]

وَقَالَ آخَرُ:

إِنَّا مُحَيُّوكِ يَا سَلْمَى فَحَيِّينَا[٣]

فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ خص الله التحية بلفظ أجمل وأعلى وأرقى وأنقى وأبقى وهو السَّلَام؛ لأنها تتضمن السلام مع وجود الحياة معها، وفي تقديم كلمة السلام على المخاطب تقديم لاسم الله، وإشاعة للسلام؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ (الأَحْزَاب: ٤٤)، ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور: ٦١)، ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وَمِنْهُ قَوْلُ المُصَلِّي: التَّحِيَّاتُ للَّه، أَيِ: السَّلَامُ مِنَ الآفَاتِ للَّه[٤]،فقولنا في التشهد التحيات لله أي: تثبت الحياة الكاملة لله التي لا ينغصها شيء ولا تعتريها الآفات، فتحية الإسلام: السلام عليكم أجمل وأقوى من حياك الله، ورَدُّ الأَحْسَنِ أَنْ يَزِيدَ فَيَقُولُ: وعليكم السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، لِمَنْ قَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، ثم يزيد وبركاته لمن زاد في الابتداء كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عن البيت الكريم﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾، ويبين ذلك قول رَسُولُ اللَّهِ

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٨).

(٢) المعلقات العشر (٩ / ١).

(٣) ديوان الحماسة (١ / ٢٥).

(٤) تفسير الرازي (١٠/ ١٦١).

ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الـمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ - قَالَ-: فَذَهَبَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّه، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ» (١).

الـمناسبة والاتصال:

وتظهر المناسبة والاتصال بين آية التحية هذه مع جو السلم والقتال الذي قبلها والذي بعدها في الآيات في ثلاث جهات:

أما أولاها: فيدخل ضمن من تُرد عليه التحية المسلمون والمنافقون والمحاربون، فذكر الله المبطئين وأمر بالإعراض عنهم والحذر منهم، ولكنه بين هنا أن ذلك لا يعني عدم رد تحيتهم بأحسن منها أو ردها على الأقل لا يعني عدم التعامل معهم بالخلق الشرعي الحسن المتين المنضبط بالضوابط الشرعية، والتحية من أفضل وسائل زرع المحبة والمودة بين الناس، «وَمَعْنَى ﴿رُدُّوهَآ﴾ رُدُّوا مِثْلَهَا، لِظُهُورِ تَعَذُّرِ رَدِّ ذَاتِ التَّحِيَّةِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ (النِّسَاء: ١٧٦) فَعَادَ ضَمِيرُ ﴿وَهُوَ﴾ وَهَاءُ ﴿يَرِثُهَآ﴾ إِلَى اللَّفْظَيْنِ لَا إِلَى الذَّاتَيْنِ» (٢).

بل إن التحية مقدمةٌ رائعة لنزع فتيل الحروب المستعرة، فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ (الأَنْفَالِ: ٦١)؛ إذ يلتقي المسلم مع الآخرين غيره من المسلمين، والمسالمين، والمنافقين، والمعتدين، فيدخلُ كل هؤلاء ضمن من تُرد عليه التحية، فاستراتيجية أخذ الحذر لا تعني عدم رد التحية على المعتدين فضلًا عن غيرهم، ولا تعني عدم التعامل معهم

(١) البخاري (٤/ ١٦٠) برقم (٣٣٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٧).

بالخلق الشرعي الحسن المتين، المنضبط بالضوابط الشرعية، وفي ذكرها تخفيف على المسلمين في لقائهم المحاربين حال المفاوضات؛ إذ إن الآية بظاهرها تدل على جوازها حتى بين المسلمين والمحاربين خلافًا لأهل العلم الذين قالوا بضد ذلك، فرَد السَّلَامِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَاجِبٌ كَالرَّدِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ تَمَسُّكًا بِعُمُومِ الآيَةِ وَبِالأَمْرِ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي صَحِيحِ السُّنَّةِ[١].

وقد قال إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ لِأَبِيهِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾، وأما حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «لاَ تَبْدَءُوا اليَهُودَ وَلاَ النَّصَارَى بِالسَّلاَمِ فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ»[٢]، فيظهر أن ذلك لحالة خاصة تقتضي ذلك، وإلا فالخلق الحسن من الأمور القطعية.. أرأيت رجلًا غفر الله له بسقيا كلبٍ، فكيف بالتعامل مع من قال الله فيهم: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٣] .

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ قَالَ عَمَّارٌ: « ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ»، فالإسلام دين السلام. وهو لا يقاتل إلا لإقرار السلام في الأرض، بمعناه الواسع الشامل[٤]، ويدل لذلك ما ورد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[٥]، ويتم الرد حتى لو كان المراد من التحية السوء والعبث والكيد كما روى البخاري عن عَائِشَةَ، ﷺ،

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٣٠٤).

(٢) صحيح مسلم (٧ / ٥) رقم ٤٠٣٠ .

(٣) وقول الطبري في تفسيره (٨/ ٥٨٨): «وذلك أن الصِّحاح من الآثار عن رسول الله ﷺ أنه واجب على كل مسلم ردُّ تحية كل كافر بأخَسَّ من تحيته» قول لا تظهر وجاهته، والله أعلم.

(٤) في ظلال القرآن (٢/ ٧٢٦).

(٥) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٠) رقم ٢٨ .

زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكُمْ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: «وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ» ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»[1].

وأما ثانيها: فذكر القرطبي: « أَنَّهُ قَالَ: إِذَا خَرَجْتُمْ لِلْجِهَادِ كَمَا سَبَقَ بِهِ الأَمْرُ فَحُيِّيتُمْ فِي سَفَرِكُمْ بِتَحِيَّةِ الإِسْلَامِ، فَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا، بَلْ رُدُّوا جَوَابَ السَّلَامِ، فَإِنَّ أَحْكَامَ الإِسْلَامِ تَجْرِي عَلَيْهِمْ» [2].

وأما ثالثها: فهناك مناسبة جميلة تظهر في اتصال آية التحية بآية الشفاعة قبلها، فالشفيع يدخل على المشفوع عنده.. وكأن الله يحث المشفوع عنده أن يرد التحية؛ لتتم المؤانسة بين الطرفين، فتقضى الحاجة وتقبل الشفاعة، وفي إيجاب الرد زجرٌ لمن يأتي الناس إليه بشفاعاتهم الحسنة أن يضيق بكثرة الشفاعات، أو يتعالى عن ذلك لمكانته أو سلطانه، والعجيب من حال الناس هذه الأيام أن يبسط الله لهم في الجاه والعز والسلطان وبدلًا من أن يتخذوها مطية لآخرتهم ليسبق الناس في منازل الآخرة العلية يجعلونها وسيلة للتبرم وكثرة الشكوى من كثرة تردد المحتاجين عليهم.

ولأهمية الرد على التحية في إشاعة السلام في العالم يختم الله جل مجده الآية بالرقابة على محاولات مراوغة القوانين السابقة، فيذكر الناس بأنه حسيب على كل شيء. ويُبَصِّرُنا بهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء:٨٦)، فمرجع الحساب التفصيلي النفسي، والفكري إلى الله تعالى.

وهذا يذكر بالبعد الإيماني (العقدي) في موضوع حماية المستضعفين، وأخذ الحذر

(١) أخرجه البخاري (٤ / ٤٤) برقم (٦٠٢٤).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٨).

في التعامل مع الوحشية الرهيبة التي تجتاح العالم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٨٦) فتطيعوه في السلم والحرب، والمنشط والمكره، وكما أمركم بالحذر من المخذلين ومحاربة المعتدين فقد أمركم بالسلام على العالمين، والحسيب إما أن يكون من الحساب بمعنى المحاسب الذي يحسب كل شيء، فيحصيه، ولذا عدي بـ ﴿عَلَىٰ﴾، وإما أن يكون من الحسْب، أي: الكفاية فالحسيب الكافي الذي يكفي أَي: يُعْطي كل شَيْء من العِلْمِ والحِفظِ والجزاءِ مقدارَ مَا يُحْسِبه أَي يَكْفِيه تَقول: حَسْبُك هَذَا أَي اكتفِ بِهَذَا[1]، وأُكِّدَ وَصْفُ اللَّهِ بِحَسِيبٍ بِمُؤَكِّدَيْنِ: حَرْفُ ﴿إِنَّ﴾ وَفِعْلُ ﴿كَانَ﴾ الدَّالُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ وَصْفٌ مقرّر أزلي.

ثم ختم الله هذه الأقسام بالتذكير بأهم المفاهيم التي تشكل قنطرة تصل الأقسام السابقة بالأقسام اللاحقة فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ (النساء: ٨٧) فبين هنا الصفتين العظيمتين اللتين تبينان هيمنته على كل الأحداث الكونية، وتُذَكِّر بمعيته لها: الوحدانية في الألوهية، والصدق في الحديث.

فكونه مقيتًا حسيبًا يعني بأنه الواحد، فكأنه قيل: من هو الله المقيت الحسيب على كل شيء؟ فيجيء الجواب: بأنه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ (النساء : ٨٧)، فليس الله إلهًا دنيويًا زائفًا، ولا هو تعالى جده مؤسسات تُمنح التبرعات؛ لأجل تملك قراراتهم، بل هو الواحد الذي لا يمكن أن يكون معه شريك، وقد ضرب لكم أجلًا مسمى للحساب في يوم لا ريب فيه، أي: لا تهمة حقيقية يمكن أن تنفي وقوعه، ولا شك يمكن أن يتطرق لتحققه.. متى هذا اليوم؟

إنه يوم القيامة، وسُمِّيَتِ القِيَامَةُ قِيَامَةً؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ للحساب

(١) تهذيب اللغة (٤/ ١٩٢).

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المطَفِّفِينَ:٦)، وحتى يقطع المقارنة بينه وبين غيره من المخلوقين ذكر بعظمة حديثه جل في علاه فقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء:٨٧)، أفلا تعدون أنفسكم للقائه؟

والصدق معناه مطابقة الخبر للواقع.. فلا يمكن أن يحدث الله بحديث إلا كان مطابقًا للواقع سواء أكان خبرًا عن ماضٍ أم كان خبرًا عن حاضرٍ أم كان خبرًا عن مستقبل.. مهما حالت بالنسبة إلينا حجب الأزمنة أو سترته عنه حجب الأمكنة، فإن الله خالق الزمان والمكان والحال لا بد أن يكون حديثه مطابقًا لِما يحدثه أو يأذن بحدوثه.

ولا يمكن أن يتصور تطرق الكذب إليه -جل في علاه- وذلك أن الكاذب إنما يكذب ليجتلب بكذبه إلى نفسه نفعًا، أو يدفع به عنها ضرًّا. والله تعالى ذكره خالق الضر والنفع، فغير جائز أن يكون منه كذب؛ لأنه لا يدعوه إلى اجتلاب نفع إلى نفسه أو دفع ضر عنها[1].

خاتمة في ذكر الإحكام البديع لآيات القرآن المجيد في هذا الموضع:

أليست قصة رائعة أن تدرك هذا الاتصال المحكم لموضوعي الشفاعة والتحية بالجو العام المحيط بهما في السورة؟

فهنا تدرك بإعجاب الصلة الوثيقة لذكر الشفاعة والتحية في سياق الكلام عن مبدأ السلام الأمن الداخلي والسلام العالمي، فتأمل المسألة معي:

لقد ذكر الله قبل هاتين القضيتين كلامًا عن أخذ الحذر وإنقاذ المستضعفين وكف اليد، وضرورة القتال عندما يُكتَبُ، أي: عندما يجب القيام به، ثم أنبأك عن أهمية طاعة القيادة النبوية، وحال المتلاعبين الذين يظهرون الطاعة للقيادة النبوية

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٩٣).

وهم يتآمرون ضد أقوال النبي ﷺ، وأخبرك كيف تتعامل مع الشائعات في مجالي الأمن والخوف، وحرض النبي ﷺ على القتال عندما يجب ولو كان منفردًا.. هنا جاءت مسألة الشفاعة، وجاءت قضية التحية..

دعنا ننظر ما بعد ذلك: لقد جاء الكلام عن كيفية التعامل مع العالم بناء على كف الأيدي وإلقاء السلم وهجرة المسلمين لديار المحاربين الوثنيين في مكة، ثم يذكر الله بعد ذلك حرمة الدماء، وحرمة قتل الآخرين ما داموا ألقوا السلام أو السلم أو الإسلام.

ومن خلال هذا السياق يتضح أن الشفاعة جاءت في موضعها البديع لتتكلم أولًا عمن يجعل النبي ﷺ شفعًا بتكثير أنصاره بدلًا من أن يكون واحدًا فقط، وهكذا من قام بالحق بعده، فهذا المقصد الأساسي لإيراد الشفاعة في ذلك الموضع، وبعد ذلك يمكن التوسع في إيراد قضايا الشفاعة الأخرى؛ وكذلك ما يتعلق بالتحية فإنها وردت في سياق عسكري أمني، وفي أثناء الكلام عن وجود حالتي الأمن أو الخوف، وضمن محور عام يرتبط بتوازن الردع وإحلال السلام، فذكرها إنما هو لكيفية التعامل مع مَنْ يحيي المسلمين من الآخرين، فهذا المقصد الأصلي من إيرادها بدلالة السياق، ثم يدخل بعد ذلك قضايا التحية التي يذكرها علماؤنا في كتبهم لكن دون إغفال للسياق الأصلي الذي وردت فيه التحية في هذه السورة.

وعند الشعور بالوصول إلى هذا المعنى يجد المرء المدى الضخم لظهور الكتاب المجيد مفصلًا حسب الإحكام الحق، ولا يملك إلا أن يردد قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

القسم الخامس

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إلقاء السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع المعتدين (النساء:٨٨-٩١)

آيات هذا القسم:

﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء:٨٨-٩١).

المناسبة والاتصال:

ها هي الرعاية الإلهية المستمرة؛ لتمد أولياءها من التصرفات الراشدة مدًا.. أمدتهم بفهم حقيقة الحياة، وكيفية الوجود الإنساني، وكيفية التكاثر الإنساني.. أمدتهم بمنظومة الحقوق المدنية التي تبين الامتيازات كما تبين التبعات والواجبات؛ لأجل القيام بالقسط، وأمدتهم بالاستراتيجيات اللازمة لحماية الوجود الإنساني،

وإنقاذ المستضعفين في الأرض، فعدَّد الله في الأقسام السابقة عددًا من الأصناف التي تشكل خطرًا على المجتمع، وبين كيف تحاول هذه الأصناف جهلًا أو عمدًا تدمير حالة السلام العام، واختراق الحالة الأمنية لإضعاف سياسة (أخذ الحذر)، والتلاعب بالحقوق الإنسانية، ومن هؤلاء الأصناف:

الصنف الأول: الذين يزعمون الإسلام لكنهم يأبون التحاكم إلى شريعته، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ...﴾ (النساء:٦٠، ٦١).

الصنف الثاني: الخاذلون المخذلون عن أداء الواجب في حماية المجتمع، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ (النساء:٧٢).

الصنف الثالث: المتحمسون المندفعون المتهورون الذين يزعمون أنهم أصحاب المبادئ العظيمة التي لو اقتضى الأمر فسيكونون شهداء في سبيلها، ثم يخشون الناس عند ساعة الصفر،قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء:٧٧).

الصنف الرابع: الذين يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء:٧٧).

الصنف الخامس: الذين يسندون وقوع المصائب إلى الذين يأمرون بالقسط من الناس، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ (النساء:٧٨).

الصنف السادس: المتآمرون لمنع تطبيق التوجيهات النبوية، قال الله تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ (النساء:٨١).

الصنف السابع: الذين ينشرون الشائعات حول القضايا الكبرى لتضييع أمن المجتمع، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ (النساء:٨٣).

ثم سيذكر الله الصنف المنافق المحض الذي لا عمل له سوى الحرص على هزيمة المجتمع المسلم، وتدميره، وسيذكره الله تعالى جده في هذا القسم ثم يفصل ما يتعلق به ابتداء من الآيات: (١٣٨).

وكل هؤلاء الأصناف يؤدون الأمانات إلى غير أهلها، ولا يحكمون بالعدل، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة؛ فيؤدي ذلك إلى إزهاق أرواح الأبرياء، وسفك الدماء، ونشر الفساد في الأرض، وتضيع الحقوق، وتحل المآسي، وتعم الظُّلْمة في العالم، ويسيطر الظَلَمة على صناعة القرار البشري.

وبعد أن ذكر الله في الأقسام السابقة هؤلاء الأصناف السبعة يفصل الله في هذا القسم أصناف العالم حولنا حسب تطبيق استراتيجية الأمن المجتمعي، والسلام العالمي الشامل، وتشعر بالانبهار الشديد وأنت تقرأ هذه الآيات؛ لشدة التفصيل والتدقيق في الجمع بين حقوق المجتمع في الأمن والحماية، والدفاع، وبين إدارة المعركة السياسية والحربية والثقافية مع المعتدين، وذلك ليظهر العمق العظيم لتوغل الإسلام في كل مناحي الحياة، ومنها العلاقات الدولية، والعلاقات المتداخلة بين الدولية والمحلية، ويظهر بذلك عظمة الإسلام في حماية مجتمعاته، وبيان حكمه على من يقترف جريمة الخيانة العظمى، ومتى تصان دماء المشتَّتين بين الانتماء الديني والانتماءات الأخرى بدقة متناهية، ووضع الله القوانين اللازمة فيما يتعلق بالمنافقين الذين يقترفون جريمة الخيانة العظمى، ومعها بين حرص الإسلام على

كف اليد وإلقاء السلم في العالم، وظهر من أهداف وضع هذه القوانين والنظم:

أولًا: تنقية الصف من الطابور الخامس الذي ترجع إليه معظم الخيانات والتخلخلات الأمنية والثقافية إليه.

ثانيًا: تثبيت الوعي بجمع الإسلام بين القوة الحازمة إزاء المعتدين والخونة، وبين الإشاعة لثقافة السلام وكف اليد، وبذا أبعد الحيرة والتردد، وأوجد التعامل الحازم الواضح مع من يقول كلمة الإسلام بلسانه، ويصر على مظاهرة المعتدين ضد المسلمين.

فيؤكد الله تعالى ذكره الهدف من السياسة الأمنية الضرورية (أخذ الحذر)، وأن المراد منها إيقاع السلم في العالم، ويجعل الله مدار العلاقات على كف الأيدي، ورفع راية السلم، ووضع الله التصنيفات للواقع العالمي حسب ميل الناس إلى السلم، وحسب ميلهم إلى حراسة المجتمع، ولذلك عرف النبي ﷺ المسلم فقال: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (١)، وفي رواية: «من سلم الناس من لسانه ويده»، وعرّف ﷺ المؤمن بالعلامة الظاهر له فقال: «والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» (٢)، فيطول بك العجب عندما ترى حال كثيرٍ من الذين يجعلون من أكبر علامات الإسلام عندهم أن يؤذوا المسلمين في أعراضهم وأجسادهم وأموالهم وأراضيهم وذرياتهم، وكنت ترى فيما سبق الإيذاء الفردي من مسلم لمسلم آخر أو لغير المسلم ضمن الأفعال الفردية الشاذة، فأصبحت ترى اليوم نظمًا بأكملها جعلت أهم أساس يبين وجودها في الواقع إيذاء غيرهم بل ارتكاب

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٩) برقم ١٠، والرواية الأخرى لأحمد برقم٧٠٨٦، وصححها الأرناؤوط على شرط الشيخين.

(٢) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر (٥ / ١٧) برقم ٢٦٢٧، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

أعظم الجرائم المروعة في حق الأبرياء من الأطفال والنساء والرجال، فجاء هذا القسم الكامل ليتكلم عن ضرورة تصنيف الناس بحسب ميلهم إلى السلم، وحسب إقبالهم على حراسة أمن المجتمع وأمن الآخرين.

والآن تعال بنا لنضع هذا التساؤل الضروري الملح: ما القاسم المشترك بينهم وبين النساء؟ لماذا ذُكِرُوا في سورة النساء؟

ستجد في الواقع القائم الآن بما لا تخطئه العين الجواب واضحًا: إنهم جميعًا يظهرون حماية حقوق النساء، ويزعمون أنهم أنصارهن إنهم الذين يتخذون القضية النِسْوية شماعة؛ لإشاعة الشهوات، ونشر تجارة الرقيق الأبيض، قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧)، وانظر أنت إلى أي مدى انتشرت القنوات التي تحبب الفاحشة في البشرية وبدعمٍ من أموال من يزعم أنه ينتسب إلى الإسلام والقرآن.. إنهم المخدوعون أو المخادعون فيما يتعلق بالنساء يظهرون مناصرتهن؛ لنيل حقوقهن، وهم لا يزيدون على أن يسهموا في إذلالهن، والتلاعب بحقوقهن، وتحويلهن إلى سبايا للشيطان يمتهن المتاجرة بكل ما يؤدي إلى إهانتهن وإبعادهن عن كرامتهن الحقيقية التي تسهم في سعادة البشرية سواء أكن بنات أم زوجات أم أمهات أم أخوات.

ولإنارة وعيك، وشحذ ذهنك، ولتقليل الخطوات التي تحتاجها؛ لتدرك الواقع العالمي الذي يحيط بك صنف الله الناس حسب إلقائهم للسلم، وكف أيديهم إلى أصنافٍ لتسلك التعامل الصحيح المستقيم معهم، ولتكون معرفتهم زادًا يعزز الجهود الأمنية والعسكرية الحارسة للمجتمع.

وهذه الأصناف هي الأصناف الآتية:

الصنف الأول: المنافقون :

الذين يعيشون في المجتمع النبوي المدني لكنهم يظهرون النفاق العملي، فيعبثون بالأمن العام، ويحيكون المؤامرات على العالم، ويخذلون الأبرياء في مواطن الحاجة، ويُبَصِّرُنا الله بهم في قوله تعالى:﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ (النساء : ٨٨)، أي: يجب أن تكونوا فئة واحدة في التعامل معهم، فلماذا انقسمتم إلى فئتين في الحكم عليهم وقد أركسهم الله بما كسبوا؟ فظهر إجرامهم، فلا ينبغي أن تختلفوا في تعريتهم، وفضحهم، وإنما ذكر النفاق العملي؛ لأنه يقصد جعل الأعمال هي المقياس للحكم والمحافظة على استراتيجية أخذ الحذر، فلا يؤاخذ الناس على اعتقاداتهم الباطنة وآرائهم الخفية.

وبداية القصة ظهرت عندما انتصر المسلمون انتصارًا مدهشًا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في بدرٍ، فما كان من مجموعة من كبار الوثنيين وأتباعهم من أهل المدينة إلا أن أظهروا الإسلام، حيث قال زعيمهم ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ فَأَسْلَمُوا[1]، وحدث الأمر ذاته من مجموعة انتهازية في مكة خافت على نفسها أن يعلو المسلمون، فأرسلوا يوهمون المسلمين بدخولهم في الإسلام؛ لكنهم اعتذروا عن بقائهم في مكة، ولعله حدث ما يشبه ذلك حول العاصمتين العظيمتين: مكة والمدينة.

والاتصال المدهش بين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وقوله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ يكشف لك عن خلل أمني كبيرٍ في تطبيق استراتيجية (أخذ الحذر) حيث يخترق الطابور الخامس أمن المجتمع، ويعمل على تقسيمكم في التعامل معه إلى متطرفين ومعتدلين، والأصل أن تكونوا فئة واحدة في مسائل الأمن والخوف.

---

(١) صحيح البخاري- ترقيم فتح الباري (٦ / ٥٠) برقم٤٥٦٦.

فالفاء للتفريع عما سبق في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النِّسَاء: ٨٧)، ومن صدق حديثه الذي لا ينبغي أن تنسوه: أن الله أركس المنافقين فكيف تختلفون في الحكم عليهم؟ وكيف توالونهم؟

وهنا لا بد أن يلح عليك سؤال كبير:

الله هو الحق، وكلامه حق وبالحق نزل، فلمَ يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾؟

الجواب واضحٌ ومدهش، تراه عِيانًا في الواقع القائم، فأولياء الشيطان يحشدون المؤامرات المتعددة لخداع أهل الحق بأن يُظهِروا أنفسهم بمظهر لطيفٍ رضيٍّ، وأنهم يقبلون التفاهم والحوار والتفاوض.. فينخدع قسم من أهل الحق بهم، وبدلًا من أن يكون أهل الحق على قلب رجلٍ واحدٍ في استيعاب بعضهم بعضًا ينقسمون إلى تياراتٍ معتدلة ومتشددة، ثم يكون بأس كلِّ فريقٍ منهم ضد الآخر، ويغفلون عن المفسدين في الأرض، فتذبل عندهم استراتيجية (أخذ الحذر) عندما انقسموا إلى فئتين وفرقتين في التعامل مع المنافقين، وهنا يزلزل الله غفلتهم بهذا الأسلوب المدهش الفريد: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾.

وكأن الله يقول: لقد حدثكم ربكم الأصدق حديثًا عن المنافقين الذين يصدون عن السنة النبوية صـدودًا، وحدثكم عن وجودهم مبطئين في الصف المسلم، ويعملون على إيجاد المبطئين، وحدثكم أنهم يحاولون كسر استراتيجية أخذ الحذر، ويغذون تراخي المسلمين في الانقياد لأوامر الله، وحدثكم عن خذلانهم لقضايا المستضعفين العادلة، وحدثكم عن قول بعضهم ومعهم بعض المتأثرين بهم: ربنا لم كتبت علينا القتال، وحدثكم عن أنهم يقولون طاعة نظريًا ثم يبيتون غير التوجيهات النبوية.. حدثكم عنهم، ثم أنتم تنقسمون إلى فئتين في شأنهم! فما لكم أيها المسلمون تنقسمون فيهم إلى فئتين مختلفتين: فئة ربما لقبت نفسها بالمعتدلة فقامت تبرر

لهؤلاء المنافقين، وفئة ربما وُسِمت بالمتشددة قامت تُعمل استراتيجية (أخذ الحذر) مع أن أمارات النفاق العملية ظهرت على هؤلاء؟ مالكم بدلًا من أن تتفقوا تحولتم إلى فريقين متناحرين؟ هنا يحثهم على تسمية الأشياء باسمها، والآيات التي في هذه الصفحة والتي قبلها لابد أن نأخذها بتوازن شديد، وتطبيق مناسب وهي تفصل تفصيلًا دقيقا موضوع استراتيجية أخذ الحذر، حتى لا يتم الغلو في استراتيجية أخذ الحذر، فيترتب عليه القمع والتشدد والعنف والتكفير المتسرع، وحتى لا يحصل في الوقت ذاته التراخي والتميع الذي يذهب استراتيجية أخذ الحذر.. هنا ترى الآيات تفصل ذلك تفصيلًا دقيقا عظيمًا ورائعا.

﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ (النساء:٨٨)، فالفاء في قوله: ﴿فَمَا لَكُمۡ﴾ تدل على شدة الاتصال بما قبلها، فمن سبق الكلام عنهم قومٌ من المؤمنين، أو من الذين في قلوبهم مرض، أو من المنافقين، خانتهم أعمالهم عن إثبات صدق الانتماء للمسلمين، وهو هنا يذكر أقوامًا من الصنف ذاته، لكنهم يمالئون العدو في الحرب، فهم أشد وضوحًا من الفئات السابقة في نفاقهم، وإجرامهم، فهم يظهرون الولاء الراشد للصالحين نظريًا، ويميلون عمليًا نحو الولاء الجاهلي للمعتدين.

وكلمة ﴿فِئَتَيۡنِ﴾ حال من الكاف في «لكم»، والكوفيون يقولون: هي لكان مضمرة، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فئتين، وَالفِئَةُ: الطَّائِفَةُ، وَزْنُهَا فِلَةٌ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الفَيْءِ، وَهُوَ الرُّجُوعُ؛ لِأَنَّهُمْ يفيء، أي: يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بعض فِي إدارة شؤونهم، ووحدة أهدافهم، ووحدة سلوكهم في مسائل الخوف والأمن، والاستفهام للتعجيب، واللوم، والإنكار التوبيخي، أي: ما شأنكم، انقسمتم في المنافقين إلى فئتين: فئة حذرة متوجسة منهم، وفئة مترددة في الحذر منهم، مع ظهور أدلة نفاقهم

العملي، إن لم يكن نفاقهم الاعتقادي، فاللوم منصب على فئة المتساهلين في الحكم على المنافقين حتى قسموا صفكم إلى فئتين، وليس اللوم على الفئة التي اتبعت الصراط القويم في الحكم على المنافقين.

ويُبَصِّرُنا سبب نزول الآية بأبرز صفة عملية تظهر نفاقهم، وهو خِذلان قضايا الأمة الواحدة أمام العدو الخارجي، وارتكاب جرم الخيانة العظمى بالانسحاب عند الزحف، فعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ، رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً تَقُولُ نُقَاتِلُهُمْ، وَفِرْقَةً تَقُولُ: لاَ نُقَاتِلُهُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، وَقَالَ: إِنَّهَا طَيْبَةٌ، تَنْفِي الذُّنُوبَ -وفي لفظ له: الرجال- كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ (١).

كما يُبَصِّرُنا سبب نزول آخر بصفة أخرى للمنافقين وهي الطعن في القيادة الراشدة للنبي ﷺ، أو في أزواجه الطاهرات، حيث ورد أن الآية ايضًا نزلت في شأن المتكلمين في السيدة عائشة ﵂. فقد خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ عندما بلغه الكلام عن أم المؤمنين عائشة ﵂ فَقَالَ: مَنْ لِي مِمَّنْ يُؤْذِينِي، وَيَجْمَعُ فِي بَيْتِهِ مَنْ يُؤْذِينِي؟ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ قَتَلْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ، أَمَرْتَنَا فَأَطَعْنَاكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: مَا بِكَ -يَا ابْنَ مُعَاذٍ- طَاعَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ تَكَلَّمْتَ مَا هُوَ مِنْكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَقَالَ: إِنَّكَ -يَا ابْنَ عُبَادَةَ- مُنَافِقٌ، وَتُحِبُّ المنَافِقِينَ، فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، فَقَالَ: اسْكُتُوا -أَيُّهَا النَّاسُ-، فَإِنَّ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَأْمُرُنَا، فَنُنَفِّذُ أَمْرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ (٢).

(١) البخاري (٥ / ١٢٢) رقم ٤٠٥٠.

(٢) سنن سعيد بن منصور (التفسير) ٢٢٧ - (٤ / ١٣١٣).

والذي يظهر لي أن هذه الآيات واردة في التعامل مع من هم خارج المدينة النبوية، أو فروا منها نفاقًا، وبيان أحوالهم، وليست واردة في المنافقين الذين يعيشون في المدينة إلا على سبيل التبع، وذلك واضحٌ عندما تقرأ الآية الثانية من هذا القسم؛ إذ يقول الله جل جلاله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٩)، فإن منافقي المدينة كانوا فيها، فلم يؤمروا بالهجرة المادية بل بالهجرة المعنوية، وكذلك لم يحكم عليهم بالقتل، وإنما يطبق هذا الحكم على من ارتكب منهم الخيانة الكبرى.

ولكن ذلك لا يعني أن الآية لا تبصرنا بكيفية التعامل مع المنافقين في المجتمع المدني إذا ظهر منهم النفاق العملي، وبذلك ترى الآيتين دمجتا الكلام عن أصناف من المنافقين داخل المدينة وخارجها.

فربما بادرتني فقلت: ألم يرتكب ابنُ أُبَيٍّ ومن معه الخيانة الكبرى عندما انصرفوا من أحد؟ أقول لك: لعلَّ علةً منعت النبي ﷺ من تطبيق حكم الخيانة الكبرى عليه، فمن ذلك: قرب عهد الناس بالجاهلية، وقد رأيتَ كيف غَلَت نفوس بعض الخزرج حمية له في حادثة الإفك.. فلعلك توافقني أن الآيات في الأصل فيمن هم خارج حمى الأرض المسلمة، والآيات تكيف العلاقات معهم، أو من فروا من المدينة، وبذا يتضح لك وجه قوله ﷺ: «إِنَّهَا طَيْبَةُ، تَنْفِي الذُّنُوبَ -وفي لفظ له: الرجال- كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ»، ويكون ربط الصحابي بين نزول هذه الآية ووقعة أحد إما لأن بعض أحكام الآية تنطبق عليها، وليس جميع أحكام الآية كما علمت، فيطبق عليها: الإنكار على المسلمين أن ينقسموا إلى فئتين في المنافقين مع ظهور النفاق العملي في قضية من القضايا، لكن لا ينطبق الحكم الذي في الآية الثانية إلا في حال جريمة الخيانة العظمى، أو إعلان الحرب خارج الأرض الآمنة كما تفصله الآيات الثلاث التي بعد هذه الآية.

إن الآية تحمل تحذيرًا عظيمًا من أن يتحول المجتمع إلى فرقتين متناحرتين متنابزتين بدلًا من أن يعذر بعضهم بعضًا، وبدلًا من ذلك يجب أن يحكموا المستنبطين في مسائل الأمن أو الخوف لتتضح الأمور.

وإذا كانت الفئة المتساهلة (يسمونها أحيانًا المعتدلة) هي التي انصب عليها اللوم، فلماذا جاءت صيغة العتاب شاملة كل المخاطبين؟

لعل ذلك لعدم محاولة الفئة المصيبة اتباعَ أسلوبٍ أمثل في التعامل مع الفئة المتساهلة للخروج برؤية موحدة، فجاء العتاب عامًا مع أن سياق الآية يبين أن المخطئ منهم هو من تساهل في الحكم على المنافقين؛ لكن ذلك لا ينفي التبعة على الفئة الأخرى في محاولة استدراك الوضع العام قبل أن يدمر هذا الانقسام النسيج الموحد الذي يميز المؤمنين.

وتبصرك الآية بخطورة انقسام الناس في المسائل الواضحة إلى فئتين (معتدلة، ومتشددة) يعارض بعضها بعضًا، وهذا اللوم الشديد يوقظ فيك ضرورة العمل على إقامة الكليات التي توجد فئة المستنبطين الذين يمكنهم تنزيل النصوص على فقه الواقع، وتقديم التوصيات اللازمة في القضية النازلة في مجال الأمن والخوف:

ولذا يقول الطاهر بن عاشور: «هَذِهِ الآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المُجْتَهِدَ إِذَا اسْتَنَدَ إِلَى دَلِيلٍ ضَعِيفٍ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهِ العَالِمُ لَا يَكُونُ بَعِيدًا عَنِ المَلَامِ- فِي الدُّنْيَا- عَلَى أَنْ أَخْطَأَ فِيمَا لَا يخطىء أَهْلُ العِلْمِ فِي مِثْلِهِ»[1].

ويبصرك قوله جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ بأن ردة المنافقين إلى حالهم المجرم قبل أن يعلنوا الإسلام، عقوبة عادلةٌ من الله لهم بسبب جرائمهم التي يصرون عليها؛ إذ الإركاس رد إلى نجاسات سلوكية خبيثة، فجمع الله في هذه البصيرة المدهشة

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٥٠).

بين قدرته المطلقة ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم﴾ وبين عدله الكامل ﴿بِمَا كَسَبُواْۚ﴾:

فـ«الإركاس» الردُّ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فَأُرْكِسُوا فِي حَمِيمِ النَّارِ، إِنَّهُمُ كَانُوا عُصَاةً وَقَالُوا الإِفْكَ وَالزُّورَا

والرَّكْسُ: رَدُّ الشَّيْءِ مِنْ آخِرِهِ إِلَى أَوَّلِهِ، فَالرَّكْسُ وَالنَّكْسُ، وَالمَرْكُوسُ وَالمَنْكُوسُ وَاحِدٌ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلرَّوَثِ الرِّكْسُ؛ لِأَنَّهُ رُدَّ إِلَى حَالَةٍ خَسِيسَةٍ، وَهِيَ حَالَةُ النَّجَاسَةِ، وَيُسَمَّى رَجِيعًا لِهَذَا المَعْنَى أَيْضًا [١]، فقوله: (أركسهم) أي: أرجعهم إلى نجاسات الإثم والعدوان ومفرزات الوثنية والشرك.

فسبب هذه العقوبة الإلهية: الإركاس جرائم المنافقين السابقة، وكسبهم السيء «حَتَّى فَسَدَتْ فِطْرَتُهُمْ، وَأَحَاطَتْ بِهِمْ خَطِيئَتُهُمْ فَأَوْغَلُوا فِي الضَّلَالِ وَبَعُدُوا عَنِ الحَقِّ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِمْ وَلَا يَجُولُ فِي أَذْهَانِهِمْ إِلَّا الثَّبَاتُ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ وَمُقَاوَمَةُ مَا عَدَاهُ من الخير، مُقَاوَمَةً ظَاهِرَةً عِنْدَ القُدْرَةِ، وَخَفِيَّةً عِنْدَ العَجْزِ، هَذَا هُوَ أَثَرُ كَسْبِهِمْ لِلسَّيِّئَاتِ فِي نُفُوسِهِمْ»[٢].

وأسند الله الإركاس إليه لسببين: أن ذلك يعود إلى سنته العادلة، وأن ذلك جزاء وفاقٌ لجرائمهم التي يصرون على البقاء عليها، أي: عاقبهم عقوبة عادلة، بأن أرجعهم إلى ما كانوا عليه من رذالة الشرك؛ بسب جرائمهم العملية التي كسبوها في حياتهم، والتعبير عن جرائمهم بأنهم كسبوها، يدل على ظنهم أنهم يحققون المنجزات في الوقت الذي يقترفون فيه الجرائم الموبقات؛ فالكَسْبُ: طلب الرزق، من كسب الذي يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ، وَطَلَبٍ، وَإِصَابَةٍ [٣].

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٦٩).

(٢) تفسير المنار (٥/ ٢٦٣).

(٣) العين (٥/ ٣١٥)، مقاييس اللغة (٥/ ١٧٩).

وينكر الله على المؤمنين تضييعهم الأوقات، والطاقات في توسل هداية هذا الصنف، وعدم تطوير مودة المؤمنين الآخرين، فيقول: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ (النساء:٨٨)، والاستفهام إنكاري توبيخي، يدل على جملة محذوفة، والتقدير: قد أركسهم الله بما كسبوا، فأضلهم.. أتريدون أن تهدوا من أضل الله؟

يعني: فلا تحاولوا معاندة سنة إلهية حتمية هي إضلال المجرمين، واشتغلوا بما يمكن أن ينفعكم من المصالحة مع المؤمنين.

والاستفهام الانكاري التوبيخي يدل على جملة محذوفة، والتقدير: قد أركسهم الله بما كسبوا فأضلهم: أتريدون أن تهدوا من أضل الله.

فهنا يبين الله الأمر بصورة أوضح للذين يضيعون أوقاتهم في محاولة استمالة المنافقين، وتضييع مودة بقية المؤمنين الذين اختلفوا معهم في كيفية معالجة الموقف.. فالآية في حقيقتها ليست تثريبًا على المنافقين بقدر ما هي لوم للمؤمنين؛ لأنهم انقسموا، وتجد هذا في الواقع المعاصر، فبعض المسلمين يحرصون على استجلاب المحاربين للدين، يقولون نحن نريد أن نصنع وحدة مجتمعية، نتفق معهم في الأهداف فلدينا أهداف كبيرة، وفي هذه الأثناء يخاصمون إخوانهم الصالحين، فالآية تتكلم عن أمرين ظاهرين: انقسام المؤمنين وتفرقهم، ومحاولة تضييع أوقاتهم في استمالة من لا يظهر منه أنه يمكن أن يتوب أو يرتدع.

ولقد وجد في عهد النبي ﷺ منافقون، أتريد أن تكون أقوى من النبي ﷺ في تجميع الناس؟ تراهم لم يقبلوا من النبي ﷺ أفيقبلون منك؟ فهنا يبين في صورة واضحة أنه لا ينبغي أن تضيعوا أوقاتكم وتضيعوا وحدتكم، انظر ماذا يقول الله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

والمراد أنكم ينبغي أن تركزوا في البصائر القرآنية لا في الأوهام التي تظنونها ستحقق لكم شيئًا، ثم لا يحدث شيء.. فهؤلاء المنافقون قد أضلهم الله بسبب رداءة أفعالهم، فهم لا يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ إلا نَظَرَ الأَعْدَاءِ المُبْطِلِينَ، وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمُ الدَّوَائِرَ [١].

والبصيرة واضحة في أن الرحمة الواسعة في الرؤية الإسلامية، والتعامل الحسن الصادق مع العالم لا يعني أن يكون المسلمون مجموعة من المغفلين الذين يخدعهم المنافقون في كل وقت، فلا ينبغي أن يطغى التعامل السياسي اللين القائم على التجميع على استحضار البعد الإيماني المتين، فإن المنافقين الذين يُظهِرون عمليًا الولاء للمعتدين، ويُصرِون على تدمير مصالح الناس، وزلزلة أمنهم قد زاغوا فأزاغ الله قلوبهم فكيف يأتي من يريد هداية من أضله الله، ويصر على ذلك، بل يضحي بالصف المسلم في سبيل ذلك.

وكلمة ﴿سَبِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ هو الطريق البين الواضح، وهذه الكلمة نكرة تفيد العموم، فتبين أمرين معًا:

– لن تجد له سبيلًا لهدايته بعد أن أضله الله لشدة لؤمه، وسوء عناده، فقد أغلقت جميع منافذ حواسه فلن تجد له سبيلًا ليسير عليه.. السبيل منعدم فكيف يمشي أو يسير ليصل.. دلالة على العمى الكلي.

– ولن تجد له سبيلًا لتتفق معه أو تشاركه المصير؛ لأنه لا يجد فرصة إلا خانك أو خدعك.

وأهم صفة كاشفة لهم وهي تمثل أخطر أهداف المنافقين: المحبة العارمة لإيقاع الناس في الكفر، ولذا يحرصون على إشاعة المعاصي والفسق المالية والجسدية بكل

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٦٢).

الوسائل، ويُبَصِّرُنا بها قوله تعالى ذكره: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾

لاحظ التعبير عن هذا الهدف الخطير بقوله: ﴿وَدُّواْ﴾ ففرق بين أن يكون عند المرء رغبة في أن تكفر وبين أن يود منك أن تكفر، فالمودة هي خالص المحبة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ (مريم: ٩٦)، اللهم اجعل لنا ودًا يا أرحم الراحمين.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ أي: ود هؤلاء المنافقون لو يكفر المؤمنون المستقيمون، فليست مشكلتهم فقط في الكفر فقط؛ إذن لهان الأمر كما قال تعالى ذكره: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، لكن المشكلة أنهم يحرصون على أن يدخلوا المؤمنين في الكفر.

فالود إرادة مقترنة بمحبة، وحرص، وهذه الكلمة تدل على أنهم يضعون برامج عملية لتحويل الناس إلى الكفر عبر القنوات الفضائية، ووسائل الإعلام والتثقيف والتربية، وعبر المرتزقة الذين يحشدونهم، والجيوش العسكرية التي يتحالفون معها، وعبر إحداث الرعب والإصرار على القهر والإكراه ومنع حرية الإنسان في أن يعبد ربه، وتراهم يمارسون ذلك عبر منع كل وسائل الإيمان في المجتمعات.

هؤلاء المنافقون يودون أن يوقعوا العالم في الكفر، وهم في هذا يلتقون مع الكافرين المحاربين الذين يعملون على الهدف ذاته، وقال الله تعالى عنهم: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ (الممتحنة: ٢).. من الطبيعي أن ترى بينهم التحالفات المختلفة، والمؤسسات المشتركة لنشر الكفر في الأرض.

فأهم أهداف المنافقين التي يعلمون عليها المحبة المتلهفة على تحويل المؤمنين إلى الكفر، وليس مجرد حرص المنافقين على أن تكون لهم السيادة على المؤمنين،

بل هم يودون أن يدخلوا المسلمين في الكفر، وذلك يتم من خلال خلخلة الصف المسلم عقديًا وسياسيًا لتحويلهم إلى الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾، فليست مشكلتهم في كفرهم ونفاقهم بل في حرصهم على وضع البرامج، وإنشاء المؤسسات؛ لإرجاع المسلمين إلى الكفر، وهذا الهدف ليس هدفًا للعناد فقط، بل هو نابع من محبةٍ قلبية عارمة تجتاح نفوسهم، فيبذلون في ذلك كل ما وسعهم؛ لتحقيق هذا الهدف، ويظهر لي أن التعبير بالود هنا أعلى من التعبير بالإرادة في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ (النِّسَاء: ٨٨) فالود إرادة مقترنة بمحبة وحرص، وهذا يدل على شدة مكر المنافقين، ورغبتهم الجامحة في إدخال الكفر إلى مجتمع المؤمنين [١].

ويُبَصِّرُنا الله بكيفية التعامل معهم فتحرم موالاتهم؛ أي: يمنع من نصرتهم، ومحبتهم، والتحالف معهم حتى يهجروا الإجرام القبيح الذي يقومون به فعلًا ومكانًا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (النساء:٨٩)، والهجرة في سبيل الله تعني القطيعة والمفارقة والترك، أي: هجروا ما نهى الله عنه من الكيد والتآمر والإيذاء ونشر العداوة والشحناء، وهجروا الفسق والفحشاء، فهذا المعنى الأصلي، ويلزم منه مفارقة ديار الظلم والإثم والعدوان لمن كان مقيمًا فيها.

فالهجرة تدل عَلَى قَطِيعَةٍ وَقَطْعٍ [٢]، والهجر والهجران بكسر الهاء مثل عرفان مفارقة الإنسان غيره إما بالبدن وإما باللسان وإما بالقلب، فقوله تعالى جده: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ (الفرقان: ٣٠) أي: هجروه بالقلب واللسان والعمل أو بأحدها.

(١) خلافًا لما قرره الطاهر ﷺ في التحرير والتنوير (٥/ ١٥١).

(٢) مقاييس اللغة (٦/ ٣٤).

فليحذر المسلمون من هذا الصنف، فلا يجوز أن يوالوهم إلا إذا هاجروا وأثبتوا حقيقة إسلامهم من خلال هجرتهم، ولا بد أن نحدد مفهوم الهجرة، فالهجرة لها معنيان مترابطان الأول أصلي والثاني لازم له:

أما المعنى الأول فهو كما عرفه النبي ﷺ هجر السوء والإيذاء، وترك ما نهى الله عنه من القبح والتآمر والفحشاء، فعن عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «المسلم من سلم الناس من لسانه، ويده، وَالـمهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»(١). وفي رواية « وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»(٢) .

وأما المعنى الثاني فلازم لهذا المعنى في موضعه، وهو أن يترك بجسده المكان الذي يحمله على فعل ما نهى الله عنه، فيهاجر من دار الظلم والبغي والاعتداء إلى دار العدل؛ إذا أُلزم بالمشاركة في الاعتداء، أو أُكره على ترك دينه.

إن استراتيجية أخذ الحذر توجب الانتباه إلى النفاق العملي، فالنفاق الاعتقادي لا سبيل إلى معرفته، ولكن عند النظر إلى الأفعال الخارجية يكون صاحبها ظاهرًا إيمانًا وكفرًا، عدلًا وظلمًا، سلامًا وإيذاء؛ لأن أعمالهم تدل عليهم كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥) ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ (الأعراف: ٥٨)، وكما يقول المسيح عليه السلام حسب إنجيل متى٧.

١٦ من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنبًا أو من الحسك تينًا

١٧ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارًا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارًا ردية

(١) البخاري (١ / ١١) برقم ١٠ .

(٢)النسائي في «المجتبى» (١ / ٩٦٧) برقم ٥٠١٠ .

١٨ لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارًا ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارًا جيدة.

١٩ كل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار.

٢٠ فإذًا من ثمارهم تعرفونهم.

٢١ ليس كل من يقول لي: يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات بل الذي يفعل ارادة ابي الذي في السماوات.

الصنف الثاني: من ترك دار العدل المسلمة دون إذنٍ من القيادة النبوية، ولم يتحمل تبعات البقاء مع النبي ﷺ.

فعن عبد الرحمن بن عوف أن قومًا من العرب أتوا رسول الله ﷺ المدينة، فأسلموا، وأصابهم وباء المدينة حُمَّاها، فأُركسوا، فخرجوا من المدينة، فاستقبلهم نفر من أصحابه -يعني أصحاب النبي ﷺ-، فقالوا لهم: ما لكم رجعتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة، فاجتوينا المدينة، فقالوا: أما لكم في رسول الله أسوة؟ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، هم مسلمون، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾[1] الآية.

فهذا الحديث وإن كان ضعيفًا في إسناده إلا أنه يؤذن بصنفٍ من المنافقين لم يتحملوا تبعات الإسلام الذي أعلنوه، ولم يقوموا بالالتزام الذي تقتضيه الهجرة إلى النبي ﷺ، ولا مانع من نزول الآية ابتداء ثم تكرار نزولها على معنى التنبيه على دخول قضية أخرى في ألفاظها.

الصنف الثالث: الأقليات أو المجموعات (اللوبيات) الخائنة التي تعيش في بلاد العدل الأخرى لكنها تعمل على إيذاء المسلمين، والتآمر على المؤمنين.

(١) أحمد (١ / ١٩٢) برقم ١٦٨٩ ، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

وتولد أفكارًا لتحويل المؤمنين إلى الكفر، ويزعمون في الوقت ذاته أنهم من المسلمين، فهؤلاء حكمهم كما قال الله جل ذكره: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٨٩)، والمقصود بهجرتهم المعنى الشرعي الأصلي، وهو ترك سياسة الإيذاء واتباع المبادئ الإيمانية في العمل على رفعة قيمة الإيمان في المجتمعات، وأن يحبوا للآخرين من الخير ما يحبون لأنفسهم.

الصنف الرابع: المجموعات التي تعيش في بلاد المحاربين المعتدين، فيكونون مجموعات ضغط لتدمير الأمن العام، والسلام العالمي، وتعمل على خلق المشاكل والأزمات في بلاد العدل.

فهذا الصنف يدخل في قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٨٩)، فلا بد أن يحققوا المعنَيَين في الهجرة، فيهاجروا من بلاد الظلم إلى بلاد العدل، ويهجروا سلوكهم المؤذي، والواقع التاريخي يخبرنا عن مثالٍ لهم، وهم من عاشوا في مكة عندما كانت الوثنية القرشية تسيطر عليها، وكانوا يزعمون أنهم مع المسلمين، وأفعالهم تبدي غير ذلك.

فلو كانوا يشكلون مجموعات ضغط من أجل المصالح العامة للعالم ضمن قوانين العدل لكان ذلك حسنًا، لكنهم يستغلون أدواتهم وأموالهم وعلاقاتهم ليوالوا المعتدين المجرمين ويشاركوهم فعليًا في الإفساد في الأرض، وخاصة في تعمد إبادة المؤمنين وتدمير مؤسساتهم، واغتيال قياداتهم العلمية، ومنع مؤسساتهم القرآنية.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا حاجة بكم إلى التحالف معهم مهما توهمتم المصالح في ذلك، وفي هذا رد على الأوهام الحزبية التي تظن يومًا أن الصفوف العلمانية المليئة بالسعار الشهواني يمكن أن تصدق في حلفها أو تظهر نصرتها.

ومن أساليبهم الدنيئة أنهم يعينون المعتدين، ويحاولون اللعب بالرأي العام الراشد في الوقت ذاته.

كما روى الطبري[١] عن ابن عباس أن قومًا كانوا بمكة، قد تكلّموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحابَ محمد عليه السلام، فليس علينا منهم بأس! وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء، فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم! وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله، أو كما قالوا: أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلَّمتم به؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا، ويتركوا ديارَهم، تستحلّ دماؤهم وأموالهم! فكانوا كذلك فئتين، والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء، فنزلت هذه الآية.

وبذا يكون المراد بالهجرة بالنسبة لهذا الصنف المعنيين معًا، ولا يجوز اتخاذهم أولياء مهما نمقوا الكلام، وهذا يعني استبعاد اتخاذهم حلفاء حتى يهجروا الإثم والعدوان، وحتى يهاجروا من دار الظلم إلى دار العدل. وليس المقصود بالهجرة أن يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام، هذا قرره أهل العلم سابقًا، لأنهم ما تصوروا يومًا أن تكون الدار التي تنتسب للإسلام دار ظلم، وعندما تراجع الآيات والأحاديث تجد المقصود بالهجرة الهجرة من دار الظلم إلى دار العدل.

فالهجرة في سبيل الله تعتمد على أساس وجود العدل لا على أساس وجود الإيمان، ففي دار العدل في المدينة وجد الإيمان، وبقي بعض اليهود إلى وفاة النبي ﷺ، ويدلك على ذلك الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة، فعن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ ،

(١) تفسير الطبري (٨/ ١١).

وفُتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله في مَنَعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنَّ بأرضِ الحبشةِ مَلِكًا لا يُظلمُ أحدٌ عنده، فالحقُوا ببلادِه حتّى يجعل اللهُ لكم فرجًا و مخرجًا مّما أنتُم فيهِ»، فخرجنا إليها أرسالًا حتى اجتمعنا، ونزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنَّا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا... [1]. فهل كانت الحبشة دار إسلام أو كان أصحابها مسلمين؟ لم يكونوا كذلك، لكنها كانت دار عدل.

فإن لم يستقيموا على معنيي الهجرة فيُبَصِّرُنا الله بحكمهم قائلًا: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الهجرة بنوعيها فأصروا على الإثم والعدوان، وكانوا جزءًا من المعسكر المعتدي المحارب فلا ترددوا في معاملتهم معاملة العدو المحارب، ولا يجوز لكم أن تتخذوا منهم وليًّا، أي: صديقًا أو حليفًا مقربًا، ولا يجوز لكم أن تتخذوا منهم نصيرًا لكم في قضاياكم؛ لأن أفعالهم قد أبدت خيانة وغدرًا فكيف تأمنونهم؟.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ نهى الله عن اتخاذ ولي منهم أو نصير، فأما الولي فالقريب نسبًا أو محبة وصداقة، من ولي الشيء إذا جاء بعده، يقال فلان يليني، أي: جاء بعدي، والمحبة توجب النصرة، فكلمة أولياء تشمل المحبة والنصرة، والولي هو المحب النصير، وهنا جمع بين النهي عن اتخاذ أحدٍ منهم وليًا نصيرًا، للرد على من يزعم أن العلاقات معهم علاقات مصالح متبادلة، ومناصرة في القضايا المشتركة ولا توجد محبة قلبية،

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٢ / ٢٣) برقم ٣١٩٠، وقال: أخرجه البيهقي في «السنن « (٩/ ٩) رقم ١٧٧٣٤ ، وفي «الدلائل « (٢/ ٣٠١).

فاردف الله النهي عن اتخاذ واحدٍ منهم وليًا أن يتم اتخاذه نصيرًا، فما أكثر من رأيته من حكام الأندلس والطوائف في القديم والحديث يزعم أنه لن يحب المنافقين، ولكنه قد يتخذ منهم نصيرًا في قضايا مشتركة.. يتخذ بعض الشخصيات الداعمة وإن كانت لا تصلي.. وإن كانت تعمل بعض الفواحش، فيجري معهم الاتفاقات والمصالحات والتحالفات، تكون النتيجة الهزائم المحققة؛ إذ يخونونه أحوج ما يكون إليهم، فكيف ذهبت بلاد المسلمين في أطراف الأرض والآن في وسطها إلا بهذه الخيانات، فالله سبحانه وتعالى اختصر لنا الطريق بهذه القوانين المدهشة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

ويدخل فيهم من كان صادقًا في إسلامه لكنه خرج مع المعتدين، فيعامل ظاهريًا معاملتهم:

فقد كان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ مسلمًا لكنه خرج مع القوات القرشية المعتدية في بدر، فأسره المسلمون، وحانت مفاداة الأسرى، وأراد الأنصار التخفيف عنه في الفداء لكن النبي ﷺ أبى ليعلمنا كيفية التعامل مع مثل هذه الحالة، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ، رضي الله عنه، أَنَّ رِجَالًا مِنَ الأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ فَلْنَتْرُكْ لِابْنِ أُخْتِنَا عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ فَقَالَ: لاَ تَدَعُونَ مِنْهَا دِرْهَمًا[1]، وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أَسْرَائِهُمْ... قَالَ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّى كُنْتُ مُسْلِمًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلاَمِكَ فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللَّهُ يُجْزِيكَ فَافْدِ نَفْسَكَ وَابْنَىْ أَخَوَيْكَ نَوْفَلَ بْنَ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَعَقِيلَ بْنَ أَبِى طَالِبِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ جَحْدَمٍ أَخُو بَنِى الحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ». فَقَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَأَيْنَ المَالُ الَّذِى دَفَنْتَ أَنْتَ وَأُمُّ الفَضْلِ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٨٤) برقم ٣٠٤٨.

فَقُلْتَ لَهَا إِنْ أُصِبْتُ فَهَذَا المَالُ لِبَنِيَّ الفَضْلِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَقُثَمَ». فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُهُ إِنَّ هَذَا لِشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الفَضْلِ فَاحْتَسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عِشْرِينَ أُوقِيَّةٍ مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْعَلُ». فَفَدَى العَبَّاسُ نَفْسَهُ وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الأنفال: ٧٠) [1].

وينبغي أن تتعرف على بعض مزايا الخطاب القرآني؛ إذ يأتي بالوصف مجملًا ثم يظهر أنه يريد صنفًا محددًا له أوصافه المعينة، وبذا يجمل ثم يذكر التفصيل، فيظن الإنسان أن الضمير يعود لما ذكر سابقًا، وهو ليس كذلك بل يعود لبعض ما ذكر سابقًا، فقوله تعالى ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ (النساء: ٨٨) هؤلاء المنافقون عمومًا من أقام في دار العدل ومن أقام في دار الظلم، وسيفصل أصنافهم بعد، ولكل صنفٍ حكمٌ مستقلٌّ يبين كيفية التعامل معه، ومدار التعامل معه على رفعه لراية السلم.

فهذا العباس رضي الله عنه، وهو عم النبي ﷺ وكان مسلمًا يعيش مع الوثنيين القرشيين، ولم يهاجر، إما لأنه كان عينًا للمسلمين وإما لمصالح فردية، أما وهو لم يهاجر ففي هذه الحالة إذا لم يقاتل المسلمين فيجب الكف عنه، حاله حال النساء والصبيان الذين بقوا في ديار الظلم ولم يحاربوا المسلمين، وهو ما أشير إليه في الآية التي بعد هذا، ولكن العباس جاء مع الكفار في بدر، فما حدث للمسلمين هل كفوا عن قتاله؟ لم يكفوا عن قتاله بل قاتلوه وأسروه، لكن النبي ﷺ يعلم صدق إيمانه، فنهاهم أن يقتلوه، بيد أن حكمه من حيث الظاهر حكم الكفار الذين جاء معهم، ولذلك لم يطلق

(١) أخرجه البيهقي في «سننه الكبير» (٦ / ٣٢٢) برقم: (١٢٩٧٢) (كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في مفاداة الرجال منهم بالمال) (بهذا اللفظ).

سراحه إلا بفداء، ولما أعتذر أنه مسلم أبى النبي ﷺ أن يقبل ذلك، وإن علم النبي ﷺ بإسلامه، لكن الحكم الآن ينبغي أن يكون تشريعًا عامًّا ليتم التعامل مع الحالات المماثلة فقال النبي ﷺ: «الله أعلم بإسلامك».

فقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ يدخل فيها جميع المنافقين، وقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يدخل فيها جميع المنافقين ولكن معنى الهجرة يختلف حسب أصنافهم وإقامتهم في دار العدل ودار الظلم، وقول الله جل مجده: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٩) يشمل جميع المنافقين، لكن قوله جل جلاله قبل هذه الجملة: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ **(النساء : ٨٩)** يخص صنفًا من المنافقين وهم الذين أظهروا الخيانة العظمى ممن يقيم في دار العدل سواء أكانت دارًا للمسلمين أم لغيرهم، ولكن أخذهم يختلف، فإن كانوا في دار العدل المسلمة حوكموا فإن ثبتت عليهم الخيانة العظمى نفذ الحكم المناسب لها، وإن كانوا في دار عدلٍ غير مسلمة طُلِب من دار العدل كفهم أو تسليمهم حسب جرائمهم، والتطبيق النبوي لهذه الآية يدل على أن هذا الحكم ليس عامًا في كل منافق، بل الحكم في هذه الآية مع ما قبلها على التوزيع بين صنفين من المنافقين:

الأول: المنافقون الذين يودون أن نكفر كما كفروا، فيعملون على إدخال برامج الإجرام في العالم، ويحالفون المعتدين، وتجار الحروب، وأصحاب العقائد المعتدية، وأمراء المخدرات، ويحشدون المليشيات المعتدية على العالم -مسلمهم وكافرهم-، فهؤلاء يعلن لهم أنهم سيعاملون معاملة الحربيين، وهؤلاء بصرنا الله بهم في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾.

الثاني: منافقو المدينة النبوية ممن خذل المسلمين في قضاياهم، كالذين رجعوا عن أحد، لكنهم لم يظهر منهم مد يد العون إلى الأعداء الخارجيين في قتالهم للمسلمين، فهؤلاء ينبغي كف اليد عنهم، وعدم قتالهم، لكن لا ينبغي الاختلاف في تسمية من يفعل أفعالهم منافقين من الناحية العملية، لتبكيتهم وإظهار خيانتهم، وعدم توليتهم أي مناصب في المجتمع، فقد قال الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، ولكن النبي ﷺ ما كان يسمي من رجع عن (أُحْدٍ) منافقًا واحدًا واحدًا، وهؤلاء لا يُعاملون معاملة الحربيين المعتدين، وتبقى استراتيجية «أخذ الحذر» الأمنية قائمة معهم، فلا يتخذ منهم ولي ولا نصير، وينطبق عليهم الجزء الأخير من الآية، وهو قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وهذا يعني ألا تُعقَدَ التحالفات معهم؛ لأنه لا هدف لهم إلا الخيانة متى تمكنوا منها، وفي هذا رد على الأوهام الحزبية التي تظن يومًا أن الصفوف المليئة بالسعار الشهواني الحاقد، يمكن أن تصدق في حلفها، أو تظهر نصرتها.

وهذا الفهم لهذه الآيات يعصم من الزلل، ويتم تطبيق مثل ذلك في نحو هذا من الآيات مثل قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣)، ولا يقال بأن هذا تحكم بل هذا يدل عليه الجمع بين الآيات جميعًا، والتطبيق النبوي لمثل هذه الآيات، فالرسول ﷺ عاش مع المنافقين ولم يقتلهم، بل عاش مع رأس المنافقين وهو عبد الله بن أبي بن سلول ولم يقتله.

والذي يظهر من سياق الآيات شمولها لكل ذلك إلا أنه يمكن أن نفهم من الآيات واقعًا تاريخيًا واضحًا، فيظهر:

أن من المنافقين من كان في المدينة، فخذل المسلمين في قضاياهم ولم يظهر منهم مد يد العون إلى الأعداء الخارجيين في قتالهم للمسلمين فهؤلاء ينبغي كف اليد عنهم، وعدم قتالهم لكن لا ينبغي الاختلاف في تسميتهم منافقين من الناحية

العملية ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾.

ومن المنافقين من يعيشون في ديار المشركين، فيزعمون للمسلمين أنهم مع المسلمين، وبغض النظر عن زعمهم فلا ينبغي أن يتخذوا أولياء، ويكون لهم حكم من يعيشون معهم، فإن كفوا أيديهم يكف المسلمون عنهم أياديهم، ولكن يحاكمون وترصد تحركاتهم لئلا يصيروا دعمًا مباشرًا للمعتدين أو دعمًا لوجستيًا (ماديًّا)، والآية تنكر بشدة أن تميل مواقف المؤمنين من المنافقين لتصبح مائعة، ويميع معها مفهوم الأمن القومي.

وهنا يأتي السؤال: لماذا يتسامح الإسلام مع الكافر تسامحًا لا يوجد في التعامل مع المنافق والضال المبتدع بدعة مغلظة؟

والجواب واضحٌ، فالكافر يصنع أفعاله، وهو يعلم الناس أنه كافر، وأن أفعاله لا تنتمي إلى الإسلام أما المنافق أو المبتدع بدعة مغلظة فيصر على أن ما يفعله هو الإسلام.. إنه يتعمد تحريف الكلم عن مواضعه، ويزعم أن تدميره للإسلام هو الإسلام، فـ «الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهارًا نهارًا في العقيدة.. ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال. لا يتسامح مع من يقولون: إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله. ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية، كالحاكمية والتشريع»[1].

الصنف الخامس: من ينتمي إلى المعاهدين، سواء أكانوا مسلمين أم كفارًا.

ويُبَصِّرُنا بهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ (النساء: ٩٠)، فكلمة ﴿إِلَّا﴾ تدل على أنه يستثنى من إعلان العداوة الحربية، ويستثنى من عدم اتخاذ الولي والنصير من يصل إلى المعاهدين، ومعنى ﴿يَصِلُونَ﴾: يتصلون،

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٣٢).

وعداها بـ ﴿إِلَىٰ﴾؛ ليضمنها معنى: ينتسبون، أي: يتصلون بمن عاهدتموهم، أو ينتسبون لهم بالرحم أو الانتماء الوطني أو غيره:

هنا قد تعارض الفكرة بمجرد قراءتك للكلمات الأولى، وربما أعرضت ونأيت بجانبك، وقلت: وهل هذا يعقل؟ المعاهد لفظ يطلق في الحديث النبوي، وعند فقهائنا في المشهور على غير المسلم بشروط، فكيف تجعل مسلمًا معاهدًا؟

فأقول لك: إنه القرآن المجيد وبصائره.. تسع الآفاق كلماته، تقرأه في العصور الخالية، والأجيال الحاضرة والباقية، فتجده يقدم لك الحلول، وينير بصائرك مهما اسودت الدروب وأظلم الطريق.. والآن أخبرني: ألا ترى أن الواقع متخم بالمتغيرات المثيرة؟

لقد تخلت بعض الأنظمة التي تنتسب شعوبها إلى الإسلام عن بصائر الإسلام الأساسية في الواقع الإنساني، والعلاقات الدولية، وحصرته في العبادات الشعائرية، وبعض الأحوال الشخصية والاجتماعية، وبذا فإنك ترى إمكانية الحروب بين هذه الأنظمة وإعلان حالة العداوة والبغي دون سابق إنذار، وتجر إليها في ذلك الشعوب رغمًا عنها، والآيات التي نحاول تفيؤ ظلالها تمدنا بالبصائر الهادية، والآن عد بنا إلى هذا الصنف:

هذه الآية تفصل شيئًا عظيمًا يقع في النفوس، فقد سبق في الآية السابقة أن أخبرنا الله عن المنافق الذي يجب أن يصنف ضمن العدو الحربي، فيصدق فيه قول الله تعالى ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٩)، وحتى لا يغلو أحدٌ في تطبيق تلك الآية، ولا يتخذها المتطرفون شعارًا لهم يتلاعبون بها، ويخدعون بها عقول الشباب، فيتسرعون في قتل الآخرين ويزعمون أنهم منافقون جاءت هذه الآية في موضعها المنطقي لتبصير العقول، ولتمد العالم بالرعاية الإلهية التي تُفَصِّل أحداث العالم كما ينبغي أن تكون..

ما أكثر ما تسمع هذه الأيام عن المصائب الكبرى التي يتم إلصاقها بالإسلام

عمدًا وجهلًا إما من الغلاة المسلمين الذين يقتلون إخوانهم بالتخرص واتباع الظن والأهواء الشيطانية، وإما من المتعصبين غير المسلمين الذين يتلاعبون بهذه القضية، فما الذي يعصم الدماء؟

هنا يبين ذلك الله سبحانه وتعالى أن مدار الحياة قائم على إلقاء السلم، فإلقاء السلم وعدم التعاون مع المحاربين، وكف الأيدي أساس العلاقات الداخلية والخارجية في الإسلام، فإن الكافر قد يعيش بين المسلمين، وكذلك المنافق، والذي في قلبه مرض، والعكس فقد يعيش المسلم معهم.. فما مدار الأمر في حماية الأمن؟ إنه إلقاء السلم، سواء أكان من منافق أم من كافر، أم من عاص، فقوله تعالى ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ (النساء : ٩٠) إلا هنا استثناء من قوله – عزَّ جارُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٩) .

فمعنى ﴿يَصِلُونَ﴾ يتصلون وعداها بـ﴿إِلَىٰ﴾ ليضمنها معنى ينتسبون، أي: يتصلون بمن عاهدتموهم أو ينتسبون لهم بالرحم أو الانتماء الوطني أو القبلي أو غيره، فهؤلاء ينتمون إلى المعاهدين سواء أكانوا مسلمين أم لا، ففي عهد النبي ﷺ وقعت اتفاقية عهد بينه وبين كفار قريش، ودخل في اتفاقية قريش بنو بكر، فهم لم يوقعوا اتفاقية مع النبي ﷺ مباشرة، كما في نص الاتفاقية التي بين النبي ﷺ وكفار قريش، وأن من والاهم ولحق بهم فله حكمهم، أي: لهم الصلاحية ليضموا غيرهم إليهم، فهم عندما ينتمون إلى هؤلاء الذين بيننا وبينهم عهد فهم يصيرون في حكمهم، فيجب على قريش أن يمنعوهم من أن يعتدوا على المسلمين، فقريش هم الطرف الضامن لهؤلاء الذين لم يكن بيننا وبينهم اتفاقية مباشرة.

والمعنى –كما يقول الطبري–: «فإن تولىَّ هؤلاء المنافقون الذين اختلفتم فيهم عن الإيمان بالله ورسوله، وأبوا الهجرة فلم يهاجروا في سبيل الله، فخذوهم

واقتلوهم حيث وجدتموهم، سوى من وَصل منهم إلى قومٍ بينكم وبينهم مُوادعة وعهد وميثاق فدخلوا فيهم، وصاروا منهم، ورضوا بحكمهم، فإن لمن وصل إليهم فدخل فيهم من أهل الشرك راضيًا بحكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم..»[١] أن تسالموه، وهو في ذمة الله، والله قد عصمه فلا سبيل لكم عليه.. وهذه الآية تؤكد المبدأ الذي جعلناه عنوانًا للمحور، وهو أن الإسلام يؤسس معنى السلام الشامل، وأن القتال في الإسلام سببه الاعتداء المسلح من الآخرين بغض النظر عن دينهم، حتى لو كانوا مسلمين، وهنا يزين الرازي مجلس تدبرنا القرآني بهذه اللفتة الإيمانية الممتلئة رجاء وحسن ظن بالله، فيقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ بِشَارَةً عَظِيمَةً لِأَهْلِ الإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا رَفَعَ السَّيْفَ عَمَّنِ التَجَأَ إِلَى مَنِ التَجَأَ إِلَى المُسْلِمِينَ، فَبِأَنْ يَرْفَعَ العَذَابَ فِي الآخِرَةِ عَمَّنِ التَجَأَ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّه وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ كَانَ أَوْلَى»[٢].

الصنف السادس: قومٌ من الكفار ينتمون إلى المحاربين نوع انتماء، لكنهم يكفون أيديهم عنكم.

ويُبَصِّرُنا بهم قوله تعالى ذكره: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ﴿أَوْ﴾ للدلالة على صنفٍ آخر أي: أو الذين، أسقط كلمة «الذين» لوضوحها في الكلام ﴿جَآءُوكُمْ﴾ ليعلنوا لكم أنهم يريدون السلام فقد حصرت أي: ضاقت صدورهم أن يقاتلوكم، أو يقاتلوا قومهم، فيجب كف اليد عنهم، ومسالمتهم.

فهم قومٌ من الكفار ينتمون إلى المحاربين لكنهم يكفون أيديهم عنا.. وقرأ يعقوب: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ (النساء: ٩٠) نصبًا، أي: حال كونهم ضيقة صدورهم.. ضاقت صدروهم أن يقاتلونا، فهم يشعرون بطريقةٍ أو بأخرى أن عندنا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٩).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ١٧١).

حقًّا، أو هم لا يحبون القتال بل يحبون السلم، وأيضًا لا يريدون أن يتصلوا بنا ويكونوا معنا ويهاجروا إلينا، ويظهروا إسلامهم معنا فيقاتلوا قومهم، فهذا كافر وهو مع الكفار المحاربين لكنه يحب السلام، من هنا هذه الآية تعطينا أبعادًا رائعة وعظيمة جدًا في كيفية التعامل مع الجماعات التي ترفع راية السلام من غير المسلمين، فينبغي أن ننظر في التعامل الإيجابي معهم بما يؤدي إلى صالح الأمة وصالح السلام العالمي، وينص الرازي عليهم فيقول: «وهؤلاء المذكورون عند الجُمْهُورُ هم مِنَ الكُفَّارِ -إلى قوله- أَوْ تَارِكًا لِلْقِتَالِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُمْ»[1]، فأَوْجَبَ الله قَتال الكَافِرِ المحارب المعتدي إِلَّا إِذَا كان رافعًا راية السلم، أي: كَانَ مُعَاهِدًا أي معاهدة دولية، أو معاهدة فردية وهذه فرصة عظيمة جدًا تفتح آفاقًا عالية في كيفية عدم التعامل مع جميع الأصناف المختلفة، ولو كانوا ينتمون إلى مكان واحد.

ويبين هذا التشريع العام الواقع التاريخي الذي نزلت الآية لتعالجه، يحدثنا عنه سراقة بن مالك المدلجي ﷺ، فيقول: فَلَمَّا قَدِمَ -يعني النبي ﷺ- المَدِينَةَ، وَظَهَرَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ، وَأَسْلَمَ النَّاسُ وَمَنْ حَوْلَهُمْ، قَالَ سُرَاقَةُ: بَلَغَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي مُدْلِجٍ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدُكَ النِّعْمَةَ، فَقَالَ القَوْمُ: مَهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: دَعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تُرِيدُ؟ فَقُلْتُ: بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَبْعَثَ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى قَوْمِي، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ تُوَادِعَهُمْ، فَإِنْ أَسْلَمَ قَوْمُهُمْ أَسْلَمُوا مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا لَمْ تَخْشُنْ صُدُورُ قَوْمِهِمْ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، فَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ مَعَهُ، فَاصْنَعْ مَا أَرَادَ.

فَذَهَبَ إِلَى بَنِي مُدْلِجٍ، فَأَخَذُوا عَلَيْهِمْ أَنْ لاَ يُعِينُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنْ أَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ أَسْلَمُوا مَعَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِلَّا

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٧٢).

﴿ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾. قَالَ الحَسَنُ: فَالَّذِينَ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ بَنُو مُدْلِجٍ، فَمَنْ وَصَلَ إِلَى بَنِي مُدْلِجٍ مِنْ غَيْرِهِمْ كَانَ فِي مِثْلِ عَهْدِهِمْ [١].

إن مدار العلاقات في الإسلام قائمة على إلقاء السلم، فكيف يفتري الإعلام المبغض للإسلام على الله الكذب، فيزعم بأن الإسلام انتشر بالسيف؟ ألا ترى مقدار رسوخ «مبدأ السلم» في الإسلام؟ ألم يقل الله هنا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ (النساء: ٩٠)، كما قال في سورة براءة التي هي من أعظم مواضع الآيات التي عليها يعتمد الغلاة: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:٧). وهنا ترى الآيات تتعاضد على أن تقرير مبدأ السلم في الإسلام يقترن في الوقت ذاته باستراتيجية «أخذ الحذر»، فكلاهما يبين التكوين الإسلامي لحضارة تحمي الحق والعدل في العالم.

الصنف السابع: قومٌ من المسلمين ينتمون إلى المحاربين.

وتبصرنا بهم الجملة ذاتها: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾، جاؤوكم فأسلموا وتابعوكم، ولكن صدورهم ضاقت أن يقاتلوكم؛ لأنهم يخافون الله، أو يقاتلوا قومهم؛ لأن فيهم أقاربهم، أو لأنهم هاجروا وعاهدوا الكفار على عدم مقاتلتهم، فيجب عليهم الوفاء [٢]:

فالصنف السابق كانوا من الكفار ضاقت صدروهم أن يقاتلوا المسلمين، لا

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٤ / ٣٣٢).

(٢) الرازي في تفسيره (١٠/ ١٧٢) بنحوه.

لأنهم يخافون الله وإنما لأنهم يحبون السلم، ولا يميلون إلى العنف، أما هذا الصنف فهم جاءوا وأسلموا، فلا يريدون قتال المسلمين لأنهم أصبحوا منهم، ولا يريدون قتال قومهم، لسببٍ مقنع [١] أو لأنهم عاهدوهم عند الهجرة على ذلك، فعند ذلك ينبغي أن يفوا بعهدهم. ومما يؤكد هذا المعنى حديث حُذَيْفَة بْن اليَمَانِ ﷺ قَالَ: مَا منعني أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّى خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِى - حُسَيْلٌ - قَالَ فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَالُوا إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا فَقُلْنَا مَا نُرِيدُهُ مَا نُرِيدُ إِلاَّ المَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى المَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الخَبَرَ فَقَالَ: «انْصَرِفَا نَفِى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ» [٢].

وبذا وجدت الآية وبصورةٍ مدهشة تجمع لك ثلاثة أصنافٍ في كلامٍ وجيزٍ معجزٍ.

وبعد أن عرَّف الأصناف الثلاثة السابقة (الخامس والسادس والسابع) بدقة يبصرك الله جل ذكره بحكمهم، فيقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠) فيجب بسط السلام معهم، فمنع الله المسلمين أن يؤذوا أحدًا منهم كفارًا كانوا أم مسلمين ما داموا التزموا بالاعتزال وعدم القتال وإلقاء السلم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ولو شاء الله أن يجعلهم جزءًا من القوة القاهرة ضدكم لفَعَلَ، فالتسليط التمكن من القهر، ومنه سمي السلطان، قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ (الإسراء: ٣٣)، وتسمى الحجة سلطانًا؛ لأنها تقهر الخصم[٣]، فحقن دماءهم، ومنع من إيذائهم ولو بالكلمة لكونهم حققوا ثلاثة أمور:

(١) ينقل الرازي في تفسيره (١٠/ ١٧٢) بنحوه.

(٢) صحيح مسلم (٥ / ١٧٦) برقم ١٧١٧ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص ٢٣٨).

الأمر الأول: اعتزلوكم، **الأمر الثاني**: لم يقاتلوكم، **الأمر الثالث**: ألقوا إليكم السلم، أي: الصلح [١]، أي أعلنوه، ولم يظاهروا عليكم أحدًا فلم يتعرضوا لزعزعة الأمن العام والمجتمعي، وأظهروا الصلح مع المسلمين.

ما سبب ذكر عدم القتال وإلقاء السلم مع الاعتزال؟

الاعتزال قد يتم ولكنهم على الرغم من الاعتزال قد يشكلون دعمًا لوجستيًا للعدو من الخلف سواء أكان دعمًا سياسيًا أم اقتصاديًا، فأراد الله سبحانه وتعالى توثيق حالة السلم بصورة كلية فجمع الشروط الثلاثة معًا، وتجد في ذلك الغاية في الاحتياط لعدم التلاعب بالصلح والاتفاقيات، ولذلك نص على المقاتلة ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ثم قال ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، وعند ذلك ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ و ﴿سَبِيلًا﴾ نكرةٌ، أي: فما جعل لكم حجة في إيذائهم أدنى إيذاء حتى لو كان الإيذاء بالمعايرة فضلًا عن الشتم، والحملات الثقافية.

فمثل هؤلاء لا يتم الضغط عليهم.. لا يقال لهم: إما أن تكونوا معنا أو ضدنا، فالإسلام يشجع على السلم فإذا كانوا يريدون السلامة وإشاعة السلام، بأن يبقوا محايدين فيجب أن نعينهم.

إن هذا التصنيف الدقيق يعطينا بعدًا ثقافيًا عظيمًا جدًا في التعامل مع العالم وإيجاد نصراء حتى من غير المسلمين للقضايا العادلة. تخيل مقدار الخسار الذي يصيبنا عندما يغيب مثل هذا الفقه عن واقع الأمة.

الصنف الثامن: الباحثون عن مصالحهم الذاتية دون مبالاة بالتزام السلام، فهم يترددون بين إلقاء السلام لكم وبين معاونة المعتدين عليكم.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٤).

ويُبَصِّرُنا الله بهم، فيقول: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾، فلم يبح الاعتداء عليهم على الرغم من خيانتهم، بل قيد الاعتداء عليهم بمشاركتهم المباشرة في الاعتداء المسلح، فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء:٩١):

لاحظ كلمة ﴿ءَاخَرِينَ﴾ هذا من التعبير القرآني البليغ؛ إذ تحتمل أن يكون المقصودون بها من المسلمين، وتحتمل أن يكونوا كفارًا، وهذا الذي درج عليه المفسرون، فـ﴿ءَاخَرِينَ﴾ قد يراد بها المسلمون وقد يُراد بها الكفار الصرحاء لأدلة متعددة مثل قوله تعالى ذكره: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ (الشعراء: ٦٤).

فما شأن هذا الصنف؟ يصف الله حالهم فيقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ فهم منتسبون إلى قومٍ معتدين، وهم يتلاعبون فيُظهِرون للمسلمين رغبتهم في السلام، وعندما يرجعون إلى قومهم يُظهرون لهم أنهم معهم، فهم يبحثون عن مصالحهم الذاتية دون مبالاة بالصدق في الالتزام والعهد، وفي الواقع التاريخي الذي نزلت فيه الآية قيل هُمْ قَوْمٌ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ، كَانُوا إِذَا أَتَوُا المَدِينَةَ أَسْلَمُوا وَعَاهَدُوا، وَغَرَضُهُمْ أَنْ يَأْمَنُوا المُسْلِمِينَ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ كَفَرُوا وَنَكَثُوا عُهُودَهُمْ[1]، وبغض النظر عن إسلامهم فإن التركيز عن موضوع الأمن ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ فكلمة يأمنوا، أي: يظهرون الإسلام نفاقًا أو يظهرون المعاهدة كأنهم يقولون نريد أن يكون حالنا كحال الذين حصرت صدورهم، نريد أن نعاهدكم بألا نقاتلكم ولا تقاتلونا.

فهم مثل الأصناف الثلاثة في الآية السابقة.. فبم يختلفون عنهم؟

(١) تفسير الرازي (ص ١٥٢٣).

يصف الله لك نقطة الاختلاف فيقول: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ .

ما الفتنة التي يردون إليها؟

الفتن هي الاختبار الذي يفصل الطيب عن الخبيث، فيعرض الذهب والفضة والحديد على النار حتى يزيل خبث كل واحدٍ، وبذا فإن الفتنة هي الواقعة الظاهرة من وقائع الحياة التي يترتب عليها الظهور الواضح لحقيقة الإنسان سواء أكانت هذه الواقعة رخاء أو شدة، راحة أو عذابًا، غنى أو فقرًا..

فيظهرون للمسلمين الرغبة في السلام وكف اليد، ثم إذا جاءت وقائع الاختبار، فرجعوا إلى قومهم المعتدين فرأوا عندهم رهبًا أو رأوا رغبًا أركسوا أمام فتنة الواقع الذي يجدونه، أي: رجعوا إلى نجاساتهم من الخيانة والغدر فقالوا: نحن خدعنا المسلمين.. بل ذهبنا عينًا لكم عليهم فوجدنا من أسرارهم كذا وكذا.

حكمهم:

مدار التعامل معهم قائم على الالتزام الحقيقي بإلقاء السلم، فإن أبوه فحكمهم حكم المعتدين حيث يقول الله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾(النساء: ٩١)، وتأمل الموقف: على الرغم من الشعور بخيانة هذا الصنف وغدره إلا أن الله جعل الأصل في التعامل السلم، فهم مثل الأصناف الثلاثة في الآية السابقة، ولا يلجأ إلى قتالهم إلا بثلاثة شروطجاءت في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ (النساء: ٩١):

١ـ ألا يعتزلوا، فالاعتزال يقتضي أن يأخذوا جانب الحياد، فإن أبوا وأصروا على الانحياز لجانب المعتدين، فقد تحقق الشرط الأول لقتالهم، والانحياز يتحقق بأن

ينضموا إلى المعسكر المعتدي أو بأن يوفروا لهم الدعم الخلفي (اللوجستي) أي: أن يدعموهم بالمعلومات وبالإمدادات الغذائية ونحو ذلك وهكذا.

٢ـ ألا يلقوا إليكم السلم، ولاحظ التعبير بإلقاء السلم، كأن السلم الذي هو السلام والصلح عبارة عن شيء محسوس بيدك، فحتى يتضح لك فعلًا أنك تريد السلام ألقه أي: ارمه من عندك أمام الآخرين حتى يتضح لي ذلك، فهذا تصويرٌ لضرورة أن يُظهروا السلم بصورةٍ لا تلاعب فيها.

٣ـ أن يكفوا أيديهم، وهذا تصويرٌ بليغٌ لإظهار أنفسهم بمظهر الحريص على عدم تأييد أحد الجانبين، فكف اليد يتحقق بمنعها من الحركة، وتقييدها من الفعل، وقد يتحقق بأن تمسك اليد الأولى باليد الأخرى لتكفها عن الحركة، فهذا التصوير ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ تصويرٌ رائع يقتضي أن تبذل الجهات المختصة جهودًا كبيرة للتأكد الاستخباراتي من التزام هذا الطرف بما يزعمه من الاعتزال وإلقاء السلام وكف اليد.

وكل ذلك يعلم الأبعاد العسكرية في العلاقات الدولية ويفترض أن تكون هذه الآيات ضمن ما يتعلمه طلاب الكليات العسكرية لتكتسب منه خبرة مدهشة في محاولة إدارة الصراعات القائمة في العالم، وقد سبق لي أن قرأت كتابا من الكتب يسمى (فن الحرب) ينسبونه لأحد الصينين يسمى تسو، وهذا كتاب ألف فيما يزعمون قبل ألفي سنة، وهو كتاب متداول عند الشرقيين والغربيين ومشهور جدًا، مهما وجدت فيه ستجد أن الاستراتيجيات الأمنية التي تؤدي إلى الانتصار وتحفظ السلام في القرآن الكريم أقوى وأقوم بالإضافة إلى امتلاكها ناصية الأخلاق العسكرية الحقيقية وليست المدعاة، بل إنك لتجد إدارة المعارك العسكرية في القرآن تأخذ مناحي مدهشة يتم فيها تحويل الخسارة أو الهزيمة إلى نصرٍ حقيقي.

فإن لم تتحقق هذه الشروط الثلاثة وهي الاعتزال وإلقاء السلم وكف اليد،

فهنا يأتي الحكم الصارم مع هؤلاء المتلاعبين ذلك ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ ومعنى ثقفتموهم أي: وجدتموهم قاصدين أو على حين غرة.

وهذه الآيات تزيدك تفصيلًا وبيانًا لما ورد في قَوْله تَعَالَى جده: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ (المُمْتَحَنَة: ٨) وَقَوْله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ (البَقَرَة: ١٩٠).

وبذا يظهر أن المعيار الأساسي للعلاقات الدولية، والداخلية، ليس بإظهار كلمة الإسلام، وإنما بكف الأيدي عن الاعتداء، وإلقاء السلم، سواء أكان المجتمع يغلب عليه الإسلام أم الكفر، وتفصيل هذه الأقسام لبيان كيفية تطبيق السياسة الأمنية الرائعة التي هي سياسة: (أخذ الحذر).

القسم السادس

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة تطبيق السياسة الأمنية (النساء:٩٢-٩٤)

آيات هذا القسم:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:٩٢-٩٤).

المناسبة والاتصال:

بين الله في القسم السابق أن أهم قيمة تبنى عليها العلاقات المحلية والدولية هي كف اليد وإلقاء السلم، فلا يجوز الاعتداء على الآخرين باسم: أخذ الحذر، وفي

هذا القسم يأمر الله بحراسة الدماء الإنسانية، ويُحَذِّرَ الـمُسلم من أن يطلق يده في دماء غيره تحت أي ذريعة، ويبين الله خطورة الاعتداء على الآخرين، سواء أكانوا مسلمين أم أصحاب عهود وعقود، فالناس ينقسمون حسب ميلهم إلى السلم إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول: المحارب (ومثله الباغي)، وقد يكون مسلمًا، وقد يكون غير مسلم.

الصنف الثاني: المعاهِد، وربما كان كافرًا، وربما كان منافقًا، وقذفت لنا نوازل العصر بأنه ربما كان مسلمًا.

الصنف الثالث: المُسْتَأْمِنِ، وهو من طلب الأمان، وكان ينتمي إلى الحربيين لعمل أو رسالة أو تجارة أو غير ذلك.

الصنف الرابع: الـمسلم، ومثله: الذِّمِّي (الـمقيم) ممن يعيش في مجتمع مسلم، ومثله: الـمسلم الـمقيم وفق عقد إقامة، أو مواطنة في مجتمعٍ غير مسلم.

فبين الله أن استراتيجية أخذ الحذر لا تعني أن يعبث بدماء الآخرين بحجة الداعي الأمني بل يجب أن يكفل لبقية البشر الحقوق كاملة في صيانة دمائهم، وحراسة أعراضهم، والقيام على كراهتهم، فهذا القسم يقيم التوازن بين مقتضيات الحزم في سياسة أخذ الحذر وضرورة السهر على حراسة دماء البشر، فلا يأخذ المتحمسون الأمر على العنف والعسف والاندفاع الأهوج، ولا يأخذ المتميعون الأمر على الذل والمداهنة، وتضييع المصالح العليا للأمة باسم الرفق والسماحة.

وبين الله في هذا القسم من خلال عددٍ من البصائر القانونية، جاءت مرتبة على نحوٍ تقنينيٍّ بديعٍ، فكانت أولها يتعلق بحكم قتل الخطأ؛ إذ قد يقع، ووقوعه لا يعني

القيام بالثارات، ولا المسارعة لإبادة النفوس، ولا الاقتصاص ليتم إفقاد البشرية أكثر من نفسٍ، ثم وسَّط الله جل ذكره ضمن هذه البصائر القانونية ببيان حكم قتل المؤمن عمدًا، ثم ختم الله ذلك ببيان حكم قتل الشبهة للمؤمن وللمُؤمَّن، فهلم بنا إلى هذه القوانين المشعة بالنور الذي يُصلِح أحوال هذا العالم:

القانون الأول: يحرم حرمة قطعية أن يقتل مؤمنٌ مؤمنًا للدرجة التي لا يتصور فيها بقاء الإيمان إن فعل ذلك. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾(النساء:٩٢).

ويصور هذا القانون أن قتل المؤمن للمؤمن، لا يمكن وقوعه شرعًا، وذلك يعني أن المؤمن إن قتل مؤمنًا، فقد سلب منه وصف الإيمان.

﴿وَمَا كَانَ﴾ أتى بصيغة الإخبار ولم يأت بصيغة الطلب، فهو نفي بمعنى النهي للتشديد والتفظيع والتهويل لهذه الجريمة، وهذا تشديدٌ عظيم، فلا يُتصور أن يقتل مؤمنٌ مؤمنًا إلا خطأ، وكأنه لو فعل ذلك فليس بمؤمن فكأن الإيمان نزع منه، وهذا تهويلٌ شديدٌ لهذه الجريمة، وقد ذكر النبي ﷺ ذلك فقال: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[1].

والِاسْتِثْنَاءَ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَئًا﴾ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى لَكِنْ، كما في قوله تَعَالَى ذكره: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ (النِّسَاءِ: ٢٩) وكما في قوله -عزَّ جارُه-: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ (النَّجْمِ: ٥٣) ومثله قوله جل مجده: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ (الوَاقِعَةِ: ٢٥، ٢٦).

---

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٤١) برقم ١٢١.

فكأن قتل المؤمن في غير حالة الخطأ يناقض الإيمان؛ إذ يستحيل شرعًا وجود مؤمن صادق الإيمان يقتل مؤمنًا إلا خطأ.. انظر للحصر هنا ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ (النساء: ٩٢)، ويسمى هذا الحصر حصرًا ادعائيًا، وذلك لأنه ينبغي أن لا يحدث ذلك، ولكن الواقع المؤلم قد يخالفه، فيوجد مؤمن يقتل مؤمنًا عمدًا، كما في الآية التالية، وسبب هذا الحصر التهويل العظيم للتفكير في هذا الفعل، والتفظيع الشديد لهذه الجريمة.. ترى ماذا يقول المجرمون الكبار الذين يزعمون أنهم مسلمون ثم يبيحون دماء الموحدين؛ لأدنى تعارض مع مصالحهم الدنيوية أو وساوسهم الدينية؟

والجرائم التي يجوز بسببها قتل المؤمن ذكرها النبي ﷺ في قوله: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الجَمَاعَةَ»[1].

إن هذا القانون يأخذ بأيدينا إلى بصيرةٍ جديدةٍ: اجتماع المؤمن مع المؤمن أعظم النعم بعد نعمة الإيمان؛ إذ المؤمن يحافظ على دم أخيه أعظم المحافظة، فبذلك يسمى مؤمنًا، واعتداء مؤمن على مؤمن يناقض حقيقة ذلك الإيمان.

وستقول: القانون ينص على حرمة الدماء الإنسانية؛ ولكن الآية ذكرت الدماء المؤمنة فقط، فكيف يستقيم الاستدلال؟

إنك لترى الآية ذكرت في البداية حرمة دماء المؤْمِنين، لكنها أدرجت في البصائر القانونية القادمة ما يتعلق بدماء المؤَمَّنين معهم، وإنما ذكرت الآية هنا دماء المؤمنين لأنها سورةٌ مدنيةٌ فصلت أحوال المؤَمَّنين في القسم السابق، وقد آن الأوان لذكر المؤْمِنين في هذا القسم.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٦) برقم ٦٨٧٨.

القانون الثاني: حالات القتل الصادر من مؤمن: الحالة الأولى: يظهر فيها الحكم العام لقتل المؤمن مؤمنًا خطأ، فيجب تقديم الكفارة وهي أمران. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ (النساء: ٩٢).

فالخطأ معفو عن الإثم فيه، إلا أن الخطأ في القتل ليس كالخطأ في أي فعل حتى الخطأ الشركي.. الخطأ في القتل لا بد له من كفارةٍ؛ ليظهر لك مقصد الإسلام في الحرص على حياة البشرية، وذلك حتى لا تتشابك الخطوط وتتداخل الخيوط، فيأتي من يزعم أنه قتل فلانًا المؤمن خطأ ولم يتعمد، فقد شدد الله تعالى العقوبة على قتل الخطأ، ويتصور قتل الخطأ بأن يحاول المؤمن أن يقتل معتديًا حربيًا حريصًا على قتل المؤمنين إن قدر على ذلك، فتقع الضربة على مؤمن بدلًا من ذلك، أو أن يرمي المؤمن صيدًا أو هدفًا فيصيب مؤمنًا دون أن يقصد قتله، **فالقتل ثلاثة أنواع عند الشافعية:**

العَمْدُ: وهُوَ أَنْ يَقْصِدَ قَتْلَهُ بِالسَّبَبِ الَّذِي يُعْلَمُ إِفْضَاؤُهُ إِلَى المَوْتِ سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ جَارِحًا أَم لَمْ يَكُنْ.

وَأَمَّا الخَطَأُ فَضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقْصِدَ رَمْيَ المُعتدي أَوِ الطَّائِرِ فَيصَيبُ مُسْلِمًا. وَالثَّانِي: أَنْ يَظُنَّ الهدف المراد معتديًا حربيًا بِأَنْ كَانَ عَلَيْهِ شِعَارُ المعتدين، وَالأَوَّلُ خَطَأٌ فِي الفِعْلِ، وَالثَّانِي خَطَأٌ فِي القصد.

وأما شبه العمد: فهو أن يضربه بسلاحٍ لا يقتل عادة فيموت منه. قال الشافعي رحمه الله: هذا خطأ في القتل وإن كان عمدًا في الضرب، وهذا كما قال ابن رسلان

فَعمد مَحْض وَهُوَ قصد الضَّارِب شخصًا بِمَا يقْتله فِي الغَالِب
وَالخَطَأ الرمي لشاخص بِلَا قصد أَصَاب بشرًا فقتلا
ومشبه العمد بِأَن يرْمى إِلَى شخص بِمَا فِي غَالب لن يقتلا

وَلـم يجب قصاص غير العمد إِذْ يحصل الإزهاق بالتعدي [١]

فكفارة القتل الخطأ بينت مقصد الإسلام في الحرص على حياة الناس حيث تكونت من أمرين: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾:

فالأمر الأول: تَحْرِير رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فمن أعظم أهداف الشريعة الإسلامية تنمية الحياة الإنسانية؛ ولذا حرضت على عتق الأرقاء، وفق تأهيلٍ مناسب، وجعلت العتق كالإحياء للنفس؛ لذا كان جزءًا من الكفارة إمداد المجتمع برقبةٍ تعويضًا له عن فقدان حياةٍ قتلت خطأ.

فالفاء في قوله ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرْطِ، وَ (تَحْرِير) خبر مرفوع لمبتدأ محذوف تقديره: فكفارته تحرير رقبة، أو مبتدأ مرفوع وخبره مرفوع تقديره: فعليه تحرير رقبة، كَقَوْلِهِ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ (يُوسُف: ١٨).

ما سبب تحرير الرقبة؟ لأنه أعدم رقبة، فلابد له أن يحرر رقبة بدل الرقبة التي ماتت وكأن الرق بمثابة الموت، والعتق بمثابة الحياة، وكان الرق فاشيًا في النظام الجاهلي، ومن أسبابه: الأسر في الحرب، والخطف، ومنها: بيع الوالدين لأبنائهم، ومنها: عدم القدرة على سداد القروض، فأبطلها الإسلام، ما عدا الأسر في الحرب؛ لأن الرق وفق الضوابط الإسلامية أفضل من السجن؛ إذ يتم من خلاله التأهيل الحقيقي للعودة المكرمة للمجتمع، وعدم تحميل الدولة، أو المجتمع أعباء إضافية، فيصير الأسير جزءًا من الأسرة التي تعامله أحسن المعاملة؛ حتى يتأهل لافتداء نفسه؛ ولأن المقتول نفسٌ مؤمنة لا يجزئ من الرقاب إلا عتق نفسٍ مؤمنة جزاء وفاقًا، فعن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ

(١) الزبد في الفقه الشافعي (ص ٢٨٧).

مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أُعْتِقُهَا قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا». فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(١)، وعن عبد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء وقال: يا رسول الله إن علي رقبة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله» قالت: نعم قال: «أتشهدين إني رسول الله»، قالت: نعم قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم، قال: «اعتقها»(٢).

وعمم الله العتق للمؤمن ولغير المؤمن في كفارات أخرى غير كفارة قتل المؤمن خطأ. والجراح العظيمة التي وجدت في المجتمع بقتل هذه النفس خطأ تتم مداواتها بِإِيجَادِ أَسْبَابِ الحُرِّيَّةِ، وَقَدْ جُعِلَ هَذَا التَّحْرِيرُ بَدَلًا مِنْ تَعْطِيلِ حَقِّ اللَّهِ وحق المجتمع فِي ذَاتِ القَتِيلِ؛ فَإِنَّ القَتِيلَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَيُرْجَى مِنْه ومن نَسْلِهِ أن يتم الانتفاع بطاقاتهم في عمارة الحياة وفق المراد الإلهي.

الأمر الثاني من الكفارة: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ والدية تعكس الحرص على تطييب خواطر أهل القتيل؛ ليبقى التلاحم في الأمة قائمًا؛ ولتجبر مصيبة أهله فيه.

فالدية مَصْدَرُ وَدَى القَتِيلَ يَدِيه وَدْيًا وَدِيَةً - كَعِدَةٍ وَزِنَةٍ مِنَ الوَعْدِ وَالوَزْنِ، وقوله تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أَصْلُهُ يَتَصَدَّقُوا فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الصَّادِ، أي إلا أن تطيب خواطرهم فيتصدقوا على أنفسهم بالتنازل عن الدية قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يُوسُفَ: ٨٨)، وبين ابن مسعود تفصيل الدية فقال:

(١) صحيح مسلم (٢ / ٧٠) برقم ٥٣٧ .

(٢) أحمد (٣ / ٤٥١) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه.

قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكورًا وعشرين بنت لبون وعشرين جذعة وعشرين حقة [١].

« وَقَدْ كَانَ العَرَبُ جَعَلُوا الدِّيَةَ عَلَى كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَكَانَتْ عِوَضًا عَنْ دَمِ القَتِيلِ فِي العَمْدِ وَفِي الخَطَأِ، فَأَمَّا فِي العَمْدِ فَكَانُوا يَتَعَيَّرُونَ بِأَخْذِهَا. قَالَ الحَمَاسِيُّ:

فَلَوْ أَنَّ حَيًّا يَقْبَلُ المَالَ فِدْيَة لَسُقْنَا لَهُمْ سَيْبًا مِنَ المَالِ مُفْعَمَا
وَلَكِنْ أَبَى قَوْمٌ أُصِيبَ أَخُوهُمُ رِضَى العَارِ فَاخْتَارُوا عَلَى اللَّبَنِ الدَّمَا [٢]

وَإِذَا رَضِيَ أَوْلِيَاءُ القَتِيلِ بِدِيَةٍ بِشَفَاعَةِ عُظَمَاءِ القَبِيلَةِ قَدَّرُوهَا بِمَا يَتَرَاضَوْنَ عَلَيْهِ. قَالَ زُهَيْرٌ:

تُعَفَّى الكُلُومُ بِالمِئِينَ فَأَصْبَحَتْ يُنَجِّمُهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُجْرِمِ [٣]

ومما يدل على تشوف الشريعة إلى لملمة الجراح قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾؛ إذ تدل على ضرورة تحرك القاتل إلى ديار المقتول لتسليم الدية، وتطييب الخاطر، وإبقاء لحمة الاجتماع الإنساني والإيماني قائمة.

والسؤال هنا: لماذا يلزم العاقلة أن تعين القاتل على الدية مع أنهم لم يَصْدُرْ عَنْهُمْ جِنَايَةٌ؟ والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأَنْعَام: ١٦٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأَنْعَام: ١٦٤) وَقَالَ تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البَقَرَة: ٢٨٦)، وعن أبي رمثة التيمي قال: جئت مع أبي إلى النبي ﷺ فقال: ابنك هذا؟ قلت: نعم، قال: أتحبه؟ قلت: نعم، قال: أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه [٤]، والأصل أن مال الإنسان محفوظ معصوم كما قال

(١) سنن الترمذي (٤ / ١٠) برقم ١٣٨٦.

(٢) ديوان الحماسة (١ / ٧٠).

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص ٣).

(٤) أحمد(٢ / ٢٢٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ (النِّسَاءِ: ٢٩)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ» (١).

والجواب: العاقلة هي عشيرة الإنسان وأقرباؤه، وإيجاب الدية على العاقلة لخطورة موضوع الدماء، والأصل أن العاقلة تراقب أفرادها فتعقلهم، أي: تمنعهم من المنكرات وخاصة هذا الأمر الخطير، ومع أنه قتلٌ خطأ إلا أن في إشراك العاقلة في تحمل التبعات إيقاظًا لها لئلا تغفل عن أبنائها، فيقع من بعضهم عن عمد، أو يقع خطأ؛ لكن عن تهور وتساهل، وفي هذا التضامن بيانٌ بمدى العلاقة القوية بين الأقربين، فإن عجزوا عن توفير الدية تضامن معه بقية المجتمع، فيقوم بيت مالهم بأداء ما عليه، فعن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: اقْتَتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُذَيْلٍ، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ، وَقَضَى بِدِيَةِ المَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا، وَوَرَّثَهَا وَلَدَهَا وَمَنْ مَعَهُمْ، فَقَالَ حَمَلُ بْنُ النَّابِغَةِ الهُذَلِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لاَ شَرِبَ، وَلاَ أَكَلَ، وَلاَ نَطَقَ وَلاَ اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الكُهَّانِ». مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ (٢).. فهذا الرجل لم يشعر بمدى حرص الشريعة على حماية الجنس الإنساني، فقام ينثر كلامه المسجوع على طريقة الكهان ليعترض على الحكم الشرعي، فنبهه النبي ﷺ على خطأ قوله، بنسبته إلى من يأكلون أموال الناس بالباطل، وهم الكهان.. إن الجنين جزءٌ من الحياة الإنسانية المنتظرة التي يجب حمايتها ورعايتها، والجناية عليه جناية على الإنسانية.

القانون الثالث: الحالة الثانية: أن يقتل مؤمنٌ مؤمنًا خطأ، وهذا القتيل ينتمي إلى قوم معادين. ويُبَصِّرُنا بهذه الحالة قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٢٦) برقم ٦٧ .

(٢) صحيح البخاري (٧ / ١٧٥) برقم ٥٧٥٨ ، صحيح مسلم (٥ / ١١٠) واللفظ له.

مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء:٩٢).

فربما يكون الخطأ بسبب ظن المؤمن القاتل خطأ أن هذا المقتول ما زال معاديًا مثل قومه، ثم يستبين أنه مؤمن، وفي هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التي قتلت، ولا يجوز أداء ديةٍ لقومه المحاربين؛ لأنها ستكون قوةً لهم على مواصلة اعتدائهم؛ ولأن المقتول لا يسره ذلك لو كان حيًا.

والتطبيق التاريخي وقت نزول الآية يحكيه مجاهد بن جبر ﷺ أن عيّاشًا هاجر إلى النبي ﷺ مؤمنًا، فجاءه أبو جهل وهو أخوه لأمه فقال: إنّ أمك تناشدك رَحِمها وحقَّها أن ترجع إليه-ا وهي أسماء ابنة مخرِّبة-، فأقبل معه، فربطه أبو جهل حتى قدم مكة. فلما رآه الكفار زادهم ذلك كفرًا وافتتانًا، وقالوا: إنّ أبا جهل ليقدِرُ من محمدٍ على ما يشاء ويأخذ أصحابه(١).

وعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيَّاشٍ قَالَ: قَالَ لِيَ القَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾ فِي جَدِّكَ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَفِي الحَارِثِ بْنِ زَيْدٍ أخي بَنِي مَعِيصٍ كَانَ يُؤْذِيهِمْ بِمَكَّةَ وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ فَلَمَّا هَاجَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ أَسْلَمَ الحَارِثُ وَلَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِهِ فَأَقْبَلَ مُهَاجِرًا حَتَّى إِذَا كَانَ بِظَاهِرَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ لَقِيَهُ عَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَلاَ يَظُنُّ إِلاَّ أَنَّهُ عَلَى شِرْكِهِ فَعَلاَهُ بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ يَقُولُ: تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَلاَ يَرُدُّ الدِّيَةَ إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى قُرَيْشٍ ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ يَقُولُ: مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٢).

أَهۡلِهِۦ ﴾[1]، وظاهرها أن العبرة بقوم القتيل لا بمكان إقامته خلافًا لأبي حنيفة ومالك، وَأَخْبَرَ عَنْ قَوْمٍ بِلَفْظِ عَدُوٍّ وَهُوَ مُفْرَدٌ، لِأَنَّ فَعُولًا بِمَعْنَى فَاعِلٍ يَكْثُرُ فِي كَلَامِهِمْ أَنْ يَكُونَ مُفْرَدًا مُذَكَّرًا غَيْرَ مُطَابِقٍ لِمَوْصُوفِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾(النِّسَاء: ١٠١) ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (الممتحنة: ١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ ﴾ (الأَنْعَام: ١١٢)، وَامْرَأَةٌ عَدُوٌّ وَشَذَّ قَوْلُهُمْ عَدُوَّةٌ[2].

القانون الرابع: الحالة الثالثة: أن يقع القتل الخطأ على معاهدٍ مؤمن أو كافر ينتمي لقوم معاهدين، سواء أكان عهد هدنة أم عهد ذمة، فعند ذلك يجب الأمران معًا. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء:٩٢).

ومن الحوادث التي تدخل ضمن هذه الحالة ما جاء عَنْ عَائِشَةَ،رضي الله عنها، قَالَتْ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ فَصَاحَ إِبْلِيسُ: أَيْ عِبَادَ اللهِ أُخْرَاكُمْ فَرَجَعَتْ أُولَاهُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأُخْرَاهُمْ فَنَظَرَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانِ فَقَالَ: أَيْ عِبَادَ اللهِ أَبِي أَبِي فَوَ اللَّهِ مَا احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ، قَالَ عُرْوَةُ: فَمَا زَالَتْ فِي حُذَيْفَةَ مِنْهُ بَقِيَّةُ خَيْرٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ[3]، فَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَدَيَهُ، فَتَصَدَّقَ بِهِ حُذَيْفَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَزَادَهُ ذَلِكَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ[4].

وقد استنبطنا هذه الحالة تبعًا لبعض المفسرين المحققين لأن الله لم ينص هنا على كون المقتول مؤمنًا، فدماء المعاهدين مصونة كدماء المسلمين، وهذا

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٨ / ١٣١) برقم (١٦٥٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٦١).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٥٢) برقم ٣٢٩٠.

(٤) المستدرك ٤٠٥ (٣/ ٢٠٢).

الاستنباط وجيهٌ جدًا عندما تلاحظ تكرار النص على وصف الإيمان بالنسبة للمقتول في الحالتين السابقتين، ولكن بعض المفسرين قالوا: الحالة الثالثة جاءت مطلقة، فلم تقيد بوصف الإيمان، حيث قال الله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، فأطلق لم يقل ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فنحمله على الحالة التي قبلها، التي قال الله فيها ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.. لعل هذا الكلام فيه وجاهة..

ألا ترى معي أن الوجاهة الأكبر تكمن في جعل المطلق مطلقًا، وإعماله ليتناول ما يدخله من الحالات، فلو أراد الله تقييد الحالة لتم ذلك كما فعل في الحالة السابقة، ثم إنك ترى أن الله قيد الرقبة المعتقة بالإيمان فقال: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢)، فلو أراد تقييد المقتول بالإيمان لفعل، فدل هذا على الحالتين: أن يكون المقتول مؤمنًا وغير مؤمن، فعدم النص على إيمان المقتول هنا لتدخل الحالتان معًا، وهذا من الإيجاز المعتمد في توفير المعاني كما ترى، ورجح الطبري أنه المعاهد.

وقدم الدية؛ لأن ذلك مقتضى إرضاء المعاهدين لتثبيت حالة السلم معهم، ولم يرغب في العفو فيها بخلاف الحالة الأولى، « وَلَعَلَّ النُّكْتَةَ فِي ذَلِكَ الإِشْعَارُ بِأَنَّ حَقَّ اللهِ تَعَالَى فِي مُعَامَلَةِ المُؤْمِنِينَ مُقَدَّمٌ عَلَى حُقُوقِ النَّاسِ، وَلِذَلِكَ اسْتَثْنَى هُنَالِكَ فِي أَمْرِ الدِّيَةِ فَقَالَ: إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ العَفْوَ وَالسَّمَاحَ، وَاللهُ يُرَغِّبُهُمْ فِيمَا يَلِيقُ بِكَرَامَتِهِمْ وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَثْنِ هُنَا ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ المُعَاهِدِينَ المُشَاحَّةَ وَالتَّشْدِيدَ فِي حُقُوقِهِمْ، وَلَيْسُوا مُذْعِنِينَ لِهِدَايَةِ الإِسْلَامِ فَيُرَغِّبُهُمْ كِتَابُهُ فِي الفَضَائِلِ وَالمَكَارِمِ وَثَمَّ نُكْتَةٌ أُخْرَى وَهُوَ أَنَّ فِي سَمَاحِ المُعَاهِدِ لِلْمُؤْمِنِ بِالدِّيَةِ مِنَّةً عَلَيْهِ، وَالكِتَابُ العَزِيزُ الَّذِي وَصَفَ المُؤْمِنِينَ بِالعِزَّةِ لَا يَفْتَحُ لَهُمْ بَابُ هَذِهِ المِنَّةِ» [1].

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٧٢).

واختلف علماؤنا في مقدار دية غير المسلم، فروى الطبري عن الزهري يقول: دية الذميّ دية المسلم. قال: وكان يتأول: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ (النساء: ٩٢)، ونحوه عن الشعبي وإبراهيم النخعي [١]، وروى عن الزهري أن أبا بكر وعثمان رضوان الله عليهما، كانا يجعلان دية اليهوديّ والنصرانيّ، إذا كانا معاهدين، كدية المسلم [٢].

والظاهر عندي أن هذا هو الأصل إلا أن يطرأ طارئ يوجب العمل بغيره، فالنفس الإنسانية مصونة مكرمة، فقد قال رَسُول اللَّهِ ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ أَمِنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ، فَأَنَا مِنَ القَاتِلِ بَرِيءٌ، وَإِنْ كَانَ المَقْتُولُ كَافِرًا» [٣]، وقال ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ المَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ» [٤].

وجاءت آثارٌ تخالفُ ذلك في مقدار الدية، وحاول رشيد رضا التوفيق بينها فقال: «وَظَاهِرُ الآيَةِ أَنَّ أَمْرَ الدِّيَةِ مَنُوطٌ بِالعُرْفِ وَبِالتَّرَاضِي، وَالأَقْرَبُ أَنَّ اخْتِلَافَ السَّلَفِ فِي العَمَلِ كَانَ لِأَجْلِ هَذَا» [٥].

القانون الخامس: في حالة العجز عن إيجاد الرقبة، بين الله ذلك بقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

والمقصود هنا -كما يقول الضحاك-: الصيام لمن لا يجد رقبة، وأما الدية فواجبةٌ،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٥١).

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١٣ / ٣٢٠) برقم ٥٩٨٢، وحسن إسناده الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة برقم٤٤٠.

(٤) صحيح مسلم (٨ / ٣٣) برقم ٢٦١٦.

(٥) تفسير المنار (٥/ ٢٧٤).

لا يبطلها شيء[1]؛ لأن دية الخطأ على عاقلة القاتل، فإن عجزت العاقلة عن الدية، لزم ولي أمر المسلمين توفيرها من بيت المال، كما فعل النبي ﷺ بالقيام بأداء الديات من جهته لما عجز بعض المسلمين، فلا تسقط الدية البتة؛ لأن القصد منها تطييب الخواطر، فالدية وضعت فقط من أجل سل السخائم، فإذا لم تعط ربما بقيت هذه السخائم، ولذلك يمكن الاصطلاح على ما هو زيادة على الدية، ولا تسقط إلا أن يصدق أهل الدية، وإذا أراد المعاهدون التصدق بالدية يمنعون من ذلك، بل يقال لهم خذوا هذا وإذا أرادوا صلحًا على ما أهو أكثر من الدية يعطون، لئلا تكون لهم منة على المسلمين، ولئلا تكون ستارًا لشدة حنق أنفسهم على المسلمين من جهة أخرى.

القانون السادس: يجب الشعور بالثقة بأنظمة الشريعة، والتذكير بذلك، ويُبَصِّرُنا بهذا قوله تعالى ذكره: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء:٩٢)، فهذه مادة حاكمة مُعَظِّمة.

إذ قد يقول قائل: لماذا هذا التشديد في العقوبة على قتل الخطأ على الرغم من العفو العام المجمل عن فعل الخطأ حيث قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥)؟ فيأتي الجواب شافيًا لبيان أصل العقوبة وتفصيلاتها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٩٢)، فهذه الجملة تبين عظمة التشريعات القانونية، وأنها المناسبة لحفظ الحياة البشرية، فهي صادرة من كامل العلم والحكمة.

إن الله عليم بما تحتاجه البشرية، حكيم في وضع كل شيء مهما صغر في موضعه.. إنه التدبير الحكيم الذي يقولون عنه التصميم الذكي في الطبيعة، وفي تفصيل الشريعة المناسبة لهذه الطبيعة.. فكانت عقوبة قتل الخطأ من المستثنيات من

(١) تفسير الطبري (٩/ ٥٥).

هذه الآية وذلك تعظيمًا لحرمة الدماء، ولئلا تكثر دعاوى الشبهة والخطأ في موضوع القتل.. خاصة مع ما تراه من استباحة كثير ممن ينتسبون إلى الكتب الثلاثة وغيرهم للدماء، بل تقوم المخابرات العالمية بإنشاء منظمات قذرة تدفعها لارتكاب بعض الأفعال لتبرير تصرفاتها، وتسويغ بيعها للسلاح، تدمر بها البلدان، وتشوه بأدبياتها وعي الناس، وينضم إليها من لا يقيم للدماء حرمة جهلًا أو بغيًا.

مضى على المسلمين حين من الدهر، والصحابة ﷺ لا يتصورون أن يأتي زمان يمكن لمؤمن أن يقتل مؤمنًا، فعن أَبي مُوسَى حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرْجًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الهَرْجُ ؟ قَالَ: القَتْلُ، فَقَالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَقْتُلُ الآنَ فِي العَامِ الوَاحِدِ مِنَ المُشْرِكِينَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيْسَ بِقَتْلِ المُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَابْنَ عَمِّهِ وَذَا قَرَابَتِهِ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَعَنَا عُقُولُنَا ذَلِكَ اليَوْمَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لاَ، تُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لاَ عُقُولَ لَهُمْ-وفي رواية-: «يحسب أكثرهم أنهم على شيء وليسوا على شيء»

ثُمَّ قَالَ الأَشْعَرِيُّ: وَايْمُ اللهِ، إِنِّي لأَظُنُّهَا مُدْرِكَتِي وَإِيَّاكُمْ، وَايْمُ اللهِ، -وعند أحمد: والذي نفسي بيده- مَا لِي وَلَكُمْ مِنْهَا مَخْرَجٌ، إِنْ أَدْرَكَتْنَا فِيمَا عَهِدَ إِلَيْنَا نَبِيُّنَا ﷺ، إِلاَّ أَنْ نَخْرُجَ كَمَا دَخَلْنَا فِيهَا لم نصب منها دمًا ولا مالًا[1]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ». قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي

(١) أحمد (٤ / ٣٩١) برقم ١٩٥١٠، وقال الأرناؤوط: مرفوعه صحيح وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد: وهو ابن جدعان وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ»[١]، ويقصد بالمهاجرين إما المهاجرين وإما المستضعفين في كل زمان كما ترى في زماننا.

فبينت هذه التفصيلات حرمة الدماء البشرية والتشديد في صيانتها وحراستها سواء أكانت دماء المؤمنين أم دماء غيرهم من المعاهدين بخلاف من أهدروا دماءهم بالاعتداء على البشرية.

القانون السابع: الحالة الرابعة: قتل المؤمن عمدًا أكبر الجرائم الإنسانية، ويخشى على القاتل من عدم قبول التوبة. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٩٣).

أخر الله ذكر حالة القتل العمد لِتَهْوِيلِ أَمْرِهِ، وتفظيع شأنه، ويتعلق بالقتل العمد تشريعاتٌ دنيوية وأخروية، فذكر الدنيوية في سورة البقرة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ (البقرة: ١٧٨)، فالقصاص عقوبة رادعة تجعل الذي يريد القتل يخاف من العقوبة، فيمسك، فيحفظ حياته، وحياة الآخرين.

والقتل العمد يدخل فيه كل من ضرب إنسانًا بشيء يغلب عليه أنه يتلفه، فلم يقلع عنه حتى أتلف نفسَه به مهما كانت أداة الضرب[٢].

فإذا كان القتل الخطأ فيه تلك العقوبة القاسية مع أنه خطأ فكيف يكون القتل العمد؟ وَالمُتَعَمِّدُ: أبلغ من العامد القَاصِد لِلْقَتْلِ، مُشْتَقٌّ مِنْ عَمَدَ إِلَى كَذَا إذا قَصَدَ الشيء وَذَهَبَ إليه مريدًا إياه، وهذا النوع من القتل هو الكبيرة التي لا تُرتكب مع إيمان، ولا تُكَفِّر عنها ديةٌ ولا عتق رقبة، وإنما فيها هذه العقوبات التي لم ترد في

(١) صحيح مسلم (٨/ ٢١٢) برقم ٢٩٦٢.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٦٠).

أي معصيةٍ أخرى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.. وهذا لا يعني سقوط الدية في حقه بل كثير من الفقهاء كالشافعي ﷺ يلزمونه بها، قالوا: تجب الدية، ولكنها لا تُسقِطُ الإثم. إنها ليست قتل نفس بل هي قتل للنفس وللدين الذي دانت به هذه النفس.. إنها قتل للنظام الذي ارتضته هذه النفس وهو نظام الإسلام.. هذه الجريمة حربٌ صريحة للإيمان الذي استقر في النفس المقتولة.. إنها قتل للحياة التي أوجدها الله وبناها وكرمها، فهي معارضةٌ صريحةٌ لله رب العالمين.

فالآية واضحة العموم، شديدة الوقع على كل من تسول له نفسه أن يقتل مؤمنًا، حيث ذكر الله تعالى أغلظ عقوبة أخروية ضده، وهي عقوبة مكونة من خمسة مظاهر ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٩٣)، وَقَوْلُهُ: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ لا تدل على التأبيد بل على اللبث الطويل، ولا تنفي التأبيد بل تشير إليه، ثم ذكر الله الغضب على القاتل، واللعن له، وختم ذلك بقوله: ﴿وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أي: عذاب اشتدت عظمته مقارنة بغيره من أنواع العذاب سواء أكان ذلك يوم القيامة أم كان في جهنم.. نعوذ بالله من العذاب والخزي.

لماذا ذكر الله العقوبة الأخروية دون الدنيوية هنا؟

العقوبة الدنيوية هي القصاص، ولكن هذه العقوبة قد لا تطبق إذا لم يتم التأكد من وجود العمدية في القتل أو لم يعرف القاتل لاختبائه بين الصفوف، فذكر الله العقوبة الأخروية، وقد وقع ما يشبه ذلك زمن النبي ﷺ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ مَقِيسَ بْنَ صُبَابَةَ وَجَدَ أَخَاهُ هِشَامَ بْنَ صُبَابَةَ مَقْتُولًا فِي بَنِي النَّجَّارِ، وَكَانَ مُسْلِمًا، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَسُولًا مِنْ بَنِي فِهْرٍ، وَقَالَ لَهُ:» ايتِ

بَنِي النَّجَّارِ فَأَقْرِئْهُمْ مِنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ قَاتِلَ هِشَامٍ أَنْ تَدْفَعُوهُ إِلَى أَخِيهِ فَيَقْتَصَّ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا لَهُ قَاتِلًا أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ دِيَتَهُ»، فَأَبْلَغَهُمْ الفِهْرِيُّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: سَمْعًا وَطَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِ اللهِ وَاللهِ مَا نَعْلَمُ لَهُ قَاتِلًا، وَلَكِنَّا نُؤَدِّي إِلَيْهِ دِيَتَهُ قَالَ: فَأَعْطَوْهُ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، ثُمَّ انْصَرَفَا رَاجِعِينَ نَحْوَ المَدِينَةِ، وَبَيْنَهُمَا وَبَيْنَ المَدِينَةِ قَرِيبٌ، فَأَتَى الشَّيْطَانُ مَقِيسَ بْنَ صُبَابَةَ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ صَنَعْتَ؟ تَقْبَلُ دِيَةَ أَخِيكَ فَيَكُونُ عَلَيْكَ سُبَّةً، اقْتُلِ الَّذِي مَعَكَ فَيَكُونُ نَفْسٌ مَكَانَ نَفْسٍ، وَفَضْلٌ بِالدِّيَةِ قَالَ: فَرَمَى إِلَى الفِهْرِيِّ بِصَخْرَةٍ فَشَدَخَ رَأْسَهُ، ثُمَّ رَكِبَ بَعِيرًا مِنْهَا وَسَاقَ بَقِيَّتَهَا رَاجِعًا إلى مَكَّةَ كَافِرًا

وَأَنْشَدَ فِي شَأْنِ أَخِيهِ:

شَفَى النَّفْسَ مَنْ قَدْ بَاتَ بِالقَاعِ مُسْنَدًا ... يُضَرِّجُ ثَوْبَيْهِ دِمَاءُ الأَخَادِعِ
وَكَانَتْ هُمُومُ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ ... تُلِمُّ وَتُنْسِينِي وِطَاءَ المَضَاجِعِ
قَتَلْتُ بِهِ فِهْرًا وَحَمَّلْتُ عَقْلَهُ ... سَرَاةُ بَنِي النَّجَّارِ أَرْبَابُ فَارِعِ
حَلَلْتُ بِهِ نَذْرِي وَأَدْرَكْتُ ثأرتي ... وَكُنْتُ إِلَى الأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعِ[1]

وقد ذكرت العقوبة الدنيوية لقتل العمد في سورة البقرة لتناسب قصة البقرة، ومن أسباب ذكر العقوبة الأخروية هنا دون الدنيوية أن عقوبة القصاص قد لا تتحقق إذا زعم القاتل أنه فعل ذلك طلبًا لحماية المجتمع، وذلك لأن الكلام في سياق الآيات جاء عن حماية الدماء البشرية من الاعتداء، ولأنه قد سبق تقرير سياسة أخذ الحذر التي تقتضي كشف الجواسيس والمجرمين الذين يعملون على تدمير المجتمع، فقد يسهل ذلك اقتراف جريمة القتل من قبل بعض الناس بزعم المقتضيات الأمنية، وربما يزعم القاتل أنه يريد حماية المجتمع من العملاء والخونة، فبين الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى شدة عقوبة القاتل في الآخرة، وإن نجا من تبعاتها في الدنيا.

(١) شعب الإيمان (١ / ٤٦٨)، وتمام الأبيات من المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (١٧ / ٤٥٥).

هل تقبل توبة القاتل؟

إنك لتندهش؛ إذ تجد سياق الآية يشير إلى مذهب ابن عباس في عدم صحة توبة القاتل عمدًا، ورأى أن هذه الآية مدنية نزلت بعد آية الفرقان، فلا يعترض بها عليها، وإنه لمسدد فيما ذهب إليه: ألا فليسمع جنود المليشيات وجنود الجيوش الذي يقتلون المسلمين تحت الرايات العِمِّية..

ألا فليسمعوا لبيان ترجمان القرآن ابن عباس في منع التوبة من قاتل المؤمن عمدًا.. فقد ذهب ابن عباس إلى عدم صحة التوبة من القاتل عمدًا لما رآه من هذه العقوبة الشديدة الغليظة، ولما وجده من نظم هذه الآية ضمن هذه السورة المباركة.

فعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلاً أَتَاهُ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلاً قَتَلَ رَجُلاً مُتَعَمِّدًا؟ قَالَ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، قَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ، مَا نَسَخَهَا شَيْءٌ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَا نَزَلَ وَحْيٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، ثُمَّ اهْتَدَى؟ قَالَ: وَأَنَّى لَهُ بِالتَّوْبَةِ، وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ: رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلاً مُتَعَمِّدًا، يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ آخِذًا قَاتِلَهُ بِيَمِينِهِ، أَوْ بِيَسَارِهِ، وَآخِذًا رَأْسَهُ بِيَمِينِهِ، أَوْ بِشِمَالِهِ، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا فِي قُبُلِ العَرْشِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ عَبْدَكَ فِيمَ قَتَلَنِي؟».

وفي رواية: قال ابن عباس: ثكلتْه أمه! وأنَّى له التوبة والهدى؟ فوالذي نفسي بيده لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آيةٍ حتى قُبض نبيّكم ﷺ، وما نزل بعدها من برهان [1].

(١) مسند أحمد (١ / ٢٤٠) برقم ٢١٤٢، وصححه الأرناؤوط، والرواية الأخرى في تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٦٣)، وعبد بن حميد برقم ٦٨٠.

وعن سعيد بن جبير قال: قال لي عبد الرحمن بن أبزى: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، فقال: لم ينسخها شيء. وقال في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٨). قال: نزلت في أهل الشرك، وقال ابن عباس: إذا دخل الرجل في الإسلام وعلم شرائعه وأمره، ثم قتل مؤمنًا متعمدًا، فلا توبة له. وأما التي في «الفرقان»، فإنها لما أنزلت قال المشركون من أهل مكة: فقد عدَلنا بالله، وقتلنا النفس التي حرم الله بغير الحق، وأتينا الفواحش، فما ينفعنا الإسلام! قال فنزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية [١]، وعن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام، ثم قتل مؤمنًا متعمدًا، فجزاؤه جهنم، ولا توبة له، فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من نَدم [٢].

وغلظ العقوبة وشدتها في الآية تشهد لابن عباس رضي الله عنهما فيما ذهب إليه، ويدل على ذلك قصد الإصرار على القتل العمد، وقد قال الله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، ويشهد لابن عباس الأحاديث الواردة التي تشدد في قتل المؤمن، ولنأخذ منها هذا الحوار العجيب بين سادات التابعين في رواية أحاديث في جريمة قتل المؤمن:

فعَنْ خَالِدِ بْنِ دِهْقَانَ قَالَ: كُنَّا فِي غَزْوَةِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ بِذُلُقْيَةَ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ -مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَخِيَارِهِمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ لَهُ يُقَالُ لَهُ هَانِئُ بْنُ كُلْثُومِ بْنِ شَرِيكٍ الكِنَانِيُّ- فَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَكَرِيَّا وَكَانَ يَعْرِفُ لَهُ حَقَّهُ. قَالَ خَالِدٌ: فَحَدَّثَنَا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٦٣).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٦٢).

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَكَرِيَّا قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ تَقُولُ سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا». فَقَالَ هَانِئُ بْنُ كُلْثُومٍ: سَمِعْتُ مَحْمُودَ بْنَ الرَّبِيعِ يُحَدِّثُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ سَمِعَهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا فَاعْتَبَطَ بِقَتْلِهِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا». قَالَ لَنَا خَالِدٌ ثُمَّ حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي زَكَرِيَّا عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَزَالُ المُؤْمِنُ مُعْنِقًا -يريد خفيف الظهر يعق في مشيه سير المخف- صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ» (معناه أعيا وانقطع)، وَحَدَّثَ هَانِئُ بْنُ كُلْثُومٍ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَهُ سَوَاءً [١].

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» [٢]، وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجيء الرجل آخذًا بيد الرجل فيقول: يا رب هذا قتلني. فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك. فيقول: فإنها لي. ويجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: إن هذا قتلني. فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان. فيقول: إنها ليست لفلان. فيبوء بإثمه» [٣].

وذهب الجمهور إلى شمول التوبة للقاتل المتعمد، فأشار الرازي إلى أن هَذِهِ الآيَة مَخْصُوصَةٌ فِي مَوْضِعَيْنِ اتفاقًا:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ القَتْلُ العَمْدُ غَيْرَ عُدْوَانٍ كَمَا فِي القِصَاصِ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ فِيهِ

(١) أبو داود (٤ / ١٦٧) برقم٤٢٧٢، وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي (٤ / ١٦).

(٣) سنن النسائي (٧ / ٨٤)، وصححه الألباني.

هَذَا الوَعِيدُ البَتَّةَ. وَالثَّانِي: القَتْلُ العَمْدُ العُدْوَانُ إِذَا تَابَ عَنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ فِيهِ الوَعِيدُ، فأضاف لهما **ثالثًا**، وهو إِذَا حَصَلَ العَفْوُ من الله بِدَلِيلِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿**وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ (النِّسَاءِ: ٤٨) [١].

ولعل ابن عباس رضي الله عنه رأى وضوح الآية في منع قبول التوبة من مؤمن يعلم حرمة القتل عمدًا، ويعرف الإسلام ثم يعمد إلى أخٍ له فيقتله، وقوله ﴿**مُّتَعَمِّدًا**﴾ يدل على ذلك فإن التَّعَمُّد أَبْلَغُ مِنَ العَمْدِ لِمَا فِي صِيغَةِ التَّفَعُّلِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى التَّرَبُّصِ أَوِ التَّرَوِّي فِي الشَّيْءِ، وانظر كيف أسهم ذكر الخُلْف في هذا المسألة في تهاون القاتل المتعمد والآمر المتعمد في الدماء.. مع أنها الوصية العظمى التي أوصى النبي ﷺ بها المسلمين في حجة الوداع، وقبل موته ﷺ، وقال: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» [٢].

ولو احترز الجمهور فعبروا عن هذا بقولهم فقالوا: قد تقبل توبته لكان أولى، فإن كثيرًا من جنود الإجرام يقتلون آلاف غير مبالين.. فما هذا؟

«وَحَمَلَ جَمَاعَةٌ مُرَادَ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى قَصْدِ التَّهْوِيلِ والزجر، لئلّا يجترىء النَّاسُ عَلَى قَتْلِ النَّفْسِ عَمْدًا، وَيَرْجُونَ التَّوْبَةَ، وَيُعَضِّدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: «أَلِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا تَوْبَةٌ» فَقَالَ: «لَا إِلَّا النَّارَ»، فَلَمَّا ذَهَبَ قَالَ لَهُ جُلَسَاؤُهُ «أَهَكَذَا كُنْتَ تُفْتِينَا فَقَدْ كُنْتَ تَقُولُ إِنَّ تَوْبَتَهُ مَقْبُولَةٌ» فَقَالَ: «إِنِّي لَأَحْسَبُ السَّائِلَ رَجُلًا مُغْضَبًا يُرِيدُ أَنْ يقتل مُؤمنا»، قل: فَبَعَثُوا فِي أَثَرِهِ فَوَجَدُوهُ كَذَلِكَ. وَكَانَ ابْنُ شِهَابٍ إِذَا سَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ مَنْ يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ قَتَلَ نَفْسًا يَقُولُ لَهُ: «تَوْبَتُكَ مَقْبُولَةٌ» وَإِذَا سَأَلَهُ مَنْ لَمْ يَقْتُلْ، وَتَوَسَّمَ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يُحَاوِلُ قَتْلَ نَفْسٍ، قَالَ لَهُ: لَا تَوْبَةَ لِلْقَاتِلِ» [٣].

---

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٨٤).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٤١) برقم ٤٠٥٣ .

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٦٥). والأثر أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، (١٤ / ٢٤٩) برقم: (٢٨٣٢٦).

وإني لأرى هذا الموقف من ابن عباس من أعظم براهين فقهه، وتصدره في علم القرآن والسنة.. أفرأيت قومًا يزعمون جواز التوبة من القتل، ويخبرون بذلك من يجترئ عليه ويجترحه في حق البشر غير مبالٍ بعظمة ذي القوى والقُدَر.. أهذا من الفقه؟ بل الفقه أن يكون التهويل من جرائم سفك الدماء هو المقدم، وإنما يُجاب عن سؤال نادمٍ باكٍ وقع في ذلك الإجرام ثم أقبل بتوبة حسنة، وأنين يقطع قلبه، فينظر عند ذلك، وأما قبله فلا، وانظر لمجرمي الأرض ممن ينتسبون إلى المسلمين وغيرهم كيف سهل عليهم سفك الدماء، وملء أنحاء الأرض بالظلم والظلمات والاعتداء.

وفي حال العفو عن القاتل من قبل أهل المقتول: يترتب عليه ثلاثة حقوق:

أولًا: حق الله، وهي التوبة لمن يقول بها، وعند ابن عباس لا توبة له، ومعنى ذلك أنه يظل يندم ويندم ويبكي إلى آخر عمره، حتى يلقى الله على ذلك فعسى الله أن يعفو عنه.

ثانيًا: حق أهل القاتل، وهو أن يقتل، فإذا عفوا عنه قال تعالى ذكره: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (البقرة: ١٧٨)، والدية في القتل العمد واجبة عند الشافعية وغيرهم، وهو الذي يظهر فهو الصحيح.

ثالثًا: حق المجتمع؛ فينظر في حالة إذا كان فعله في قتله العمد ظاهراً في الاعتداء والاستخفاف بالدماء، ففي هذه الحالة لا يعفى عنه، فلو عفا أهل المقتول فهذا شأنهم؛ لكن حق المجتمع لا يسقط، فلابد أن يعاقب، ويعاقب عقوبة رادعة زاجرة، يقدرها القاضي عند ذلك، ومن حق المجتمع أيضًا ألا يُعفى عن القاتل في المرة الثانية؛ لأنه مستهين بالدماء.

وقد ذكر الله جل شأنه عقوبة قاتل المؤمن عمدًا، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ ولم يقل معاهدًا كالحالات السابقة لأن الله ذكر عقوبة قاتل المعاهد في الآية السابقة، والنبي ﷺ حذر من قتل المعاهد أو إيذائه، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» (١).

ولعل الله - جلَّ مجده - ذكر عقوبة قاتل المؤمن عمدًا بهذه الشدة أيضًا؛ لأنه جل شأنه علم أن المسلمين سيستمرئون قتل المؤمنين أكثر مما يستمرئون من قتل المعاهدين.. وانظر مصداق ذلك في قتل من ينتسب إلى الإسلام لبعضهم في أزمنتنا الكئيبة، والله المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

القانون الثامن: الحالة الخامسة: إشاعة السلام، وحفظ البشرية، يقتضي الترهيب الشديد من القتل بالشبهة.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله -تعالى مجدُه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:٩٤).

المناسبة والاتصال:

جاء الكلام في القسم لإكمال التوازن في الحياة البشرية وعند الإدارة الراشدة، فقد جعل الله مدار العلاقات في الإسلام قائمًا على استراتيجية إلقاء السلم، ومن خلال ذلك يمكن للبشرية أن تنال حقوقها، وتؤدى الأمانات إلى أهلها، ولتثبيت

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٢٠) برقم ٣١٦٦.

السلام في العالم لا بد من اتباع سياسة (أخذ الحذر) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ (النساء: ٧١)، وذلك لمنع الوحوش الضارية، والذئاب البشرية العادية من استغلال القوى الصالحة، وأكل حقوق العالم، وهذه الاستراتيجية تقتضي الاستعداد العسكري لإحقاق العدل، وإنقاذ المستضعفين ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ (النساء: ٧٥).

ومنع الله من الجهاد في غير موضعه ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النساء: ٧٧)، وأوجب حفظ دماء المسالمين سواء أكانوا مسلمين أم لا ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ (النساء: ٩٠)؛ وأهدر دماء المعتدين ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ (النساء: ٩١)، وبين حكم القتل الخطأ، والقتل العمد، وهنا يبين حكم القتل بالشبهة؛ إذ وجه التوجيه الشديد، والملام الأكيد لمن يجعل كلمة: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مبررًا لاستباحة دماء المُؤْمنين والمُؤَمَّنين بشبهة حربية أو غيرها، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ (النساء:٩٤).

البصيرة الأولى:

يُبَصِّرُنا النداء في قوله تعالى ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بمسؤولية المؤمنين عن تكوين وحدةٍ متكاملة بينهم، والتواصي الإيجابي الصالح بين أفرادهم، وإظهار الحق والخير والنور الذي عندهم على المستوى العالمي، وليبين أن مسؤوليتهم عن

الدماء أعظم إن كانوا مؤمنين حقًا ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والضرب في الأرض يؤدي إلى إعمارها بمراد الله من الحق والعدل؛ ومجاهدة قوى الشر؛ إذ الضرب معناه إيقاع شيء على شيء.

ومن ذلك ضرب الأقدام للأرض خروجًا فيها في سبيل الله لرفع كلمته في مواجهة القوى المستكبرة، فتظهر من خلال ذلك رحمة الله بعباده، ويُعان المستضعفون على الحياة الكريمة، ومن الضرب في سبيل الله استخراج خيرات الأرض من خلال السفر أو الإثارة للأرض ابتغاء الاستقلال الاقتصادي الفردي والجماعي، فعَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ، قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ» (١).

وكذلك إذا ضرب في الأرض يبتغي العلم النافع الديني أو الدنيوي، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل أوحى إلى أنه من سلك مسلكا في طلب العلم سهلت له طريق الجنة» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وروى ابن ماجة-وصححه الألباني- عن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: أنبط العلم. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع»، ومثله إذا خرج يلتمس جمع الصدقات لإيصالها

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٣ / ٤٩١) برقم ١٥٦١٩، وقال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٤ / ٥٩٦): رواه الطبراني في الثلاثة ورجال الكبير رجال الصحيح

إلى مستحقيها؛ فعن رافع بن خديج ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العامل على الصدقة بالحق كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته» (١).

البصيرة الثانية:

يُبَصِّرُنا قوله جل ذكره: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾، بضرورة اتباع أساليب الوصول إلى صحة المعلومات؛ وأهمها: التبين، والتثبت، وليس القرارات المستعجلة التي قد يترتب عليها إيذاء البشرية، وتشويه حقيقة الإسلام؛ ولذا أمر الله بأمرين:

الأول: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، وهي قراءة الجمهور، وَالتَّبَيُّنُ: شِدَّةُ طَلَبِ البَيَانِ، أَيِ: التَّأَمُّلُ القَوِيُّ، والبحث، والتحري، والتقصي، حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ صِيغَةُ التَّفَعُّلِ.

الثاني: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف، والذي يظهر أن التثبت مرحلة لاحقة، فالتثبت شدة طلب البيان، واستقصاء الحقائق، فالبيان يثمر التثبت فهو خِلَافُ الإِقْدَامِ والعجلة حتى يثبت الأمر ويظهر ويستقر، فهذا الفرق بينهما، ولعل التبين حركة عقلية تمنع من التسرع في إطلاق الأحكام، والتثبت حركة جسدية تمنع من انزلاق الأطراف نحو شيء فيه شبهة، وكلاهما يثمر التكامل في السيطرة على الحركة العقلية والجسدية من التهور في إطلاق الأحكام أو تنفيذها، فبينهما تكامل في ضرورة التأني والتفحص والبحث عن المعلومات، وهذا يعني عدم تنفيذ الحكم بادئ الرأي.. انظر إلى هذا المشهد المهيب، وقارنه بما يفعله مستحلو الدماء من فرق الموت المجرمة في هذه الأيام.

وقد تتساءل: من ذا الذي يجب عليه أن يتبين وأن يتثبت؟ هل يلزم ذلك الضارب في سبيل الله أم محكمة خاصة؟

(١) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر (٣ / ٣٧) برقم ٦٤٥، قال أبو عيسى: حديث رافع بن خديج حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

عندما تتأمل في الآية فإنك تجد قول ربك جل ذكره: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ والخطاب للضاربين في سبيل الله لكن الضارب في سبيل الله قد لا يتمكن من معرفة الحقيقة، وعند ذلك لا بد من أن تكلف جهةٌ أعلى بأن تتحرى للوصول إلى حقيقة الأمر حتى تظهر حقيقة الأمر.

والتبين واجب، وترك التثبت حرام، ولذا فمن حق الجنود عصيان القائد في هذا الموضوع الخطير، ويروي ابن عمر رضي الله عنهما حادثة عصى فيها كلام قائده خالد بن الوليد، بل حرض بقية الجيش على التمرد على كلام القائد لإيقانه بفقدان شرط التبين، فقَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ، أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلاَ يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ.

فرفض عبد الله بن عمر تنفيذ الأمر العسكري، واحتكما إلى من هو أعلى وهو النبي ﷺ، وخضع خالد لهذا التمرد لخطورة الحكم الذي أصدره، فقال ابن عمر مكملًا بقية الواقعة: حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ» مَرَّتَيْنِ [١].

قال ابن حجر: «وزاد الباقر في روايته: ثم دعا رسول الله ﷺ عليًا فقال اخرج إلى هؤلاء القوم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك فخرج حتى جاءهم ومعه مال فلم يبق لهم أحد الا وداه» [٢].

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٢٠) برقم ٣١٦٦.

(٢) فتح الباري - ابن حجر (٨ / ٥٨).

ما المقصود من قوله ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؟ هو لم يقل: فانظروا هل هم مسلمون أم لا؟ بل أتى بصيغة أقوى من ذلك فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وكذلك ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ وهذا يقتضي شدة التحري والاستقصاء، وقد لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة رجل واحد إلا أن يفرض عليه الموقف العام ذلك بأن لم يستطع أن يرجع إلى من هو أعلى منه لبعد المسافة الزمنية أو المكانية، وسترتب على ذلك مفاسد أخرى في الواقع العسكري.

وتأمل في الآية مرة أخرى: لماذا قال الله عز وجل: ﴿ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟

ضربتم لا تعني القتال، وإنما تعني السفر لأنها مأخوذة من ضرب الأقدام بالأرض، إذ لم تكن وسائل المواصلات متيسرة كما في زماننا، فيستخدم المرء رجله أو أرجل دوابه، كالخيل والإبل وهي تضرب بأقدامها الأرض كما قال قائلهم:

يا ناق سيري عنقًا فسيحا إلى سليمان فنستريحا[1]

أي: أنهم كانوا يسيرون طويلًا حتى يستطيعوا أن يقطعوا المسافة في أقل مدة ممكنة، والضرب يطلق على الخروج للتجارة، ويطلق على السفر للسياحة أو لحاجة من الحاجات، ولا يقصد به الجهاد بالضرورة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠)، فجعل الضرب في الأرض للتجارة، فما سبب ذكر الضرب مطلقًا في قوله ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ لتدخل فيه الحالات المختلفة، ولأن الضرب في الأرض مظنةٌ للانفراد، فربما قابل الواحد منهم من يظن أنهم ينتمون إلى المعتدين المحاربين، ويحسب أنهم يشكلون خطرًا أمنيًا، فماذا يصنع؟

---

(١) لأبي النجم العجلي يمدح سليمان بن عبد الملك. وهو أحد الشواهد الشعرية المعروفة ، انظر: سيبويه/ ١/ ٤٢١، وشرح المفصل/ ٧/ ٢٦، والشذور/ ٣٠٥ .

الآية توجب عليه التبين وعدم الأخذ بالشبهة إلا أن يكون هناك خطرٌ داهمٌ محققٌ، فلا يعامل معاملة الحربي المعتدي إلا في الحالات القصوى، وإلا فالأصل التبين والتثبت.

فانظر إلى عظمة الإسلام في حرمة الدماء، وحماية أمن المجتمع، وإبعاد الإنسان عن استبداده وجبروته الذاتي، فقد يكون ما يفعله نابعًا من أهواء ذاتية أو أحقاد شخصية، أو نوازع مريضة في نفسه، ثم يتستر بأنه فعل ذلك في سبيل الله، فما أكثر الأهوال التي تسمعها في استباحة دماء الإنسانية اليوم.

البصيرة الثالثة:

(إلقاء السلم) مصطلح قرآني مبتكر يدل على مقاصد الشريعة في إشاعة السلام في الأرض، وتعريف الناس بجمال الإسلام، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا**﴾ ويتضمن هذا المصطلح حرمةَ الإيذاء اللفظي، فضلًا عن الجسدي لمن ألقى السلام سواء أكان مسلمًا أم مسالمًا أم مستسلمًا .

(إلقاء السلم) مصطلح مدهشٌ أخاذ من المصطلحات القرآنية، وهو يعني: رمي السلم إلى الطرف الآخر.. فتأمل هذه الصورة التي تسلب التفكير في تحقيق أهدافها: كأن السلم شيءٌ ماديٌّ محسوسٌ يحتفظ به هذا الإنسان حتى إذا قابل المسلم بادر فقذفه إليه ليبين له محبته للسلام ورغبته في كف الأذى، وطلبه إقامة الصلح.. فما السلم؟

إما أن يراد به علامة الإسلام ليدل صاحبها على أنه مسلم، وإما أن يراد به علامة السلام، وطلب الاستسلام حتى لو بقي على دينه. وعندها يحرم على المقاتل المسلم أن يمسه بأذى.

نعم! يحرم أن يكون الجهاد أو استراتيجية أخذ الحذر مبررًا ليبطش المجاهدون دون تبينٍ أو تأنٍّ.. يحرم أن تكون ستارًا ليفعلوا ما يشاؤون دون محاسبة، بل ينبغي أن يعلموا أن رفع درجاتهم وعلو منزلتهم لا يغني عنهم فتيلًا أمام المحاسبة على أخطائهم، ويجب أن نلاحظ أن الكلام في الآية جرى فيمن أشكل أمره، والتبس شأنه، أي: التبس علينا فلا نعرف هل هو مسلم حقًا أم ليس مسلمًا، أو هو مسالم أو غير مسالم، فعند ذلك يغلب جانب الأمان والعفو والسلام، وتتضمن الآية التهديد الشديد لمن يستعجل فيتهم أحدًا من الناس بعدم الإسلام، أو بعدم إلقاء السلم.

وفي هذه الجملة عدة قراءات توضح مشاهدَ متعددة، يمنع فيها إيذاء من ألقى السلام:

المشهد الأول: توضحه قراءة نَافِع، وَابْن عَامِرٍ، وَحَمْزَة، وابن جماز، وَخَلَف، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء: ٩٤)، والسلم معناه: الصلح، وَهُوَ ضِدُّ الحَرْبِ، أو يكون المعنى: الإسلام، أي: ألقى إليكم علامة تدل على إسلامه، وَهذا التعبير القرآني المبتكر **(أَلْقَى السَّلَمَ)** يصور لنا أن السلم كأنه كان في يده، فرماه المحارب أمام العالم لما احتاج إلى إلقائه أَظْهَرَهُ بَيْنَكُمْ -مسلمًا كان أم كافرًا-، وذلك يعني أنه مهما تأخر في إظهار الميل إلى الصلح ثم أظهره، فلا تنفروا عنه، ولا بد عند ذاك من التبين، والتثبت.. انظر لشدة تشوف الإسلام لحقن دماء الناس.

وقوله ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ تدل على أنه وصل إلى السلم عن طريق ادعاء الإسلام، فقال: أنا مسلم، فعند ذلك لا تقولوا له لست مؤمنًا، احترسوا أن تفعلوا ذلك؛ إذ إنكم تجعلون هذا الرفض منكم وسيلة لتهدروا حقه في الأمان.

المشهد الثاني: توضحه قراءة ابْن وَرْدَانَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء: ٩٤) بِفَتْحِ المِيمِ

الثَّانِيَةِ بِصِيغَةِ اسْمِ المَفْعُولِ، أَيْ: لَا تَقُولُوا لَهُ -سواء أكان مسلمًا أم كافرًا-: لن تحصل على الأمان منا بل ستقتل أو تؤسر.. ينهاهم الله عن إيذائه، ويأمرهم بتأمينه حتى يتبينوا ويتثبتوا من حقيقة أمره، وهو في هذه الحالة إما أن يكون ألقى السلم راغبًا في الدخول في الإسلام، وإما أن يكون كافرًا باقيًا على كفره لكنه أراد إبرام اتفاق صلحٍ وسلام.

المشهد الثالث: توضحه قراءة البَقِيَّةُ ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ بالألف و﴿مُؤۡمِنًا﴾بكسر الميم، وَهُوَ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ مَعْنَى السَّلَامِ ضِدَّ الحَرْبِ، وَمَعْنَى تَحِيَّةِ الإِسْلَامِ بأن يقول: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أو يقول: إني مسلم.

والذي يلقي السَّلم إما أن يكون رجلًا دخل الإسلام، وطلب الصلح والسلام، وإما أن يكون عدوًا كافرًا مال إلى الصلح رغبًا أو رهبًا، وكل من الصورتين لا بد فيها من التبين والتثبت، أي: لا بد من البحث عن حالته، وهل يريد الصلح حقًا أم يريد الخداع، والخيانة، وهذا يقتضي تأمينه ريثما يتم التأكد من حقيقة حاله.. لكنه بمجرد ذلك القول وجب عليكم أن تمنحوه الأمان.

ومثل ذلك: أن تصدر أدنى عبارةٍ من الضارب في سبيل الله تدل على التأمين، فيجب عليه أن يلتزمها، ويفي بحقها، فعن أبي وائل قال: جاءنا كتاب عمر ونحن نحاصر قصر فارس فقال: إذا حاصرتم قصرًا، فلا تقولوا انزل على حكم الله فإنكم لا تدرون ما حكم الله ولكن أنزلوهم على حكمكم ثم اقضوا فيهم، وإذا لقي الرجل الرجلَ فقال: لا تخف، فقد أمنه، وإذا قال: مَتَّرْس فقد أمَّنه. إن الله يعلم الألسنة كلَّها، و«مترس» كلمة فارسية معناها لا تخف، وهي بفتح الميم وتشديد المثناة واسكان الراء بعدها مهملة، وقد تخفف التاء، وقيل: بإسكان المثناة وفتح الراء، ووقع في الموطأ: مطرس بالطاء بدل المثناة، وروى بن أبي شيبة ويعقوب بن سفيان في تاريخه

من طرق بإسناد صحيح عن أنس بن مالك ﷺ قال: حاصرنا تستر فنزل الهرمزان على حكم عمر فلما قدم به عليه استعجم فقال له عمر: تكلم لا بأس عليك وكان ذلك تأمينًا من عمر، ورويناه مطولا في سنن سعيد بن منصور عن أنس قال: بعث معي أبو موسى بالهرمزان إلى عمر، فجعل عمر يكلمه، فلا يتكلم فقال له: تكلم قال: أكلام حي أم كلام ميت؟ قال: تكلم لا بأس فذكر القصة قال: فأراد قتله. فقلت: لا سبيل إلى ذلك قد قلت له تكلم لا بأس. فقال: من يشهد لك؟ فشهد لي الزبير بمثل ذلك، فتركه فأسلم وفرض له في العطاء [١].

ويوضح شدة الأمر بتأمين من يلقي السلام ما جاء عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاَحِ. قَالَ: «أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ». فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ. قَالَ فَقَالَ سَعْدٌ: وَأَنَا وَاللَّهِ لاَ أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو البُطَيْنِ. يَعْنِي أُسَامَةَ. قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فَقَالَ سَعْدٌ قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ[٢].

ويدخل في إلقاء السلام أن يبين الرجل الذي لحق بالمعتدين أنه ليس منهم، وإنما عرض له عارضٌ جعله يلحق بهم، فعند ذلك يتم التثبت منه، وقد وقع ضمن موقعة بني جذيمة من الأخطاء أن قتل بعض الصحابة رجلًا من هذا الصنف فعاتبهم النبي ﷺ على ذلك، وفي رواية النسائي: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ جَيْشًا أَوْ سَرِيَّةً قَالَ لَهُمْ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَسْجِدًا أَوْ سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَلاَ تَقْتُلُوا أَحَدًا » ، فكأن الصحابة

(١) فتح الباري - ابن حجر (٦ / ٢٧٤).

(٢) صحيح مسلم (١ / ٦٧) برقم ٩٦ .

فهموا الإطلاق من هذا، وهو مُقَيَّدٌ بهذه الآية- فَبَعَثَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَأَمَرَنَا بِذَلِكَ فَخَرَجْنَا نَسِيرُ فِي أَرْضِ تِهَامَةَ، فَأَدْرَكْنَا رَجُلًا يَسُوقُ ظَعَائِنَ فَعَرَضْنَا عَلَيْهِ الإِسْلاَمَ فَقُلْنَا: أَمُسْلِمٌ أَنْتَ؟ فَقَالَ: وَمَا الإِسْلاَمُ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ فَإِذَا هُوَ لاَ يَعْرِفُهُ قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ فَمَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ؟ قُلْنَا: نَقْتُلُكَ فقال الفتى: إني لست منهم أني عشقت امرأة منهم فدعوني أنظر إليها نظرة قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَظِرِيَّ حَتَّى أُدْرِكَ الظَّعَائِنَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، وَنَحْنُ مُدْرِكُوكَ فَخَرَجَ فَأَتَى امْرَأَةً وَهِيَ فِي هَوْدَجِهَا فَقَالَ: أَسْلِمِي حُبَيْشُ قَبْلَ انْقِطَاعِ العَيْشِ أَسْلِمِي عَشْرًا وَثَمَانِيًا تَتْرَى وَتِسْعًا وِتْرًا.

قال ابن حجر: وذكر ابن إسحاق من حديث ابن أبي حدرد الأسلمي قال: كنت في خيل خالد، فقال لي فتى من بني جذيمة قد جمعت يداه في عنقه برُمَّة: يا فتى هل أنت آخذ بهذه الرُّمة -أي: الحبل- فقائدي إلى هؤلاء النسوة، فقلت: نعم فقدته بها. وفي رواية: فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَسْتُ مِنْهُمْ، عَشِقْتُ امْرَأَةً فَلَحِقْتُها فَدَعُونِي أَنْظُرْ إِلَيْهَا، ثُمَّ اصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ، فَإِذَا امْرَأَةٌ طَوِيلَةٌ أدماءُ فَقَالَ لَهَا: اسْلِمِي حبَبْشُ قَبْلَ انْقِطَاعِ العَيْشِ، فَقَالَتْ: اسْلِمُ عَشْرًا أَوْ تِسْعًا تَتْرًا، ثُمَّ قَالَ:

أَرَأَيْتِم لَوْ تَبِعْتُكُمْ فَلَحِقْتُكُمْ بِحِلْيَةَ أَوْ أَدْرَكْتُكُمْ بِالخَوَانِقِ
ألم يك أهلاً أَنْ يُنَوَّلَ عَاشِقٌ تَكَلُّفَ إِدْلاجِ السُّرَى وَالوَدَائِقِ
فَلاَ ذَنْبَ لِي قَدْ قُلْتُ: إِذْ أَهْلُنَا مَعًا أَثِيبِي بِوَصْلٍ قَبْلَ إِحْدَى الصَّفَائِقِ
أَثِيبِي بِوَصْلٍ قَبْلَ أَنْ يَشْحَطَ النَّوَى وَيَنْأَى لأمرٍ بِالحَبِيبِ المُفَارِقِ

قَالَتْ: نَعَمْ، فَدَيْتُكَ، ثُمَّ أَتَانَا فَقَالَ: شَأْنُكُمْ فَقَدَّمْنَاهُ فَضَرَبْنَا عُنُقَهُ، فَنَزَلَتِ الأُخْرَى عَلَيْهِ مِنْ هَوْدَجِهَا فَحَنَتْ عَلَيْهِ حَتَّى مَاتَتْ.

قَالَ: فَقَدَّمُوهُ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَجَاءَتِ المَرْأَةُ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ فَشَهِقَتْ شَهْقَةً، أَوْ شَهْقَتَيْنِ، ثُمَّ مَاتَتْ فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

ﷺ: أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ (١).

فها هو النبي ﷺ يعاتبهم على عدم التثبت والبيان في التعامل مع حالة مثل هذه الحالة، ويخطئ فعلهم، وكل ذلك تشوف لدرء القتل بالشبهة.. فماذا يصنع مجرمو الأرض الذين يقتلون الإنسان وقد ألقى السلام أو السلم وهم يزعمون أنهم فعلوا ذلك في سبيل الله، قال تعالى ملكه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: ٥).

انظر عظمة السمو الإسلامي في التعامل مع العالم.. إن الله يأمر بحقن دماء المسلمين والمسالمين.. إما بأن يدخل الناس في الإسلام، وإما بأن يميلوا نحو السلام.. إن الله يُحَذِّرُ المسلمين من تجاوز هذا القانون الصارم.

البصيرة الرابعة:

قال تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ (النساء: ٩٤)، قانون كاشف فاضح لحقيقة تسرع المتسرعين في إراقة الدماء باسم الجهاد في سبيل الله، وأن ذلك ليس في سبيل الله، بل في سبيل المصالح الدنيوية الخاصة.

العرض الشيء العارض الذي يعرض ثم يزول ويفنى ويذهب هباء، ومن ذلك ما جاء عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهَا البَرُّ وَالفَاجِرُ، وَالآخِرَةُ وَعْدٌ صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ عَادِلٌ يُحِقُّ فِيهَا الحَقَّ وَيُبْطِلُ البَاطِلَ»(٢).

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٠ / ٦٢) برقم ١١٨٦٩، السنن الكبرى للنسائي (٨ / ١٢٢) برقم ٨٧٨٧، وأشار ابن حجر في فتح الباري (٨ / ٥٨) إلى صحته، وحسنه الهيثمي، ووافقه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٥٩٤.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٣ / ٢١٦).

إنه قانون كاشف لحقيقة تسرع المتسرعين في إراقة الدماء باسم الجهاد في سبيل الله، وقانون كاشف لحقيقة تسرع المتسرعين في إراقة الدماء باسم حماية الأمن، وأن ذلك ليس في سبيل الله بل في سبيل المصالح الدنيوية الخاصة.. وهي جملة فاضحة تزعزع من مكانة المجاهد عندما يتهور، ويعامل الناس باستعلاء أو سرعة مد يدٍ في سفك الدماء، وبذا يبين الله ضرورة عدم تقديم المكاسب المادية المحتاج إليها على اليقين بفضل الله ورحمته إذا أدى ذلك إلى اتهام الناس بغير دليل.. فمن يخبر الشباب المغرر بهم الذين تتلاعب بهم الأيدي القذرة في العالم، ومن يخبر جماعات الخراب الذين يدمرون بلاد المسلمين وهم يرفعون راياتٍ ينسبونها إلى الدين أو إلى آل البيت الطاهرين، أو إلى الصحابة والسلف الراشدين؟

ولتقر عينك عندما تقابل قول الله تعالى ذكره: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بقوله ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فذكر كلمة ﴿عَرَضَ﴾ مفردة وقابلها بالجمع فلم يقل (مغنم) بل مغانم ثم زاد ووصفها بأنها كثيرة، دلالة على التنوع والكمال، وكلمة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ زادتكم تشويقًا وتهييجًا لتطلبوا مقابل هذا العرض؛ فإذا فاتكم العرض الدنيوي فستجدون ذلك في الآخرة عند الله، فعند الله إما خبأه لكم في الدنيا من خلال ما ستجدون في الفتوحات التي يعلمها في الغيب، وإما عند الله في الآخرة؛ لأنكم اتبعتم كلامه، والفتوحات الدنيوية لا نطلقها على فتح الأرض ولكن ما يحصل للإنسان من التوفيق والتسديد والخير الكثير والسعة في الرزق.

البصيرة الخامسة:

يجب بث الأمن في نفوس الآخرين ومعاملتهم بما تحبون أن تُعاملوا به لو كنتم مكانهم، وتعرضتم لموقفهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ (النساء : ٩٤) أي: كنتم خائفين تحبون من

عدوكم أن يؤمنوكم إذا كانت لهم يد أعلى منكم؛ فلم لا تؤمنونهم هم عندما يكونوا خائفين فيلقون لكم السلم أو السلام؟ وكنتم كفارًا فقُبِلت منكم كلمة الإسلام عندما ألقيتموها، فلم لا تقبلونها منهم؟

وهذه جملة توبيخٍ كاشفة لخبايا النفوس، ولواقع الحياة تجمع صورًا شتى:

فالصورة الأولى: التي تدخل فيها: تأمين الخائف الطالب للصلح، أي: كنتم خائفين تحبون من الكفار أن يؤمنوكم إذ كانت لهم يد أعلى منكم؛ فلم لا تؤمنونهم هم عندما يكونون خائفين فيلقون لكم السلم أو السلام؟ فاضرب لهم مثلًا بما نقله ابن حجر عن قصة تأمين المطعم بن عدي للنبي ﷺ حين رجوعه من الطائف[1]، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه أمنه بعض كبار أهل الحجاز وهو ابن الدغنة. فالمعنى: كذلك كنتم أيضًا تحبون أن يؤمنكم الكفار حين كنتم خائفين، فلماذا لا تؤمنونهم هم عندما يكونوا خائفين، فيلقون لكم السلم أو السلام طالبين الصالح، وهذا توبيخ شديد جدًا كأنه يقول لهم: إذا قبض عليكم الكفار ألا تحبون أن يعاملوكم معاملة حسنة؟

والصورة الثانية: التي تدخل في قوله تعالى ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ صورة الذي يلقي كلمة الإسلام، أي: كنتم كفارًا فدخلتم الإسلام بكلمةٍ فصدقكم النبي ﷺ ومن معه، أفتحبون لو كنتم مكان هذا الذي ألقى السلم أو ألقى السلام أن ترد كلمتكم؟ فلتأتوا إلى الناس الذي كنتم تحبون أن يؤتى إليكم..

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: مَنَّ عليكم بالأمن بعد الخوف، أو من الله عليكم بالإسلام بعد الكفر، وهنا تراه جل شأنه كرر كلمةَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وفيها القراءة الأخرى

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٣/ ٢١٦) وذكر ابن حجر: قال: «قال ابن إسحاق القصة في ذلك مبسوطة وكذلك أوردها الفاكهي بإسناد حسن مرسل» فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٢٤).

﴿فتثبتوا﴾، فإما أنه أعادها -عزَّ جارُه- لزيادة التأكيد والتحضيض، وهذا يرد قليلًا في القرآن بأن تكرر الكلمة في آية واحدة ويراد بها نفس المعنى، وإما أنه أعادها لخطورة المقام لسهولة أن تصادر حقوق الآخرين في تبين حالهم والتثبت من وضعهم.. لماذا يُصادَر منهم هذا الحق؟ للذرائع الأمنية المختلفة، ولتطبيق استراتيجية أخذ الحذر الرادعة، فنبهنا الله إلى حرمة ذلك ووجوب التبين والتثبت، وإذا كان هذا في الأمور الأمنية الخطيرة، فما بالك بالأمور الحيوية كأن يتكلم الإنسان مع أخيه في المجتمعات العامة عن أخيه الغائب فيقول: فيه كذا وكذا غيبة، فلا يجوز أن يقام على الغيبة حكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وكذلك إذا كان الإنسان مع رجل يعتقده عدوا، ويمكن أن يكون له معنى تأسيسي ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أو ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ أي: فتبينوا وأنتم في الأرض التي التقيتم فيها، أي: تمهلوا إلى أن تصلوا إلى مكانٍ تستطيعون من خلاله جمع جميع المعلومات، فيكون هنا له حال وهناك له حال.

ويبين ابن عباس ﷺ قصة وقعت تزيد المعنى وضوحًا وجلاء فيقول: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً، فِيهَا المِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ، فَلَمَّا أَتَوُا القَوْمَ، وَجَدُوهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا، وَبَقِيَ رَجُلٌ، لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، لَمْ يَبْرَحْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَأَهْوَى إِلَيْهِ المِقْدَادُ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: أَقَتَلْتَ رَجُلًا يَشْهَدُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ؟! وَاللَّهِ، لأَذْكُرَنَّ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَقَتَلَهُ المِقْدَادُ ؟ فَقَالَ: ادْعُ لِيَ المِقْدَادَ، يَا مِقْدَادُ، أَقَتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ؟ فَكَيْفَ بِكَ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ غَدًا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾، أَوِ السَّلاَمَ، شَكَّ أَبُو سَعِيدٍ، يَعْنِي جَعْفَرَ بْنَ سَلَمَةَ، ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ

﴿ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾[١]، وفي البخاري قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمِقْدَادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيمَانَهُ فَقَتَلْتَهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ»[٢].

انظر لعظمة هذه التربية الإسلامية، ومن مقاصد الآية: بث الأمن والاستقرار ضمن المجتمع المسلم، وضمن المجتمع العام لتتم التنمية، ويزداد الازدهار، ولذا عومل المنافقون معاملة المسلمين ما لم يعتدوا والاعتداء قد يحصل من مسلم عاصٍ غير منافق.

البصيرة السادسة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ (النساء:٩٤)، تبصرنا برقابة الله على القلوب، فهو أعلم بأهدافكم، وأغراضكم من الأفعال التي تقومون بها، والآية تتضمن النهي الشديد عن المسارعة إلى التكفير، أو عدم إعطاء الأمان حتى لو كان حقًا إلا بعد التبين، والتثبت.



(١) مسند البزار (١١ / ٣١٧) برقم ٥١٢٨ .

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٣) برقم ٦٨٦٥ .

القسم السابع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين (النساء:٩٥-٩٦)

آيات هذا القسم:

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:٩٥-٩٦).

المناسبة والاتصال:

سبق في القسمين السابقين ذكر بعض مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي، وفيهما ظهر حرص الشريعة على حفظ الدماء الإنسانية وحراستها، وجعل ذلك من أهم دلائل الإيمان، كما برز لك في القسم التحذير من التفريط فيها تحت ذريعة التطبيق للسياسة الأمنية (أخذ الحذر)، وهنا يظهر الإحكام في النظم القرآني في أجمل صوره، حيث يبني الاتزان في الشخصية المسلمة لئلا تذوب في اليسار أو في اليمين.. في الغلو في جانب التشدد، أو في الغلو في جانب التجاوز.. فبعد أن أمر الله باتباع استراتيجية: أخذ الحذر، وحذر من العناصر المنافقة المندسة أو العناصر السمَّاعة لهم، ذكَّر بأن أهم مقياسٍ في العلاقات الدولية هو كف اليد

وإلقاء السلم، وبعد أن حث على الإعداد العسكري لحماية المجتمع واستنقاذ المستضعفين حذَّر من التساهل في قتل الأبرياء تحت ستارٍ أمني، وحذر في الوقت ذاته من الوقوع في القتل الخطأ، وغلَّظ كفارته، ثم شدد تشديدًا بالغًا في القتل العمد، على نحوٍ لا يوجد مثله في أي ذنب آخر، ورهَّب من قتل المسلم، أو المسالم، بناء على الشبهة أو الظنون، أو طلبًا للمغانم.. وربما وقع في ذهن الإنسان عند ذلك أن ترك الجهاد خير من المضي فيه؛ لئلا يقع المرء في قتل الشبهة أو قتل الخطأ فضلًا عن قتل العمد، وإذا سلك الإنسان هذا التفكير تعطلت الإنسانية من وجود حماة لها تصد وحوش الذئاب البشرية العادية عن حفظها، وضمان أمنها، هنا تعيد لك آيات هذا القسم التوازن لتبين فضيلة المجاهدين في سبيل الله لا في سبيل أهوائهم ولا في سبيل نزواتهم ومغامراتهم، فرَّغب الله في الجهاد ترغيبًا عظيمًا لم تنله عبادة مماثلة، وذلك ليبين أن التشديد عليهم، وتحذيرهم بوضع الضوابط الصارمة عليهم في حفظ الدماء، لا يعني نزول درجتهم، ولا مكانتهم، ولا التشكيك في شريف عملهم، ولا جعلهم عرضة للهمز واللمز، بل إن حقيقة منزلتهم تقتضي أن يحققوا الاستقامة الصارمة على تلك الضوابط الأخلاقية حتى يستحقوا أن يكونوا مجاهدين، فالمجاهدون يحمون الحياة، ويجمعون الأمم حول كف اليد وإلقاء السلم، وليس العكس، فالإشادة بهم هنا بلغت أقصى مدى لبيان رفعة درجاتهم، ونرى هنا التوازن في الحديث بين السابق واللاحق.

وقد وضع الله ليبين مكانة المجاهدين عددًا من القوانين:

القانون الأول: يجب على أصحاب الطموح العالي من القادرين أن يكونوا في حالة تأهب دائمة، وهذا يعني أن يكونوا في حالة بذلٍ للجهد المالي والجسدي والنفسي استعدادًا لتقديم ذلك عند الاقتضاء.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ (النساء : ٩٥)، فقابل بين المجاهدين، والقاعدين، والمعنى: لا يستوي القاعدون المتخلفون المتقاعسون والمجاهدون المتأهبون القائمون.

لاحظ هنا التعبير القرآني المدهش: قابل بين القاعدين والمجاهدين.. فهل هما ضدان؟ إن ضدَّ القاعدين القائمون، وضدَّ المجاهدين الخاضعون، أو المتخلفون، أو المستسلمون، أو المتقاعسون، أو المتكاسلون، فلماذا قابل بين القاعدين والمجاهدين؟

إنه الاحتباك الرائع في الأسلوب القرآني الذي يولد المعاني المتعددة، فكأنه قال: لا يستوي القاعدون المستسلمون المتقاعسون المتكاسلون والمجاهدون القائمون المتأهبون المستعدون المتحركون.

وتبصرك الآية بأن الجهاد يكون ممن يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل الحماية الأمنية الحقيقية، فهم يبذلون الأموال والأنفس بصورةٍ جزئية ليحافظوا على الأموال والأنفس في الصورة الكلية.. إنه بذل لشيء من المال، ونقص لقلة من الأنفس في سبيل الحفاظ على الحياة العادلة في هذا العالم الذي ملأه الفاسقون بالفساد، وملأه المجرمون بالحزن.. وكما ترى هذا الأسلوب المثير، فكما يذكر أدوات الجهاد وهي المال والنفس يعني أن يكون القاعدون بخلاء بالمال والنفس، فما الذي يترتب على هذا البخل بالمال والنفس؟

إنه الاجتياح القريب لكل مالٍ خبأوه، والإهانة البالغة لكل نفسٍ ضنوا بها حتى يود المهانون أن الموت أقرب إليهم من كل شيء.

القانون الثاني: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تبصرك بحقيقة الجهاد وسيلة وغاية.

فسبيله جل جلاله لا يعني احتياج الله لشيء، بل يعني حفظ المصالح البشرية الحقيقية، والعمل على تحرير الإنسانية من الظلم والجهل حتى تعرف ربها وتتمكن من أن تختار طريقها دون قهرٍ أو إكراه.

ما وجه عظمة هذا المصطلح المبتكر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟

السبيل الطريق الواضح البين، وهذ المركب الإضافي ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل ثلاث تفصيلات نحوية؛ إذ الإضافة إما أن تكون مفسرة باللام ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإما أن تكون مفسرة بفي ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإما أن تكون مفسرة بمن ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كما قال ابن مالك:

نونا ً تلي الإعراب أو تنوينا مما تضيف احذف كطور سينا
والثاني اجرر وانو من أو في إذا لم يصلح إلا ذاك واللام خذا
لما سوى ذينك واخصص أوّلا أو أعطه التعريف بالذي تلا[1]

فها أنت ترى أن هذا المصطلح العظيم صالحٌ للمعاني الثلاثة.

فتقدير اللام يحدد الهدف الأعلى للجهاد: في سبيلٍ لله، أي: في سبيلٍ تريدون به وجه الله، وليس الجاه الشخصي، والاستعلاء على بقية أهل الأرض، وليس الجهاد؛ لأجل المغانم الكثيرة التي تبتغيها النفس الأمارة بالسوء، فهناك من يبتغي المال، وهناك من يبتغي الجاه، وهناك من يبتغي السيطرة والاستيلاء على خيرات الآخرين، وهناك من يبتغي استعباد الشعوب.

وتقدير ﴿فِي﴾ يحدد الهدف الأعلى كاللام، ويحدد الوسيلة أيضًا، فلا تكون وسيلة الجهاد في سبيل في الله وسيلة في غير سبيل الله، فالغاية لا تبرر الواسطة هنا،

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٤٢).

بل الذي يكون في سبيلٍ لله ينبغي أن يكون في سبيلٍ في الله.

وتقدير (من) يدل على ضرورة أن يكون هذا الجهاد أو ذلك الفعل قد اكتسب شرعيته من الله (في سبيلٍ من الله) فكأنه مبدأه من الله.. ماذا يعني ذلك؟ يعني ألا تجعل الشرعية منبعثة من ذاتك، ولا ممن يحرضك بغير علم ولا هدى ولا كتابٍ منيرٍ.

فما معنى في سبيل الله أيضًا؟ أي: هل الله يحتاج لنا لنقاتل في سبيله؟

إن إضافة هذه المعاني لله لها جوهرٌ يبينها، وحصنٌ محيط بها يمنعها من المعاني الزائفة، وقلب هذا المصطلح في الشريعة لتجد عجبًا يطول ذكره غير أنا نشير إلى لمحةٍ من ملامحه: فالله يضيف اسمه الشريف إلى كثيرٍ من الكلمات ليظهر أن الله يريد تحقيق المصالح للبشرية، ويحيطها بالسياج المشروع حتى لا يغر أحدًا في دينه ما كان يفتري، وليحث على سلوك مقتضى تلك الإضافة.

فمثلًا: قرض الله: قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥).. إن الله الغني عن العالمين لا يحتاج إلى قرضِ مخلوقٍ لا يكاد يساوي ذرة في مخلوقاته؛ ولكن الله جعل قرضك غير ضائع بهذا التركيب: أقرض الله، أي: أقرض البشرية تجد ذلك عند الله كما قال بين الله ذلك تفصيلًا في قوله: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ (المزمل: ٢٠). ومثل هذا كثيرٌ في الشريعة، فعندما يقول الله جل جلاله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ (الأنفال: ٤١) وليس المراد أن الله محتاجٌ لشيء من الغنيمة؟ إنما المراد فأن للمصالح البشرية المختلفة، ولكنه أحاطها بسياج الهدف والوسيلة، فلا تخرج عن ما يحدده وسيلة وهدفًا.

ويفصل النبي ﷺ ذلك فيقول: «إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ

أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِى فُلاَنٌ، فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟»[1].

وبذا نفهم معنى قوله جل في علاه: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ (النساء: ٩٥)، فليست كلمة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعني إلا في سبيلِ إقامةِ الحياة البشرية العادلة، وحماية الأرض من الفساد بالسير على النظام الذي شرعه خالق هذه الحياة، ولا يتحقق ذلك على الوجه الحقيقي إلا بالتعرف إلى الله والقرب منه جل في علاه.. لا يتحقق ذلك إلا بجعل كلمته هي العليا.. هذا معنى الجهاد: بذل الجهد لتكون كلمة الله هي العليا.. ستقول: ولماذا لا بد أن نجعل كلمته هي العليا؟

حتى نختصر عليك مسافات التفكير.. والمسافات الهائلة لبذل الجهود في البحث عن صناعة العدل في الحياة.. فإنك إذا جعلت كلمته هي العليا منعت أن تكون كلمتك هي العليا، ومنعت أن تكون كلمة صديقك هي العليا، ومنعت أن تكون كلمة عدوك هي العليا.. أن تجعل كلمة الله هي العليا يعني أن تثبت العدل في الحياة البشرية حيث لا يعلو أحدٌ على أحد، ولا يفضل أحدٌ أحدًا إلا بالعمل الصالح، والإعمار للحياة بما يرفع الإنسان يوم يُرجع إلى ربه ويلقاه..

فبين الله جل ذكره المجاهدين الحقيقيين، وهم من جاهد في سبيل الله، لا في سبيل شهواته ورغباته، ولا في سبيل تحقيق طموحاته، بل في سبيل العدل، والخير، والإحسان، وإغاثة المستضعفين في الأرض خالصًا لوجه الله.

---

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٣) برقم ٦٧٢١.

والجهاد في سبيل الله يعني أن يكون في سبيل العدل والخير والإحسان وإغاثة المستضعفين في الأرض خالصًا لوجه الله.

ألا خاب الملحدون الذين يؤلهون أنفسهم، ويريدون إفساد الأرض بجعل كلمة كل واحدٍ منهم هي العليا، وهنا تعلم الأسرار الفكرية وراء تقرير النبي ﷺ معنى الجهاد في سبيله حيث جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[1].

لقد عدد الرجل الأهداف المختلفة التي يسعى لها الأفراد والعصابات المسلحة والدول المعتدية عندما يقاتلون الآخرين، فهم يريدون من قتالهم الاستيلاء على خيرات الآخرين، والسيطرة على ثرواتهم (للمغنم)، وربما أرادوا إظهار السمعة والبطولة والتفوق الذاتي (للذكر)، وربما أرادوا إظهار القوة الشخصية والتفوق النوعي، وفرض شخصيتهم المستكبرة المتعالية التي لها حق الحصانة في الأفعال المجرمة في العالم (ليرى مكانه).. إنهم في كل ذلك يريدون كلمتهم هي العليا في الأرض، وكلهم سيفسد في الأرض وفق هذه الأهداف الضيقة ثم يختلف مقدار إفسادهم ويتفاوت.. فمن في سبيل الله؟ إنه من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وبذا تسير البشرية على النظام العادل الذي شرعه لها خالقها، فلا يبغي أحدٌ على أحد، ولا يتعالى جنس على جنس.. هنا يتم المحافظة على الحياة البشرية.

أين هذا من فهم الملحدين ومليشياتهم للطبيعة الوجودية للبشرية؟ أين هذه العظمة من الفهم الأعوج الذي يرسيه من يزعم الجهاد ثم يقتل الأبرياء؟ أين هذه العظمة من فهم أصحاب (نظام الفيتو) وقد جعلوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه يستطيلون بأسلحتهم على أهل الأرض؟

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٢٤) برقم ٢٨١٠.

وهذه البصيرة تعني أن تبذل الجهود المالية في إيجاد المجموعات الضاغطة، والمؤسسات الإعلامية والثقافية المختلفة التي تثبت معاني الاستقامة في الحياة، وعدم بغيها عوجًا، وأن يبذل المال في سبيل التعاون على البر والتقوى وفي سبيل كسر جهود التعاون على الإثم والعدوان.

القانون الثالث: يجب إظهار مراعاة الشريعة للأحوال الإنسانية، والقدرة على الأفعال، فلا يدخل في المقارنة السابقة أولو الضرر. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ (النساء: ٩٥).

وفي قوله ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ قراءتان:

الأولى: برفع ﴿غَيْرُ﴾ على أن تكون صِفَة لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، وَالمَعْنَى لَا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ المُغَايِرُونَ لِأُولِي الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ، ومثل ذلك قَوْلُهُ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ (النُّورِ: ٣١) فيجوز أن تكون غير صفة لمعرفة مثل: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ (الفَاتِحَةِ: ٧)، فكلمة ﴿غَيْرُ﴾ يوصف بها ويُستثنى، فإن وصفتَ بها أتبعتها إعراب ما قبلها، وإن استثنيتَ بها أعربتها بالإعراب الذي يجب للاسم الواقع بعد إلا، وذلك أن أصل ﴿غَيْرُ﴾ صفة والاستثناء عارض.

الثانية: بِنَّصْبِ ﴿غَيْرَ﴾ فَفِيهَا وَجْهَانِ: الاسْتِثْنَاء مِنَ القَاعِدِينَ، وَالمَعْنَى لَا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ إِلَّا أُولِي الضَّرَرِ، وأَنْ تكُونَ نَصْبًا عَلَى الحَالِ، وَالمَعْنَى لَا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ فِي حَالِ صِحَّتِهِمْ، وَالمُجَاهِدُونَ، كَمَا تَقُولُ: جَاءَنِي زَيْدٌ غَيْرَ مَرِيضٍ، أَيْ جَاءَنِي زَيْدٌ صَحِيحًا، وَهَذَا قَوْلُ الزَّجَّاجِ وَالفَرَّاءِ وَكَقَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ (المَائِدَةِ: ١).

والضَّرَرُ «مَصْدَرُ ضَرِرَ- بِكَسْرِ الرَّاءِ- مِثْلَ مَرِضَ، على وزن فَعِلَ وَهَذِهِ الزِّنَةُ

تَجِيءُ فِي العَاهَاتِ وَنَحْوِهَا، مِثْلَ عَمِيَ وَعَرِجَ وَحَصِرَ، وَمَصْدَرُهَا مَفْتُوحُ العَيْنِ مِثْلَ العَرَجِ، وَلِأَجْلِ خِفَّتِهِ- بِفَتْحِ العَيْنِ- امْتَنَعَ إِدْغَامُ المِثْلَيْنِ فِيهِ، فَقِيلَ: ضَرَرٌ بِالفَكِّ، وَبِخِلَافِ الضُّرِّ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ ضَرَّهُ فَهُوَ وَاجِبُ الإِدْغَامِ إِذْ لَا مُوجِبَ لِلْفَكِّ»[1]، والضرر النُّقْصَانُ الذي يصيب الجسد سَوَاءٌ كَانَ بالعاهة كالعَمَى والعَرَجِ والمَرَضِ، أم بضنى في الجسم، وعي في الحركة، أم بِسَبَبِ عَدَمِ القدرة على القتال لضعف استعداد، وخفاء جهة، وقلة مال بأن لا يقدروا على الجهاد بأموالهم، وقد يكون الضرر واقعًا منهم على الجيش بأن يكونوا مصدرًا للضرر في حركة المقاتلين، وقد فصَّل الله أولي الضرر في مواضع أخرى، فمنها قوله جل مجده: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩١، ٩٢)، ومنها قوله تعالى ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ (الفتح: ١٧).

فأصحاب الضرر لا يدخلون في المقارنة بين القاعدين والمجاهدين، فأصحاب الضرر استحقوا الأجر عندما أصيبوا بالضرر فصبروا عليه، وفي المقابل كلف الأصحاء الأقوياء غير أولي الضرر بالجهاد، فصبروا وجاهدوا فاستحقوا أجرًا مقابلًا، ثم إن الله يتفضل على عباده بما شاء عندما يُقبِلون عليه بنيةٍ حسنة صادقة إن هم وقع لهم ما وقع للطرف الآخر ليقوموا بما أمرهم الله.

وحتى تستبين مراعاة الشريعة للأحوال البشرية في مجال المسابقة إلى الخيرات تروي لنا كتب السنة الصحيحة كيف نزل هذا الاستثناء لأولي الضرر، فعَنِ البَرَاءِ ﷺ

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٧١).

قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ادْعُوا فُلاَنًا فَجَاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاةُ وَاللَّوْحُ، أَوِ الكَتِفُ فَقَالَ: اكْتُبْ ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهنا يستبين للعالم أن التشريعات القرآنية يراد بها حفظ المصالح الحقيقية للبشرية حيث ارتبط نزول هذه الآية بمراعاة الأحوال البشرية المختلفة؛ إذ يذكر زَيْد بْن ثَابِتٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَهُوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهَادَ لَجَاهَدْتُ، (فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا ضَرِيرٌ) وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى، فَأَنْزَلَ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ، وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ، حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، عزَّ وجلَّ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[1]، (قَالَ زَيْدٌ: فَأَنْزَلَهَا اللَّهُ وَحْدَهَا فَأَلْحَقْتُهَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لكأني أَنْظُرُ إِلَى مُلْحَقِهَا عِنْدَ صَدْعٍ فِي كَتِفٍ)[2].

فَظَنَّ ابن أم مكتوم أَنَّ التَّعْرِيضَ بالقاعدين يَشْمَلُهُ وَأَمْثَالَهُ، فَإِنَّهُ مِنَ القَاعِدِينَ، وَلِأَجْلِ هَذَا الظَّنِّ عَدَلَ عَنْ حِرَاسَةِ المَقَامِ إِلَى صَرَاحَةِ الكَلَامِ، وَهُمَا حَالَانِ مُتَسَاوِيَانِ فِي عُرْفِ البُلَغَاءِ، هُمَا حَالُ مُرَاعَاةِ خِطَابِ الذَّكِيِّ وَخِطَابِ الغَبِيِّ، فَلِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ زِيَادَةُ الِاسْتِثْنَاءِ مُفِيدةً مُقْتَضَى حَالٍ مِنَ البَلَاغَةِ، وَلَكِنَّهَا مُعَوِّضَتُهُ بِنَظِيرِهِ؛ لِأَنَّ السَّامِعِينَ أَصْنَافٌ كَثِيرَةٌ[3].

فلم تضع حقوق أولي الضرر في الحصول على أجر الجهاد إن صدقوا النية؛ ومن النصح لله ولرسوله أن ينووا صادقين الاشتراك في الجهاد بالمال والنفس إن استطاعوا وأن يحرضوا غيرهم على الجهاد، فعند ذلك ينالون أجر المجاهدين، وهذا

(١) صحيح البخاري -ترقيم فتح الباري (٤ / ٣٠) برقم ٢٨٣٢ .

(٢) أبو داود (٢ / ٣١٩) رقم ٢٥٠٩ .

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٧٠).

يدل على تعميم الوعي والتعبئة على جميع الأمة حتى على غير القادرين لتبقى الأمة محفوظة في أمنها، وبين النبي ﷺ ذلك، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ المَدِينَةِ فَقَالَ: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ العُذْرُ» (١)، وهذا كما قيل:

يَا رَاحِلِينَ إِلَى البَيت العَتِيقِ لَقَد سِرْتُم جُسُوما وسِرْنا نحنُ أَرْوَاحَا
إِنَّا أَقَمنا عَلَى عُذْرٍ وعَنْ قَدَرٍ ومَنْ أقامَ على عذْرٍ فقد راحا

القانون الرابع: يجب الاستفادة من طاقات أفراد الأمة جميعًا، حتى القاعدين.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فكون المجاهدين يفضلونهم لا يعني أن ننبذ أولي الضرر جانبًا ليكونوا فريسة سهلة لوساوس الشيطان، بل يدخلون في الوعد بالحسنى، فليبذلوا وسعهم:

فالقاعدون لهم دورهم في بيان الرسالة الإلهية للإنسانية، والسير إلى الله تعالى، وأداء ما يستطيعون في الاستخلاف في الأرض، وأولوا الضرر لهم دورهم في ذلك أيضًا، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فكلمة ﴿كُلًّا﴾ للفئات الثلاث وليس لفئتين، فهذه الكلمة تستوعب الجميع.

وتلمس من هذا الاستثناء لأولي الضرر ضرورة السير على المنهج القرآني في تصوير دقة التوصيف الخبري وإقامة العدل في الواقع الإنساني، وهذا القانون نستنبطه من مجمل الأسلوب القرآني، وترى هنا استثناء أولي الضرر ثم بعد قليل سيستثني المستضعفين.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ١٠) رقم ٤٤٢٣ .

ولقد استوقف الأسلوب القرآني هنا الطاهر بن عاشور فقال: «فَلم يَأْتِ بعمومات شَأْنُهَا التَّخْصِيصُ غَيْرِ مَخْصُوصَةٍ، وَلَا بِمُطْلَقَاتٍ تَسْتَحِقُّ التَّقْيِيدَ غَيْرَ مُقَيَّدَةٍ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ العَرَبُ لِقِلَّةِ اكْتِرَاثِهِمْ بِالأَحْوَالِ القَلِيلَةِ وَالأَفْرَادِ النَّادِرَةِ، مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ (النِّسَاء: ٩٥) وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (القَصَص: ٥٠) فَبَيَّنَ أَنَّ الهَوَى قَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا إِذا كَانَ هوى المَرْءِ عَنْ هُدًى»[1].

القانون الخامس: تتنوَّع مجالات الجهاد، فجعلها شاملةً للمال والنفس، فقدَّم ما يمكن من خلاله أن يشترك فيه الأكثر، وهو المال، وأخر ذكر النفس؛ لأن من يبذلها هم الأقل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

والمجاهدون على ثلاث مراتب: مجاهد بماله، ومجاهد بنفسه، ومجاهد بهما معًا، فالمجاهدون أيضا لا يستوون في ذلك.

ولكن لماذا قدم الله النفس على المال في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ (التَّوْبَة: ١١١)، وهنا قال: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فقَدَّمَ ذِكْرَ المَالِ عَلَى النَّفْسِ؟

والجواب: أن ذلك جرى حسب مقتضيات السياق، فقدم هناك النفس؛ لأَنَّ النَّفْسَ أَشْرَفُ مِنَ المَالِ، فَالمُشْتَرِي وهو الله قَدَّمَ ذِكْرَ النَّفْسِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الرَّغْبَةَ فِيهَا أَشَدُّ، ولأن موضع التوبة جاء في سياق الالتحام والمواجهة، وأما هنا فالكلام عن الباذل وهو العبد، فقدم ما يمكن من خلاله أن يشترك فيه الأكثر وهو المال، وأخر ذكر النفس؛ لأن من يبذلها هم الأقل، وأراد الله أن يبين تنوع مجالات الجهاد.

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠).

وقدم الله المال على النفس ليبصرك بعدة معانٍ، منها: أن المال إذا كفى في الحماية والنصرة والدفاع فهو يفدي النفس، فلا تقدم النفس قبل استنفاد المال في وسائل نصرة القضايا العادلة، وهي ذاتها القضايا التي تكون في سبيل الله، وللتبصير بأهمية المال في صناعة القرار وتغيير المواقف، واستمرار الأعمال المختلفة لحماية الحق والحقائق من قوى التزييف الطاغوتية.

ومن معاني التقديم للمال أن المال يمكن أن يبذله الأكثر الأعم من أبناء المجتمع فيدخل فيهم النساء والأطفال بينما النفس قد لا يستطيع بذلها إلا العدد الأقل ممن يبذلون المال حيث لا يكلف بذلك إلا الرجال البالغون الأكفاء ممن تمتع بالقدرة العسكرية اللائقة. تأمل الجمال التعبيري التبصيري القرآني المدهش.

القانون السادس: الدرجة التي فضل بها المجاهدون ليست درجة واحدة، بل هي درجاتٌ عظيمة جدًّا، إذ فصلها بقوله: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:٩٥-٩٦)، **وهي تدل على مكانة الجهاد في حماية الأمن العام، وإنقاذ الإنسانية.**

فجمعَ دَرَجاتٍ لِإِفَادَةِ تَعْظِيمِ الدَّرَجَةِ، فالجمع يفيد الكَثْرَة، أَلَا تَرَى أَنَّ عَلْقَمَةَ لَمَّا أَنْشَدَ الحَارِثَ بْنَ جَبَلَةَ مَلِكَ غَسَّانَ قَوْلَهُ يَسْتَشْفِعُ لِأَخِيهِ شَأْسِ بْنِ عَبْدَةَ:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ[1]

قَالَ لَهُ الملك «وأذنبة»[2].

وهذه الدرجات تتكاثر حسب النية والأثر والفعل، وينبغي أن يكون الحادي

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٧٢).

(٢) ديوان أسامة بن منقذ (١ / ٣٥٩).

فيها الجهاد في سبيل الله، أي: في سبيل نشر العدل والحق والخير، وإغاثة المستضعفين على الوجه الذي يريده الله ابتغاء وجهه الكريم، وقد ذكر الله ستة أفعال قد يبذل فيها المجاهدون جهدهم، وكل منها تزيدهم درجة أو درجات، فقد روى الطبري عن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، فقال: «الدرجات» هي السبع التي ذكرها في «سورة براءة»: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٢٠، ١٢١).

قال: هذه السبع الدرجات. قال: وكان أول شيء، فكانت درجة الجهاد مُجْملة، فكان الذي جاهد بماله له اسمٌ في هذه، فلما جاءت هذه الدرجات بالتفصيل أخرج منها، فلم يكن له منها إلا النفقة، فقرأ: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾، وقال: ليس هذا لصاحب النفقة. ثم قرأ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾، قال: وهذه نفقة القاعد[1].

ولعلك تجد أن لما قاله ابن زيد ﷺ زيادةَ تفصيلٍ، فإن المنفق هنا قد يراد به المجاهد بنفسه ذاته؛ إذ قد تغشى المجاهدين أزمنةً لا يجدون نفقة نظامية إلا ما ينفقون على أنفسهم من عندهم كما كان في العهد النبوي، فتكون هذه المرتبة لتفضيل المجاهد بنفسه على زملائه ممن لم يكن منهم ذلك، وأما المجاهد بماله فقط فتختلف أحواله فقد يأتي وقت يكون أعظم أجرًا في ظروفٍ خاصة، وهكذا،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٩٧).

فابن زيد وهو من كبار المفسرين أراد أن يبين أن تفاوت الأجر الأخروي قائم على تفاوت البذل الدنيوي.

ويبين النبي ﷺ سعة هذه الدرجات في حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ». فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا العَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[١].

وعن شرحبيل بن السمط قال لكعب بن مرة: يا كعب حدثنا عن رسول الله ﷺ واحذر. قال سمعته يقول: «من شاب شيبة في الإسلام في سبيل الله كانت له نورًا يوم القيامة» قال له: حدثنا عن النبي ﷺ واحذر. قال: سمعته يقول: «ارموا. من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة» قال ابن النحام: يا رسول الله وما الدرجة؟ قال: «أما إنها ليست بعتبة أمك ولكن ما بين الدرجتين مائة عام»[٢]. وهنا لا بد أن تتساءل لماذا قال الله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ (النساء: ٩٥) فأفرد الدرجة، ثم جمعها في قوله ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ (النساء: ٩٦)؟

لعله يظهر لك سببان:

السبب الأول: تعظيم الدرجات، والسبب الثاني: بيان التفاوت بين أصحاب هذه الدرجات وقد ذكر أهل العلم عدة أجوبة: فقيل لأَنَّ المُجَاهِدَ أَفْضَلُ مِنَ القَاعِدِ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الأَضِرَّاءِ بِدَرَجَةٍ، وَمِنَ القَاعِدِ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الأَصِحَّاءِ بِدَرَجَاتٍ، والظاهر أن الدرجة التي يفضل بها على القاعد الضرير ليست درجة جزائية بل درجة

(١) صحيح مسلم (٦ / ٣٧) رقم ٤٩٨٧ .

(٢) سنن النسائي - بأحكام الألباني (٦ / ٢٧) برقم ٣١٥٥ .

العمل؛ إذ يصحبه شعورٌ مفعمٌ بلذته، وإلا فالأصل تساويه مع القاعد الضرير من حيث الأجر ما دام الضرير صادق النية في القيام بهذا العمل الصالح لولا ما به من ضر، وقيل: فَضَّلَ اللَّه المُجَاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الغَنِيمَةُ، وَفِي الآخِرَةِ بِدَرَجَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي الجَنَّةِ بِالفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالمَغْفِرَةِ. وقيل المُجَاهِد المذكور أولًا هو المجاهد بِالمَالِ وَالنَّفْسِ فَقَطْ، والثاني المجاهد بِالنَّفْسِ وَالمَالِ وَالقَلْبِ وَهُوَ أَشْرَفُ أَنْوَاعِ المُجَاهَدَةِ[1].

والذي يظهر أن المُرَاد بِالدَّرَجَةِ أولًا لَيْسَ الدَّرَجَةَ الوَاحِدَةَ بِالعَدَدِ، بَلْ بِالجِنْسِ، وَالوَاحِدُ بِالجِنْسِ يَدْخُلُ تَحْتَهُ الكَثِيرُ بِالنَّوْعِ، وَذَلِكَ هُوَ الأَجْرُ العَظِيمُ، فبدأ بها مفردة ثم جمعها لزيادة التشويق والإثارة وبيان منزلة المجاهدين، وهذا التشويق، وأسلوب النزول كان لمعالجة طبيعة النفس المسلمة التي تنتمي إلى الطبيعة البشرية؛ إذ مهما بلغت من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائمًا في حاجة إلى تربية دائمة لحمايتها من أعراض السوء والفتور التي لا بد أن تطرأ عليها مثل الضعف والحرص والأنانية والبخل والشح والتقصير في مواجهة التكاليف التي يكون لها تبعات ثقيلة مثل الجهاد.

«فَعَامَّةُ النَّاسِ إِذَا أَسْلَمُوا بَعْدَ كُفْرٍ أَوْ وُلِدُوا عَلَى الإِسْلَامِ وَالتَزَمُوا شَرَائِعَهُ وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ إِيمَانٌ مُجْمَلٌ وَلَكِنَّ دُخُولَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ إِلَى قُلُوبِهِمْ إِنَّمَا يَحْصُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِنْ أَعْطَاهُمْ اللَّهُ ذَلِكَ وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ لَا إِلَى اليَقِينِ وَلَا إِلَى الجِهَادِ وَلَوْ شُكِّكُوا لَشَكُّوا وَلَوْ أُمِرُوا بِالجِهَادِ لَمَا جَاهَدُوا وَلَيْسُوا كُفَّارًا وَلَا مُنَافِقِينَ بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ القَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِينِهِ مَا يَدْرَأُ الرَّيْبَ وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الحُبِّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مَا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الأَهْلِ وَالمَالِ وَهَؤُلَاءِ إِنْ عَوفُوا مِنْ المِحْنَةِ وَمَاتُوا دَخَلُوا الجَنَّةَ. وَإِنْ ابْتُلُوا بِمَنْ يُورِدُ عَلَيْهِمْ شُبُهَاتٍ

(١) وانظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٩٢)، وهو عند الرازي من قبله حذو بالحرف بالحرف.

تُوجِبُ رَيْبَهُمْ فَإِنْ لَمْ يُنْعِمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُزِيلُ الرَّيْبَ وَإِلَّا صَارُوا مُرْتَابِينَ وَانْتَقَلُوا إِلَى نَوْعٍ مِنْ النِّفَاقِ [١].

والآيـة تـدل على قيمة الجهاد ومكانته مع النظر إلـى طبيعة البشر وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين.. إن «الجهاد» ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة. إنما هو ضرورة مصاحبة لبناء هذه الأمة وحمايتها[٢]! بل ولإنقاذ الإنسانية من عبث القوى المستكبرة.

إن الجهاد أعظم وسائل الأمة لحمايتها من الأخطار المجرمة التي تتحرق القوى المفسدة شوقًا لإيقاع القوى الصالحة فيها، ولذا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ» [٣] والآيات توضح أن الجهاد «فطرة! وليست حالة طارئة بل هو ضرورة مصاحبة لإنشاء هذه الأمة،... ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير. ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح. ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة.. وإلا كان الأمر انتحارًا. أو كان هزلًا لا يليق بالمؤمنين! ولا بد من بذل الأموال والأنفس» [٤].

ما سبب زيادة المغفرة والرحمة مع أن الدرجات تشملها؟

قد يحتاج المجاهد إلى المغفرة؛ لأنه قد يرتكب بعض الأخطاء في أثناء عمله مع صدق نيته مع أنه ليس بمعصوم، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف عنه وأن

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧١).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤١).

(٣) صحيح مسلم (٦ / ٤٩) رقم ٣٥٣٣ .

(٤) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٢).

يبين الأخطاء التي ارتكبها لا عن عمد، أما إذا كان ارتكبها عمدًا فهذه مشكلة عظيمة، ولكن الأخطاء التي طرأت على غير عمد فإن الله يغفرها له، ولذلك قال ومغفرة، وهذا رأيناه في الكلام عن المجاهدين في سورة آل عمران في قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦، ١٤٧)، فهم يشعرون بأن هناك تقصيرًا يصحب أعمالهم، وذنوبًا يقترفونها قبل العمل وأثناءه وبعده، وبعض هذه الذنوب قد لا تغفر كالدين مثلا،فالدين لايعقل أن يَحْدث خطأ إنما يكون عمدًا، ولذلك لا يغفر كما بين النبي ﷺ في أحاديثه، الدَّين يتعلق بحقوق الناس.. والمجاهد يزعم أنه قام من أجل حقوق الناس، فإما أن يستعفي من صاحب الحق، وإما أن يرد له حقه.. لا يعقل أن يذهب مجاهدًا لحماية حقوق الناس وهو يأكل حقوقهم،فالجهاد ضرورة مصاحبة لبناء المجتمع وحمايته، وهو «فطرة، وليست حالة طارئة... ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح.. وإلا كان الأمر انتحارًا»[1].

وإذا كانت المغفرة تكفير عن السيئات، فإن الرحمة إسباغ بالخيرات بمعنى أن يعطيهم هذه الدرجات ويزيدهم فوق ذلك من لدنه رحمة، نسأل الله من فضله ورحمته.



(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٢).

القسم الثامن

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرضٍ تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي (النساء:٩٧-١٠٠)

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:٩٧-١٠٠).

المناسبة والاتصال:

لما تقدم في القسم السابع أن من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين أراد جل جلاله أن يبين مكانة المهاجرين الذي يتركون ديارهم وأموالهم لينتقلوا من أرض الظلم والخوف والحرب إلى أرض العدل والأمن والسلام ليحقق بذلك هدفين:

الأول: التزيل من أرض الظلم التي لا يجد فيها كرامته، فلا يصبح رهينة بيد

القوى الظالمة، أو ورقة للمساومة مع قوى الخير، فيعين المجاهدين على تحقيق أهدافهم في حماية أمن المستضعفين ونشر العدل في الأرض بدلًا من أن يكون ورقةً للمساومة، فمن أسباب وجوب الهجرة، فرارًا من أن يستخدم المعتدون المستضعفين وسائل للاعتداء، أو دروعًا لتوهين العدل، فبالهجرة يتم تقوية أمة العدل، فلا يكون المقيمون في أرض الظلم عرضة للابتزاز، وسببًا في تغيير أديانهم.

الثاني: أن يجد أرضًا تكون أقرب لأن يعيش أقرب إلى المراد الإلهي في الحياة، بدلًا من أن يضطر لتغيير دينه، أو إخفائه. (فإن لم توجد أرض العدل الحقيقي فيبحث المرء عن الأرض التي يوجد فيها القانون، وتكون مفاسدها أقل من غيرها، ويمكنه أن يجد السعة فيها على أن يعبد الله بحرية، وهنا لا بد من الموازنة بين الأراضي المختلفة في إيجابياتها وسلبياتها، والمصالح التي تتحقق فيها، والمفاسد التي تخف أو تنعدم فيها).

وحتى يفصل الله ما يتعلق بهذا الموضوع فقد ذكر الله القوانين الآتية:

القانون الأول: تجب الهجرة من دار الظلم والحرب والاضطهاد إلى دار العدل أودار السلام أو دار القانون التي يجد الإنسان فيها الحرية الحقيقية لإقامة حياته وفق المراد الإلهي. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

فإذا بلغ الظلم حدًا لا يستطيع المرء معه إقامة دينه وجب عليه الهجرة من أرض الظلم إلى أرض العدل وإن كانت كافرة، فتأمل ذلك في الآية؛ إذ يقول الله **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾** من الذي توفاهم؟ الملائكة هي التي توفت هؤلاء الظالمين لأنفسهم، وذكر الله جل مجده مثل ذلك في سورة الأنعام فقال: **﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ**

﴿رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١)، وفي مشهدٍ ثانٍ بين تعالى ذكره أن المتوفي ملكُ الموت ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١)، ولكنك تجد البيان القرآني يخبرك في مشهدٍ ثالثٍ أن الله هو المتوفي جلَّ جلاله؛ إذ يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢)، وتتآزر المشاهد الثلاثة على تجلية الحقيقة.

فالله جل في علاه يأمر بقبض أرواح العباد عندما يستوفون آجالهم، فهو يعطي الأمر والإذن لملك الموت، ويوجد القدرة في الملائكة لتنفذ أوامره، فيقوم ملك الموت بقبض الروح، إما لأن له أعوانًا كثرًا من الملائكة، وإما لأنه أوتي قوة عظيمة يصل بها إلى الأعداد الكثيرة في وقت واحد، وتباشر الملائكة ذلك إما لأنهم مساعدون لملك الموت، أو يكون لهم دور معين، فيصح نسبة قبض الأرواح إلى الله أو إلى ملك الموت أو إلى الملائكة الرسل، وتعال بنا للتأمل في الفعل ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾، فقد وردت فيه قراءتان توضحان مشهدين:

- قراءة الجمهور ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾ على أنه فِعْلٌ ماضٍ لمْ يُقْرَنْ بِعَلَامَةِ تَأْنِيثِ فَاعِلِ الفِعْلِ، لِأَنَّ الملائكة جمع تكسير، وتَأْنِيثه تَأْنِيثٌ لَفْظِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ فَيَجُوزُ لَحَاقَ تَاءِ التَّأْنِيثِ لِفِعْلِهَا، ويجوز أن يكون فعلًا مضارعًا للاستقبال، وَالتَّقْدِيرُ: إِنَّ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ، فأسقط التاء في أوله.

- وقراءة البزي عن ابن كثير بتشديد التاء وصلًا فيكون أصلها: تتوفاهم على أنه فعلٌ مضارعٌ، والحديث فيه عن المستقبل، وأنت ترى أن المشهدين تصورهما القراءتان، تعال بنا الآن لنتدبر هذا التعبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾.

فقوله ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾ معناه: تتوفاهم الملائكة، أي: تقبض أرواحهم مستوفية آجالها، وكلمة ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾ تدل على أن الله مد في أعمارهم واستوفوا آجالهم، فكان بإمكانهم

أن يهاجروا في أي لحظةٍ، ولكنهم أبوا ذلك، وفضلوا البقاء، فالملائكة تقول لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؟

فلماذا قال: ﴿تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ولم يقل إن الذين يموتون؟

لبيان أنهم استوفوا عمرهم كاملًا، فلم يموتوا في وقتٍ يمكن أن يُعذروا فيه، ولعل الآية تصور سوء موقفهم، وشناعة حالهم عند حدوث الوفاة ليعلموا أنهم سيعانون وقتًا عصيبًا في العالم الأخروي القادم عندما تقبض أرواحهم الملائكة، وتسائلهم عن أسباب عدم إقامتهم لدينهم، وحينها سيواجهون مصاعب لا تساويها الراحة التي أرادوها بالتخلي عن الهجرة.

وقَوْلُهُ: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ عَلَى الحَالِ، وَالمَعْنَى تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ فِي حَالِ ظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، فالإضافة لاسم الفاعل لفظية على نية الانفصال كَأَنَّهُ قِيلَ ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ، ومثل ذلك ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ (المَائِدَةِ: ٩٥) ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ (الحَجِّ: ٩)، ففيمَ ظلموا أنفسهم؟

بشتى أنواع الظلم، وعدم الهجرة عند وجوبها ظلمٌ للنفس، وفشل في اختبار الحياة، إذ كان بإمكانهم أن يهاجروا لينعموا بالعيش وفق مراد ربهم في أرض العدل فأبوا إلا البقاء حيث لا يمكنهم فعل ذلك.

فتقول لهم الملائكة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؟ أي ماذا كنتم تعملون، لقد ارتكبتم أفعال الكفر والمعصية، لماذا فعلتم ذلك؟ فكلمة ﴿فِيمَ﴾ تشمل ماذا فعلتم ولماذا وأين وما السبب، فردوا وقالوا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾

وتعال بنا لنتأمل الحوار بين الملائكة وهؤلاء مجددًا لنحاول معرفة الظلم المقصود: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧).

فالظلم الذي اقترفوه في حق أنفسهم إما ظلم الكفر وإما ظلم المعصية الكبيرة، والوعيد صالح للأمرين، ولكنهم يتفاوتون في كميته وكيفيته، فإن الاصطلاح القرآني لكلمة الظلم يجعلنا أمام معانٍ متعددة:

فالظُّلْمُ في الاصطلاح القرآني قد يأتي بمعنى الكفر المخرج من الملة، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لُقْمَانَ: ١٣)، وقد يأتي بمعنى كفر النعمة ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤)؛ إذ يحتمل الأمرين هنا، وَقَدْ يأتي بمعنى المَعْصِيَة الصغيرة أو الكبيرة ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ (فَاطِرٍ: ٣٢)، ولذا قال الراغب: «الظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز»[1].

فظلمهم لأنفسهم إما وقوعهم في الكفر، وإما وقوعهم في كبائر الذنوب دون الكفر كتضييع أولادهم الذين انغمسوا في ثقافة ذلك المجتمع الظالم مع قدرة الآباء على الهجرة.

فسؤال الملائكة: فيم كنتم؟ يحتمل أن يكون معناه: لماذا لم تقيموا ما أمركم خالقكم بإقامته؟ لماذا لم تسلموا؟ ولماذا إذا كنتم مسلمين لم تطبقوا الدين؟ لماذا لم تصلوا ولم تصوموا ولم تتصدقوا ولم تتخلقوا بالخلق الحسن؟ ولماذا ارتكبتم المحرمات وفعلتم أفعال المفسدين؟

فيأتي جوابهم واعتذارهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عَدَّنا غيرنا ضعفاء وكنا كذلك، فأكرهونا على أعمال الكفر، ولكن الله يعلم أنه كان بإمكانهم التضحية بحلاوة البقاء في أوطانهم والهجرة في الأرض، فضحوا بدينهم مقابل التمتع بدنياهم، لذا ترد عليهم الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، ولكن هؤلاء الظالمين ادعوا

(١) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٣١٥).

أنهم كانوا مستضعفين في الأرض، والاستضعاف الذي ادعوه هنا غير الاستضعاف الذي ذكر سابقًا في هذه السورة في قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥)، وغير الاستضعاف المذكور الذي سيأتي في الآية اللاحقة في قوله تعالى شأنه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٨).

والمُسْتَضْعَفُ: من عدَّه غيره ضعيفًا فلا يبالي بما يصنع به قتلًا أو تعذيبًا، مع التضييق عليه حتى لا يتمكن من الهجرة إلى مكانٍ آخر، ولذا فقد يضطر المستضعف إلى موافقة المستكبرين فيما يريدونه منه، ولكن الاستضعاف هنا دعوى مجردة لشدة تعلقهم ببلاد الظلم، وحبهم لما نشأوا عليه أو اعتادوه، ففرطوا في الهجرة مع قدرتهم عليها، والنتيجة ضياعهم وربما ضياع أبنائهم، إضافة إلى ما يسببونه من إحراجٍ لقوى العدل التي يربكها التعامل مع قوى الظلم التي يعيشون تحت سلطتها وفي مناطق جغرافيتها، بسبب عدم تزيلهم.

فقولهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ترد عليهم الملائكة فيه بقوةٍ، فتقول لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧) وهذا يبين لنا أن التلاعب الظاهري لا يمكن أن ينجي أمام علام الغيوب. فانكشفت الأعذار المختلقة الكاذبة التي يتعللون بها.. نعم كانوا لا يستطيعون إقامة الدين، ولكن الأمر لم يكن مغلقًا عليهم، فكانوا يستطيعون الهجرة في الأرض ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وبهذا التصوير البديع المخيف للحوار بين الملائكة وبين الظالمين لأنفسهم ترى أن «القرآن يعالج نفوسًا بشرية، ويهدف الى استجاشة عناصر الخير والمروءة

والعزة فيها، وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقلة»[١].

القانون الثاني: تجب فيها الهجرة: الهجرة للفقه في الدين، إن كان لا يتيسر الحصول على الحد الأدنى من العلم الشرعي في مكانه. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

إذ يدخل ضمن سؤال الملائكة: فيم كنتم؟ ماذا صنعتم لأنفسكم وبأنفسكم لتتعلموا ما يريد الله منكم.. فقاموا يتعللون فقالوا: كنا مستضعفين في الأرض.. فلم تتيسر لنا سبل معرفة دين الله، ولكنهم يعلمون أنه كان بإمكانهم البحث عن العلم الصحيح، فترد عليهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

فهم يستطيعون إقامة دينهم في أرض الكفر لأنها أرض عدل من حيث الحقوق البينية مع البشر أو أقرب إلى العدل، ولكنهم لا يعرفون تفاصيل دينهم على الحقيقة، فاستمروا يعبدون الله على ضلالة، ولا يبذلون الجهد لمعرفته، فوجبت عليهم الهجرة لطلب العلم أو استنفار مجموعة ليحققوا لهم ذلك لكنهم أبوا، وقد قال الله موجبًا ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢)، كما قال ابن رسلان رحمه الله:

من لم يكن يعلم ذا فليسأل من لم يجد معلمًا فليرحل

وهذا الحكم ينتفي عندما يتمكن المرء من الحصول على العلم اللازم مطمئنًا إلى صحته وهو في مكانه عبر النت مثلًا.

القانون الثالث: الأصل في الانتماء أن يكون إلى أرض العدل والسعة، وليس إلى

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٤).

أرضٍ تحكمها الصلات النسبية، والقومية، والترابية. ويبصرنا بذلك قوله جلَّ مجده: ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ (النساء:٩٧).

فالأرض المشار إليها هنا هي الأرض المشار إليها في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (الرحمن: ١٠) إنها الأرض التي وضعها الله جل في علاه للأنام.. جعلها لكم حيث تتمكنون من أن تقوموا بتبعات الاستخلاف بأن تحوزوا خيراتها، وتتحركوا في جنباتها ونواحيها وفق الميزان الذي أمركم الله به.. وفق أمره الذي أنزله عليكم، فإن ضُيِّق عليكم لإقامة أمره في ناحية من هذه الأرض فقد جعلها لكم واسعة فامشوا في مناكبها، وهاجروا إلى نواحٍ أخرى منها عسى أن تجدوا المراغم الكثير والسعة.

فهؤلاء الذين أضاعوا دينهم أصرُّوا على الانتماء إلى الأرض التي عاشوا فيها على الرغم من أن أنظمتها لم تسمح لهم أن يعيشوا بمستوى من الكرامة الإنسانية والحرية الشخصية يُسمح لهم فيها بممارسة حياتهم الخاصة التي يطبقون بموجبها شعائر دينهم.. لماذا لم يهاجروا؟

إما لتقديسهم لتلك الأرض التي عاشوا فيها، وإما لمحبتهم لبعض المصالح التي يجدونها فيها، ويظهر من سياق الآية أن الهجرة كانت اختيارًا متاحًا لهم لكنهم أَبَوه، وآثروا البقاء المهين لدينهم على الهجرة، فاعتذروا عن ذلك بقولهم: ﴿مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (النساء: ٩٧)، فردت عليهم الملائكة بحزمٍ وعلمٍ بأنهم يغالطون: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧)، فلماذا لم تهاجروا إلى ناحية أخرى منها، وقد جعلها الله واسعةً، فتهاجروا فيها، وحينها تبنون لأنفسكم مجدًا لستم ببالغيه في المكان الذي تم التضييق عليكم فيه.. لكنكم أبيتم إلا تقديسًا للأرض، والأرض لا تقدس أحدًا..

لقد جذب هذا الفهم المستقيم الصحابة ﷺ فتركوا مكة والمدينة مع أنهم لم يجدوا فيها تضييقًا لكنهم شعروا أن الإنسانية بحاجةٍ إليهم في نواحٍ أخرى من الأرض الواسعة، فهاجروا فيها.. كما حداهم ذلك إلى الهجرة إلى الحبشة من مكة التي وجدوا فيها تضييقًا، ورد عن يحيى بن سعيد أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان الفارسي أن هلم إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدس أحدًا!! وإنما يقدس الإنسان عمله، وقد بلغني أنك جعلت طبيبًا تداوي، فإن كنت تبرئ فنعما لك، وإن كنت متطببًا فاحذر أن تقتل إنسانًا، فتدخل النار. فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه نظر إليهما وقال: ارجعا إلي أعيدا علي قصتكما متطبب والله [١].

ويبين عكرمة أن هذا الصنف من المستضعفين إنما يدعي الاستضعاف ادعاء، فيقول: نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبي العاص بن مُنبّه بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب وعِيرِ قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه، وأنْ يطلبوا ما نِيل منهم يوم نَخْلة، خرجوا معهم شباب كارهين، كانوا قد أسلموا واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفارًا، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهم [٢].

وما دامت المدافعة بين الحق والباطل، والعدل والظلم قائمة فإن الحاجة إلى الهجرة لا تنقطع، فقد قال عبد الله بن السعدي ﷺ: قال النبي ﷺ: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل»، فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو

(١) الموطأ – رواية يحيى الليثي (٢ / ٧٦٩).

(٢) الطبري (٩/ ١٠٥).

بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل»[١].

وأنت تلاحظ أن الملائكة لم تقيد مكان الهجرة بكثرة المسلمين بل قيدته بوجود السعة أي: في الدنيا والدين والأمن من الفتنة، وقد حكم الله على هؤلاء الذين ضيعوا دينهم وآثروا ملذات البقاء على الهجرة التي وجبت عليهم بقوله ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، واسم الإشارة الدال على البعد هنا ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ دال على البعد المعنوي والحقيقي ذمًا لا مدحًا أي: أولئك البعداء من اجتهادهم لأنفسهم ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾، «وَيَكُونُ خَبَرُ (إِنَّ) قَوْلَهُ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ عَلَى أَنْ يَكُونَ دُخُولُ الفَاءِ فِي الخَبَرِ لِكَوْنِ اسْمِ إِنَّ مَوْصُولًا فَإِنَّهُ يُعَامَلُ مُعَامَلَةَ أَسْمَاءِ الشُّرُوطِ كَثِيرًا، وَالإِتْيَانُ بِالفَاءِ هُنَا أَوْلَى لِطُولِ الفَصْلِ بَيْنَ اسْمِ (إِنَّ) وَخَبَرِهَا بِالمُقَاوَلَةِ، بِحَيْثُ صَارَ الخَبَرُ كَالنَّتِيجَةِ لِتِلْكَ المُقَاوَلَةِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا اسْمُ الإِشَارَةِ»[٢].

﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: فقبحًا لذلك المكان، فذلك في قبحه وسوئه أعظم من الأرض التي كانوا يريدون فيها نوعًا من النعمة والرغد، وأبوا أن يهاجروا فوقعوا في الكفر والظلم والفسوق والعصيان.

القانون الرابع: الهجرة واجبة عندما يصل ظلم المجتمع حولك إلى الحد الذي تضطر معه إلى أن تظلم نفسك. ويُبَصِّرُنا بذلك التعبير المدهش: ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ كيف تظلم نفسك؟

---

(١) أحمد (١ / ١٩٢)، وحسنه الأرناؤوط.

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٧٥).

يضيق عليك الخناق تمامًا فتظلم نفسك في المأكل وفي المشرب وفي المسكن.. ويضيق عليك الخناق فتظلم نفسك بالمعصية، والإثم، وربما بفعل الكبيرة، وربما بالشرك، وكل ذلك يسمى ظلمًا شرعًا:

فهذه الآية المجيدة ترسم لك خطواتٍ في التفكير الاستراتيجي تبنيها البصائر القرآنية، ومن أهمها:

أولًا: الهدف من الوجود الإنساني:

الإيمان بالله، فباسمه تبدأ الحياة، والحياة التي انبثقت من العدم لا بد أن تحمده، وتستعين بربوبيته وتربيته لعمارة العالمين وفق مراده فهو الله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، وهذه العمارة وفق مراد الله هي حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولا يمكن أن تتم إلا عبر إعانة الله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولأن طبيعة الإنسان النقص الدائم فقد احتاج إلى أن يهديه الله إلى القرارات الصائبة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذه القرارات الصائبة التي لجأ المرء فيها إلى الله عز ذكره واضحة معروفة حتى لا تربكك الفتن ولا تتلاعب بك نزوات شياطين الإنس والجن الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا.. إن هذا القرارات الصغيرة والكبيرة التي تسير على الصراط المستقيم يجب أن تكون وفق صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا وفق صراط المغضوب عليهم من القتلة والمجرمين والفجار، ولا وفق صراط الجهلة الضالين.

ثانيًا: هذا يقتضي وجود الأرض، والأصل أنها في أرض القوم الذين تمت النشأة فيهم، لكن إذا تم التضييق فيها لدرجة أن يظلم الإنسان نفسه، فيجب عند ذلك البحث عن ناحية أخرى من الأرض الواسعة.

ثالثًا: لا يشترط في الأرض الواسعة أن تكون مسلمة بل أن يجد المرء فيها قدرة على ألا يظلم نفسه، ثم يعمل على إصلاحها ما استطاع إما وفق الأنموذج الحبشي (نسبة إلى هجرة الصحابة إلى الحبشة)، وإما وفق الأنموذج اليوسفي (نسبة إلى يوسف عليه السلام)، وإما وفق الأنموذج المدني (نسبة إلى الهجرة النبوية) وما بعدها من مدن الشام والعراق وبقية البلدان.

القانون الخامس: لا تجب الهجرة على من لم يستطعها حقيقة لا ادعاء، وبصرنا الله بذلك في قوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء:٩٨، ٩٩).

فذكر الله صنفين: المستضعفين ادعاء، والمستضعفين حقيقة، ومن علامات المستضعفين ادعاء عدم إلقاء السلم ومساعدة المعتدين، ومن علامة المستضعفين إلقاء السلم على سبيل الحقيقة لا الادعاء، ومن علاماتهم عدم مساعدة المعتدين، فيجدون لأجل ذلك اضطهادًا هائلًا، فيدخل فيهم كل مستضعفٍ من الشيخ الكبير والعجوز والجواري الصغار والغلمان، والرجال الحيارى الذين لم يستطيعوا الهروب من بطش المجرمين، لكنهم لم يعينوهم في إجرامهم.

وقد جاء في سبب النزول ما يوضح الصنفين فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانُوا قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ فَخَرَجُوا مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي قِتَالٍ، فَقُتِلُوا مَعَهُمْ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ ﴾ (النساء: ٩٨-٩٩) فَعَذَرَ اللَّهُ أَهْلَ الْعُذْرِ مِنْهُمْ، وَأَهْلَكَ مَنْ لا عُذْرَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وكُنتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ (١).

ويبين أبو هريرةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعضًا من هؤلاء المستضعفين الذين كانوا تحت وطأة

(١) المعجم الكبير للطبراني (٩ / ٤٦٩).

الاضطهاد الوثني القرشي؛ إذ يحكي أن رَسُولَ اللهِ ﷺ كان حِينَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ يَقُولُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ يَدْعُو لِرِجَالٍ فَيُسَمِّيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ وَأَهْلُ المَشْرِقِ يَوْمَئِذٍ مِنْ مُضَرَ مُخَالِفُونَ لَه (١).

وبذا يتضح لنا أن المستضعف هو الذي منع من حريته في الحركة والسفر من بلده وربما في بلده، ولو مُنِحَ جزءًا من حريته في الهجرة لسافر أو خرج، وقد ذكر الله تعالى شأنه هؤلاء في آيةٍ سابقةٍ من سورة النساء عندما قال الله جل ذكره: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥) كأنهم يقولون: لو استطعنا أن نخرج لخرجنا.. لو مُنِحنا أدنى درجات الحرية لهاجرنا.. فقد وصل بهم الاستضعاف وشدة التعذيب والاضطهاد والحصار إلى عدم قدرتهم على الهجرة أو السفر.. وانظر الواقع المعاصر حيث يمنع المرء من السفر بمجرد حجب الأوراق أو إحاطة الحدود بالأسوار والأسلاك الشائكة والحراسات التي لا تملك أدنى معايير الإنسانية أمام المستضعفين والمضطهدين.

وتلاحظ في الآية تفصيلًا للمستضعفين، فقد ذكر الله أنواع المستضعفين؛ إذ يمكن أن يكونوا من الرجال والنساء والأطفال.. لا بد أن نفكر في ذلك، فكلمة مستضعفين تكفي.. فلماذا هذا التفصيل مع أن القرآن مبناه على الإيجاز، فما سبب هذا الإطناب؟

هنا فصل وأطنب جل جلاله من أجل ألا يقع الإنسان في حيرة، ويقول أنا لست مستضعفًا.. أنا رجل.. فكيف أكون مستضعفًا؟ فقد يصل القهر حدًا يعجز معه الرجال،

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٢٠٣) رقم ٨٠٤ .

ويعجز معه النساء والولدان.. وستقول: فضعف النساء والولدان ظاهر.. أقول لك: الآية تصور بعمقٍ شديدٍ المقدار المذهل من الاستضعاف الذي يتعرض له هؤلاء المظلومون.. إن الرجال كما وصفت لك لم ينفعهم ذكاؤهم ولا قدرتهم العلمية ولا العملية.. لكن الأعراف الجاهلية الأولى درجت على عدم التعرض للنساء والأطفال في الغالب، وأراد الله أن يبين أن الاضطهاد للمستضعفين ربما وصل في الجاهلية الأولى والأخرى حدًا لا يجد معه حتى النساء والولدان أدنى حقوقهم الإنسانية.. ويتعرضون لظلمٍ بشعٍ.. وانظر كيف تهدر أدنى الحقوق الإنسانية للأطفال والنساء من قبل الأنظمة المتوحشة في هذه الأيام، والله المستعان، حتى يصل الأمر أن تؤخذ الأم العجوز للضغط على ابنها اللاجئ في دولة أخرى، وتسام العجوز سوء العذاب.. وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

وقد شدد الله في ضرورة الهجرة في هذه الحال المؤلمة حيث ترى أن الله ذكر الولدان.. فلم ذكر الولدان مع أنهم غير مكلفين؟

وفي الجواب على ذلك يمكن أن نحتمل أنه ذكرهم إما لبيان العذر لآبائهم الذين قد يتمكنون من الهجرة لكنهم لم يستطيعوا بسبب أطفالهم، وإما لأن المراد التثريب على الولدان، أي: الفتيان الذين يستطيعون الهجرة فآثروا البقاء مع آبائهم، وفوتوا الفرصة حينما واتت، وهم -وإن لم يكلفوا- لكنهم في مرحلة عقلية تفهم التبعات الحاضرة والمستقبلة بناء على ذلك القرار.

وعد بنا إلى الوصف العجيب في الآية حيث يقول تعالى شأنه: قال تعالى ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾(النساء: ٩٨) هنا تجد الله وصف أمرين:

الأمر الأول: أنهم لا يستطيعون حيلة، **والأمر الثاني**: أنهم لا يهتدون سبيلًا،

وكلا الأمرين تفسيرٌ واضح للاستضعاف، وبيان لأهم متعلقات الاستضعاف، فتقدير الآية: إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة، فالعلامة الأولى من علامات الاستضعاف: أنهم لا يستطيعون حيلة، أي: أنهم لا يجدون وسيلة يتمكنون بها من الهجرة، إما لأنهم في السجن، وإما لأنهم لا يجدون الوثائق الخاصة من أجل الانتقال إلى المكان الذي قد يجدون فيه عيشًا أكرم، وإما لا يستطيعون أن يجدوا طريقة لأجل إقناع من يمكن أن يقتنع من هذه الجهات المسؤولة في البلد المهاجر منه أو في البلد المهاجر إليه، فلا يستطيعون حيلة، أي: إيجاد طريقة تخفف عنهم شيئًا من استضعافهم، كي يعبدوا ربهم كما أمرهم أن يعبدوه، والاحتيال يراد به البحث عن وسيلة لعلاج أزمة ناشبة، ولذا قالوا: الحاجة تفتق الحيلة، وهؤلاء غلقت عليهم أبواب الحيل لحل أزماتهم أو التخفيف منها، والله المستعان.

والعلامة الثانية من علامات الاستضعاف: أنهم لا يهتدون سبيلا، أي: لا يجدون طريقًا يهتدون إليه للهجرة ليتم تفريج كربهم، وقد يكون الفرق بين العلامتين أن الأولى تتعلق باحتيالهم لأنفسهم، والثانية تتعلق بهداية نازلة يتمكنون خلالها من إيجاد طريقة للهجرة من الأرض الظالم أهلها، فالنبي ﷺ عندما هاجر أخذ هاديًا خريتًا خبيرًا من المشركين من أجل أن يدله على الطريق، فهنا وجد الهادي للسبيل، فإذا لم يجد الإنسان الهادي للطريق وقد يعلم الإنسان أنه قد يموت في طريقه أو قد يهلك بما يكون حاله أسوا مما هو عليه قبل أن يهاجر، فمن هذه حاله يكون مستضعفًا، ويعذر بعدم الهجرة. وقد قال الله عن هؤلاء المستضعفين حقيقة لا إدعاء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ (النساء: ٩٩).

لماذا قال عسى؟ ولم يقل فأولئك عفا الله عنهم مع أنه وضح أنهم مستضعفون؟

السبب يذكره المفسرون رحمهم الله فيقولون: ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، أي: أن

الله سيعفو عنهم، وهكذا يقولون أن عسى من الله متحققة، فإن تأملت في هذا القول وجدته نوعـًا من سلبِ اللفظ لما يدل عليه، وعسى معلومٌ أن المقصود بها الترجي والإطماع، فتبقى على معناها لتدل على الإطماع في العفو، وليس على تحقق العفو.

ولكن السؤال باق: فما سبب الإطماع دون تحقيق العفو؟

الجواب: حتى لا يأتي أحدٌ فيقول: أنا مازلت مستضعفًا، فإذا علم أنه قد يستطيع حيلة ولكنه لم يبذل جميع جهده من أجل إيجاد حيلة أو سبيل للهجرة، ففي هذه الحالة ينبغي أن يحذر؛ إذ إن ربه تعالى ذكره قال: ﴿عَسَى﴾ ولم يقل: عفا الله عنهم، وذلك ليحثه حثًا عظيمًا على أن يبذل كل جهده من أجل البحث عن سبيلٍ للهجرة؛ فإذا كان الذي لا يستطيع حيلة عسى أن يُعفى عنه دون ذكرٍ لتحقق ذلك على سبيل الجزم، فكيف الذي يستطيع أن يهاجر ولا يجتهد في تحقيق ذلك.

والإنسان يأمل من كرم الله تعالى ما هو أوسع من كرم العباد، ولكنه ينبغي أيضًا أن يراقب نفسه هل: حقًا يستطيع الهجرة ولكنه حاول أن يتلاعب في هذا الموضوع.. إذن: فقد لا يدخل في ساحة العفو.

ولكن هذه الجملة تثير سؤالًا آخر: إذا كانوا عاجزين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، فلم قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾ ولم يقل فأولئك سيكتب الله أجرهم، بل ذكر العفو عنهم، والعفو إنما يتصور مع وجود ذنب؟ لحثهم على بذل كل جهد يمكنهم بذله ليهاجروا، ولاختلاف مقدار المشقة من شخص إلى آخر منهم، فذكر العفو تخويفًا لمن قدر منهم حينًا من الدهر على الهجرة ثم قصر، «وَلَا سِيَّمَا فِي الهِجْرَةِ عَنِ الوَطَنِ فَإِنَّهَا شَاقَّةٌ عَلَى النَّفْسِ، وَبِسَبَبِ شِدَّةِ النَّفْرَةِ قَدْ يَظُنُّ الإِنْسَانُ كَوْنَهُ عَاجِزًا مَعَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، فَلِهَذَا المَعْنَى كَانَتِ الحَاجَةُ إِلَى العَفْوِ شَدِيدَةً فِي هَذَا

المَقَامِ»[١]، وهو السبب ذاته الذي من أجله ذكرت كلمة ﴿عَسَى﴾ ولم يقل: فأولئك عفا الله عنهم، فأطمعهم بالعفو، ولم يجزم به لأن عسى تعني أَنَّ الله تعالى يُعِدُّهُمْ وَيُهَيِّؤُهُمْ لِعَفْوِهِ، فعفوه عزيز المنال، وليبين أن: «تَرْكَ الهِجْرَةِ أَمْرٌ مُضَيَّقٌ لَا تَوْسِعَةَ فِيهِ، حَتَّى أَنَّ المُضْطَرَّ البَيِّنَ الِاضْطِرَارِ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَقُولَ: عَسَى اللَّه أَنْ يَعْفُوَ عَنِّي، فَكَيْفَ الحَالُ فِي غَيْرِهِ»[٢] كما قال الرازي ﷺ، وذلك ليتم الاجتهاد في البحث عن طريق للهجرة ولو بِاسْتِعْمَالِ دَقَائِقِ الحِيَلِ، وَالبَحْثِ عَنْ مَضَايِقِ السُّبُلِ، حَتَّى لَا يُخْدَعَ مُحِبٌّ وَطَنِهِ بِنَفْسِهِ وَيَعُدُّ مَا لَيْسَ بِمَانِعٍ مَانِعًا[٣].

ويبين لنا عبد الرحمن بن زيد تفصيلًا يتعلق بهذين الصنفين من المستضعفين عندما سأله ابن وهب عن هذه الآيات فقال: لما بعث النبي ﷺ وظَهر، ونَبَعَ الإيمان، نَبَع النّفاق معه، فأتَى إلى رسول الله ﷺ رجال فقالوا: يا رسول الله، لولا أنّا نخاف هؤلاء القوم يُعَذبوننا، ويفعلون ويفعلون، لأسلمنا، ولكنّا نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فكانوا يقولون ذلك له. فلما كان يوم بدر، قام المشركون فقالوا: لا يتخلَّفُ عنا أحد إلا هَدَمنا داره واستبحنا ماله! فخرج أولئك الذين كانوا يقولون ذلك القول للنبيّ ﷺ معهم، فقتلت طائفة منهم وأُسرت طائفة. قال: فأما الذين قتلوا، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، وتتركوا هؤلاء الذين يستضعفونكم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾. قال: ثم عذَر الله أهلَ الصدق فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، يتوجَّهون له، لو خرجوا لهلكوا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، إقامَتهم بين ظَهْري المشركين. وقال الذين

(١) تفسير الرازي (١١/ ١٩٧).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ١٩٧).

(٣) وانظر: تفسير المنار (٥/ ٢٩٢).

أسروا: يا رسول الله، إنك تعلم أنا كنا نأتيك فنشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأن هؤلاء القوم خرجنا معهم خوفًا! فقال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾، كما حصل مع العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، صنيعكم الذي صنعتم بخروجكم مع المشركين على النبي ﷺ ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ خرجوا مع المشركين ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (سورة الأنفال: ٧٠، ٧١) [1].

القانون السادس: الهجرة الصادقة إلى دار العدل والسلم، تورث الكرامة، وتحقق التفوق للمهاجر إن اتبع السنن الكونية والشرعية، ولن يضيعه الله جل جلاله، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ (النساء:١٠٠).

فالهجرة في سبيل الله تحقق له: المراغم الكثير. أي: موضع للمراغمة يتوجع أعداؤه من وصوله إليه، ويرغم أنوفهم بسبب ما يحصل له من التمكين فيه، وتحقق له الهجرة السعة في الحركة والعيش، فلا ينبغي الغلو في التعلق بالأرض التي ولد فيها تعلق العابد بمعبوده، فوطنه حيث يجد كرامته.

هذه الآية تصلح العوج الكبير في أفهامنا وحياتنا، وكما ترى فإن فهمها يكمن في شعورنا بصلتها بالآيات السابقة، فالهجرة تدل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يتعلق بالأرض التي ولد فيها تعلق العابد بمعبوده، بل وطنه حيث وجد كرامته، فإن كانت هجرته فرارًا بكرامته لأجل أن يجد مكانًا يجد فيه حريته في أن يعبد الله فيه، فبشراه بما سيجد من المراغم الكثير والسعة في الدنيا والدين.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٠٨).

وكما ترى فإن الشرط أن تكون هجرته هذه في سبيل الله ناجيًا بنفسه طالبًا أرضًا يجد فيها راحته وكرامته، حيث يعبد الله حق عبادته، والهجرة التي تكون إلى اللَّه ورسوله كلُّ هجرة لغرضٍ دينيٍ كحفظٍ لدينه، أو حمايةٍ لحرماته، أو طلب علمٍ، أو حجٍّ، أو تكون فرارًا إلى بلدٍ يزداد فيه طاعةً أو قناعةً أو زهدًا في الدنيا، أو ابتغاء رزقٍ طيب.

ولشدة حب الناس لأوطانهم أراد الله أن يبين لهم أن الوطن الحقيقي هو الذي يجد الإنسان فيه كرامته وحريته في عبادته لربه، وهذا بخلاف الغلاة الذين يجعلون التراب مقدمًا على عبادة الله عزَّ وجلَّ.

قال أحمد محرم رحمه الله عن بلده:

فإن يسألوا ما حب مصر فإنه ... دمي وفؤادي والجوانح والصدر
أخاف وأرجو، وهي جهد مخافتي ... ومرمى رجائي، لا خفاء ولا نُكر
هي العيش والموت المبغّض والغنى ... لأبنائها والفقر والأمن والذعر
هي القدر الجاري هي السخط والرضى ... هي الدين والدنيا هي الناس والدهر
بذلك آمنا، فيا من يلومنا ... لنا في الهوى إيماننا ولك الكفر !!

وقال أحمد شوقي رحمه الله:

ويا وطني لقيتك بعد يأس ... كأني قد لقيتُ بك الشبابا
وكل مسافر سيئوب يومًا ... إذا رُزق السلامة والإيابا
ولو أني دُعيت لكنت ديني ... عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهي ... إذا فُهتُ الشهادة والمتابا !!

فإن هاجر في سبيل فسيجد أمرين فقدهما في بلده الأول هما: المراغم الكثير والسعة، فأما المراغم فهو المضطرب في البلاد والمذْهب، أي: يجد في الهجرة مهربًا يلجأ إليه، ومذهبًا يستقر فيه، وموضعًا للمراغمة يتوجع أعداؤه من وصوله

إليه، ويرغم أنوفهم بسبب ما يحصل له من التمكن فيه والرفق وحسن الحال فيه من راغم فلانٌ قومه مراغمًا ومُرَاغمة، ومنه قول النابغة الجعدي:

كَـطَـوْدٍ يُـلاذُ بِـأَرْكَـانِـهِ عَزِيزِ الـمُراغَمِ وَالـمَهْرَبِ [١]

فبداية المراغم أن يتحول من أرض إلى أرض كما ورد عن ابن عباس قال: المراغَم، التحوّل من الأرض إلى الأرض [٢]، ووصفه بالكثير أي: لا ينبغي له أن يضيق على نفسه فيحسب أنه لا يمكن أن يحقق مآربه إلا في بلده الأم، ولذا وصف المراغم بالكثير.. أي: سيجد بدائل كثيرة، فلا يظنن أن الدنيا ستزول إن هو خرج من بلده، وبعد ذلك سيجد من السعة في أرضه الجديدة في حركته ورزقه.. سيجد سعة في الدين والدنيا.. سيجد وضعًا حيويًا جديدًا عظيمًا يراغم به أعداءه وحاسديه، ولذا يُقَالُ: رَاغَمْتُ الرَّجُلَ إِذَا فَعَلْتَ مَا يَكْرَهُهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الرَّغَامِ -بفتح الراء- وَهُوَ التُّرَابُ، والرَّغْم والرِّغْم والرُّغْمُ والمَرْغَمَةُ المَذلّةُ والهَوانُ والكَرهُ، ورَغِم أنفُه لصقَ بالرَّغام، أي: بالتّرابِ وذلَّ ووَصَلَ إِلَيْهِ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الأَنْفَ عُضْوٌ فِي غَايَةِ العِزَّةِ وَالتُّرَابُ فِي غَايَةِ الذِّلَّةِ، فَجَعَلُوا قَوْلَهُمْ: رَغْمَ أَنْفِهِ كِنَايَةً عَنِ الذُّلِّ، أو هو من راغم غيره إذا غلبه وقهره بأن أبقاه على الرغام، فيَكُونَ المَعْنَى: وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ يَجِدْ فِي أَرْضِ ذَلِكَ البَلَدِ مِنَ الخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِيُرْغِمُ فِيهِ أنوف مَنْ أَرْغَمَهُ على الهجرة والخروج، فيَغْلِبهم بِاسْتِقْلَالِهِ عَنْهُمْ، واعتزازه كَمَا أَرْغَمُوهُ بِإِكْرَاهِهِ عَلَى الكُفْرِ.

قَالَ الحَارِثُ بْنُ وَعْلَةَ الذُّهْلِيُّ:

لَا تَـأْمَـنَـن قَـوْمًـا ظَلَمْتَهُمْ وَبَـدَأْتَهُمْ بِالشَّتْمِ وَالرَّغمِ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١١٢).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١١٩).

إِنْ يَـأْبِـرُوا نَـخْـلًا لِغَيْرِهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي

أَيْ أَنْ يَكُونُوا عَوْنًا لِلْعَدُوِّ عَلَى قَوْمِهِمْ.

كَأَنَّهُ قِيلَ: يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كُنْتَ إِنَّمَا تَكْرَهُ الهِجْرَةَ عَنْ وَطَنِكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَقَعَ فِي المَشَقَّةِ وَالمِحْنَةِ فِي السَّفَرِ، فَلَا تَخَفْ فَإِنَّ اللَّه تَعَالَى يُعْطِيكَ مِنَ النِّعَمِ الجَلِيلَةِ وَالمَرَاتِبِ العَظِيمَةِ فِي مُهَاجَرَتِكَ مَا يَصِيرُ سَبَبًا لِرَغْمِ أُنُوفِ أَعْدَائِكَ، وَيَكُونُ سَبَبًا لِسَعَةِ عَيْشِكَ [1]، وَإِنَّمَا قَدَّمَ فِي الآيَةِ ذِكْرَ رَغْمِ الأَعْدَاءِ عَلَى ذِكْرِ سَعَةِ العَيْشِ لأَنَّ لذة الروح وسعادة النفس باعتزازه أمام أعدائه أعظم في نفسه من كل سعة مادية، فإن أعداءه وحاسديه في بلده الأول قد ضيقوا عليه، وعرضوه للمهانة والعذاب، ومنعوه إقامة دينه، وإظهار الكرامة بحريته، فيصيب هذا المهاجر الحزين الخائف من العزة ما تبتهج به نفسه، وينسيه شِدَّة ظُلْمِهِمْ عَلَيْهِ، ومن ذلك اعتزاز المؤمنين وفرحهم بالنعيم الذي آلوا إليه في الآخرة مما صوره لنا قول الله تعالى جده: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: ٣٤) فالذين أجرموا كانوا يضحكون من المؤمنين في الدنيا.. ستسقط أنوفهم في الرغام يوم القيامة؛ إذ سيضحك المؤمنون منهم.

القانون السابع: المهاجر في سبيل الله لا يخلو من أحد مستقبلين:

المستقبل الأول: أن يبقى على قيد الحياة، فيجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة، وذكر الله ذلك في قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠) أي: ومن تمَّت هجرته.

المستقبل الثاني: أن يموت في الطريق، فلا تتم هجرته، وعندها فليطمئن إذ ستقر عينه بالأجر الأخروي إن فات المطلب الدنيوي، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى

(١) تفسير الرازي (١١/ ١٩٨)، والتحرير والتنوير (٥/ ١٨٠).

﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (النساء: ١٠٠).

ذكر الله خروج المرء ﴿مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾.. لماذا الإطناب وذكر البيت هنا؟ إنه يريدك أن تشعر بآلامه وهو يترك بيته.. ذكر البيت هنا مقصودٌ، لأن الإنسان يتقطع قلبه عندما يترك مِلكًا بذل كل ماله لشرائه أو تشييده، أو ربما ألفه وسكنت نفسه إليه، وتقلب بين ربواته، وفلواته، ولغباره أحب إليه من خضر البساتين، ونور الرياحين.. فيتركه، وهو يعلم بأنه إذا هاجر أو وصل إلى مكان هجرته فإن أعداءه قد يصادرون داره أو يهدمونها.. حاله كما قال المتنبي غفر الله له:

أَقِـلَّ اشتيـاقـًا أيّـهَـا القَـلْـبُ رُبّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفي الـوُدّ من ليسَ صافيَا
خُلِقْتُ أَلُوفـًا لَوْ رَجعتُ إلى الصّبَى لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا

لقد تحمل هذا المهاجر تلك الآلام، فخرج وربما مات بعد ميل أو ميلين من خروجه.. فيبشره ربه فيقول: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٠٠) . ولم يقل عسى أن يقع أجره على الله، بل أوجب له الأجر.

وقيد الله الهجرة هنا بأنها في سبيل الله لتجديد النية، ولتحديد الهدف من الهجرة، فهي ليست مجرد سياحة ولا تغيير جو، بل إن المهاجر يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله، وذكر الله هنا اسم الرسول ﷺ لأنه ﷺ شكل عاصمة للعدل في المدينة النبوية، فذكر اسم الرسول ﷺ زيادة في الإثارة للهجرة، فكأنه يقول إذا كان الرسول ﷺ قد ترك بلده فلماذا لا تفعل أنت؟ فهذا نوعٌ من الحث والتحضيض، وكذلك فإن خروج المرء من بلد الظلم إلى بلد أقرب إلى العدل كأنه خروج إلى النبي ﷺ، ولذا قال ﷺ: «العِبَادَةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ» (١).

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ أي: كان شأنه الثابت الأزلي المغفرة

(١) صحيح مسلم (٨ / ٢٠٨) برقم ٧٥٨٨.

لهؤلاء المهاجرين مما وقع من تأخرهم في هجرتهم، أو تقصيرٍ عرض فيها أو قبلها، وكان شأنه الثابت الأزلي ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم بأن يغدق عليهم الخيرات كما كفر عنهم السيئات، ويوضح النبي ﷺ عظم أجر من عزم على طاعة فمات في طريقه إليها فيقول: «من خرج حاجًا فمات كتب الله له أجر الحاج إلى يوم القيامة ومن خرج معتمرًا فمات كتب الله له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ومن خرج غازيًا في سبيل الله فمات كتب الله له أجر الغازي إلى يوم القيامة»[١].

ويذكر لنا قتادة بن دعامة بعض من عمل بهذه الآية زمن النبي ﷺ فقال: لما أنزل الله هؤلاء الآيات، ورجل من المؤمنين يقال له: «ضمرة» بمكة، قال: (والله إنّ لي من المال ما يُبَلِّغني المدينة وأبعدَ منها، وإنِّي لأهتدي! أخرجوني)، وهو مريض حينئذ، فلما جاوز الحرَم قبضَه الله فمات، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢]، الآية.

ومن القصص التي ذكر أنها وقعت مما يتعلق بهذه الآية ما رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير قال: بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ، فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه، وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأت من يبلغه عني، ويبلغني عنه، فانتدب رجلان، فأتيا النبي ﷺ فقالوا: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت؟ وما جئت به؟ قال النبي ﷺ: «أما من أنا، فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله»، قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، قالوا: اردد

(١) مسند أبي يعلى محقق (١١ / ٢٣٨).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١١٥).

علينا هذا القول، فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم، فقال: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب، واسطًا في مضر، وقد رمى إلينا بكلمات قد حفظناهن، فلما سمعهن أكثم قال: أي قوم، أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مكارهها، فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا فيه أذنابًا، وكونوا فيه أولًا، ولا تكونوا فيه آخرًا، فلم يلبث أن حضرته الوفاة [١].

والآية تدل على تثبيت المصالح الأخروية وضرورة استحضارها عند حساب المصالح والمفاسد.

وهذه الجملة ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾ تلفت نظرنا إلى مسألة فقهية تتعلق بالنقطة التي يصبح فيها المسافر مسافرًا.. هل ذلك بمغادرة البنيان أم بمجرد الخروج من البيت، ولعلك تجد في الآية إشعارًا بأن الإنسان بمجرد مغادرته لبيته يكون مسافرا إذا نوى السفر، ولو لم يغادر البنيان، وهذا الرأي يمكن أن يقال به، وينصر في الظروف الحالية لأن الأمر اختلف في موضوع مغادرة البنيان عما كان عليه سابقًا، فالبنيان كان محدودًا ومحصورًا، أما البنيان الآن فقد اتسع تمامًا؛ إذ قد يكون بين بيت المسافر وبين انتهاء البنيان مائة ميل.



(١) معرفة الصحابة (٣/ ٢٨٥).

القسم التاسع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الصلاة من أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني، والعبودية الصادقة، والجمع بينها وبين سياسة أخذ الحذر (النساء:١٠١-١٠٤)

آيات هذا القسم:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٠١-١٠٤).

المناسبة الاتصال:

بعد أن بين الله في القسم الثامن أن من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرضٍ تحفظ فيها الكرامة

الإنسانية وفق النظام الإلهي ربما اعترى بعضهم سؤال حول سقوط الصلاة عنهم، وهم في حالة الهجرة التي تتضمن الخوف والكرب الشديد، ومثل ذلك الكلام عن حالة المواجهة العسكرية مع العدو المتربص، فهل تسقط الصلاة أم تثبت بكامل صفتها في ظل هذه الحالات الطارئة؟ جاء هذا القسم تبيانًا لواجب المحافظة على الصلاة مهما كانت تغيرات الحياة، فالصلاة لا تسقط مهما كانت الحالات الطارئة كما في حالة استراتيجية أخذ الحذر، وحالة الهجرة، ولكنها تخفف لتتناسب إقامتها مع الحالة العارضة التي يمر بها الإنسان.. الصلاة روح الإنسان.. ويجد المصلون المقبلون على ربهم اللذة الفائقة في مناجاتهم الخاشعة، والله تعالى ذكره يعلمنا هنا الجمع بين الحالات الحيوية الطارئة وبين الصلاة، فلا يُلْغي أحدهما الآخر.

فانظر لجمال التكامل والتناسق بين الأحكام الشرعية، وانظر لروعة التنظيم في قوانين الشريعة، فتبصرنا هذه الآيات بمجموعة ذات بريقٍ خاصٍ من البصائر القانونية، فلنتفيأ ظلالها، ولندخل محرابها:

القانون الأول: يجب القيام بالواجبات الأمنية، والعسكرية، ليتم التعامل المناسب مع الوحوش البشرية التي تحاول الاعتداء على الآمنين في صلاتهم، فيتحقق الأمن، ويُزال الخوف من الفتنة التي يسببها العدو المبين.

ولذا يجوز قصر الصلاة بشرطين: الشرط الأول: أن يكون ذلك حال الضرب في الأرض، أي: في السفر، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾(النساء:١٠١).

فالضَّرْبُ فِي الأَرْضِ عِبَارَةٌ عَنِ السَّفَرِ فِيهَا؛ لأن السفر يستلزم الحركة المتتابعة بالقدمين وما يعتمد عليه لقطع المسافة، فيضرب الأرض برجليه أو بِقَوَائِمِ رَاحِلَتِهِ، وعجلات مواصلاته، وأدوات رحلته، والضرب في الأرض هنا يدل على السفر

حسب العرف المصاحب لنزول الآيات، كَمَا يُقَالُ: طَرَقَ الأَرْضَ إِذَا مَرَّ بِهَا، كَأَنَّهُ ضَرَبَهَا بِالمِطْرَقَةِ، وَقَالَ هَاهُنَا: ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ، وَلَمْ يَقُلْ ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ (٩٤) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الوَارِدَةِ فِي حُكْمِ إِلْقَاءِ السلم فِي الحَرْبِ؛ ليشمل جميع حالات الضرب في الأرض، لِأَنَّ هَذِهِ أَعَمُّ، فَهِيَ رُخْصَةٌ لِكُلِّ مُسَافِرٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ سَفَرُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَنْ كَانَ لِلتِّجَارَةِ أَوْ لِمُجَرَّدِ السِّيَاحَةِ [١]

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، مِنْ الجِنْحِ بِالكَسْرِ بِمَعْنَى: الجَانِبِ، واشتقاقه – فيما ذكروا – من جَنَحَتِ السَّفِينَةُ إِذَا مَالَتْ إِلَى أَحَدِ جَانِبَيْهَا أو بلغت أَرْضًا رَقِيقَةً تَغْرِزُ فِيهَا وَيُمْتَنَعُ جَرْيُهَا، وَهَذَا المَعْنَى يُنَاسِبُ الجُنَاحَ أَيْضًا وَمَنْ فَسَّرَ الجُنَاحَ بِالتَّضْيِيقِ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِمْ جُنِحَ البَعِيرُ بِصِيغَةِ المَجْهُولِ إِذَا انْكَسَرَتْ جَوَانِحُهُ – أَضْلَاعُهُ – لَثِقَلِ حِمْلِهِ، وَتَفْسِيرُهُ بِالإِثْمِ مَأْخُوذٌ مِنْ هَذَا أَيْضًا وَهُوَ مَجَازٌ، فالمراد ليس عليكم إثمٌ في ميلٍ عن الصراط المستقيم أن تقصروا من الصلاة.

وأما قوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا﴾ فهو من القَصْر – بِالفَتْحِ – واشتقاقه مِنَ القِصَرِ – كَعِنَبٍ – ضِدُّ الطُّولِ، وَقَصَّرْتُ الشَّيْءَ جَعَلْتُهُ قَصِيرًا.

فَالقَصْرُ مِنَ الصَّلَاةِ هُوَ تَرْكُ شَيْءٍ مِنْهَا تَكُونُ بِهِ قَصِيرَةً، وَيَصْدُقُ ذلك بِتَرْكِ بَعْضِ رَكَعَاتِهَا، وَبِتَرْكِ بَعْضِ أَرْكَانِهَا كَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالجُلُوسِ لِلتَّشَهُّدِ، فهو قصر للكيفية وقصر للأركان.

ونفي الجناح يدل على أنه يجوز لهم أن يقصروا إن أرادوا، وأن يتموا إن أرادوا حسب البيان النبوي، وحسب عمل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقد قال بعض العلماء بوجوب قصر الصلاة، ولكن هذا الفهم لا تساعد عليه الآية، وإنما أخذوا ذلك من أدلة أخرى، ولكنهم يقولون: الآية لا تساعد على قولنا، ولكننا قد وجدنا

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٩٧).

شيئًا يدل على الإيجاب ويستخدم فيه التعبير بنفي الجناح.. أين هذا؟

إنه في قوله -تعالى مجدُه-: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨) مع أن الطواف بين الصفا والمروة من الأركان.. إلا أنك ترى أن التعبير بنفي الجناح واضح في عدم مساعدته على تقرير الوجوب، بل يفهم ذلك من أدلة خارجية.

وقصر الصلاة لأجل الضرب في الأرض يُظهِرُ لك مراعاةَ الشريعة للمصالح البشرية.. فإذا طرأت المشقة على الحياة البشرية المعتادة تجد تعديلًا للنظام العبادي المعتاد لأجل تحقيق المصلحة البشرية، ولكن ليس ذلك وفق الأهواء والرغبات بل تجد في الشريعة الإجابات.. فالتعديل وفق ما أراده الله منها؛ إذ لا تستطيع البشرية أن تحيط علمًا بما تحتاجه، كما قال عزَّ جارُه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

ولكن الله برحمته يساوي في الأجر بين قصر الصلاة وإتمامها حال العذر، فإذا قصر من الصلاة لأجل الضرب في الأرض وكان هذا العذر واضحًا، فإن الله يكتب له الصلاة كاملة.. تخيل هذه الرحمة الغامرة فهو سبحانه قد فرض عليه نظامًا ينظم حياته، ثم عدل في هذا النظام بما يتوافق مع حالاته المختلفة إذا سافر أو مرض، وأجره في ذلك لا ينقص، أعطاه في ذلك الأدوات من أجل أن يقوم بتطبيق هذا النظام، إذ السفر يسبب انشغالًا جسديًا، ونفسيًا، ويشغل المرء مؤقتًا، وكان من المزايا التشريعية العظيمة أن يخفف الله بسببه عن المسافر التكاليف الذاتية التي تقيم حياته، ويبارك له في النزر اليسير الذي يقدمه منها في السفر فكأنه أداها كاملة، ولذا قال النبي ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»[1].

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٧٠) رقم ٢٩٩٦.

القانون الثاني: الشرط الثاني لقصر الصلاة: وأن يكون هناك خوف من فتنة عدو متربص. ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى ذكره: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

فارتبط القصر بسياسة أخذ الحذر؛ لأن مقتضيات هذه السياسة تلزم الأمة بأن تجعل عيونها الساهرة حافظة لأمنها لا غافلة، حارسة لمجدها لا نائمة، ولذا خفف الله عن الأمة من التكاليف الذاتية، والمراد بفتنة الذين كفروا أن يهاجموهم فجأة وقت انشغالهم بالصلاة سواء أكانوا قيامًا أم ركوعًا أم سجودًا فإن الأصل في المسلم أن يقبل على صلاته إقبال الظامئ المحب، فيخشع فيها، ويحاول مد الصلة الروحية من خلالها، ويشعر بطيران قلبه وهو يرتشف رحيقها.. ولكن ذلك قد يسكره عن رؤية العدو الفاتن المجرم.

وكلمة ﴿خِفْتُمْ﴾ تدل على المعنيين اللذين قررناهما في قوله جل جلاله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ (النساء: ٣٥)؛ إذ ورد هذا الاستعمال ضمن المبتكرات القرآنية، فيكون المعنى: إن ظننتم أي توقعتم أن يفتنكم الذين كفروا، أو إن علمتم، يدل على جواز القصر بمجرد الظن لا أن ينتظر إلى أن تقع الفتنة، ومن باب أولى أن يقصر عند وقوع الفتنة، وبذا نحمل ما ورد من قراءة تفسيرية لأبي بن كعب في هذه الآية، فعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه، عن أبيّ بن كعب، أنه كان يقرأ: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولا يقرأ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ (١).

ويراد بفتنة الذين كفروا أن يوقعوكم في الفتنة التي تعني الامتحان المؤلم إما هجومًا مباشرًا أو اكتساحًا جزئيًا أو كليًا، والهجوم ليس المقصود به الهجوم من خلال المعركة، بل قد يقع هذا الهجوم أثناء الحراسة الأمنية في مواقع التماس، وقد يكون في المواقع الخلفية، وقد يتعلق بنظم المعلومات مثلًا، وقد يكون الهجوم على

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٧).

مراكز الثغور المخابراتية، وليس الهجوم فقط من خلال المعركة الخارجية، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إن خفتم أن يحدثوا لكم الفتنة، والفتنة قد تكون فتنة إعلامية وبلبلة، وقد تكون الفتنة أن يتخذوا عملاء من أجل إحداث الاضطراب والقلاقل، والزلازل الاجتماعية.

وقوله ﴿خِفْتُمْ﴾ لا يتعلق بفتنة الذين كفروا لنا في الأمور الأمنية والعسكرية بل يتعلق بفتنتهم لنا عن إقام الصلاة، فالفتنة ما يحدث بلبلةً وزعزعة سواء أكانت في الداخل أم في الثغور، سواء أكانت للجيش المباشر أم للأمة..

وهذا لا يعني أنه يجوز للمرء أن يقصر بمجرد الخوف، بل الآية تشير إلى أنه ينبغي ألا تكون الصلاة عائقًا له عن القيام بمسؤولياته الأمنية في حراسة الثغور والمقدرات التي تقوم عليها الأمة، وفي الوقت ذاته فلا ينبغي أن تكون مسؤولياته الأمنية عائقة عن القيام بالصلاة التي تعني الصلة بكل الكون الفسيح بل ينبغي أن يجمع بين الأمرين.

وبناء على المعنيين اللذين ذكرناهما لكلمة الخوف نلمح اختلاف درجاته: فمنه اليسير ومنه الشديد، وبينهما درجات، وقد يكون مقدار الخوف محدودًا، وقد يشتد فيكون الخوف عظيمًا، فيلتزم الجنود بالتعليمات الأمنية التي تصدر لهم من قياداتهم الموثوق بها، وهنا تختلف كيفيات القصر، فانظر لهذه المراعاة الحثيثة للمصالح البشرية.

فاليسير منه يقصر المرء فيه الصلاة كما بينته هذه الآيات من سورة النساء، والشديد منه يترك فيه إتمام ركوعها وسجودها، ويؤديها كيف أمكن أداؤها، مستقبلَ القبلة فيها ومستدبرَها، وراكبًا وماشيًا، وذلك في حال السَّلَّة والمسايفة والتحام الحرب وتزاحف الصفوف، وهي الحالة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ

﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (البقرة: ٢٣٩)، فيصلي المكتوبة راكبًا، إيماءً بالركوع والسجود، فآية سُورَةِ البَقَرَةِ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (البقرة: ٢٣٩)، ذكرت كيفية الصلاة في شدة الخوف باكتفاء الرِّجَال المُشَاة وَالرُّكْبَان بِالإِيمَاءِ عَنِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وهذه الآيات ذكرت الصلاة فيما دون ذلك من درجات الخوف بالقَصْرِ مِنْ عَدَدِ رَكَعَاتٍ بِأَنْ تُصَلِّي طَائِفَةٌ مَعَ الإِمَامِ رَكْعَةً وَاحِدَةً، فَإِذَا أَتَمَّتْهَا جَاءَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى - وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تَحْرُسُ الأُولَى، فَصَلَّتْ مَعَهُ الرَّكْعَةَ الثَّانِيَةَ.

وهذا الموضع من أبرز الأمثلة على شمول النظم القرآني لمعانٍ متعددة ربما اختلف العلماء في دخولها، والآية واضحة الاحتمال لها.

ومما جاء مما يتعلق بذلك ما رواه جابر بن عبد الله ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع فأصيبت امرأة من المشركين فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلًا وجاء زوجها وكان غائبًا فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ منزلًا فقال من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا نحن يا رسول الله قال فكونوا بفم الشعب قال وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري أي: الليل أحب إليك أن أكفيكه أوله أو آخره قال أكفني أوله فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي وأتى الرجل فلما رأي شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه فوضعه وثبت قائمًا ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه فنزعه فوضعه وثبت قائما ثم عاد له بثالث فوضعه فيه فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد -وَلَـمْ يَقْطَع صَلَاته لتحامله وشعوره بضرورة الوصول إلى الكمال في مجاهدة مشاق النفوس، ولِاشْتِغَالِهِ بِحَلَاوَتِهَا عَنْ مَرَارَة أَلَم الجُرْح- ثم أهب صاحبه فقال اجلس فقد أوتيت فوثب فلما رآهما الرجل عرف أن قد نَذِروا به فهرب فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال سبحان

الله ألا أهبتني قال كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها فلما تابع الرمي ركعت فأريتك وأيم الله لولا أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها[١].

القانون الثالث: إذا اجتمع الخوف والسفر يجوز قَصْر أَرْكَانِ الصَّلَاةِ وَعَدَدِهَا، وَإذا كان السفر فقط، جاز قَصْرُ العَدَدِ وَحْدَهُ.

هذا القانون يجيب على السؤال الذي يترتب على القانونين السابقين، وهو: إذا لم يتحقق الشرطان معًا، وتحقق أحدهما فقط، فهل يجوز القصر؟

أي: إذا لم يتحقق الضرب في الأرض، ووجد الخوف، أو وجد الخوف ولم يتحقق الضرب في الأرض، فهل يجوز بموجب أحد الشرطين القصر للصلاة؟

يجيب ابن القيم على ذلك، فيبين أنه إذا اجتمع الشرطان، كَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الخَوْفِ أَنْ أَبَاحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَصْرَ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ وَعَدَدِهَا إِذَا اجْتَمَعَ الخَوْفُ وَالسَّفَرُ، ويجوز قَصْرُ العَدَدِ وَحْدَهُ إِذَا كَانَ سَفَرٌ لَا خَوْفَ مَعَهُ[٢]، ولذا مال ابن عباس ومجموعة من أهل العلم إلى أن السنن الرواتب لا تسقط، فكَلِمَةُ ﴿إِنْ﴾ وَكَلِمَةَ (إِذَا) يُفِيدَانِ حُصُول المشروط عندما يحصل الشرط، وَلَا يُفِيدَانِ عدم المشروط عند عدم الشرط، أي: عند عدم أحدهما...وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ يَقْتَضِي حصول الرخصة عِنْدَ حصول الخوف، ولا يقتضي عدم حصولها عِنْدَ عَدَمِ الخَوْفِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَتِ الآيَةُ سَاكِتَةً عَنْ حَالِ الأَمْنِ بِالنَّفْيِ وَبِالإِثْبَاتِ [٣]، وقد أثبت النبي ﷺ القصر في السفر بقوله وفعله.

(١) أحمد(٣/ ٣٤٣)، برقم ١٤٧٤٥، وأبو داود١/ ٧٧ برقم١٩٨، وحسنه الألباني والأرناؤوط.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٥١٠).

(٣) تفسير الرازي (١١/ ٢٠٣).

وأتت الآثار المتواترة على إثبات هذا المعنى، فثبت القصر فيه بالسنة، فعَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ (النساء: ١٠١) فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ. فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ. فَقَالَ: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ» [١]، وعن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصْرَ صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر؟ فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملًا عملنا به [٢]، ويبين ابن عباس أن التفصيل النبوي عمدة حجة فيقول: سرنا مع النبي ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف شيئًا فصلى ركعتين [٣]، وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الحَضَرِ[٤]، وسأل الأوزاعي الزهري عن صلاة رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة إلى المدينة قال أخبرني عروة عن عائشة قالت: فرض الله عزَّ وجلَّ الصلاة على رسوله ﷺ أول ما فرضها ركعتين ركعتين ثم أتمت في الحضر أربعًا وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى [٥]، وقال عمر: صلاة الجمعة ركعتان وصلاة الفطر ركعتان وصلاة الأضحى ركعتان وصلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ [٦].

واختلف أهل العلم في معنى «تمام غير قصر»، فبعضهم قال: معنى تمام بمعنى أنه يعطى أجر التمام، أي: تامة الأجر، وإن كان ظاهرها أنها مقصورة من حيث العدد،

(١) صحيح مسلم (٢ / ١٤٣) ٦٨٦ .

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٩).

(٣) أحمد(١ / ٣٥٤)، وقال الأرناؤوط: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٤) صحيح مسلم (٢ / ١٤٢) رقم ٦٨٥ .

(٥) سنن النسائي (١ / ٢٢٥)، وصححه الألباني.

(٦) سنن النسائي (٣ / ١١١)، وصححه الألباني.

وبعضهم قال: تمام أن هذه هيئتها في السفر وهذه هيئتها في الحضر، فهي تامة في السفر لأن تلك الهيئة هي الهيئة المطلوبة فيها لا أنها ناقصة عندما تؤدى .

ونلاحظ أن النظم الشرعية المتعلقة بالأمور الدنيوية المحضة معللة، وهي ترجع إلى تحقيق المصالح البشرية الشاملة للدنيا والآخرة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ (النساء: ١٠١).

فربط القصر في الصلاة بالضرب في الأرض وبسياسة (أخذ الحذر) من العدو الذي سبب ضيق الأرض على سعتها، وصادر حق العيش في أمنٍ، فجعل للصلاة ثلاثة أحوال تتناسب مع الواقع البشري والمصلحة الإنسانية، ويلخصها ابن عباس فيقول: «فَرَضَ اللَّهُ الصَّلاَةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِى الحَضَرِ أَرْبَعًا (فهذه الحالة الأولى) وَفِى السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ (فهذه الحالة الثانية) وَفِى الخَوْفِ رَكْعَةً (فهذه الحالة الثالثة) »[١].

فصارت الصلاة مقصورة بالنسبة لها في الحضر، إلا أنها تامة في ذاتها أجرًا وحقيقة، وإذا كان الله قد أباح قصرها أركانًا وهيئة في الخوف والسفر، فإنه قد أباح قصرها في السفر ولو لم يكن خوف ليجمع المسافر بين المصلحتين الدينية والدنيوية في تحركاته.

ولذا ذهب ابن عباس إلى إثبات التنفل الراتب فيها في السفر أيضًا، فقال: فرض رسول الله ﷺ صلاة الحضر والسفر فكما تصلي في الحضر قبلها وبعدها فصل في السفر قبلها وبعدها قال وكيع مرة: وصلها في السفر [٢]، وبذا كان النبي ﷺ يقصر ما دام مسافرًا، فعن أنس رضي الله عنه: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ يُصَلِّي

(١) صحيح مسلم (٢ / ١٤٣) رقم ٦٨٧ .

(٢) أحمد(١ / ٢٣٢)، وحسن الأرناؤوط إسناده.

رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ قُلْتُ أَقَمْتُمْ بِمَكَّةَ شَيْئًا قَالَ أَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا[١]، وعن جابر بن عبد الله قال: أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة[٢].

واستشهد أبو العالية بجواز القصر في السفر فقط بالقرآن والتفصيل النبوي، فعن قتادة، عن أبي العالية قال: سافرت إلى مكة، فكنت أصلّي ركعتين، فلقيني قُرَّاء من أهل هذه الناحية، فقالوا: كيف تصلي؟ قلت ركعتين. قالوا: أسنة أو قرآن؟ قلت: كلٌّ، سنة وقرآن، (فقد) صلَّى رسول الله ﷺ ركعتين. قالوا: إنه كان في حرب! قلت: قال الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (سورة الفتح: ٢٧)، وقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾[٣].

ولعل محل الشاهد أن قوله ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ يدل على أمرين معًا: جواز القصر عند الاطمئنان مع وجود السفر، ووجوب الإتمام عند الاطمئنان مع الإقامة، ويدل على ذلك التفصيل النبوي.

والسياق القرآني يظهر لنا معانيَ ثريةً عند النظر إلى نظم هذه الآية وما بعدها؛ إذ يحتمل أن يكون التقييد بخوف الفتنة من الكافرين متصلًا بالآية التالية، وقد روى الطبري ما يدل على ذلك، فأسند عن علي قال: سأل قومٌ من التجار رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ثم انقطع الوحي. فلما كان بعد ذلك بِحَوْلٍ، غزا النبي ﷺ فصلى الظُّهر، فقال المشركون: لقد أمْكَنكم محمد وأصحابه

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ٥٣) رقم ١٠٨١ .

(٢) أحمد(٣ / ٢٩٥) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٥).

من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إنّ لهم أخرى مثلها في إثرها! فأنزل الله تبارك وتعالى بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، فنزلت صلاة الخوف [١].

ثم عقّب الطبري على ذلك فقال: «وهذا تأويل للآية حسن، لو لم يكن في الكلام «إذا»، و«إذا» تؤذن بانقطاع ما بعدها عن معنى ما قبلها. ولو لم يكن في الكلام «إذا»، كان معنى الكلام: إن خفتم، أيها المؤمنون، أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم، وكنت فيهم، يا محمد، فأقمت لهم الصلاة، «فلتقم طائفة منهم معك» الآية [٢].

ولكن الأمر يظل محتملًا.

وهذا التنوع يفرض سؤالًا: هل يكون القصر في السفر رخصة أم عزيمة؟ مسألة محل نظر، وقد ذهب أبو حنيفة وغيره رحمهم اللَّه إلى أن القصر في السفر عزيمةٌ غير رخصة لا يجوز غيره مستدلين بتلك الآثار، وهي محتملة، ويدل على أنها محتملة أن بعض من رواها أتم في السفر وقد ورد عن بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يتمون في السفر، فعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أيُّ أصحاب رسول الله ﷺ كان يتم الصلاة في السفر؟ قال: عائشة وسعد بن أبي وقاص [٣]، وثبت الإتمام عن عثمان رضي الله عنه، ونعم الفقيه كان.

القانون الرابع: الأصل في العدو الذي يسبب القلق والفتنة والخوف، ألا يكون مسلمًا، فالمؤمن من أمنه الناس.

وهذا سبب جعل الفتنة هنا مختصة بالكافر الذي يغطي الحقائق في قوله: ﴿إِنْ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٦).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٦).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٦).

خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٠١)، إلا أن العلة ليست الكفر بل العلة خوف المرء من أن يفتنه الذين كفروا، وقد يوجد هذا الخوف ممن ينتسب إلى الإسلام.

لأن المعتدي الذي ينتسب إلى الإسلام يعمل عمل الكافر فيغطي الحقائق، فالعلة هي الخوف، وتقييد الخوف بأن يكون الخوف من الكفار لا مفهوم له، بل هو تقييدٌ واقعي؛ لأنه لم يوجد في عهد النبي ﷺ من يخيف المسلمين ممن ينتسب إلى الإسلام كما حدث في آخر زمن عثمان رضي الله عنه إلى يومنا هذا؛ فإن الله جعل من أعظم المبادئ البدهية، ألا يؤذي المؤمن مخلوقًا حتى لو كان نملة فكيف يتصور إنسان أن يؤذي من ينتسب إلى الإسلام مؤمنًا فضلًا عن أن يفتنه، ولكن الخوف قد يكون من حيوانٍ أو كارثة طبيعية، وقد يكون من قومٍ ينتسبون إلى الإسلام، فما أكثر ذلك اليوم، والله المستعان.

انظر كيف يؤكد الله عداوة الراسخين في الكفر للمؤمنين، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾.. هذا ربنا جل جلاله ينير بصيرتنا بضرورة عدم الشك في هذه العداوة، فالمعنى كما يقول الطبري: «قد أبانوا لكم عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله وبرسوله، وترككم عبادة ما يعبدون من الأوثان والأصنام، ومخالفتكم ما هم عليه من الضلالة» [1]، فانظر المؤكدات الضخمة التي تبين هذه العداوة في الآية:

فالمؤكد الأول: أن الله أظهر في موضع الإضمار فقال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٠١) فلم يقل: إنهم كانوا بل أظهر من جديد فقال: إن الكافرين، وترى المؤكد الثاني في بداية الجملة: وهو حرف النصب

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٤).

﴿إِنَّ﴾، وترى المؤكد الثالث في التعبير عن ذلك باسم الفاعل (الكافر) إشارة إلى أن المراد من رسخ في الكفر وصار عريقًا فيه لا من تلبس به في ساعةٍ من الساعات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الراسخين منهم في الكفر، وأما المؤكد الرابع فهو قوله جل في علاه: ﴿كَانُوا۟﴾ الذي يدل في مثل هذا الاستعمال على الرسوخ والثبات لا على المضي، واستخدم الماضي لبيان عراقة عَداء الكافرين المعاندين المعتدين. ﴿كَانُوا۟﴾ والكينونة هنا تدل على الطبيعة والحقيقة، أي: كانوا كذلك جبلة وطبعًا، ولعله أشار إلى أنهم مغلوبون بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ دون عليكم، ثم انظر المؤكد الخامس في قوله: ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وكلمة (عدو) اللفظ يستوي فيه الواحد والجمع، فأكده بوصفه بالإبانة ﴿مُّبِينًا﴾ أي: ظاهر العداوة، يعدون عليكم لقصد الأذى مهما وجدوا لذلك سبيلًا، فربما وجدوا الفرصة في ذلك عند طول الصلاة فلذلك قصرتها[1].

فهذا الصنف من الكافرين «كَانَ شَأْنُهُمْ أَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ مُظْهِرُونَ لِلْعَدَاوَةِ بِالقِتَالِ وَالعُدْوَانِ، فَهُمْ لَا يُضَيِّعُونَ فُرْصَةَ اشْتِغَالِكُمْ بِمُنَاجَاةِ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يُرَاقِبُونَ اللهَ، وَلَا يَخْشَوْنَهُ فِيكُمْ فَيَمْتَنِعُوا عَنِ الإِيقَاعِ بِكُمْ إِذَا وَجَدُوكُمْ غَافِلِينَ عَنْهُمْ»[2].. تأمل كيف أشبههم بعض من ينتسب إلى الإسلام، فيهاجمون المسلمين في مساجدهم آمن ما يكونون، أي: في صلاتهم، وما الله بغافل عما يعملون.

وهذه المؤكدات تبصرك بالقرينة الحالية الواقعية التي تشير إلى صنفٍ محددٍ من الكافرين عندهم هذه العداوة المبينة: إنهم الكافرون المعاندون المعتدون، وهم المتعصبون الذين يتسلمون سَنام القيادة الإدارية لغيرهم غالبًا؛ فيحرصون على إخفاء طمعهم وإجرامهم وحرصهم على الظهور بإعلان الحرب المسعورة على المؤمنين الطاهرين أما سائر الكافرين فقد يكونون محايدين غير مبالين بعداوة ولا صداقة.

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٧٩).

(٢) تفسير المنار (٥/ ٢٩٨).

وتبين لنا إحدى الروايات المتعلقة بهذه الصلاة بأن الله جمع المصالح الأمنية والعبادية والاقتصادية في تشريع صلاة الخوف، فعن علي ﷺ قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾، ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول، غزا النبي ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله تعالى ذكره بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، فنزلت صلاة الخوف [1].

وهنا يظهر لنا سؤالان يضيئان لنا التفكير في هذه البصيرة العظيمة ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٠١).

فأما السؤال الأول: فلماذا أكد الله عداوة الكافرين هذا التأكيد الشديد؟

لعلك تجد الجواب عندما تفكر في الواقع حولك، فقد شرع الإسلام التسامح مع الكفار على أوسع نطاق، وحذر المسلمين من استباحة دماء المؤمنين والمُؤَمَّنين.. فربما غفل المؤمنون بسبب هذا الحس الخلقي العالي عن عداوة الكافرين المعاندين، ولذا أكد الله للمؤمنين أن هذا الصنف من الكفار عدو حقيقي ينبغي أن تدور السياسة الأمنية حول كيفية رد عدوانه، والحذر من عنفوانه.. الله.. كم في الآية من عجبٍ.. فإنك ترى المسلمين قد جعلوا عداوتهم فيما بينهم ونسوا العدو المبين أمامهم، وهذا قانونٌ لا يخلف: من غفل عن عدوه المبين صار عدوه أخاه بل ربما عادى نفسه.

(١) تهذيب الاثار(١ / ٢٤١).

وأما السؤال الثاني: فمعلوم أن الكافر لا يقاتَل لكفره بل لعدوانه، فلماذا ذكر الله فتنة الكافرين، وعدواتهم مع أنه يوجد منهم من لا يعتدي، و لِـمَ لَـمْ يذكر عدوان بعض من ينتسب إلى المسلمين مع أن عداوتهم قد تكون أشد بيانًا وظهورًا من عداوة بعض الكافرين؟

والجواب يظهر واضحًا عندما تتدبر هذه السورة؛ فإن الله جعل من أعظم المبادئ البدهية ألا يقتل مؤمن مؤمنًا، وألا يعتدي مسلم على مسلم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾ (النساء: ٩٢)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩)، فكأن محاربة المسلم للمسلم تناقض أصل الإيمان، ولذا تقوم المبادئ القرآنية على افتراض أن العدو المبين المعتدي لا يكون إلا كافرًا، ولا يعني هذا أن كل كافرٍ لا بد أن يكون معتديًا كما هو معلوم من الاستعمال القرآني، ولذا سمى النبي ﷺ القاتل كافرًا إما باعتبار الاستحلال أو باعتبار المآل، فقال ﷺ: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[1].

القانون الخامس: يجب على القيادة الراشدة الرعاية المباشرة للجمع بين تطبيق استراتيجية صنع السلام، وبين السياسة الأمنية والعسكرية، وبين إقام الصلاة في الوقت ذاته. ويُبَصِّرُنا بذلك الخطاب الموجه للقيادة النبوية في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (النساء: ١٠٢).

فالإفادة الكبرى التي أفدناها من قوله ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ ضرورة الإشراف التنفيذي المباشر على الأعمال التي تبني الأمة وتحميها من قبل قيادتها، فالأمر متعلق بهذه القيادة، وليس خاصًا بالنبي ﷺ.. هنا تعلم عمق الفهم عند ابن كثير وغيره

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٤١) برقم ١٢١.

عندما ردوا على من قرر أن صَلَاةَ الخَوْفِ مَنْسُوخَةٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ لتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ هنا، قال ابن كثير: «فهذا اسْتِدْلَالٌ ضَعِيفٌ، ويُرَدُّ عَلَيْهِ مِثْلَ قَوْلِ مَانِعِي الزَّكَاةِ، الَّذِينَ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التَّوْبَةِ: ١٠٣) قَالُوا: فَنَحْنُ لَا نَدْفَعُ زَكَاتَنَا بَعْدَهُ ﷺ إِلَى أَحَدٍ، بَلْ نُخْرِجُهَا نَحْنُ بِأَيْدِينَا عَلَى مَنْ نَرَاهُ، فردَّ عَلَيْهِمُ الصَّحَابَةُ وأَبَوْا عَلَيْهِمْ هَذَا الِاسْتِدْلَالَ، وَأَجْبَرُوهُمْ عَلَى أَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَقَاتَلُوا مَنْ مَنَعَهَا مِنْهُمْ» [١]، وقد ردَّ الرازي من ناحيةٍ أصوليةٍ على من تمسك بِلَفْظِ «إِذَا» لإقامة صلاة الخوف، وبين أَنَّ مُقْتَضَاهُ هُوَ الثُّبُوتُ عِنْدَ الثُّبُوتِ، أَمَّا العَدَمُ عِنْدَ العَدَمِ فَغَيْرُ مُسَلَّمٍ [٢].

وما أظن أصحاب هذا الفهم إلا في غفلةٍ عن الخطاب القرآني الذي جاء ليعم وقائع الحياة؛ فإن الآية واضحة في حث القيادات المسلمة على الالتحام بالشعوب والجيوش ليكونوا على قلب رجلٍ واحدٍ، وخاصة في المسائل الأمنية التي تمثل الصلاة روح الصدق فيها.. وببيانه العذب المشرق يبين البقاعي رحمه الله جمال ذكر النبي ﷺ هنا، وأنه لا يعني عدم أداء صلاة الخوف حال غيبته فيقول: «ولما أتم سبحانه وتعالى بيان القصر في الكمية مقرونًا بالخوف لما ذكر، وكان حضور النبي ﷺ مظنة الأمن بالتأييد بالملائكة ووعد العصمة من الناس، وما شهر به من الشجاعة ونصر به من الرعب وغير ذلك من الأمور القاضية بأن له العاقبة؛ بيَّن سبحانه وتعالى حال الصلاة في الكيفية عند الخوف، وأن صلاة الخوف تفعل عند الأنس بحضرته كما تفعل عند الاستيحاش بغيبته ﷺ، فجوازها لقوم ليس هو ﷺ فيهم مفهوم موافقة» [٣].

وإذا كان هذا مطلوبًا من القيادات المسلمة فإن ذلك يعني أن تكون على قدرٍ

(١) تفسير ابن كثير – ت سلامة (٢/ ٤٠٠).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٠٥).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٠).

من المسؤولية والعلم اللائق بمعرفة الدين الذي شرع مثل هذه النظم، ومن العجيب الذي يجب أن يشكر لأهله أن تجد بعض القيادات الكافرة ترعى صلاة المسلمين، وتحضر أعيادهم، بينما تجد بعض القيادات التي تنتسب إلى الإسلام، يتسببون في إخافة المسلمين وإرهابهم.

القانون السادس: يجب القيام بالواجبات الأمنية أثناء الصلوات، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾(النساء: ١٠٢)، فالخطاب في الآية يبين أن المعيار الأول لإثبات القدرة على الحفاظ على أمن الأوطان، وحماية الشعوب، وتطبيق الاستراتيجية الأمنية يجب أن يظهر في المحافظة على الصلاة، فكيف يكون حكم مجرمٍ يغدر بالمصلين آمن ما يكونون؟ وفي المقابل فإن أداء الصلاة لا يعني الغفلة عن القيام بالمتطلبات الأمنية.

فلا تنافي بين إقامة الصلاة واستراتيجية أخذ الحذر من الناحية العسكرية والأمنية، فالصلاة جزء من هذه الاستراتيجية بل هي أهم جزء فيها، وعند الحاجة الأمنية للحركة أثناء الصلاة مثل ساعات الخوف فلا بد أن يصحب القيام للصلاة الاهتمام بالسلاح، والضمير في قوله تعالى ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ يظهر أنه للمصلين، فالطائفة الأخرى أولى بأن تأخذ السلاح إذ إن أفرادها يتولون الدور الأكبر في الحراسة.

وقوله تعالى ذكره: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يشير إلى أنه يجب إبراز أداء الصلوات بشكل علني، حتى يكون من الأنظمة المشاهدة، فيقوم بها الجنود أمام العالم، فالحاكم أو الرئيس يقيم الصلاة، وليس المقصود بأن يقول قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، ليس المقصود بأن يأتي بألفاظ الإقامة بل بأن يتأكد من إقامتها في المجتمع حوله، لأن النبي ﷺ ما كان يقيم الصلاة بأن يتولى دور المؤذن الذي

يقيم وإنما كان يقيم الصلاة بأنه يتأكد من إقامتها في أوساطهم، حتى أنه هدد الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة، فقد قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ العِشَاءَ» (١).

فلتأخذ هذه الكلمات القرآنية المباركة أنفاسك؛ إذ إن الله يذكر حالة طارئة جدًا وهي حالة اشتداد الخوف عند مواجهة عسكرية أو أمنية محتملة، ومع الخوف الشديد من أن تجتاح القوات المعادية القوات المسلمة كان يمكن أن يشرع الله أن يصلى كلٌّ على حده، أو يؤخر الأداء لكن الله سبحانه وتعالى أمر بإقام الصلاة بل أمر بإظهارها لدرجة أن يظهر للعدو من الذي يصلى ومن الذي يحرس، كما هو واضح في هذه الآيات، لماذا الله ذكر ذلك؟

إن ذلك كله يبين أن موضوع إقام الصلاة على المستوى العلني أهم المهمات في حياة الأمة، ولذلك تتعجب من بعض الناس إذا رأى أناسًا يجهرون بأداء صلاتهم في الحدائق أو الكليات، ربما يستحيي أن يظهر هذا أمام العالم.. فمن أعظم القيم التي تدل على تعظيمنا للصلاة أن تُبرَز وتظهر، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى هذه الكيفية التي فيها نوع من التعقيد، كله من أجل أن يظهر أن المسلمين يصلون جماعات.. حيث يعلمون العالم المجد الذي تحققه الإنسانية عندما تتصل برب الأرض والسموات.

القانون السابع: يجب التعود على مبدأ الصف الواحد والعمل الجماعي المنسق

(١) صحيح البخاري – ترقيم فتح الباري (١ / ١٦٥) برقم ٦٤٤، وفي فتح الباري لابن حجر (١ / ١٢٥): «المرماة بكسر الميم وبفتحها أيضا ما بين ظلفي الشاة من اللحم فعلى هذا الميم أصلية وقيل هو السهم الذي يرمي به فالميم زائدة وهي مكسورة قولا واحدا وقيل هو سهم يلعب به في كوم تراب فمن رمى به فثبت على الكوم غلب وقيل المرماتان السهمان اللذان يرمي بهما الرجل فيحوز السبق».

بين جميع مكونات الجيش، وتوزيع الأدوار لتطبيق الاستراتجية الأمنية والعسكرية حتى أثناء الصلاة. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ **(النساء: ١٠٢) فكل فردٍ له دوره، وكلهم ينبغي أن يهتم بالآخر، ولذا رأيت التطبيق النبوي ينوع صفات صلاة الخوف؛ تطبيقًا للسياسة الأمنية والعسكرية؛ ليؤخذ المناسب منها لكل حال.**

فمبدأ العمل الجماعي في الأمة المسلمة هو السمة التي ينبغي أن تقام عليها الصلاة المفروضة، وتدار عليها الأهداف الأمنية والعسكرية، وبموجبه يتم توزيع الأدوار بين أطراف المسلمين، ويحرم أن يتحول مبدأ توزيع الأدوار إلى توحشٍ فرديٍّ يعبر عن الأنانيّة المفرطة، بل كلٌّ منهم يؤدي دوره البطولي المعلوم، وقد لاحظ هذا المبدأ الطاهر بن عاشور في تأمله لهذه الآية فقال: «وَلِأَنَّ مَقْصِدَ شَرْعِ الجَمَاعَةِ هُوَ اجْتِمَاعُ المُسْلِمِينَ فِي المَوْطِنِ الوَاحِدِ، فَيُؤْخَذُ بِهَذَا المَقْصِدِ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ»[1].

وترى تكرار الأمر بأخذ الحذر؛ لبناء الحس الأمني في العقول حيث تتم المدافعة عن الحق، والعدل، والخير، وتُعَزَّز العقلية العارفة بتحركات العدو، ولأن الحذر يضعف مع مرور الزمن، فيكون في بداية الأمر قويًا، ثم ينسل شيئًا فشيئًا، ويرخي الإنسان دفاعاته.

وتحوي هذه الآية على إيجازها عددًا من صفات صلاة الخوف في درجته اليسيرة، أو المتوسطة، أو الشديدة، أما الأشد فقد ذكرها الله في سورة البقرة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (البقرة: ٢٣٩).

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٨٥).

وأوصل بعضهم هذه الصفات إلى سبع عشرة صفة، وهذا يدل على أهمية تفعيل استراتيجية أخذ الحذر، وجعل ابن القيم ﵀ أصولها ستةً، والجامع بينها: أن تؤدى الأركان بسرعة، كَأَسْرَعِ الإِسْرَاعِ، إذ لا يوجد مطلوب (الاطمئنان) في الأركان كما يوجد في حال الأمن، وأن تتغير الكيفية من حيث عدد الركعات حسب شدة الخوف والحذر، وأن يتغير التقسيم للجيش حسب مكان العدو، فقد يكون الجيش طائفتين.. ثلاثـًا.. أربعـًا.. عشراً حسب مكان العدو. والمراد بالسجود الصلاة من إطلاق اسم الجزء على الكل، فكأنه قال: فإذا صلوا، أي: أتموا صلاتهم [١].

وهل تكون صلاة النبي ﷺ، أو القائد، واحدة أم يصلي بكل طائفة صلاة؟ يظهر من اللفظ القرآني أن صَلَاةَ النَّبِي ﷺ وَاحِدَةٌ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾، فَجَعَلَهُمْ تَابِعِينَ لِصَلَاتِهِ، وَذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ صَلَاتَهُ وَاحِدَةٌ، وَلَوْ كَانَ يُصَلِّي بِكُلِّ طَائِفَةٍ صَلَاةً مُسْتَقِلَّةً لَقَالَ تَعَالَى: (فَلْتُصَلِّ بِهِمْ) [٢]، هذا ما قاله بعض المفسرين، ويظهر لي أن اللفظ لا يساعد على القطع بالمعنى الذي ذكروه، ويظل الأمر محتملًا، وذلك حسب درجة الخوف وأخذ الحذر، ولذا ذهب الحَسَن البَصْرِيّ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ بِكُلِّ طَائِفَةٍ، فيَكُونُ صَلَّى بِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ الصَّلَاةَ المَفْرُوضَةَ وَبِالطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ صَلَاةً نَافِلَةً لَهُ، فَرِيضَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

فيدخل ضمن ما يوافق الآية مثلًا ما جاء عن ثعلبة بن زهدم قال كنا مع سعيد بن العاصي بطبرستان فقال: أيكم صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف فقال حذيفة أنا فقام حذيفة فصف الناس خلفه صفين صفًا خلفه وصفًا موازي العدو فصلى بالذي خلفه ركعة ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء وجاء أولئك فصلى بهم ركعة ولم

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٨٦).

يقضوا[١]، ويحدثنا أبو عياش الزرقي عن أحد الصفات التطبيقية لهذه الصلاة فيقول: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقال المشركون: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾، فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ، فأخذوا السلاح، فصففنا خلفه صفين، ثم ركع فركعنا جميعًا، ثم رفع فرفعنا جميعًا، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعًا ثم رفع فرفعوا جميعًا. ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم فلما جلس جلس الآخرون فسجدوا فسلم عليهم ثم انصرف قال فصلاها رسول الله ﷺ مرتين مرة بعسفان ومرة بأرض بنى سليم[٢]، كما يحدثنا جَابِر بن عبد الله عن صفة أخرى فيقول: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَاتِ الرِّقَاعِ فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَسَيْفُ النَّبِيِّ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ تَخَافُنِي قَالَ: لاَ قَالَ فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي قَالَ اللَّهُ فَتَهَدَّدَهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَصَلَّى بِطَائِفَةٍ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ تَأَخَّرُوا وَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الأُخْرَى رَكْعَتَيْنِ، وَكَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعٌ وَلِلْقَوْمِ رَكْعَتَيْنِ[٣]، وفي رواية: قاتل

(١) سنن النسائي - بأحكام الألباني (٣ / ١٦٨)، وصححه.

(٢) أحمد (٤ / ٥٩)، قال وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن صحابيه لم يخرج له سوى أبي داود والنسائي.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ١٤٧) رقم ٤١٣٦ .

رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل فرأوا من المسلمين غرة فجاءه رجل منهم يقال له عوف بن الحارث أو غوث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال من يمنعك مني؟ قال: «الله» قال: فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال له: «من يمنعك مني؟» قال: كن خيرًا مني وفي لفظ: كن كخير آخذ، قال: «تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: لا ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك قال: فخلى سبيله فجاء إلى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس فلما كان عند الظهر أو العصر شك أبو عوانة أمر النبي ﷺ بصلاة الخوف قال: فكان الناس طائفتين طائفة بإزاء العدو وطائفة يصلون مع رسول الله ﷺ فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين ثم انصرفوا فكانوا مكان أولئك وجاء أولئك فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعتين فكان للقوم ركعتان ركعتان ولرسول الله ﷺ أربع ركعات [١].

واختلاف الصفات لتحقيق الهدفين الأمنيين معًا: المحافظة على الجماعية في الصلاة، واختيار النوع المناسب منها ليتم تطبيق استراتيجية أخذ الحذر، فَإِنَّ العَدُوَّ تَارَةً يَكُونُ تُجَاهَ القِبْلَةِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي غَيْرِ صَوْبِها، والجمع بين الأمرين ضروريٌّ وكل منهما يعدان ضرورة أمنية، وترجح الإجراءات الأمنية المحضة على أركان الصلاة كلما ازداد الخوف حتى يصل الأمر إلى صلاة شدة الخوف، وهي الصلاة رجالًا وركبانًا بالإيماء، ثم إلى تأخيرها حال عدم القدرة عليها[٢]، ولذا قال البخاري: باب الصَّلاَةِ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ الحُصُونِ وَلِقَاءِ العَدُوِّ.

(١) صحيح ابن حبان - بنحقيق الأرناؤوط (٧ / ١٣٨).

(٢) وهذا التفصيل هو الذي ينبغي المصير إليه خلافًا لمن زعم أنها نسخت بتأخير الصلاة في الخندق مما حكي عن المُزْني، وَأَبُو يُوسُفَ القَاضِي، وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُلَيَّة ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ صَلاَةَ الخَوْفِ مَنْسُوخَةٌ بِتَأْخِيرِهِ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، الصَّلاَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وقد استغرب ذلك ابن كثير.

وَقَالَ الأَوْزَاعِيُّ إِنْ كَانَ تَهَيَّأَ الفَتْحُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلاَةِ صَلَّوْا إِيمَاءً كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الإِيمَاءِ أَخَّرُوا الصَّلاَةَ حَتَّى يَنْكَشِفَ القِتَالُ، أَوْ يَأْمَنُوا فَيُصَلُّوا رَكْعَتَيْنِ فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا صَلَّوْا رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ لاَ يُجْزِئُهُمُ التَّكْبِيرُ وَيُؤَخِّرُوهَا حَتَّى يَأْمَنُوا، وَبِهِ قَالَ مَكْحُولٌ.

وَقَالَ أَنَسٌ حَضَرْتُ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ حِصْنٍ تُسْتَرَ عِنْدَ إِضَاءَةِ الفَجْرِ وَاشْتَدَّ اشْتِعَالُ القِتَالِ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلاَةِ فَلَمْ نُصَلِّ إِلاَّ بَعْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ فَصَلَّيْنَاهَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي مُوسَى فَفُتِحَ لَنَا، وَقَالَ أَنَسٌ وَمَا يَسُرُّنِي بِتِلْكَ الصَّلاَةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا- كأنه يقول: وعلى الرغم من ذلك اضطررنا لتأخيرها نظرًا للداعي الأمني والعسكري- وبعض أهل العلم يقولون ما حدث في الخندق منسوخ من تأخير الصلاة، والظاهر عدم النسخ بل كل بحسب حاله، بما تقتضيه استراتيجية الأمنية والعسكرية، ثم روى البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: جَاءَ عُمَرُ يَوْمَ الخَنْدَقِ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَلَّيْتُ العَصْرَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغِيبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا بَعْدُ قَالَ فَنَزَلَ إِلَى بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى العَصْرَ بَعْدَ مَا غَابَتِ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى المَغْرِبَ بَعْدَهَا[١].

ومن الصفات ما جاء عن سماك الحنفي، قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر، فقال: «ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر صلاة المخافة» فقلت: وما صلاة المخافة ؟ قال: «يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلي بهم ركعة، فتكون للإمام ركعتين، ولكل طائفة ركعة ركعة»[٢]

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٨) رقم ٥٩٦ .

(٢) تهذيب الآثار للطبري (١ / ٣٦١).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي صَلاَةِ الخَوْفِ: أَنْ يَكُونَ الإِمَامُ يُصَلِّي بِطَائِفَةٍ مَعَهُ، فَيَسْجُدُونَ سَجْدَةً وَاحِدَةً، وَتَكُونُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ العَدُوِّ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ الَّذِينَ سَجَدُوا السَّجْدَةَ مَعَ أَمِيرِهِمْ، ثُمَّ يَكُونُونَ مَكَانَ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا، وَيَتَقَدَّمُ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا، فَيُصَلُّوا مَعَ أَمِيرِهِمْ سَجْدَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يَنْصَرِفُ أَمِيرُهُمْ وَقَدْ صَلَّى صَلاَتَهُ، وَيُصَلِّي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ بِصَلاَتِهِ سَجْدَةً لِنَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا[١]. قَالَ: يَعْنِي بِالسَّجْدَةِ الرَّكْعَةَ.

ويحكي ابْن عُمَرَ، رضي الله عنهما هيئة صلاة النبي ﷺ فيقول: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَوَازَيْنَا العَدُوَّ فَصَافَفْنَا لَهُمْ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي لَنَا فَقَامَتْ طَائِفَةٌ مَعَهُ تُصَلِّي وَأَقْبَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى العَدُوِّ وَرَكَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثمَّ انْصَرَفُوا مَكَانَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَمْ تُصَلِّ فَجَاؤُوا فَرَكَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِمْ رَكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ فَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَرَكَعَ لِنَفْسِهِ رَكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ[٢].

وعن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة حدثته بهذه القصة قالت: كبر رسول الله ﷺ وكبرت الطائفة الذين صفوا معه ثم ركع فركعوا ثم سجد فسجدوا ثم رفع فرفعوا ثم مكث رسول الله ﷺ جالسا ثم سجدوا هم لأنفسهم الثانية ثم قاموا فنكصوا على أعقابهم يمشون القهقرى حتى قاموا من ورائهم وجاءت الطائفة الأخرى فقاموا فكبروا ثم ركعوا لأنفسهم ثم سجد رسول الله ﷺ فسجدوا معه ثم قام رسول الله ﷺ وسجدوا لأنفسهم الثانية ثم قامت الطائفتان جميعا فصلوا مع رسول الله ﷺ فركع فركعوا ثم سجد فسجدوا جميعا ثم عاد فسجد الثانية وسجدوا معه سريعا

(١) سنن ابن ماجة (٢ / ٣٠٨).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٧) رقم ٩٤٢.

كأسرع الإسراع جاهدا لا يألون سراعا ثم سلم رسول الله ﷺ وسلموا فقام رسول الله ﷺ وقد شاركه الناس في الصلاة كلها[١].

فهمنا من هذه الكيفيات المتنوعة أنها بحسب المقتضيات الأمنية، وهي تدل على أن الصلاة من أعظم الفرائض الظاهرة التي تساعد الإنسانية على اجتياز أعباء الحياة بالاتصال بالله جل في علاه، وأن وجود الطوارئ الأمنية والعسكرية لا يعني ترك صلاة الجماعة، والعكس ووجود الصلاة لا يعني ترك الطوارئ الأمنية والعسكرية.

القانون الثامن: يجب بناء الحس الأمني والعسكري على أحسن الوجوه وأشدها تنبيهًا. ويُبَصِّرُنا بذلك أن الله كرر ذكر الاهتمام بالسلاح، وذلك يعني ضرورة إيجاد السلاح بناء وتصنيعًا وشراء، ولنتأمل كيف تكرر ذكر السلاح هنا في صورٍ مختلفة.

فأمر بأخذ السلاح للطائفة المصلية الأولى: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾، ثم أمر بقيام الطائفة الأولى التي صلت ركعة بالحراسة ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾، ثم أمر بأخذ الحذر والسلاح للطائفة المصلية الأخرى ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ﴾ يمكن أن يكون ضميره للكل، أي: الطائفة المصلية وغير المصلية لئلا يُتوهم أن الأمر بذلك يختص بالمصلي، لأن غيره لا عائق له عن الأخذ متى شاء، أو ولتأخذ جميع الطوائف الحارسون والمصلون ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ في حال صلاتهم وحراستهم وإتيانهم إلى الصلاة وانصرافهم منها[٢].

والمراد من ذلك كله تطبيق مقتضيات استراتيجية أخذ الحذر، وانظر كيف أكد على

(١) سنن أبي داود (١ / ٣٩٧)، وحسنه الألباني.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٢).

أخذ الحذر في هذه الآية حتى بعد أن أنجزت نصف المهمة فقال: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٢).

ويبين لنا الزمخشري هنا معنى بديعًا يدل على التأكيد على استراتيجية أخذ الحذر؛ إذ تسمع الله يأمر بأخذ السلاح والحذر بفعلٍ واحدٍ: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وذلك ليصور لنا الحذر وكأنه مادةٌ محسوسة، وآلة منقولة كالسلاح، فالحذر وهو التحرّز والتيقظ بإقبال الفكر على ما يمنع كيد العدو كالآلة المحسوسة آلة يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ، وجُعِلا مأخوذين[١]، فأمر بأن تكون درجة الاستراتيجية الأمنية بنفس درجة الاستراتيجيات العسكرية.

ويبين الوَاحِدِيُّ ﷺ معلمًا مختلفًا للخشوع في الصلاة في مثل هذه الحالة ليخدم الاستراتيجية الأمنية، فيقول: «وَفِيهِ رُخْصَةٌ لِلْخَائِفِ فِي الصَّلَاةِ بِأَنْ يَجْعَلَ بَعْضَ فِكْرِهِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ»[٢]، فالخشوع هنا أن تؤدي الصلاة وتنظر إلى العدو، وتأتي بظواهر الصلاة.

وفي الاهتمام بذكر السلاح مع المصلي المشغول بصلاته إشارة واضحة إلى ضرورة الاهتمام بإيجاد السلاح شراء وتصنيعًا، ويصبح التصنيع العسكري واجبًا مقدمًا عندما يتم الشعور بأنه يمكن للعدو أن يتحكم بصناعة السلاح أو أن يحاصرها، كما أن الآية تشير إلى أن الجمع بين الصلاة والسلاح أهم صفات المعسكر المتيقظ.

ولا يمكن للسلاح أن يؤخذ إلا إذا وجد.. فالآية تدل على وجوب التصنيع العسكري لردع وحوش البشر من جنونهم المسعور، وهمجيتهم التي حيرت

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٦٠)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٢).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٠٦).

الحيوانات الضارية في شدة فسادها وإفسادها.

وتكثيفًا للحس الأمني في عقول المسلمين وقلوبهم ترى في الآية أمرًا لافتًا؛ إذ تجد الله ذكر أخذ السلاح بالنسبة للطائفة الأولى ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾، وتراه أمر بأخذ الحذر والسلاح بالنسبة للطائفة الثانية فقال ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وكل ذلك لبناء الحس الأمني في العقول المدافعة عن الحق والعدل والخير، ولتعزيز العقلية العارفة بتحركات العدو؛ فإن العدو ربما لم يتأكد في المرة الأولى أن المسلمين دخلوا في الصلاة، فإذا رآهم سجدوا أيقن بذلك، فإن تحركت الطائفة المصلية الأولى إلى الحراسة بعد السجود وتقدمت الأخرى تحرق العدو غيظًا خوفًا من أن ينتهي المسلمون من صلاتهم قبل أن يباغتهم، فأكد الله أخذ الحذر والسلاح ليظهر للعدو أن القوات الأمنية لم ترخِ استراتيجيتها الأمنية والعسكرية، ولئلا يظن المسلمون أن العدو قد ترك أمر مباغتتهم لما لم يهجم عليهم في المرة الأولى عندما سجدت الطائفة الأولى، ولذا زاد في التحذير فقال: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ (النساء: ١٠٢)، ولأن الحذر يضعف مع مرور الزمن، فيكون في بداية الأمر قويًا ثم ينسل شيئًا فشيئًا، ويرخي الإنسان دفاعاته.. ولذا أراد الله أن يكون الحذر في أعلى درجاته.

القانون التاسع: تحرم الغفلة عن العتاد العسكري والثروات السيادية سواء أكان ذلك في زمن الأمن أم في زمن الخوف، ويُبَصِّرُنا بهذا القانون قول الله جل جلاله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ (النساء: ١٠٢).

فنبهنا الله إلى الخطط الدائبة التي يديرها العدو للسيطرة على أسلحة المؤمنين وثرواتهم المالية فقال: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ﴾، ولذا تجب حراسة القوة العسكرية (السلاح) والاقتصادية (المتاع) فحراستها وعدم الغفلة عنها من أهم أسباب تحقيق النصر ضد المعتدين، ومن الغفلة الكبيرة أن يُسلم من ينتسب إلى المؤسسات السيادية العسكرية والتعليمية والاقتصادية لدروات خاصة في غير بلدانهم دون إشرافٍ مباشرٍ يصونهم من الوقوع في العمالة أو العَماية.

ويصور الله لنا في قوله ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ تكاتف الأعداء واستغلالهم لأدنى الفرص عند غفلة المسلمين عن أسلحتهم وثرواتهم، «وأشار إلى العلو والغلبة بقوله: ﴿عَلَيۡكُم﴾، وأشار إلى سرعة الأخذ بقوله: ﴿مَّيۡلَةٗ﴾ وأكده بقوله: ﴿وَٰحِدَةٗ﴾»[1].

القانون العاشر: لم يخفف الله على المسلمين في استراتيجية أخذ الحذر إلا عند وجود العذر القاهر الخارجي أو الجسدي في الحالات الفردية فقط، والتخفيف فقط لحمل العتاد العسكري، وليس لمقتضيات الاستراتيجية الأمنية المصاحبة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾(النساء: ١٠٢).

وانظر لهذا القانون؛ إذ يدل بلفظه على الوجوب المؤكد لأخذ الحذر وحمل السلاح، ومعنى ذلك أنه يجب اصطحاب منظومة الحذر الأمني للحفاظ على حياة المسلمين حضرًا وسفرًا.

فالتخفيف في وضع السلاح لا يكون إلا عند الضرورة، ولكن التخفيف في وضع القوة العسكرية لا يعني الغفلة الأمنية ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٣).

﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ١٠٢)، وذكر الأذى نكرة ﴿أَذًى﴾ ليبين شموله لليسير والكثير، وذكره هنا للتخفيف من أعباء المؤمنين في الحماية، ولحفظ السلاح من إفساد المطر له، أو لحفظه من أن يقلل المطر من فعاليته، والمرض تدخل فيه الجراح، فقد روى الطبري عن ابن عباس ﷺ: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ عبد الرحمن بن عوف كان جريحًا[1].

وكما ترى فعلى الرغم من تخفيفه في حمل السلاح عند وجود العذر الخارجي، أو الجسدي، إلا أنه لم يخفف في درجة التحذير، والتأهب الأمني، وتطبيق استراتيجية: أخذ الحذر، فقال: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ (النساء:١٠٢).

فخفف الله على المسلمين عند وجود العذر القاهر الخارجي، أو الجسدي أن يضعوا السلاح، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، يدل بلفظه على الوجوب المؤكد في أخذ الحذر، وحمل السلاح، ومعنى ذلك: أنه يجب اصطحاب منظومة الحذر الأمني الدائم؛ للحفاظ على الحياة البشرية.

وفي حال شدة الخوف والمهام التي لا تقبل التأخير يومئ إيماء، ولنأخذ مثالًا على ذلك بما جاء عن عبد الله بن أنيس قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة، فأته فاقتله». قلت: يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه. قال: «إذا رأيته وجدت له قشعريرة» قال: فخرجت متوشحًا، بسيفي حتى وقعت عليه وهو بعرنة مع ظُعُن يرتاد لهن منزلًا، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٦٤).

نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الركوع والسجود فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك. قال: فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكباتٍ عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني، فقال: «أفلح الوجه» قلت: قتلته يا رسول الله. قال: «صدقت» قال: ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل في بيته، فأعطاني عصًا فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس» قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها. قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقل الناس المتخصرون يومئذ يوم القيامة». فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها، فضمت معه في كفنه ثم دفنا جميعًا [(١)].

القانون الحادي عشر: يُبَصِّرُنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء:١٠٢) بأن نستذكر أننا لا نقدر أن ننتصر على خطط العدو، إلا عبر تطبيق الخطط العسكرية، والأمنية، مع الالتزام العبادي.

فانظر كيف ربط بين أخذ الحذر من جهة، وبين إعداده هو للكافرين عذابًا

(١) أحمد (٣ / ٤٩٦) برقم ١٦٠٩٠، وقال شعيب الأرنؤوط: ابن عبد الله بن أنيس - وهو عبد الله بن عبد الله بن أنيس كما جاء مبينا من رواية محمد بن سلمة الحراني عن محمد بن اسحق عند البيهقي - ترجم له البخاري في التاريخ ٥ / ١٢٥ وابن أبي حاتم ٥ / ٩٠ وابن حبان في الثقات ٥ / ٣٧ ولم يذكروا فيه جرحا ولا تعديلا وباقي رجال الإسناد ثقات غير محمد بن اسحق روى له البخاري تعليقا ومسلم متابعة وقد صرح بالتحديث وأخرجه أبو يعلى ٩٠٥ وابن خزيمة ٩٨٢ و ٩٨٣ وابن حبان ٧١٦٠ وأخرجه أبو داود ١٢٤٩ مختصرا وحسن الحافظ في الفتح إسناد أبي داود.

مهينًا، ومن العذاب المهين للعدو حذركم الذي لا يدع لهم عليكم ثغرة، تمكنهم من هزيمتكم:

ولعل من حِكَمِ ذكر تعذيبه العذابَ المهينَ للكفار أن يجعل توكل المسلمين عليه، واعتمادهم على تنفيذ الاستراتيجيات الأمنية والعسكرية التي وضعها لهم في مواجهة عدوهم، وبين أنه أعدَّ لأعدائهم العذاب المهين لئلا يتوهم المسلمون أن الله لما حذرهم من أعدائهم فذلك لقوتهم وعلوهم وغلبتهم، فأخبرهم أنه أعد لهم ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: يهينهم به، من أعظمه حذركم الذي لا يدع لهم عليكم مقدمًا، ولا تمكنهم معه منكم فرصة [١].

وهذا التقابل بين التحذير والتطمين وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة بالله سبحانه وتعالى هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم [٢].

القانون الثاني عشر: يُبَصِّرُنا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، بأن التخفيف في الصلاة لا يعني سقوط فريضة الذكر، فهو عبادة دائمة، تفعل على كل هيئة يكون عليها الإنسان -قائمًا، وقاعدًا، وعلى جنبه- مهما كان وضعه الذي تستوجبه السياسة الأمنية، والعسكرية.

فالآية تبين ضرورة الذكر على كل حال، لكنها في الوقت ذاته تبين الحالات المختلفة التي يكون عليها الإنسان عند تطبيق الاستراتيجية الأمنية والعسكرية:

والمعنى: فإذا قضيتم الصلاة فلتكن ألسنتكم جارية بِالحَمْدِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالدُّعَاءِ، فاذْكُرُوا الله عَلَى كُلِّ حَالٍ تَكُونُونَ عَلَيْهَا مِنْ قِيَامٍ فِي المُسَايَفَةِ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٤).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٨).

وَالمُقَارَعَةِ، وَقُعُودٍ لِلرَّمْيِ أَوِ المُصَارَعَةِ، وَاضْطِجَاعٍ مِنَ الجِرَاحِ أَوِ المُخَادَعَةِ، لِتَقْوَى قُلُوبُكُمْ وَتَعْلُوَ هِمَمُكُمْ، وَتَحْتَقِرُوا مَتَاعِبَ الدُّنْيَا وَمَشَاقَّهَا فِي سَبِيلِهِ فَهَذَا مِمَّا يُرْجَى بِهِ الثَّبَاتُ وَالصَّبْرُ، وَمَا يَعْقُبُهُمَا مِنَ الفَلَاحِ وَالنَّصْرِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَنْفَالِ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥)[1].

وذكر الله سبحانه وتعالى في مثل هذه الحالات الطارئة يدل على شدة محبة الله سبحانه وتعالى كما قيل:

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي
فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

وذكر الله علامة على تجدد النية، فكثير من أهل العلم يقولون لابد أن يجدد نيته لصيام كل يوم من رمضان حتى يشعر بأنها عبادة وليست مجرد عادة مرت وانتهت، وكذلك في الصلاة، فالحنابلة مثلًا يجعلون النية شرطًا في صحة الصلاة، فلابد أن تقدم ويبتدأ بها مثل شرط الطهارة، ولكنهم يستحبون استدامتها في بقية الصلاة، ومثل ذلك في الحياة المعتادة، فإذا لم يذكر الله سبحانه وتعالى خارج الصلاة فإنه لن يتذكر قيمة العبادة، فذكر الله معيارٌ لنفخ الحياة في تحويل عاداته وانفعالاته إلى عبادات، كما أنه إذا ذكر الله ضبط سلوكه بصورةٍ أكبر عندما يقوم بتطبيق مقتضيات الحراسة الأمنية، وعَائِشَةُ تصف النبي ﷺ في حياته الاجتماعية والسياسية والعسكرية فتقول: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ[2].

(١) المنار٥/ ٣١٢، وذهب الزمخشري (١/ ٥٦٠) إلى تفسيرها تفسيرًا ينبو عنه السياق والظاهر فقال: «فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فإذا صليتم في حال الخوف والقتال فَاذْكُرُوا اللَّهَ فصلوها قِيامًا مسايفين ومقارعين وَقُعُودًا جاثين على الركب مرامين وَعَلى جُنُوبِكُمْ مثخنين بالجراح فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ حين تضع الحرب أوزارها وأمنتم فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التي هي أحوال القلق والانزعاج».

(٢) رواه مسلم ١/ ١٩٤ برقم٨٥٢، ورواه البخاري معلقًا (١ / ١٦٣).

ويبين ابن عباس قيمة هذه العبادة المصاحبة للإنسان في كل أحايينه، فيقول: (لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذرٍ، غيرَ الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

قال ابن عباس: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسرِّ والعلانية، وعلى كل حالٍ [١]. ونحن نزيد فنقول: وفي حال السلام أو القتال أو شدة القتال، وفي حال الأمن أو في حال الخوف أو في حال شدة الخوف.

وذكر الله سر تفوق النفس الإنسانية في الحياة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ». قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ» [٢].

القانون الثالث عشر: يُبَصِّرُنا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء:١٠٣)، بأن الرخصة محددة بحدود السفر، أو الخوف، بما يحقق مقتضيات الاستراتيجية الأمنية، أو العسكرية، فإذا وجدت الطمأنينة، فيجب إقامة الصلاة على وجهها الأكمل.

فَالإِقَامَةُ هُنَا الإِتْيَانُ بِالشَّيْءِ قَائِمًا أَيْ تَامًّا[٣].. أي: فإذا زال خوفكم من عدوكم وأمنتم، أيها المؤمنون، واطمأنت أنفسكم بالأمن ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فأتموا حدودَها

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٦٤).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٦٣) رقم ٢٦٧٦.

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٨٩).

المفروضة عليكم غير قاصريها عن شيء من حدودها[١].

وهنا ربما تتدبر الآية فتتساءل: لماذا قال ﴿ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾ وَلَمْ يَقُلْ أمنتم كما في سورة البقرة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٩)؟

إن الاطمئنان يمثل حالة خاصة من الأمن؛ فناسب أن يكون الذكر مع الأمن لأن الذكر عام كما أن الأمن عام، أما الطمأنينة فخاصة، فناسب أن يكون معها الصلاة بأركانها، وأذكارها، إذ يدل على الثقة، فاطمأن، أي: وَثِقَ فيهِ، وأَمِنَهُ، وسَكَنَ إِلَيْهِ كما قال تعالى ذكره: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ (الحج: ١١) وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، فالِاطْمِئْنَانِ السُّكُونُ بَعْدَ اضْطِرَابٍ وَانْزِعَاجٍ فَهُوَ يُقَابِلُ كُلًّا مِنَ الخَوْفِ وَالسَّفَرِ مُجْتَمِعَيْنِ وَمُنْفَرِدَيْنِ [٢]، والاطمئنان يدل على قدرٍ خاصٍّ من الشعور التام بالأمان، فتظل استراتيجية أخذ الحذر قائمةً حتى مع وجود الطمأنينة في حدودها الدنيا، وأمر بالصلاة حال الطمأنينة تنبيهًا على عظم قدرها، وبيانًا لأنها أوثق عرى الدين وأقوى دعائمه وأفضل مجليات القلوب ومهذبات النفوس [٣]، وكأنه يحذرهم من أن يستمرئوا قصر الصلاة، أو التخفيف فيها حال الطمأنينة بعد إذ ذاقوا ذلك في الحالات الطارئة.

ومن أهم أوجه إقامتها على الوجه الأكمل إقامتها في وقتها، ولذا قال الله بعدها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ (النساء: ١٠٣)، فقوله: ﴿كِتَٰبٗا﴾

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٦٦).

(٢) تفسير المنار (٥/ ٣١٢).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٥).

يعني مكتوبًا مفروضًا لا يمكن للإنسانية أن تعيش عيشة حقيقية بدونه، وموقوتًا، أي: ذا وقتٍ محدد لا ينبغي مخالفته، ويبين لنا زيد بن أسلم معنى كلمة ﴿مَّوْقُوتًا﴾، قال: «منجَّمًا، كلما مضى نجم جاء نَجْم آخر، يقول: كلما مضى وقت جاء وقت آخر» [(١)]، فالموقوت اسم مفعول من قولهم: «وَقَتَ الله عليك فرضه فهو يَقِته»، أي: جعل له وقتًا يجب عليك أداؤه فيه، والتوقيت من أعظم محاسن الإسلام في الإحسان إلى النفوس البشرية.. التوقيت من المصالح البشرية الخالصة، وقد ذكر الله أوقات الصلاة على سبيل الإجمال في القرآن الكريم ثم بينها النبي ﷺ بتعليم جبريل له، وبتعليمه لأمته ﷺ، ومن الآيات التي أشارت إلى أوقات الصلوات قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ (الإِسْرَاءِ: ٧٨) الصلوات التي تجب من الدُّلُوكِ إِلَى الغَسَقِ الظُّهْرُ وَالعَصْرُ، وَالوَاجِبُ مِنَ الغَسَقِ إِلَى الفَجْرِ المَغْرِبُ وَالعِشَاءُ، وَالوَاجِبُ فِي الفَجْرِ صَلَاةُ الصُّبْحِ، وقريبًا منها قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (الرُّوم: ١٧) وَالمُرَادُ مِنْهُ الصَّلَاتَانِ الوَاقِعَتَانِ فِي طَرَفَيِ النَّهَارِ وَهُمَا المَغْرِبُ وَالصُّبْحُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الرُّوم: ١٨).

القانون الرابع عشر: الاستراتيجية الأمنية والعسكرية للأمة الناجحة المهابة، تقتضي القيام بالحرب الوقائية، بالهجوم على المعتدين، وليس الوقوف في موقف المدافعين فقط، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النِّساء: ١٠٤).

يحذرنا الله من الوهْن في إطار التدافع الاستراتيجي مع العدو المتربص الذي

(١))تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٦٩).

بلغ من عدوانه أن يعتدي على المرء آمن ما يكون، أي: أن يعتدي عليه في صلاته، فيقول الله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ من وهَنَ يهِن وَهْنًا، فهو واهِن، أي: ضعُفت نفسيته عن القيام بالأمر اللائق، فالوهن الضَّعف وذُبولُ الحيويَّة في النفسية البشرية، ويصحبه إخمال التحريك الجسدي أما الضعف فمِن فعل الله تعالى ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النَّساء: ٢٨)، فحذر الله أن يفعل المرء فعل الضعفاء فقال تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، أي: لا تفعلوا أفعال الضُّعفاء وأنتم أقوياء على ما تطلبونه بتذليل الله إيَّاه لكم، ويدلك على أن الوهن يتعلق في الأصل بالنفسية المسلمة أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لثوبان: كيف أنت يا ثوبان إذ تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام يصيبون منه قال ثوبان: بأبي وأمي يا رسول الله أمن قلة بنا، قال: لا أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى في قلوبكم الوهن قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال[1]، فقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ الوهن: انكسار حدّ الشيء، بعد قوة متحققة أو ممكنة، مما يؤدي إلى عجزه، فهو ضعف طارئٌ بعد قوة، وفتور بعد عزم، وجبن بعد شجاعة، وخلل بعد إحكام.

ينهانا الله جل ذكره عن الوهن في تتبع المعتدين.. إنها معركة مستمرة في الحياة الدنيا؛ إذ الجهات المعتدية -للأسف- لا تمل من ابتكار الوسائل للاعتداء، وذلك يؤدي إلى خسائر في الجانبين.. كما يشعر أصحاب الحق والخير بالتعب من تبعات الحرب وآلامها، فيوقظهم الله من الغفلة؛ إذ التبعات العظيمة للحرب لا تعني الفتور في مهاجمة المجرمين، فقد يكون ذلك السبيل الوحيد لرد الحقوق إلى أهلها، وحماية

(١) أحمد(٢ / ٣٥٩) برقم ٨٦٩٨، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف.

المجتمع من الأخطار الأمنية، ومنع مخاطر الجرائم الفردية والجماعية.. كأنه يقول: فقد أظهرتم القوة في مواجهة خطر المعتدين حتى جمعتم في ذلك بين الصلاة وبين أخذ السلاح والحذر، فلا يطرأ عليكم الضعف بعد، بل ينبغي أن تواصلوا الهجوم على المعتدين، ولا تفتروا في ابتغائهم، أي: في طلبهم سواء بمطاردتهم في الحروب، أو بالهجوم عليهم في الوقت المناسب ما دام إعلان الحرب قائمًا بينكم، ولا بد أن تبقى استراتيجية أخذ الحذر الأمنية قائمة مفعلة خارج الحروب بأن لا تمكنوا لعملائهم أن يخترقوا حصونكم الأمنية في المجالات الفكرية والثقافية والاقتصادية.

وقوله ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ يدل على معنيين: التحريض على الهجوم، ودفع توهم أن ذكر الصلاة في أثناء الخوف يعني الاشتغال بها عن تبعات الهجوم على قوى الإجرام المتربصة.

فهذه الكلمة ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ تتضمن الإشارة إلى الاستراتيجية العسكرية في حالة المواجهة، والاستراتيجية الأمنية في حال الأمن وعدم المواجهة.. كأنه يقول: احترسوا أن ترخوا زمام أمنكم حال افتراق المعسكرين، فأنتم في حالة حرب، والمراد هنا المبادرة بالغزو وألا يتقاعسوا، ولا يسمحوا للقوى الوثنية القرشية أن تبدأهم بالغزو، وهذه الآية توقت لفصلٍ جديد من فصول السيرة النبوية بعد أن أثبت المسلمون للعالم أنهم لم يبدأوا غيرهم بالعدوان، فلما أبت القوى الوثنية إلا الاعتداء والاستمرار في ذلك غير الله مجرى التاريخ فلا يبقى المسلمون أمام الهجوم الوثني في موقف الدفاع.

وتأخذك النشوة والاعتزاز بهذا الكتاب العظيم الذي يبني فيك الحس الإيماني، والمبادئ العقدية ثم يبني المنظومة العبادية الشعائرية، ثم يبني المنظومة المعاملاتية

من البيع والشراء ووسائل الاستثمار، والتداين الاستثماري والاستهلاكي، ثم يبني المنظومات الاجتماعية في الزواج والنكاح والطلاق والرضاع والنفقات، ثم يبني المنظومات السياسية والإدارة العادلة الراشدة، ثم يبني الحماية لمبادئ العدل والحق والخير من خلال المنظومات العسكرية والأمنية، فلماذا لا تجعله البشرية نورها في واقعها الحيوي؟ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٦٨).

ثم بين الله أن وجود الخسائر والجراح في الصفوف المسلمة يقابله مثل ذلك في صفوف المعتدين ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ (النساء: ١٠٤)، ولكن المسلمين يتسمون بأنهم أصحاب الأهداف العليا ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤) فأصحاب الخير والعدل يتفوقون في النظر إلى أهدافهم العظيمة بإشاعة العدل في الدنيا، وطلب رضا الله في الآخرة، فكأنه يقول لهم: «فَقَدْ فَضَلْتُمُوهُمْ بِقُوَّةِ الوِجْدَانِ، وَجُرْأَةِ الجَنَانِ، وَالثِّقَةِ بِحُسْنِ العَاقِبَةِ، فَأَنْتُمْ إِذَنْ أَجْدَرُ بِالمُهَاجَمَةِ، فَلَا تَهِنُوا بِالتِزَامِ خُطَّةِ المُدَافَعَةِ»[١]، «وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ».. «وهذا هو العزاء العميق. وهذا هو مفرق الطريق»[٢].

ويبين عكرمة صورةً استلهم المسلمون منها هذه الآية في مواجهة الأخطار فيروي عن ابن عباس: لما كان قتال أُحُد، وأصابَ المسلمين ما أصاب، صعد النبيّ ﷺ الجبل، فجاء أبو سفيان فقال: «يا محمد، ألا تخرج؟ ألا تخرج؟ الحرب سِجَال، يوم لنا ويوم لكم». فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أجيبوه. فقالوا: «لا سواء، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». فقال أبو سفيان: «عُزَّى لنا ولا عُزَّى لكم»، فقال

(١) تفسير المنار (٥/ ٣١٧).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٥٠).

رسول الله ﷺ: قولوا له: «الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: «أُعْلُ هُبَل، أُعْل هبل»! فقال رسول الله ﷺ: قولوا له: «الله أعلى وأجل»! فقال أبو سفيان: «موعدنا وموعدكم بدر الصغرى»، ونام المسلمون وبهم الكلوم، وقال عكرمة: وفيها أنزلت: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٠)، وفيهم أنزلت: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١).

القانون الخامس عشر: يجب أن نتذكر أهمية زرع الثقة في النظم التشريعية.. نزرعها فينا وفي أجيالنا ونخبر العالم عنها باعتزاز، فهذه النظم التشريعية صادرة عن علم الله الشامل الذي كان قبل وجود الكون، وعن حكمته المطلقة في ترتيب الأمور والقضايا الحيوية بما لا يستطيعه البشر، فالله الحكيم -عزَّ جارُه- يضع كل شيء في موضعه، حسب الاحتياج البشري، ويُبَصِّرُنا قوله تعالى ذكره: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤).

وقد يوجد عند الإنسان علم دون حكمة، أو توجد عنده حكمة تفتقر إلى العلم، أما الله فهو العليم الحكيم.. ما معنى الحكمة؟ الحكمة وضع الشيء في موضعه، وذلك يقتضي ربط المعلومات بعضها ببعض للوصول إلى نتائج حقيقية وصحيحة، والحكمة في تطبيق هذه المعلومات.

«ولما كان العلم مبنى كل خير، وكانت الحكمة التي هي نهاية العلم وغاية القدرة مجمع الصفات العلى قال تعالى؛ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ أي: الآمر لكم بهذه الأوامر وهو المحيط بكل شيء ﴿عَلِيمًا﴾ أي: بالغ العلم فهو لا يأمر إلا بما يكون بالغ الحسن

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٧٣).

مصلحًا للدين والدنيا ﴿حَكِيمًا﴾ فهو يتقن لمن يأمره الأحوال، ويسدده في المقال والفعال، فمن علم منه خيرًا أراده ورقاه في درج السعادة، ومن علم منه شرًا كاده فنكس مبدأه ومعاده»[١].

فالتشريعات التي شرعها لكم صادرةٌ عن علم كامل وحكمة مطلقة لا يعتريها خلل... فكيف شعوركم أمام مولاكم الذي يتصف بذلك؟ وهذا النابغة يمدح مخلوقًا ضعيفًا فيقول:

فسكنت نفسي بعد ما طار روحها وألبستني نعمى ولست بشاهد
وكنت امرأ لا أمدح الدهر سوقة فلست على خير أتاك بحاسد
سبقت الرجال الباهشين إلى العلا كسبق الجواد اصطاد قبل الطوارد
علوت معدًا نائلا ونكايةً فأنت لغيث الحمد أول رائد

النابغة يحمد مخلوق في صفات معينة موجودة فيه، كيف لا يحمد الكامل في علمه الكامل في حكمته جل في علاه.

فهذه الآيات تبني عدة أهداف في العقل الإنساني:

الهدف الأول: السلام النفسي الذي يبني السلام الخارجي؛ فإن فاقد الشيء لا يعطيه، وهل يقيم السلام الخارجي من لا يستطيع بناء السلام في نفسه، وكيف للمرء أن يجد السلام النفسي الحقيقي دون اتصالٍ مخبتٍ منيب بخالق الكون؟.

الهدف الثاني: الحس الأمني لدى الأفراد والأجهزة الأمنية بصورةٍ مدهشة مثيرةٍ للإعجاب حتى في أوقات الصلاة.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٧).

الهدف الثالث: القيام بأعظم العبادات المحضة وهي الصلاة، وجعلها الزاد الذي يدفع العباد إلى أعظم الرشاد.

الهدف الرابع: الاعتياد على العمل الجماعي الأمني والعبادي، وعدم الترك للعبادات الجماعية حتى في أحلك ظروف الخوف، فحالة الخوف لا تسقط الصلاة، ولا تسقط مبدأ الأمة الواحدة أيضًا.

الهدف الخامس: التوازن بين المتطلبات الأمنية والصلاة، وجعل الصلاة جزءًا من الاستراتيجية الأمنية، وإظهار محاسن الإسلام حيث خفف على أهله الصلاة، ولكن هذا التخفيف لا يعني الترك، وجمع بينها وبين استراتيجية أخذ الحذر، فينبغي ألا يجعلوا الصلاة شاغلةً لهم عن متطلبات سياسة أخذ الحذر.

الصلاة المباركة التي تمثل مصدر الراحة الكبرى للإنسانية لا بد من النظر في كيفيتها لكي لا تكون ثغرة للعدو للإيذاء؛ فـ«الصلاة الكاملة- وما فيها من قيام وركوع وسجود- قد تعوق الضارب في الأرض عن الإفلات من كمين قريب، أو قد تلفت إليه أنظار عدوه فيعرفوه. أو قد تمكن لهم منه وهو راكع أو ساجد فيأخذوه»[١].

ويبين هذا التوازن قول عباد بن بشر الذي كان في كتيبة الاستطلاع للنبي ﷺ في غزوة ذات الرقاع، ورماه العدو بأسهم: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع الرمي، ركعت، فأريتك، وايم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها، أو أنفذها[٢].

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٧).

(٢) أحمد (٣ / ٣٤٣)، برقم: (١٤٧٤٥)، وأبو داود (١/ ٧٧) برقم: (١٩٨)، وحسنه الألباني، والأرناؤوط.

هنا تبدو قيمة الصلاة، وعظمة الصلاة، وكنز الصلاة، ونور الصلاة، فالصلاة أعظم ما يستعين به الإنسان الخائف المتألم من المصائب المجتمعة عليه.. ألم تسمع الله يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ٤٥)، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ١٥٣)، فالصلاة عون على هول الهجرة، وشدائد الحياة، ويعبر النبي ﷺ عن ذلك بالتعبير الفائق المعجز فيقول: «وجعل قرة عيني في الصلاة» [(١)].

فأول ما يلفت النظر الحرص على الصلاة في ساحة المعركة! ولكن هذا طبيعي بل بديهي في الاعتبار الإيماني. إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة. بل إنها السلاح! فلا بد من تنظيم استخدام هذا السلاح، بما يتناسب مع طبيعة المعركة، وجو المعركة! ولقد كان أولئك الرجال- الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني- يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح، فهو جزء من التكوين لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ويشعرون أنه معهم في المعركة[(٢)].

والصلاة ركن الإسلام الذي يجمع معاني الأركان الأربعة الأخرى:

فهي تحوي على قول الشهادتين، وهي إمساك عن الطعام والشراب والكلام، فحوت ركن الصيام وزيادة، وهي إنفاقٌ للوقت الثمين عند الإنسان مهما بلغت قيمته، وإنفاقٌ للمال إذ لا بد من التزام لباسٍ محددٍ يستر العورة، ويظهر الزينة، فحوت ركن الزكاة، وهي قصدٌ لبيت الله المعظم ولكن في المكان الذي فيه الإنسان مع الاستقامة

(١) أحمد(٣/ ١٩٩)، برقم١٣٠٧٩، وحسنه الأرناؤوط، ورواه النسائي٧/ ٦١ برقم٣٩٣٩.

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٨).

على واجبات الإحرام وترك محظوراته في الغالب، فحوت ركن الحج.. إن الصلاة تعبيرٌ مكثفٌ مدهش عن الأركان الأربعة الأخرى، ولذا لا تسقط مهما كان الحال إلا بذهاب العقل بخلاف الأركان الأخرى..

وهنا تعلم لماذا استحقت أن تفرض بكلامٍ مباشرٍ من الله -عزَّ جارُه- إلى عبده محمدٍ ﷺ ليلة المعراج.





محتويات الجزء الثاني

المحور الرابع: التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة (النساء:٤٤-٧٠). ٦٣٧

القسم الأول: التعريف بالصنف القيادي الأول الذي يمنع الإنسانية من حقوقها، ويحارب الإدارة الراشدة، ويحرص علىٰ تدمير البشرية باللغو في الرسالة الإلهية (النساء:٤٤-٤٦). ٦٤٧

القسم الثاني: من أعظم جنايات أهل الضلالة والإضلال في التعدي علىٰ حقوق أنفسهم وعلىٰ سائر البشرية (النساء:٤٧-٥٧). ٦٧٥

القسم الثالث: أسس الإدارة الراشدة التي تضمن أداء الحقوق الإنسانية إلىٰ أصحابها (النساء:٥٨-٥٩). ٧٢٥

القسم الرابع: (قوىٰ النفاق) هم الصنف الثاني الذي يحارب الإدارة الراشدة، ويمنع الإنسانية أن تنال حقوقَها، وتتنعم بما هو خيرٌ وأحسن تأويلًا (النساء:٦٠-٦٥). . ٧٦٢

القسم الخامس: الثمار العظيمة لتطبيق الأوامر الإلهية، وأداء الحقوق الإنسانية وترك تحكيم الطاغوت (النساء:٦٦-٧٠). ٧٨٣

المحور الخامس: التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين (النساء٧١-١٠٤) ٧٩٩

القسم الأول: أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية

لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية (النساء:٧١-٧٣) . ٨٠٩
القسم الثاني: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: استخدام الخيار العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين، و لصناعة حالة (توازن قوىٰ) وجاهزية الردع (النساء:٧٤-٧٦). ٨٣٣
القسم الثالث: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي (النساء:٧٧-٧٩) ٨٥٣
القسم الرابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف (النساء:٨٠-٨٧) ٨٨٢
القسم الخامس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إلقاء السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع المعتدين (النساء:٨٨-٩١)..... ٩٤٦
القسم السادس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة تطبيق السياسة الأمنية (النساء:٩٢-٩٤) ٩٨٣
القسم السابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين علىٰ حراسة الجانب الأمني، والحفاظ علىٰ حقوق المستضعفين (النساء:٩٥-٩٦)..... ١٠٢٢
القسم الثامن: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلىٰ أرضٍ تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي (النساء:٩٧-١٠٠) ١٠٤٠
القسم التاسع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي الصلاة من

أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني، والعبودية الصادقة، والجمع بينها وبين سياسة أخذ الحذر (النساء:١٠١-١٠٤) ١٠٦٤

محتويات الجزء الثاني .....

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث والاخير وأوله :

المحور السادس: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية...



قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

هذا الكتاب

هو (التفسير المفصل) لـ (بصائر المعرفة القرآنية في سورة النساء-التفسير الكلي) أقدّمه لك: لترى وجهًا مذهلًا من أوجه البينة القرآنية المتجددة. سترى بصائر هذه السورة جاءت (برهانًا) على أنها الوحي الحق النازل للخلق، و(نورًا مبينًا) يهدي الإنسانية لتنظيم حياتها، وحل مشاكلها المزمنة المستعصية... وبعد تأمل شارف ست سنوات، وتدبر لدقائق البصائر التي أضاءت بها هذهً السورة على علمائنا وصلتُ إلى أن موضوعها الكلي وعمودها الذي تتمحور حوله: بث الحياة الإنسانية: وتنظيمها الإلهي الحقوقي، وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال...

تقدم السورة انتصارًا مبكرًا، وتقنينًا ربانيًا لبث الحياة الإنسانية، فبصائرها تقسم الحقوق بين البشر بالقسط، وتنقذ المستضعفين خاصة الأطفال والنساء من الظلم الهائل الذي مسهم ويمسهم من الجاهليات القديمة، والمعاصرة.

تزعم المنظمات الدولية، ومؤتمرات المناخ والسكان والتنمية تبني هذه المعاني، لكنها ما زالت تائهة متلاعبة لا تستطيع الوصول إليها بسبب (الشح)، و(البخل) و(أكل الأموال بالباطل) و(عدم أداء الأمانات إلى أهلها)، وضعف الإمكانات العقلية والنفسية البشرية عن تسطير (التشريعات المقسطة) للإنسانية...

بصائر هذه السورة تقدم العلاج الحقيقي لذلك كله..

تكونت السورة من مقدمة، وسبعة محاور، وخاتمة. كل كلمة فيها تجذبك نحو الأخرى في اتصال متتابع، عسى أن يجد القارئ في هذه البصائر بردًا وسلامًا لنفسه الظامئة إلى الحقيقة، وأن يلمس فيها أنوارًا صافية ذات بهجة تحمي من الذين يتبعون الشهوات، وتحرس من الذي يميلون بالعالم ميلًا عظيمًا.

9 789927 154102